برايَن فَيغِن

مختصر تاريخ الأركيولوجيا

علم الآثار والفنون القديمة



ترجمة: أحمد الزبيدي



دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع










مكتبة | سُر مَن قرأ

برَايَن فَيغِن

مختصر تاريخ الأركيولوجيا

إنها القصة المثيرة عن مغامرة علم الآثار حول العالم.

يخطر ببالنا عندما نفكر في علم الآثار، عمليات تنقيب وبحث عن كنوز مفقودة، ودهاليز وأنفاق في مقابر فرعونية، أو اكتشاف لجمجمة إنسان نياندرتال. ولكن علم الآثار يشكل أكثر من ذلك. فهو علم بني على حب اكتشاف من سبقونا. إنه بحث عن المعلومات والأدلة، بالإضافة إلى الأشياء الثمينة. فهو يمتدّ عبر تاريخ البشرية، لأكثر من ثلاثة ملايين سنة.

مختصر تاريخ الأركيولوجيا يروي لنا حكايات عظماء الآثاريين واكتشافاتهم الرائعة حول العالم، بدءًا من فنون كهوف العصر الجليدي، ومرورًا بأطلال المايا، ثم المستعمرات الأولى في جيمستاون، وأحجار ماستيريوس الغامضة، ومدينة بومباي التي دفنها رماد بركان عام ٧٩ بعد الميلاد.

باختصار، يصور برَايَن فَيغِن في فصول هذا الكتاب، تطور علم الآثار من بداية بزوغه في القرن الثامن عشر إلى يومنا هذا المتطور تكنولوجيًا. لنرى كيف أن فهمنا تطور أكثر بواسطة الثورات العلمية في هذا المجال، مثل تقنيات الاستشعار عن بعد والتصوير بالأقمار الصناعية.

هذا الكتاب هو للقراء الجادين من مختلف الأعمار، إذ يلقي فَيغِن الضوء على الاكتشافات، والمناهج، والشخصيات العظيمة التي صنعت لنا هذا البحث الشامل، الذي يعرف بعلم الآثار.

مكتبة | سُر مَن قرأ

مختصر تاريخ الأركيولوجيا

برَايِن فَايغِن

مكتبة | سُر مَن قرأ

مختصر تاريخ الأركيولوجيا

علم الآثار والفنون القديمة

#925

ترجمة

أحمد الزبيدي







اسم الكتاب: مختصر تاريخ الأركيولوجيا

اسم المؤلف: برَاين فَايغِن

ترجمة: أحمد الزبيدي

الطبعة الأولى 1440هـ/ 2019م

عدد الصفحات: 464 صفحة

الناشر: دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع. العراق - بغداد

الرقم الدولي: ISBN: 978-9922-601-30-4





العراق - بغداد - المنصور
darmanairaq@gmail.com

العراق - بغداد - شارع المتنبي
07819141219 | 07702931543
darktbalmya@yahoo.com

المحتويات

الفصل الأول



الفضول لمعرفة الماضي

في الرابع والعشرين من آب سنة 79 ميلادية، كان جبل فيزوف في إيطاليا اشبه بمدفع عملاق. تتصاعد منه نافورة هائلة من الرماد، والحمم الحمراء الساخنة، والصخور، والدخان. تحول ضوء النهار إِلى ظلام دامس. والرماد بات يسقط مثل حبات الثلج الكثيفة، ويغطي المدن القريبة مثل هركولانيوم، وبومبي.

وعند منتصف الليل تقريبا، انزلق سيلان من الغازات الطينية، والوحل، والصخور أسفل المنحدرات الجبلية، وانساب عبر البلدتين الرومانيتين.

اختفت هركولانيوم تماما. أسقف المباني الكبيرة، فحسب، في بومبي ظلت شاخصة، وسط الحطام الذي خلفه البركان. لقيَ المئات من الناس حتفهم. وكتب أحد شهود العيان، وهو

المؤلف بلينيوس الأصغر: «كان بوسعك سماع صراخ النساء، ونحيب الرُّضَّع، وصياح الرجال» ثُمَّ خيم الصمت.

بعد فترة وجيزة كانت هناك تلة عشبية كبيرة تمثل موقع مدينة بومبي.

مر أكثر من ستة عشر قرنًا دون أن يقوم شخص ما، فيُقلِق راحةَ تلكما المدينتين المدفونتين. ثُمَّ، في العام 1709، عندما كان أحد الفلاحين يحفر بئرا في قمة مدينة هركولانيوم، وحدث ان اكتشف بعض الرخام المنحوت. أرسل أمير المدينة عددا من العمال ليقوموا بالحفر تحت الأرض، وتمكنوا من العثور على ثلاثة تماثيل سليمة لنساء رومانيات. هذا الاكتشاف الذي جاء بمحض الصدفة أدى إلى اكتشاف كنز الصيد في قلب المدينة المدفونة. ومن هذه الغنيمة من القطع الاثرية الرومانية المدفونة في أعماق الرماد البركاني التي عُثِر عليها بمحض الصدفة، ظهر علم الآثار.

ما يزال الكثير من الناس يعدّون علماء الآثار مغامرين رومانسيين يقضون حياتهم في الحفر في الأهرام، والمدن المفقودة بحثا عن الفراعنة المثقلين بالذهب، والحضارات المجهولة، والمغامرات البطولية في الأراضي البعيدة، علم الآثار، اليوم، أوسع بكثير من مجرد تلك الرحلات الخطرة، والاكتشافات المذهلة. ربما يكون قد بدأ مع البحث عن الكنوز، وللأسف، ما يزال نهب المواقع الاثرية مستمرا حَتَّى اليوم، جنبًا إلى جنب مع أنشطة علم الآثار الجادة. لكن البحث عن الكنوز الأثرية

ليس هو الوصف المناسب لنشاط هذا العلم: فعمليات الحفر التي تجري عند البحث عن الكنوز الأثرية تتم بشكل متسرع، أهوج وليس لها سوى هدف واحد، هو الكشف عن أشياء ثمينة، لبيعها لجامعي التحف من الموسرين. وهذا، الهدف، على النقيض من أهداف علم الآثار، الذي يهتم بالدراسة العلمية للماضي، والسلوك البشري في فترة تمتد أكثر من ثلاثة ملايين سنة.

كيف تطور علم الآثار من عمليات البحث، والتنقيب غير المنضبطة، سعيا وراء لُقىً أثريةٍ مذهلة، وشعوبٍ منسية، إِلى السعي الجاد للبحث في الماضي، كما هو حاله اليوم؟ يروي هذا الكتاب قصة علم الآثار من خلال إلقاء نظرة على الأعمال، والنشاطات التي قام بها بعض من أشهر علماء الآثار، بدءًا من أولئك المكتشفين البسطاء للمواقع الأثرية الذين عملوا قبل أربعة قرون، إلى فرق الأبحاث المشتركة التي تعمل في القرن الواحد والعشرين. كان العديد من علماء الآثار الرائدين أشخاصا مفعمين بالحيوية، أمضوا شهورا يعملون بمفردهم في مناطق بعيدة. وكان لدى كل منهم في فترة ما من حياته، سحرٌ خاصّ به نحو الماضي. أحد العلماء الأوائل وصف علم الآثار بأنه (الفضول لمعرفة الماضي). لقد كان على حق، فعلم الآثار هو الفضول لمعرفة كيف كان ماضينا.

كانت تجربتي الأولى مع علم الآثار، عندما كنت مراهقًا، فقد أخذني والدي في يوم ممطر إلى موقع ستونهنج الأثري (يضم هذا الموقع مجموعة نصب حجرية ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ،

تحديدًا إلى أواخر العصر الحجري، وأوائل العصر البرونزي. وهذا الأثر، رغم شهرته فإنه، حاليًا، عبارة عن أطلال) الذي يقع في جنوب إنكلترا (انظر الفصل 38). كانت دوائر الحجر الضخمة تعلو رؤوسنا، في حين كانت هناك سحب ذوات ارتفاع منخفض، رمادية اللون، تتحرك في السماء لتشكل منظرا مظلما، كئيبا. سرنا بين دوائر الحجارة (كان يمكن للمرء ان يفعل ذلك في تلك الأيام)، ونظرت إلى تلال المدافن الصامتة المتكومة على الحافات القريبة. تملّكني سحرُ (ستونهنج)، واصبحت مفتونا بعلم الآثار مُنْذُ تلك اللحظة.

بات يتملكني الفضول حول رجل إنكليزي يدعى جون أوبري (1626 – 1697)، كان يزور ستونهنج، مراتٍ عديدة، واكتشف في العام 1649 دائرة حجرية مثيرة أخرى في قرية أفيبري القريبة، (يعود تاريخ هذا البناء إِلى العصر البرونزي، ويرمز إلى أحد المعابد المكشوفة الكبرى في أوروبا، ففيه دائرة من الحجارة تُعدّ أكبر دائرة حجرية عرفت حتي الآن، وتقع في داخله قرية أفيبري)، عندما كان على فرسه يمارس رياضة صيد الثعالب. حاول أوبري كثيرا ان يفهم اسرار موقعي أفيبري، وستونهنج، وكان يقال ان كليهما قد بُني على يد البريطونيون (وهم عرقية قديمة تواجدت في جزيرة بريطانيا، وبحسب الباحثين، كانوا أول من سكن هذا الجزيرة، ويعود تواجدهم هناك إلى العصر الحديدي البريطاني ما بين سنة 1200 – 500ق.م. م). فبدأ يتساءل، هل يكونون أولئك الناس المتوحشين الذين يرتدون

الجلود؟ افترض أوبري انهم أولئك، بالفعل، وانهم كانوا (أقل همجية بدرجة، أو درجتين من سكان أمريكا الأصليين).

كان أوبري، ومن جاء بعده من الباحثين، يعرفون القليل عن ماضي أوروبا قبل عصر الرومان. ومن المؤكد، كانت هناك أكوام مدافن، ودوائر حجرية، ومعالم أثرية يمكن تفحصها؛ وكانت هناك، أيضًا، الأدوات الحجرية، والأواني الفخارية، والمعدنية التي تثير الحيرة، والارتباك كلّما كانت تظهر في اثناء حراثة الحقول، والحفر العرضي للخنادق البدائية التي كانت تحتويها تلال المدافن (انظر الفصل 9). لكن كل هذه الاشياء كانت تعود إلى اقوام غير معروفة تماما – وليس كما هو الحال مع الرومان الذين سكنوا مدينة مثل بومبي، ودفنوا في تاريخ محدد تم تسجيله في الوثائق التاريخية.

في العام 1748. بدأت أعمال الحفر الجادة في هركولانيوم (مدينة رومانية قديمة، تقع في جنوب إيطاليا بالقرب من مدينة بومبي الأثرية) حَيْثُ قام كارلو الثاني ملك نابولي بتكليف المهندس الإسباني روكي خواكين دي ألكوبيير بالقيام بأعمال حفر، وتنقيب في أعماق المدينة. استخدم الكوبير البارود، وعمال المناجم المحترفين في القيام بأعمال التفجير، وشق الأنفاق عبر رماد البراكين، للكشف عن المباني السليمة، والتماثيل الثمينة. عرض الملك المكتشفات في قصره، لكن مع ذلك، كانت أعمال الحفر والتنقيب تُعدّ من اسرار الدولة.

كان العالم الألماني، يوهان يواخيم فينكلمان (1717 – 1768) أول من قام ببحوث علمية في علم الاثار. في 1755، أصبح أمينا لمكتبة الفاتيكان بعد ان تدرب على يد الكاردينال اليساندرو ألباني في روما، (الامر الذي تطلب منه أن يعتنق الكاثوليكية، ما أثار الرعب لدى أصدقائه البروتستانت). وهذا مكنه من الحصول على الكتب، والتعرف على القطع الاثرية التي عثر عليها المهندس الاسباني الكوبيير. انقضت سبع سنوات قبل أن يتمكن فينكلمان من زيارة مواقع الحفريات السرية. وبحلول ذلك الوقت، اصبح يملك معلومات ليس لها مثيل عن الفن الروماني – تفوق معلومات معاصريه، وتشبه إِلى حد بعيد تلك التي يمتلكها علماء الآثار في الوقت الحاضر. كان، هو، الباحث الأول الذي يدرس الحقائق عن المدن في مواقعها الأصلية.

وأشار وينكلمان إلى أن تلك القطع الاثرية كانت مصادر مهمة للمعلومات عن مالكيها، وحول الحياة اليومية في العصر الروماني – وحول حياة الشعوب في الماضي. وكانت هذه فكرة ثورية في عصر اتسم بعمليات النهب غير المسيطر عليها، لسوء الحظ، لم يكن باستطاعة فينكلمان أن يختبر نظرياته في خلال اشتغاله في عمليات الحفر والتنقيب: فقد قُتل على أيدي لصوص سرقوا منه بعض العملات الذهبية في أثناء انتظاره إحدى السفن في تريستي (مدينة وميناء في شمال شرق إيطاليا قرب الحدود مع سلوفينيا) عام 1768. كان هذا العالم البارز أول من وضع مبدأ أساسيًا في علم الآثار: كل القطع الأثرية، مهما كانت بسيطة، لديها

حكاية ترويها. أحيانا تكون هناك قصص غير عادية. ذات مرة زرت قرية مهجورة في وسط إفريقيا يرجع تاريخها إلى خمسينيات القرن التاسع عشر. كان الموقع خليطًا من حظائر أبقار متداعية، وأحجار طحن، وبقايا قدور متفحمة. بدا لي أنه لا يوجد شيء ذو أهمية كبيرة. ثُمَّ التقطت فأسا حجرية عمرها 500 ألف عام كانت مرمية وسط الفخار. أدركت في الحال أن الفأس يجب أن تكون قد حُملت إلى القرية من مكان آخر، لأنه لم تكن هناك أدوات حجرية أخرى، أو علامات على سكن أول انواع البشر البدائي في ذلك المكان.

ربما كانت هذه، هي، المرة الأولى التي أتعامل فيها مع أدوات تعود إِلى الماضي بمثل طريقة رواة القصص. فقد تخيلت شخصا قرويًا، ربما كان طفلاً، التقط هذه الفأس المصنوعة بشكل جميل من بين حصى النهر على بعد حوالي 8 كيلومترات، وحملها إلى داره. وعندما وصل، نظر الناس إلى الفأس، وتجاهلوها، ورموها بعيدا. وربما تذكر قرويٌّ مسنّ انه شاهد في شبابه، فأسا تشبهها، وهكذا احتفظ بها سنوات عدة. لقد جرت أحداث قصة هنا؛ لكن للأسف، اختفت معالمها مُنْذُ فترة طويلة. ولم تبقَ سوى الفأس الحجرية فحسب.

تبدأ قصة علم الآثار مع مشاعر الفضول التي استحوذت على تفكير عدد من ملاك الأراضي، وعشاق السفر. غالبا ما كان الأوروبيون الأثرياء الذين يتذوقون الفن الكلاسيكي يقومون بما يسمى بـ (الجولة الكبرى) في أراضي البحر الأبيض المتوسط.

ويعودون إِلى ديارهم محملين بأعمال فنية رومانية، وأحيانا إغريقية. بدأ ملاك الأراضي ممن يقيمون فترة من الزمن في أملاكهم بالقيام بأعمال الحفر في اكوام التراب (التلال المدفونة) الموجودة ضمن حدود ممتلكاتهم. وكانوا عندما يعودون إِلى أوطانهم، يعرضون، في حفلات العشاء بفخر، (اللقى الآثرية التي يبلغ عمرها 2000 سنة). كان من يقومون بأعمال الحفر أشخاصًا هواة، لم يتلقوا أي تدريب في علم الأثار على الإطلاق؛ أسلافهم كانوا من جامعي الآثار، (أشخاصا مهتمين بالماضي البعيد)، مثل جون أوبري، الذي كان محتارا بشأن تاريخ موقع ستونهنج الآثري.

وُلد علم الآثار قبل حوالي 250 سنة، في وقت كان معظم الناس يؤمنون بقصة الخلق التي وردت في الكتاب المقدس. ثُمَّ بدأت الحفريات الأثرية واسعة النطاق عندما بدأ الدبلوماسي الفرنسي بول إميل بوتا، والمغامر الإنكليزي أوستن هنري لايارد بالبحث عن مدينة نينوى التي ذكرت في التوراة، وعثرا عليها في شمال العراق. لم يكن أوستن هنري خبيرا في التنقيب. فحفر نفقا في التلال العالية التي كانت موجودة في نينوى، وتابع الحفر في الجدران المنحوتة في قصر الملك الآشوري سنحاريب، وقام بأعمال حفر إِلى مستويات عميقة تحت سطح الأرض بحثا عن اكتشافات مذهلة للمتحف البريطاني. حَتَّى إنّه اكتشف الأُخاديد التي تركتها عجلات العربات في ألواح الحجر الجيري عند بوابات القصر.

كانت أسماء مثل لايارد، وجون لويد ستيفنس، وهينريش شليمان، وكثيرين غيرهم: تمثل مجموعة من الهواة الذين يشار إليهم بالبنان، فقد استطاعوا اكتشاف أولى الحضارات في العالم، التي سنقدم لها وصفا في الفصول التالية. كان هناك هواة آخرون أيضًا - أشخاص تفحصوا فؤوسا حجرية، وعظام حيوانات منقرضة، ودققوا في الجمجمة بدائية المظهر لإنسان النياندرتال. وأثبتوا أن الماضي البشري يمتد إلى ما يزيد على 6000 سنة (الرقم الذي تم حسابه من قبل الكنيسة المسيحية نقلا عن الكتاب المقدس - انظر الفصل 7). كان علماء الآثار المحترفون مجهولين تقريبا حَتَّى أواخر القرن التاسع عشر. وبالفعل، بقي عدد علماء الآثار المحترفين في جميع أنحاء العالم لا يتجاوز المئات لغاية السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية.

تتمحور موضوعات علم الآثار حول حياة البشر. وليس هناك من اكتشاف أثري دلل على ذلك أكثر من الافتتاح الشهير لمقبرة الفرعون المصري توت عنخ آمون على يد اللورد كارنارفون، وهوارد كارتر في عام 1922. أثمرت عمليات المسح الدؤوب التي قام بها كارتر للمقبرة عن رسم صورة فريدة من نوعها لشخص شاب عاش قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة. استغرق الأمر ثماني سنوات من كارتر لاستكمال العمل، ومات قبل أن ينشره. ومُنْذُ ذلك الحين بدأ الخبراء بدراسة حياة هذا الفرعون الذي لم يكن معروفا كثيرا.

وهناك قصة اكثر بساطة حدثت نتيجة عملية لإزالة الرمال عن مواضع أثرية بالقرب من منطقة مير في، بلجيكا، فقد حدث ان قامت مجموعة صغيرة من الصيادين بالتخييم هناك في سنة 7000 قبل الميلاد. وسار أحد افراد المجموعة إلى صخرة قريبة، وجلس، وبدأ بصنع بعض الأدوات الحجرية باستخدام قطعة من الصوان التي أحضرها (أو احضرتها) معه. بعد وقت قصير، انضم شخص ثان إليه وقام بصنع بعض الأدوات أيضًا. جمع عالم الآثار البلجيكي دانييل كاهن بعناية بقايا الرقائق المتخلفة عن صناعة تلك الأدوات. وقد أوضح اتجاه ضربات المطرقة تفصيلاً مثيرا للغاية: فقد كان عامل الحجارة الثاني أعسرَ.

لا تقتصر الابحاث العلمية في علم الآثار الحديث على العثور على المواقع الاثرية، والقيام بالحفريات فيها، إذ يتم القيام بها في المختبرات بنفس القدر الذي تجري فيه في المواقع الاثرية. لقد أصبح علماء الاثار بمثابة محققين يلتقطون الادلة من جميع أنواع الأشياء متناهية الصغر من العديد من المصادر، حَتَّى وان كان الحصول منها على ادلة غالبا ما يكون أمرا مستبعدا، لغرض دراسة احوال الناس الذين عاشوا في الماضي – سواء أكانوا أفرادًا مثل فرعون مصري، أم مجتمعا بأكمله. وكما سنرى، فان علم الآثار بدأ في أوروبا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط. واصبح منتشرا الآن في جميع انحاء العالم. فهناك اليوم علماء للآثار يعملون في إفريقيا، ومنغوليا، وباتاغونيا (منطقة طبيعية في جنوب الأرجنتين وشيلي) وأستراليا. وأصبحت عمليات التنقيب البدائية التي

كانت تجرى مُنْذُ قرن من الزمان تحت السيطرة الكاملة ويخطط لها بعناية. اليوم، بتنا لا نركز على المواقع الفردية فحسب، بل على جميع المواقع الطبيعية القديمة. ونحن نعتمد بشدة على تقنيات الاستشعار عن بعد، باستخدام أشعة الليزر، وصور الأقمار الصناعية، والرادار الذي يخترق الأرض للعثور على المواقع، والتخطيط لعمليات تنقيب محددة للغاية. ونتحرك ضمن حدود بقعة من الأرض في خلال شهر واحد مساحتها اقل من مساحة المواقع التي كانت تتحرك فيها العديد من أعمال التنقيب في الماضي في يوم واحد. وبالتعاون مع الباحثين المحترفين، حقق علماء الآثار الهواة الذين يعملون مع أجهزة الكشف عن المعادن اكتشافات رائعة في إنكلترا. وشملت هذه الاكتشافات العثور على مجموعة آثار تتكون من 3500 قطعة من الذهب والفضة الأنغلوساكسوني عثر عليها في مقاطعة ستافوردشاير في وسط إنكلترا، ويعود تاريخها إلى حوالي سنة 700 ميلادية. هذا هو علم الآثار الحديث القائم على اسس علمية، الذي يقوم بعمليات المسح والتنقيب بحثا عن المعلومات، وليس بحثا عن الكنوز الاثرية فحسب.

لماذا يعد علم الآثار مهما؟ إنه يمثل الطريقة الوحيدة التي نمتلكها لدراسة التغييرات التي شهدتها المجتمعات البشرية على مدى فترات طويلة للغاية من الزمن، على مدى مئات أو آلاف السنين. فنحن نضيف من خلاله تفاصيل رائعة إلى التاريخ المكتوب، مثل الموجودات التي عثر عليها في مستودع

نفايات مصنع للصلصة في القرن التاسع عشر، تم اكتشافه في أثناء التنقيب في وسط لندن. لكن معظم أعمالنا تهتم بتاريخ البشرية قبل الكتابة – أي عصور ما قبل التاريخ. فقد كشف علماء الآثار عن الماضي غير المكتوب للمجتمعات الأفريقية التي ازدهرت قبل وصول الأوروبيين بوقت طويل. نحن نقوم بتتبع آثار أول من سكن في جزر المحيط الهادئ النائية، ودراسة أول مستوطنة ظهرت في الأمريكتين. وفي بعض البلدان مثل كينيا، نكتب تاريخَ الامة غير المسجَّل باستخدام المجرفة.

والاهم من كل ذلك، إن علم الآثار يحدد معالمنا كبشر. فهو يكشف عن أصولنا المشتركة في إفريقيا، ويظهر الطرق التي نختلف بها ونتشابه. نحن ندرس الناس في كل مكان، بكل تنوعهم المثير. موضوع علم الآثار هو الناس.

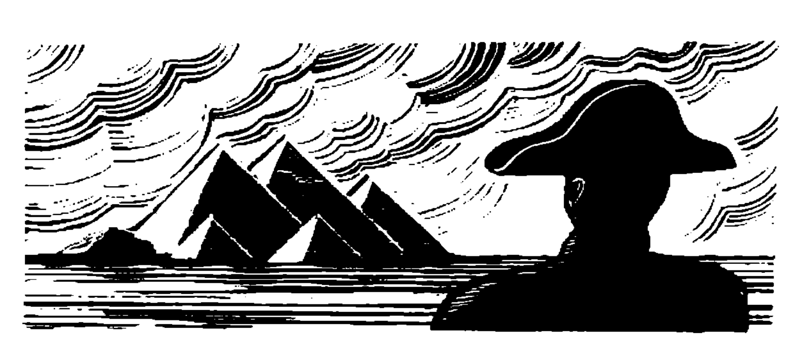
يعد تطوير علم الآثار واحدا من الإنجازات العلمية العظيمة في القرنين التاسع عشر والعشرين. عندما بدأت قصة علم الآثار، كان الجميع يعتقد أن البشر ظهروا على الأرض مُنْذُ ستة آلاف سنة فقط. أما الآن فان التاريخ يشير إلى ثلاثة ملايين سنة، وقد يكون الرقم اكبر من ذلك بكثير. لكن بالنسبة لجميع الأبحاث الجادة، ما زلنا نتعجب من الاكتشافات الأثرية المذهلة، غير المتوقعة في كثير من الأحيان، التي تجعل الماضي شيئا حيًا. فقد تم اكتشاف تماثيل طينية بعدد جنود أحد افواج حراسة إمبراطور صيني يدعى شي هوانغ في اثناء حفر إحدى الابار (الفصل 31)؛ ودمرت قرية عمرها 3000 سنة في شرق إنكلترا بسبب اندلاع

حريق فيها، وحدث الامر بسرعة كبيرة إِلى حد انه تم العثور على بقايا طعام غير مأكول في إحدى القدور (الفصل 40)؛ أو اكتشاف أن هناك شخصا، أو اكثر أعسر اليد ضمن البشر الذين عاشوا قبل عشرين مليون سنة. هذه هي الاكتشافات التي تنعشنا - وما زلنا نقوم باكتشافات جديدة في كل يوم.

وهكذا، فإن الممثلين صعدوا على خشبة المسرح، والستارة على وشك ان ترفع. فلندع المسرحية التاريخية تبدأ!



الفصل الثاني



الفراعنة والحمير

ينسى الناس أن مصر كانت قبل 200 عام أرضًا نائية، لا يُعرَف عنها إلّا القليل، فالفراعنة، ومقابرهم، وأهراماتهم صارت امورا مألوفة للجميع في وقتنا الحاضر. في العام 1798، عندما وصل الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت إلى النيل، كان الأمر أشبه بزيارة كوكب آخر. مصر كانت بعيدة جدا عن مسارات الطرق المعروفة. وكانت إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية (التركية) التي كان مقرها في القسطنطينية (إسطنبول حاليا)؛ وكانت دولة إسلامية، يصعب الوصول إليها.

تجول عدد قليل من الزوار الأوروبيين في أسواق القاهرة المزدحمة، أو زاروا أهرامات الجيزة المجاورة. وسافر نفر قليل من المسافرين الفرنسيين بعيدا إلى نهر النيل. (أنا أمتلك في الواقع

خريطة دقيقة بشكل ملحوظ لمصر رسمها روبرت دي فوغوندي، الجغرافي الملكي في فرنسا، في العام 1753) اشترى بعض الزوار مسحوق المومياء المصرية القديمة - الذي كان يعدّ علاجًا فعالاً لبعض الامراض، حَتَّى من قبل ملك فرنسا. ووصلت بعض التماثيل المصرية القديمة إلى أوروبا، حَيْثُ أثارت ضجة كبيرة.

لم يكن أحد يعرف أي شيء عن مصر القديمة، وآثارها المدهشة، على الرغم من الاعتراف بها مُنْذُ فترة طويلة كمركز لأولى الحضارات في العالم. أدرك عدد قليل من الدبلوماسيين أنهم سيحصلون على المال من اقتناء أعمالها الفنية الغريبة، لكن المسافة البعيدة التي تفصلهم عن البلد كانت تقف عائقا في وجههم - حَتَّى انتقلت مصر إلى مركز الصدارة في تسعينيات القرن الثامن عشر. كان برزخ السويس (هو شريط ضيق من الأرض بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، يصل ما بين قارتي إفريقيا وآسيا. ويقع البرزخ في مصر، ويضم قناة السويس الواصلة بين البحرين الأحمر، والمتوسط. ومثل العديد من البرازخ، لبرزخ السويس أهمية إستراتيجية كبيرة)، (لم يتم افتتاح قناة السويس إلّا في عام 1869)، المدخل الطبيعي لأولئك الذين كانوا يتطلعون إِلى الممتلكات البريطانية في الهند.

في العام 1797، انتصر نابليون بونابرت البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما على إيطاليا، وكان حينها يتذوق الفن الكلاسيكي. كان عقله الذي لا يهدأ مليئًا برؤى الغزو العسكري، وكان في داخله فضول شديد تجاه أرض الفراعنة. في الأول من

تموز العام 1798، وصل جيشه المكون من ثمانية وثلاثين ألف رجل إلى مصر على متن 328 سفينة. وكان من بينهم 167 عالما تم تكليفهم بمهمة رسم خرائط مصر، ودراسة احوالها في الماضي، والحاضر.

كان نابليون شغوفًا بالعلوم، وخاصةً علم الآثار. وكان العلماء الذين جلبهم معه من الشبان الموهوبين - فيهم الخبراء الزراعيون، والفنانون، وعلماء النبات (خبراء في المحاصيل النباتية)، والمهندسون. لكن لم يكن فيهم علماء آثار، ولم يكن علم المصريات المختص بدراسة الحضارة المصرية القديمة قد ظهر إِلى الوجود حينها. وأطلق جنود نابليون على العلماء اسم الحمير - لأنه، كما كان يقال، وقتها، سيتم في خلال المعركة، وضع كل من الحمير، والعلماء في وسط مجموعات المشاة. كان قائدهم هو البارون دومينيك فيفانت دينون، وهو دبلوماسي وفنان موهوب. وقد كان قائدا مثاليا، ومن خلال رسوماته الجميلة، وكتاباته الممتازة، وحماسته المعدية تمكن من ان يجعل لمصر، مصر القديمة موقعا في الخريطة العلمية للعالم.

كان نابليون، نفسه، منشغلاً بإعادة تنظيم الحياة في مصر، ومع ذلك استقطع جزءًا من وقته لزيارة الأهرامات وأبي الهول، وهو تمثال لمخلوق أسطوري له رأس إنسان وجسم أسد. وكان يهتم بالعلوم بشكل جدي، تميز بتأسيسه معهد مصر في القاهرة. وكان يحضر المحاضرات، والندوات التي تعقد فيه، ويتابع نشاطات (حميره). وقد انبهر كثيرا عندما عثر الجنود الفرنسيون

الذين كانوا يقومون ببناء حصون دفاعية بالقرب من مدينة رشيد في دلتا النيل في مصر في حزيران العام 1799، على حجر غامض بين كومة من الصخور. كانت عليه ثلاثة نصوص: النص العلوي هو اللغة المصرية القديمة، الهيروغليفية المصرية، والجزء الأوسط نص الديموطيقية، والجزء الأدنى اليونانية القديمة، واحدة كانت تمثل نصا رسميا مصريا قديما. اثبت هذا الحجر أنه سيكون المفتاح لفك ألغاز الشفرات الغريبة التي شاهدها الفرنسيون، وهي تغطي جدران المعابد، والمقابر على طول نهر النيل.

أرسل الجنود ما أصبح يعرف باسم حجر رشيد إلى العلماء في القاهرة، الذين سرعان ما ترجموا النص المكتوب باللغة اليونانية، الذي كان عبارة عن مرسوم ملكي صادر عن الفرعون بطليموس الخامس في العام 196ق.م. لم يتضمن المرسوم أي شيء مثير، لكن الخبراء أدركوا على الفور أن تلك الخطوط اليونانية يمكن أن تكون المفتاح لفهم الكتابة الهيروغليفية غير المفهومة، وكلمة الهيروغليفية مأخوذة من الكلمة اليونانية، التي تعني (النقش المقدس) التي استخدمها المصريون القدماء. سيستغرق الامر ثلاثًا وعشرين سنة قبل التمكن من حل شفرة الكتابة الهيروغليفية (انظر الفصل 3). في تلك الاثناء، جاب العلماء جميع أنحاء البلاد على شكل مجموعات صغيرة. وكانوا يرافقون الجيش، ويشاركون، أحيانا، في القتال إلى جانب جنود المشاة. وكان المؤرخ فيفيان دينون، وزملاؤه يعملون وسط نيران المعارك. وفي معبد الإلهة حتحور في دندرة في صعيد مصر، تجول

دينون بين أعمدة المعبد دون ان ينتبه إِلى غروب الشمس وحلول الظلام، إِلى ان اعاده قائد وحدته إلى معسكرات الجيش. كان حماس دينون معديًا. فقد جعل زملاءه من المهندسين يتخلون عن أعمالهم لينشغلوا برسم تخطيطات للمعابد، والمقابر، ونهب القطع الاثرية الصغيرة. وبعدما يستهلكون أقلام الرصاص، كانوا يصنعون اقلاما من الرصاص المنصهر. كان اسلوب البناء في معابد مصر القديمة غريبًا، ومختلفًا تماما عن أسلوب بناء المعابد اليونانية، أو الرومانية. حَتَّى المباني البسيطة الخاصة كانت تثير الإعجاب. وعندما لمح الجيش معابد إله الشمس آمون في الكرنك، والأقصر في صعيد مصر، شكل الجنود صفوفا، وقاموا بأداء التحية لها بينما عزفت الموسيقى تكريما للمصريين القدماء.

قد يكون نابليون عبقريًا عسكريًا، لكن حملته العسكرية في مصر انتهت بالهزيمة عندما استطاع قائد البحرية البريطانية الأدميرال هوراشيو نيلسون تدمير الأسطول الفرنسي في خليج ابوقير، بالقرب من الإسكندرية، في الأول من آب العام 1798. بعدها هرب نابليون إلى فرنسا.

عندما استسلم الجيش الفرنسي عام 1801، تم منح العلماء ممرًا آمنًا للعودة إلى ديارهم. سمح لهم البريطانيون بالاحتفاظ بمعظم ما عثروا عليه من الآثار المصرية، لكنهم أصروا على ضرورة ان ينقل حجر رشيد إلى المتحف البريطاني.

وعلى الرغم من ان حملة نابليون على مصر قد فشلت عسكريا، إلّا أنها كانت انتصارا علميا. كشف (حمير) الجنرال نابليون عن

ممرات أهرامات الجيزة، ووصلوا إِلى رأس أبي الهول. وإِلى جانب رسوماتهم لنهر النيل، قاموا أيضًا، برسم التصميمات الداخلية للمعابد المصرية الكبيرة في الكرنك، والأقصر، وجزيرة فيلة، بعيدا عند اعالي النهر. اثبتت رسومات الأعمدة العظيمة مع حروفها الهيروغليفية وجدران المعبد التي تحوي رسوم الآلهة، والفراعنة انها دقيقة بشكل ملحوظ حَتَّى يومنا هذا. وقد تضمنها كتاب (وصف مصر) بأجزائه العشرين التي احتوت على رسوم وصور لما يعرف بالجعران (وهي الخنفساء المقدسة)، والجواهر، والتماثيل، والأواني الأنيقة، والحلي الذهبية. وقد اعادت الخطوط الدقيقة، واللون المستخدم بمهارة، الحياة إِلى الفن، والمعمار المصري الغريب. تسبب الكتاب في إحداث ضجة كبيرة، عندما رأى الناس ما تملكه مصر القديمة من ثروات، فهرعوا بشدة نحو الاستيلاء عليها.

أطلقت تلك الضجة العنان لتدافع محموم على الآثار المصرية في أوروبا التي كانت متعطشة لأي شيء غريب. وصار من المحتم، ان يتدفق بشكل مستمر جامعو التحف، والدبلوماسيون، والشخصيات المشبوهة إِلى النيل بحثا عن اكتشافات قيمة. لم يكن أحد يبحث عن المعرفة – لم يكن الغرض سوى العثور على كنوز اثرية مذهلة يمكن بيعها بسعر مرتفع. وتراجعت الأبحاث الجادة، مثل تلك التي قام بها علماء نابليون إِلى المرتبة الثانية في الاهمية قياسا بنشاطات الباحثين عن الكنوز.

وظلت مصر جزءًا من الإمبراطورية العثمانية وكان يحكمها الوالي محمد علي، وهو جندي ألباني خدم في الجيش التركي. فعل الكثير لفتح ابواب مملكته امام التجار والدبلوماسيين - وكذلك امام السياح، وتجار الآثار. كان هناك الكثير من المال الذي يمكن الحصول عليه من بيع المومياوات المحفوظة جيدًا، والأعمال الفنية الجميلة - لدرجة أن الحكومات بدأت تشترك في أعمال البحث عن الاثار وجمعها. واشتدت الرغبة لدى كل من هنري سولت وبرناردينو دروفتي، وهما من كبار الدبلوماسيين البريطانيين والفرنسيين في القاهرة، في جمع المقتنيات الاثرية الرائعة ونقلها إلى متاحف بلديهما. وفعلا ذلك بحماس شديد - الامر الذي يفسر كيف أصبح شخصٌ كان يؤدي دور الرجل الخارق في السيرك، وتحول فيما بعد إِلى لص مقابر، واحدا من مؤسسي علم المصريات.

ولد جيوفاني باتيستا بيلزوني (1778 - 1823) في مدينة بادوفا، في إيطاليا، وهو ابن لحلاق. كسب لقمة العيش بالعمل كبهلوان، وطاف بعروضه جميع أنحاء أوروبا. وفي العام 1803، وصل إلى إنكلترا، حَيْثُ حصل على عقد لتأدية دور الرجل الخارق في السيرك الذي كان يقدم عروضه على خشبة مسرح سادلرز ويلز في مدينة لندن، الذي كان في حينها قاعة موسيقية يرتادها العامة. كان بيلزوني شخصية مهيبة، ورائعة. كان طوله يبلغ حوالي مترين، وكان رجلاً يتمتع بقوة مميزة. أصبح يؤدي دور (شمشون الباتاغوني)، وهو رافع الأثقال الذي يرتدي

الألوان الزاهية، كان يتبختر على خشبة المسرح حاملاً، حده، هرما بشريا متكونًا من اثني عشر فردًا وضعوا على لوح ضخم من الحديد. في خلال السنوات التي قضاها في عروض السيرك، اكتسب بيلزوني خبرة عملية في رفع الأثقال، واستخدام الادوات الميكانيكية مثل الرافعات والدواليب، والالات (الهيدروليكية)، التي تستخدم في الأنشطة المسرحية ويكون الماء أحد عناصرها، وكل هذه كانت مهارات مفيدة لسارق المقبرة. ولما كان بيلزوني مسافرا لا يهدأ له بال، لذا فقد سافر هو وزوجته سارة إلى مصر في العام 1815. وقد قام الدبلوماسي البريطاني هنري سول بتجنيده في عملية استعادة تمثال ضخم لرمسيس الثاني من المقبرة الفرعونية الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيل، مقابل الأقصر. لقد تحدى هذا التمثال الشهير الجميع إذ لم تفلح كل الجهود المضنية التي بذلها جنود نابليون لنقله إلى النهر. جمع بيلزوني ثمانين عاملاً، وقام ببناء عربة خشبية بدائية، تتحرك على أربعة دواليب خشبية. واستخدم العصي كرافعات أعمدة كأذرع، ووظف الوزن الثقيل لعشرات الرجال في عملية رفع التمثال الثقيل، ثُمَّ لتحريك العربة والدواليب من تحته. لم تمر إلّا خمسة أيام، واصبح تمثال الفرعون على ضفة النهر. وجعل بيلزوني التمثال يعوم في اتجاه مجرى النهر، وعاد إلى الأقصر. واليوم، يمكنك رؤية تمثال الفرعون رمسيس الثاني معروضا في المتحف البريطاني.

وكلما كان المسؤولون المحليون يتسببون في خلق مشاكل لبيلزوني، كان طوله الفارع وقوته الجسمانية تبرهنان على أنهما أسلحة قوية (كان على استعداد أيضًا لاستخدام الأسلحة النارية إذا لزم الأمر). خدمته عزيمته وقسوته، اللتان امتزجتا بخبرته في المساومة، بشكل جيد، وجعلتاه يحصل على كمية مذهلة من المقتنيات الآثرية.

وبدأ بلزوني يستهدف المقابر الموجودة في الضفة الغربية لنهر النيل، حَيْثُ اصبح صديقا للصوص المقبرة التي كانت توجد في منطقة القرنة، مجموعة من ثلاث قرى مترابطة بشكل وثيق تقع على الضفة الغربية لنهر النيل (مقابل مدينة الأقصر) الذين اصطحبوه إلى أعماق الممرات الضيقة في المنحدرات حَيْثُ تم العثور على مئات المومياوات الملفوفة وكان يشير إلى أن غبار المومياء كان (مزعجا للغاية). عاش الناس في المدافن، متجاهلين ما حولهم من أكوام من الأيدى المحنطة، والأقدام، وحَتَّى الجماجم. وكانوا يستخدمون الصناديق التي تحفظ فيها المومياء، والعظام، والخرق من لفائف الموتى، كحطب لطهي الطعام.

أما المنافس لبيلزوني، وكان شخصا فرنسيا يدعى برناردينو دروفيتي، فقد كان رد فعله على نجاحات بيلزوني هو الادعاء بانه صاحب الحق بالحفر في جميع الامكنة القريبة من مدينة الأقصر. تسبب هذا الشخص في الكثير من المشاكل لبيلزوني ما جعله يفضل الابتعاد، والعمل في معبد (أبو سمبل) الذي يقع بعيدا في اعالي نهر النيل. وعلى الرغم من اضطراره إلى التعامل مع

العمال المتمردين، وان يحول دون تدفق الرمال إِلى المنحدرات، فقد نجح بمساعدة سائحين كانا من ضباط البحرية البريطانية في فتح المدخل. وجد نفسه في قاعة مليئة بالأعمدة مع ثمانية تماثيل لرمسيس الثاني، ولكن لم يكن هناك سوى عدد قليل من القطع الأثرية الصغيرة التي يمكن أن يحملها معه عند عودته إِلى الأقصر. وجد رجال دروفتي يحفرون في منطقة القرنة. وهدده زعيمهم بقطع عنقه، فانتقل بيلزوني إلى مقبرة وادي الملوك، حَيْثُ مدفن أعظم الفراعنة في مصر. وقد جرت محاولات لاستكشاف المقبرة مُنْذُ ايام الرومان، لكن بيلزوني كان يمتلك حدس عالم أثار ممتاز. فحدد ثلاث مقابر على الفور تقريبا. بعد ذلك بفترة وجيزة، قام باكتشافه الأكثر إثارة للدهشة: ضريح (قبر) الفرعون سيتي الأول، والد رمسيس الثاني وواحد من أهم حكام مصر، الذي حكم من العام 1290 إلى العام 1279 ق.م. كانت هناك لوحات رائعة تزين الجدران. وفي حجرة الدفن، كان يرقد تابوت الملك شبه الشفاف، وكان مصنوعا من أحجار المرمر الناعم، المصمم على شكل جسمه. ولكنه كان فارغا، فلسوء الحظ، تمت سرقة القبر بعد وفاة الفرعون مباشرة.

كان بيلزوني في أوج مراحل نجاحه فقد استطاع الكشف عن أربع مقابر ملكية، وعاد إلى القاهرة ليعمل بلا كلل، ونجح في اختراق الجزء الداخلي من هرم خفرع الضخم في الجيزة، وهو أول شخص يقوم بذلك مُنْذُ العصور الوسطى. ونقش اسمه بالسخام على جدار غرفة الدفن، وما يزال اسمه موجودا حَتَّى

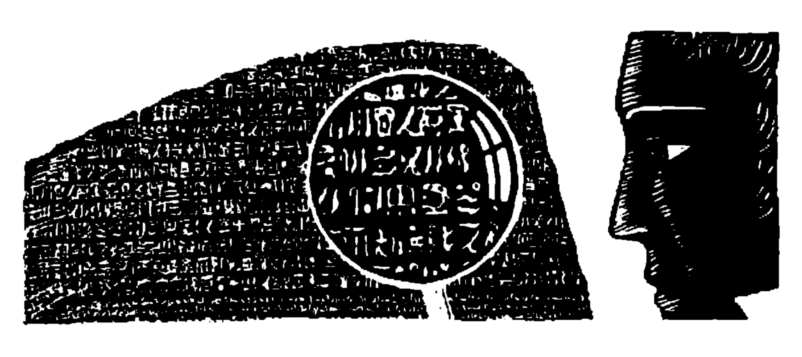
يومنا هذا. ولانه كان يقدم عروض السيرك مُنْذُ زمن بعيد قرر ان يصنع نسخة مطابقة لضريح الفرعون سيتي ويعرضها في معرض يقيمه في مدينة لندن. فسكن هو، وفنان آخر في القبر في فصل الصيف. وقاما بنسخ اللوحات، والعديد من الكتابات الهيروغليفية، وصنعا مئات من النماذج من كادة الشمع للشخصيات الموجودة. وبحلول ذلك الوقت، كان دروفتي يشعر بالغيرة من بيلزوني إِلى حد أن رجاله قاموا بتهديد بيلزوني بنيران اسلحتهم. وخوفا على حياته، غادر رجل السيرك مصر إلى الأبد.

بعد عودته إِلى لندن، اقام معرضا ناجحا جدا للمقبرة والمقتنيات الاثرية التي عثر عليها، وعرضها في القاعة التي سميت عن حق بالقاعة المصرية، التي تقع بالقرب من ميدان بيكاديللي اليوم، وألف كتابًا اشتهر كثيرا حول مغامراته. ومن المحتم، ان ينخفض عدد الزوار ما دعاه إِلى إغلاق المعرض. لكن رجل السيرك القوي سابقا كان ما زال يتطلع إلى المزيد من الشهرة والثروة. وفي عام 1823، ذهب في رحلة استكشافية للعثور على منبع نهر النيجر في غرب إفريقيا، ليموت بعدها إثر اصابته بالحمى في بنين.

كان جيوفاني بيلزوني شخصية مثيرة للجدل، وكان في الاساس رجل سيرك، وسارق مقابر. يمكن للمرء أن يصفه بأنه صياد كنوز لا يرحم، لكنه كان أكثر من ذلك. لقد بدأ حياته بالتأكيد كباحث عن الغنائم، ساعيا وراء الشهرة والثروة؛ لكن هل كان عالم آثار؟ ليس هناك شك في أنه كان يمتلك حدسا

رائعا في الاستكشاف. ولو عاش اليوم، لربما كان اصبح عالم آثار ناجحا. لكن في وقته، لم يكن أحد يستطيع قراءة الكتابة الهيروغليفية، أو كان لديه أي فكرة عن كيفية التنقيب، أوتسجيل أحداث الماضي. ومثل الآخرين في ذلك الوقت، فان بيلزوني كان يقيس النجاح بقيمة ما يمتلك من مقتنيات، ومع ذلك، فإن هذا الشخص الإيطالي المتقد حماسة، وضع بعض الأسس البسيطة لعلم المصريات.

الفصل الثالث



البحث في آثار مصر القديمة

لقد تمكنت منها! هكذا صرخ جان فرانسوا شامبليون بأنفاس متقطعة، ثُمَّ سقط مغشيا عليه تحت أقدام أخيه. لقد اكتشف شامبليون القواعد المعقدة للكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، وحَلَّ لغزًا عمره قرون.

لقد قام العلماء الذين جلبهم نابليون، مثل جيوفاني بلزوني، وغيره بمحاولة قراءة النصوص التي كانت مكتوبة على حجر رشيد، لكن لم ينجحوا في فك رموزها. كان المصريون القدماء، وفراعنتهم غير معروفين، وأناسًا بلا تاريخ. من هم الملوك الذين نقشت صورهم على جدران المعابد؟ من هو الآله، أوالإلهة التي كانت تتلقى القرابين منهم؟ من هم الأشخاص المهمون الذين

دُفنوا في مقابر مزينة بزخارف رائعة بالقرب من أهرامات الجيزة؟ كان بيلزوني، ومعاصروه من العلماء ينقبون في جو غامض.

في البداية، افترض الخبراء خطأً أن تلك الرموز المنقوشة كانت رموزًا صورية. ثُمَّ في سبعينيات القرن التاسع عشر، جاء عالم دنماركي يدعى يورغين زيغا بنظرية تفيد ان تلك النصوص لا تمثل مواضيع، بل هي أصوات: إنها طريقة لتحويل الكلام البشري إلى كتابة – نص صوتي. كان اكتشاف حجر رشيد في العام 1799، بنصيه المكتوبين بالهيروغليفية، يمثل خطوة كبيرة إلى الأمام. كان أحد النصوص مكتوبا بنظام الكتابة الرسمي، بحَيْثُ لا يمكن لأحد أن يكشفه. لكن الآخر كان نصًا بسيطًا يستخدمه الناس العاديون. وكان هذا بوضوح نسخة أبجدية من الكتابة الهيروغليفية، ومن المعروف الآن أنه تم استخدامه على نطاق واسع من قبل الكتبة.

كان حجر رشيد أول منعطف كبير في كشف ألغاز تلك الكتابة. أما الثاني فكان ما قام به توماس يونغ، وهو طبيب إنكليزي، وخبير في اللغات، والرياضيات. سمحت له معرفته باليونانية القديمة بقراءة أحد النقوش. مكنه ذلك من المضي قدمًا في تحديد اسم الفرعون بطليموس الخامس من خلال ست خراطيش (مجموعة من النقوش الهيروغليفية ذات شكل بيضاوي، ينقش في داخلها اسم أحد الملوك). كانت موجودة في حجر رشيد، ثُمَّ قام بمقارنة الحروف الهيروغليفية مع حروف التهجئة اليونانية لاسم الفرعون. لكن للأسف، افترض يونغ

أن معظم الحروف الهيروغليفية غير صوتية، وبالتالي فشلت جهوده في قراءتها.

كان جان فرانسوا شامبليون (1790 – 1832) منافسا كبيرا ليونغ، وهو عبقري لغوي ذو شخصية حادة. ولكونه ابنا لبائع كتب فقير الحال، فإنه لم يتلقَ تعليمه الرسمي إِلى ان بلغ الثامنة من عمره. لكنه سرعان ما أظهر موهبة رائعة في الرسم، وتعلم اللغات. وحينما اصبح في سن السابعة عشرة، كان يتقن اللغة العربية، والعبرية، والسنسكريتية، فضلاً عن الإنكليزية، والألمانية، والإيطالية. كان الشاب شامبليون مهووسا بالهيروغليفية. كما إنّه تعلم القبطية، معتقدا أن لغة مصر المسيحية ربما احتفظت ببعض العناصر المصرية القديمة.

في عام 1807، انتقل شامبليون، وشقيقه جاك جوزيف إلى باريس، حَيْثُ عاشا في حالة من العوز. حول اللغوي الشاب انتباهه إلى حجر رشيد. وقام بدراسته عدة أشهر، وركز في دراسته على العديد من البرديات المصرية (وثائق مكتوبة على سيقان البردي). كان البحث مثبّطًا للهمة، كونه مليئًا بالنقاط الغامضة. وعلى العكس من يونغ، أصبح شامبليون مقتنعًا بأن الكتابة المصرية كانت صوتية. قام بتوسيع دراسته لتشمل كلاً من البرديات المصرية، واليونانية، وكذلك مسلة من صعيد مصر، إضافة إِلى خراطيش تتحدث عن الملكة كليوباترا.

في العام 1822، حصل على نسخ دقيقة من الكتابة الهيروغليفية من معبد (أبو سمبل)، ما سمح له بالتعرف على الخراطيش التي

تمثل رمسيس الثاني، وتعرف بعدها على خراطيش فرعون آخر، هو تحتمس الثالث.

كان يدرك ان الكتابة الهيروغليفية لم تكن تحتوي على حروف علة: كان هناك أربعة وعشرون رمزًا تمثل أحرفًا ساكنة (تشبه كثيرا الأحرف في اللغة الإنكليزية)، ووظيفتها مشابهة لعمل الحروف الأبجدية. كان النص يكتب عادة، لكن ليس دائما، من اليمين إلى اليسار، من دون فراغات، أو علامات ترقيم، أو كلمات منفصلة. في اللحظة التي هرع فيها شامبليون إلى غرفة أخيه، كان قد قام بفك شيفرة وصفها بانها كانت (في بعض الأحيان مجازية، ورمزية، وصوتية).

في 27 أيلول 1822، قدم شامبليون نتائج بحثه هذا إلى أكاديمية النقوش، والآداب الفرنسية. وعُدَّ هذا الاكتشاف من الأهمية بمكان، إِلى الحد الذي تم إعلام ملك فرنسا به. ومع ذلك، كان ينبغي مرور سنوات عدة قبل ان يتم الاعتراف بعمل شامبوليون على نطاق عالمي. في العام 1824، نشر شامبوليون ملخصا للكتابة الهيروغليفية تعرض لهجوم من قبل منتقديه. ويبدو من المرجح أن شخصيته المولعة بالجدل، وعدم قدرته على تحمل الانتقادات زادت من مصاعبه.

أصبح شامبليون مشرفا على القسم المصري في متحف اللوفر، وسمحت له معرفته بالهيروغليفية بترتيب المقتنيات الأثرية حسب تسلسلها التاريخي الصحيح. وقد كان هذا تقدما كبيرا.

لكن الرجل الذي فك رموز الكتابة في مصر القديمة لم تتسنَ له فرصة زيارة ارض النيل ابدا. في العام 1828، تمكن مساعدو الملك ممن كان لهم تأثير فيه ان يقنعوه بدعم إرسال بعثة مشتركة بين فرنسا، وتوسكانا (إقليم إيطالي) يرأسها شامبليون. بعد مرور ثلاثين عاماً على إبحار علماء نابليون إلى الإسكندرية، شرع جان فرانسوا شامبليون، وعالم المصريات إيبوليتو روسيلليني، وفريق من الفنانين، والمصممين، والمهندسين المعماريين – وقد كانوا جميعهم حينها يرتدون الملابس التركية، التي كانت أكثر راحة في الجو الحار – في القيام برحلة في نهر النيل.

كانت هذه البعثة انتصارا كبيرا. فلأول مرة، تمكن الأستاذ شامبليون، ورفاقه من قراءة النصوص المنقوشة على جدران المعابد، وفهم أهمية بعض من أقدم المعالم الأثرية في العالم. وعند معبد الإلهة حتحور في دندرة، قفز أعضاء متحمسون في البعثة إلى الشاطئ في ليلة مضيئة مقمرة. وتجولوا بين آثار المعبد مدة ساعتين رائعتين، ولم يعودوا إلى قواربهم إلّا عند الساعة الثالثة صباحا.

وبعد ان امضت البعثة فترة وجيزة في الأقصر، والكرنك، وفي وادي الملوك، شهد اعضاؤها قدوم الفيضانات الصيفية وصولا إلى القاهرة يخالجهم شعور بالفرح. كان شامبوليون أول عالم يحدد أصحاب المقابر، ويقوم بترجمة النصوص المكتوبة على جدران المعابد عن الفراعنة الذين يقدمون القرابين للآلهة. وبعد ان اصابه التعب والإعياء، عاد إلى باريس في كانون الثاني

عام 1830. ليموت بعد عامين إثر اصابته بالسكتة الدماغية، ولم يكن عمره يتجاوز حينها سوى اثنين وأربعين عاما فقط، لكن الجدل حول الكتابة الهيروغليفية استمر فترة طويلة بعد وفاته. واحتاج الامر مرور خمسة عشر عامًا قبل أن يعترف الجميع بأن ترجماته كانت صحيحة.

حلّ في ارض النيل فوج من الزائرين أقل اهتماما وعناية بالآثار. فقد شجع نجاح بيلزوني، ودروفتي صائدي الكنوز الآخرين على البحث عن الشهرة، والثروة هناك. سرعان ما أصبحت آثار مصر القديمة مشروعا تجاريا ناجحا. كان شامبليون مشمئزا من أعمال التدمير: فقد كان الناس ينبشون المقابر علنا منْ أَجل الحصول على الكنوز الاثرية التي فيها، ويحفرون بحثا عن التماثيل، ويقلعون بالمطارق الأعمال الفنية الموجودة على جدران المعابد، وكل ذلك بهدف الحصول على المال لا غير.

كتب شامبوليون رسالة إلى الوالي محمد علي يشكو من تجارة القطع الأثرية، والدمار الذي تتسبب به. كانت رسالة شامبوليون هي الدافع لـ (محمد علي) لإصدار قانون يحظر تصدير الآثار، ويأذن بإنشاء متحف، ويعد تدمير الآثار عملا غير قانوني. لكن من دون وضعه موضع التنفيذ، فإن القانون لا يعني شيئا. لكنها كانت خطوة في الاتجاه الصحيح، حَتَّى لو كان الوالي محمد علي، ومن جاء بعده من الولاة يقدمون، أو يبيعون معظم المعروضات المتحفية للأجانب. لحسن الحظ، بدأ حينها عدد لا بأس به من

الزائرين بالقدوم إلى ارض النيل بحثًا عن المعلومات عن مصر القديمة، وليس بحثا عن القطع الأثرية. وقد شجعت إنجازات شامبليون المثيرة بفك شفرات الكتابة الهيروغليفية على التحول من جمع المقتنيات الآثرية إِلى إجراء البحوث عنها. واصبحت هناك، اخيرا، طريقة لتعلم أسرار الحضارة المصرية القديمة. وقام العلماء البارزون مثل عالم الآثار الكلاسيكي والرحالة السير وليام غيل بتشجيع الشباب الواعدين. وكان أحدهم جون غاردنر ويلكنسون (1797 - 1875)، الذي توفي والداه عندما كان صغيرًا، وتركا له ثروة متواضعة. وقد قام في أثناء انتظاره امر تعيينه ضابطا في الجيش، بجولة في بلدان البحر المتوسط. والتقى في روما، بالسير ويليام غيل، الذي كان في الاغلب يعرف عن مصر القديمة أكثر من أي شخص آخر. وصل ويلكينسون الشاب إلى الإسكندرية في أواخر عام 1821، وكان مسلحا بشيء من المعرفة باللغة العربية، وبحماس لا حدود له. كان هذا قبل فترة قصيرة من نجاح شامبليون في فك شفرة الكتابة المصرية. لكن ويلكينسون كان يعرف بما فيه الكفاية منهج توماس يونغ في التعامل مع الكتابة الهيروغليفية والقطع الاثرية المصرية ما جعله أفضل استعدادا للبحث في هذا الموضوع من أي شخص جاء قبله. كان يسير في اتجاه منبع النهر، وألقى بنفسه في علم المصريات. كان عالم آثار من نوع مختلف. ففي حين كأن بلزوني، ومن هم على شاكلته منقبين، يقومون بالحفر بحثا عن التحف الفنية، والقطع الاثرية، فان ويلكنسون كان يمتلك نظرة أوسع بكثير

لعلم المصريات. وبذلك، فإنه قد سبق زمانه بكثير. وأدرك أن حضارة مصر القديمة، وشعبها لا يمكن فهمهما إلّا من خلال الجمع بين المقتنيات، والنصوص الأثرية المنقوشة.

لم يكن لدى ويلكينسون أدنى اهتمام بالحصول على القطع الأثرية. فقد كان يقوم بنسخ النقوش، والنصب التذكارية والمقابر - كان تلميذا حقيقيا همّه دراسة الماضي. وعلى الرغم من انه كان يعمل بمطلق الحرية، إلّا أن عمله كان دقيقا بشكل ملحوظ على وفق المعايير الحديثة - وخصوصا طرق رسمه للكتابات الهيروغليفية، التي كانت أفضل من رسومات خبراء نابليون.

وفي خلال السنوات الاثنتي عشر التالية، قام ويلكنسون بالتجول على نطاق واسع في جميع أنحاء وادي النيل، وفي الصحراء. كان يتجول وحيدًا في بعض الأحيان، أو برفقة صديقه جيمس بيرتون فحسب. وفي أحيان أخرى، كان ينضم إليه عدد صغير من علماء الآثار، والفنانين ذوي التفكير المماثل. ولضمان سلامتهم في هذه الأرض البعيدة، كانوا يتخفون بهيئة اشخاص عاديين، ويتظاهرون بانهم مسلمون، حَتَّى امام خدمهم.

لم تكن لدى ويلكنسون في بداية عمله أية معرفة بالصور الرمزية. لكن في العام 1823، أرسل إليه عالم الآثار وليم جيل نسخة من ملخص شامبليون، ما جعله يدرك مدى التقدم الذي حققه ذلك الشاب الفرنسي. لكن مع تقدم عمله في مقارنة الكلمات القبطية مع المصرية القديمة، أدرك ويلكنسون أن

شامبليون كان مهملاً. وانه ارتكب (أخطاء فظيعة) في تفسير النصوص التي قام بفك طلاسمها.

لم يلتقِ ويلكينسون أبدًا بشامبليون، لكنه كان يكره الطريقة التي سعى بها ذلك الرجل الفرنسي إلى الشهرة، فلم يكن يتسامح مع أي نقد يوجه إلى عمله. وكان كتومًا، وتشاجر بقسوة مع علماء آخرين، وقدم ادعاءات كاذبة حول بحثه. على النقيض من ذلك، فضل ويلكينسون البقاء في الظل، يرسم، ويسجل، ويبحث، ويعمل بهدوء منْ أَجل معرفة تأريخ المعابد، والمقابر. وبمجرد اكتسابه معرفة عملية بالهيروغليفية، انتقل ويلكنسون الواسع الفضول إلى أبحاث أخرى. وابتداءً من العام 1827، بدأ يقضي معظم وقته على الضفة الغربية لنهر النيل في الأقصر. مكث هناك عند ضريح شخص مهم يدعى اميجو، (عاش في القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، عاش ويلكنسون نمط حياة رائعًا، وكان يستمتع بالمناظر الخلابة عبر وادي النيل. فرش السجاد في المقبرة، وفصل اجزاء منها لإنشاء غرف له، ومكان لمكتبته الشخصية. كان يرفه عن أصدقائه، بحرق توابيت المومياء الخشبية في الموقد للتدفئة، كما كان يفعل الجميع – وقد اصبح هذا الامر غير مقبول اجتماعيا في ايامنا هذه!

لم يتعود ويلكينسون على ان يستيقظ في الصباح الباكر – كان يتناول الإفطار في العاشرة، والنصف. لكنه أنجز أعمالا ضخمة، بما في ذلك رسمه أولى الخرائط لمقابر الضفة الغربية لنهر النيل. وقام بترقيم المقابر في وادي الملوك، وما يزال نظامه للترقيم يُستخدَم

حَتَّى اليوم. وركز على مقابر النبلاء، مدركًا أنهم قدموا رؤى ثريّة عن الحياة المصرية. وقد أتاحت تلك الآثار الفرصة للعودة بالزمن، والعيش، وسط اناس تلك العصور - كما لو كنت أحد المتفرجين الذين يشاهدون الأحداث المنقوشة على الجدران.

بالنسبة لي فانا أحب استكشاف لوحات المقابر المصرية، حَتَّى لو كان اغلبها باهتًا جدا اليوم. فهي تجعلك تشهد مظاهر الحياة في ممتلكات النبلاء - العمال الذين يتجمعون في موسم الحصاد تحت العين الساهرة لرسامي النقوش، والماشية التي يتم ذبحها، واللباس الزاهي للضيوف الذين يجتمعون حول الوليمة. حَتَّى إنّ هناك رسما ساحرا لاحد النبلاء، وهو يصيد السمك، ترافقه قطاته.

وكان ويلكنسون أحد افراد مجموعة صغيرة من العلماء الذين وضعوا علم المصريات على قدم ثابتة في خلال العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر. لقد كانوا باحثين جادين شغوفين بعملهم، وبالمعرفة التي تكون نتاجا له. وكانوا يعملون معًا، وبشكل مستقل. غادر ويلكينسون مصر في عام 1833 وفي باله فكرة تأليف كتاب عن حياة المصريين القدماء. ظهر كتابه آداب المصريين القدماء وعاداتهم في عام 1837 وتم بيعه بشكل جيد، وبسعر معقول جعله في متناول افراد الطبقة المتوسطة.

يأخذ الكتاب القراء في رحلة عبر الزمن في مصر القديمة، ما وفر ثروة من المعلومات. تم بعث الحياة في شعبها بفضل التفاصيل الوافرة التي قدمتها اللوحات، والبرديات، والمطبوعات. كان

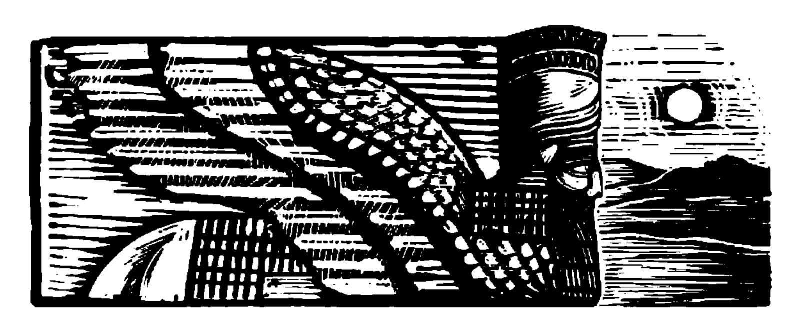
ويلكينسون يمتلك موهبة نادرة تتمثل في القدرة على توصيل أبحاث مهمة، أصلية إِلى جمهور واسع من القراء. وأصبح اسما مشهورا، وانعمت عليه الملكة فيكتوريا بلقب فارس.

كان شامبولون، وويلكينسون سلالة جديدة من الباحثين. رسموا صورة حية لحضارة متنوعة، قوية. وقد أدرك كلاهما أن علم الآثار وحده لا يستطيع إعادة بناء الحضارات القديمة. وان أي بحث جدي يعتمد على العمل الجماعي بين المنقبين، والأشخاص الذين يعملون على النقوش والسجلات المكتوبة.

وشكلت الرواية الشعبية الرائعة لحياة المصريين التي ألفها ويلكينسون دراسة جادة لمرحلة مركز الحضارات الأولى في العالم. وقد أدت عمليات التدمير التي حدثت بالجملة على طول نهر النيل إِلى تمهيد الطريق نحو القيام بالأبحاث بطريقة أكثر انضباطاً.

استلزم الامر ان تنقضي ستة عقود قبل ان يأتي نساخون جدد إلى ارض النيل. ويعود الفضل في ذلك إِلى شامبوليون، وويلكينسون اللذين كانا نسّاخين محترفين.

الفصل الرابع



أعمال الحفر في نينوى

بابل، ونينوى: هما من اعظم المدن التوراتية، والحديث عنهما ياخذ طابعا رومانسيا. حدّثنا العهد القديم (هو الجزء الأكبر من الكتاب المقدس، ويحتوي على كتب اليهود جميعها، بما فيها التوراة) عن الملك نبوخذ نصر (الذي حكم من حوالي 604 إلى 562ق.م)، أعظم ملك لبابل القديمة (تقع في جنوب العراق اليوم). لقد كان فاتحا قاسيا، اشتهر بسبيه اليهود من ارض فلسطين إِلى عاصمته. والعائدات التي كان يحصل عليها من إمبراطوريته العظيمة جعلته يبني عاصمة رائعة. ووفقا للروايات اليونانية التي ظهرت في وقت لاحق، شيد الآلاف من العبيد أسوارًا سميكة للغاية للمدينة حَتَّى تتمكن المركبات الحربية القديمة من الوصول إلى قمة السور.

يُزعَم أن نبوخذ نصّر شيّد حدائق معلقة رائعة لقصره المدرج، التي أصبحت إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم. وما يزال السؤال قائما في ما إذا كانت موجودة ام، لا. اختفت عاصمته عندما انهارت الحضارة الآشورية. وجد العدد القليل من الرحالة الأوروبيين الذين وصلوا إلى بابل أنفسهم في برية قاحلة من التلال المغبرة. مرت قرون قبل أن يتمكن علماء الآثار الألمان من إعادة بناء أجزاء منها (انظر الفصل 20).

تقع نينوى في الاتجاه المعاكس، في ما يعرف الآن شمال العراق. في عام 612ق.م، كانت مدينة آشورية رئيسية، ورد ذكرها في سفر التكوين في الكتاب المقدس. ووفقا للنبي اشعياء، فإن الله حكم على أهل نينوى المغرورين (بالفناء، وجعلها قاحلة مثل البرية). لم يبق أي مبنى، أو معبد على الأرض. وقد لاحظ الزائرون الأوروبيون في وقت لاحق أن غضب الله دمر الآشوريين بالفعل.

تحولت بابل، ونينوى إلى اطلال تاريخية، معروفة من خلال الكتاب المقدس فحسب. وبقيت هناك حَتَّى أكدت الحقائق الأثرية المدهشة ما ذكره التوراة من أحداث تاريخية. في العام 1841، وجدت مجموعة من العلماء البارزين في الجمعية الاسيوية الفرنسية (هي جمعية فرنسية تعني بدراسة الشرق. أسست في باريس سنة 1822م. عقدت أول جلسة عمومية لها في أول نيسان 1822م وفيها قدّم جان فرانسوا شامپليون اكتشافه القراءة والكتابة الهيروغليفية)، في نينوى فرصة أخرى

لأعمال التنقيب المثيرة التي ستنعكس بشكل جيد على فرنسا. في العام 1842، عينت الحكومة بول إميل بوتا (1802 – 1870) في منصب القنصل (الممثل لها) في الموصل. كان بوتا قد عمل دبلوماسيًا في مصر، وكان يتكلم العربية بطلاقة، وهو ما أهّله لشغل هذا المنصب الجديد. كانت مهمته غير الرسمية للتنقيب في نينوى، على الرغم من أنه لم يكن لديه خبرة ذات صلة بالتنقيب.

كانت طرق بوتا غير المتطورة في الحفر غير مجدية إلى حد كبير، لأنه كان يحفر في الطبقات العليا المجدبة فحسب من تل قوينجق في نينوى (أي الطبقات التي لا توجد فيها عظام، أو أدوات). تكوَّنت التلال في مدينة مثل نينوى تدريجيًا، طبقة بعد طبقة، والمناطق الأقدم، والأهم كانت توجد في الغالب في أسفلها. لكن بوتا لم يكن يعرف شيئا عن مثل هذه المواقع. فحفر بالقرب من السطح ووجد بعض الطوب المنقوش، وشظايا المرمر، لكن لم يجد شيئا ذا قيمة.

لكن بعد شهور من العمل، حالفه الحظ. فقد قام أحد القرويين من قرية خورس آباد، التي تقع على بعد حوالي 22 كيلومترا إلى الشمال من تل قوينجق، بعرض بعض الطوب المنقوش على بوتا. وأخبره بعدة قصص عن وجود عدد من الاثار بالقرب من منزله، مدفونة في تل قديم. أرسل القنصل رجلين للتحقق من الامر. وبعد مرور أسبوع، عاد أحدهم يغمره حماس شديد. فقد كشفت أعمال الحفر البسيطة عن جدران منحوتة بصور حيوانات غريبة.

ذهب بوتا فورا إلى خورسباد. لقد ادهشته المنحوتات المتقنة المنقوشة على جدران تلك الحفرة الصغيرة. كانت تحوي صورا لرجال ملتحين غير مألوفين يرتدون العباءات الطويلة يسيرون جنبا إلى جنب مع الحيوانات المجنحة، والوحوش الأخرى. سرعان ما نقل بوتا عماله إلى خورسباد. وفي غضون أيام قليلة، كشف الحفارون عن سلسلة من ألواح الحجر الجيري المنحوتة في قصر ملك قديم، غير معروف.

كتب بوتا إلى باريس متفأخرا، بدعوى أنه كشف عن حقيقة ذكرتها التوراة. وقال باعتزاز (لقد أعيد اكتشاف نينوى). قدمت الحكومة الفرنسية منحة قدرها 3000 فرنك لإجراء المزيد من أعمال الحفر، قام بوتا بتشغيل أكثر من 300 عامل، مدركا أنه كان عليه أن يحفر على نطاق واسع ليجد اكتشافات مهمة. ودشن بذلك تقاليد القيام بعمليات حفريات واسعة في بلاد ما بين النهرين (يطلق عليها أيضًا ميزوبوتاميا وهي كلمة يونانية، تعني: الأرض التي ما بين الأنهار)، استمرت بشكل جيد في القرن العشرين.

وفي إجراء حكيم، أرسل الفرنسيون أيضًا أوجين نابليون فلاندن، وهو فنان آثار من ذوي الخبرة من باريس. عمل الرجلان في التنقيب في تلك التلال حَتَّى أواخر تشرين الأول عام 1844. واكتشفا مخطط مجمع قصر مغلق يغطي مساحة قدرها اكثر من 2.5 كيلومتر مربع. لم يفعل العمال سوى تتبع جدران القصر حيثما استطاعوا. وكشفوا عن رسوم تظهر أحد الملوك وهو

يخوض الحرب، ويحاصر المدن، ويمارس لعبة الصيد، ويشارك في الاحتفالات الدينية. وكانت الأسود والثيران التي كانت ذوات رأس إنسان تحرس بوابات القصر. لم يحدث قط ان عثرت عمليات حفر سابقة على مثل هذه الكنوز.

وصل فلاندن إلى باريس في تشرين الثاني عام 1844 حاملا رسومات غمرت الباحثين الفرنسيين بالسعادة. كان هذا تقليدًا فنيًا جديدًا تماما، لا يشبه ابدا ما كان سائدا في اليونان، أو النيل، أو روما. وعاد بوتا أيضًا إلى باريس. وقد أكمل تقريرا عن الحفريات، مصحوبا بأربعة مجلدات من رسومات فلاندن، وقد أثار هذا الحدث ضجة كبيرة. ادعى بوتا، على نحو خاطئ، أنه أعاد اكتشاف نينوى في خورسباد. ولا يمكنك لومه. فهو مثله مثل بيلزوني في مصر، كان غير قادر على قراءة نقوش القصر.

فنحن نعلم الآن أنه قام بالتنقيب في، دورشروكين قصر الملك الآشوري سرجون الثاني (722 – 705ق.م) وكان غازيا ناجحا، وعدوانيا، وكان يجب ان تنقضي سنوات طويلة قبل ان تعرف ما يسمى بالكتابة (المسمارية) (سميت بهذا الاسم، بسبب شكلها) إذ حددت النقوش التي كتبت بهذا النوع من الكتابة عاصمته (انظر الفصل 5). في ذلك الوقت، انسحب بوتا من المشهد، وتم تعيينه في وظيفة غامضة في لبنان، ولم يعد إلى علم الآثار أبدًا.

لكن حالما بدأ بوتا العمل في نينوى في عام 1842، كان هناك رجل إنكليزي شاب يدعى أوستن هنري لايارد (1817 – 1994).

اصبح مفتونا بعلم الآثار في بلاد ما بين النهرين. وأمضى أسبوعين في نينوى في عام 1840، وهو يدرس ذلك الموقع الاثري. وبفضل ما وهب من فضول نهم، وقوة ملاحظة بارزة، أصبح مصمما على حفر تلال المدينة القديمة. اصبح علم الآثار جل شغفه. ومثل العديد من علماء الآثار العظماء، كان لايارد يشعر دائمًا بالقلق، فعزم على ان يقضي عاما وسط قبيلة بختياري في جبال بلاد فارس (إيران حاليا)، وأصبح مستشارا موثوقًا للقبيلة. كان يعرف الكثير عن السياسة المحلية إِلى حد ان المندوب السامي البريطاني في بغداد أرسله إلى القسطنطينية لإسداء المشورة للسفير هناك. عند هذه النقطة، في العام 1842، أمضى ثلاثة أيام في الموصل مع بوتا، الذي شجعه على الحفر. ومع ذلك كان لايارد مفلسا.

قضى لايارد ثلاث سنوات يعمل كمسؤول استخبارات غير رسمي في القسطنطينية. ثُمَّ سمح له السفير البريطاني، السير ستراتفورد كانينغ، على مضض بالحفر مدة شهرين في نمرود، وهي سلسلة من التلال المنحدرة من الموصل. راهن لايارد على أنه سيصل إلى قلب المدينة من الاسفل، ومِنْ ثَمَّ يستدير نحو التلال. كشف العمال على الفور تقريبا، عن حجرة كبيرة مبطنة بألواح ذات كتابة مسمارية. نحن نعلم الآن أن هذا كان القصر الشمالي للملك الآشوري آشور بانيبال (883 – 859 قبل الميلاد). في نفس اليوم، نقل ليارد الرجال إلى الجنوب، واكتشفوا القصر الجنوبي الغربي، الذي بناه الملك اسرحدون

(681 – 669ق.م)، وظل لايارد، هو، عالم الآثار الوحيد الذي وجد قصرين في غضون أربع وعشرين ساعة.

كانت الحفريات التي قام بها تتبع ببساطة الجدران المزخرفة لغرف القصر. واكتشف لايارد منحوتة مخزونة تعود لقصر اقدم عمرا، تحتوي على مشاهد معركة، وحصار.

ولم تمر سوى فترة قصيرة حَتَّى طغت هذه الاكتشافات على الاثار التي وجدت في خورسباد. كان لايارد يعمل وفي ذهنه هدف واحد: اكتشاف الأعمال الفنية، والمصنوعات اليدوية المذهلة التي يمكن شحنها إلى لندن. كان يعلم أن الاكتشافات الغريبة المرسلة إلى المتحف البريطاني ستجعله كبيرا في أعين الناس. ومن دون أي قدر من المبالغة يمكن وصف أعماله بأنها سجل دقيق.

قام لايارد، ومساعده الآشوري هرمزد رسام بإقامة معسكر فوق تل نمرود، ما منحهم فرصة مشاهدة المنظر الرائع للسهول المحيطة. كان لايارد دائم الحذر، متأهبا للغارات المفاجئة التي يشنها رجال القبائل المجاورون بحثًا عن الكنوز. وكان يغدق عطاياه على الزعماء المحليين لشراء ولائهم، لكنهم لم يكونوا يترددون في استخدام العنف إذا لزم الأمر. في نهاية المطاف، أصبح، هو، نفسه زعيما بحد ذاته، إِذ بدأ يقوم بتسوية النزاعات، وترتيب الزيجات.

توالت الاكتشافات المذهلة بعد ذلك، كان من ضمنها ثلاث منحوتات للثور المجنح الذي كان يحرس القصر. أقام لايارد حفلة

مدة ثلاثة أيام لعماله للاحتفال بهذه الاكتشافات. وفي القصر الشمالي، اكتشف رجاله عمودا رائعا منحوتا يصور ملكا يتسلم الجزية. ويحوي سجلا للانتصارات العسكرية للملك شلمنصر الثالث (859 – 824ق.م)، الذي كان يحارب باستمرار الدول المجاورة. صنع لايارد عربة كبيرة لنقل الإكتشافات الثقيلة إلى نهر دجلة. تم تعويمها باتجاه مجرى النهر إلى البصرة على أطواف مدعومة بجلود الماعز السميكة، مطابقة لتلك التي تظهر على النقوش الآشورية. بعد ذلك، قام ليارد بالحفر في تل قوينجق في نينوى، حَيْثُ كشفت الأنفاق في ما بعد عن تسع غرف مزينة بنقوش بارزة (وفيها منحوتات كانت رموزها تظهر بالكاد على السطح).

وصلت الحمولة الأولى من منحوتات نمرود إلى المتحف البريطاني في 22 حزيران 1847، وعندما وصل لايارد إلى إنكلترا وجد نفسه بطل زمانه. في عام 1849، اصدر كتابه نينوى و(آثارها، وهو مجموعة رسومات بسيطة) تصور الأعمال التي قام بها، وأصبح من أكثر الكتب مبيعا.

استؤنفت الحفريات في تل قوينجق العام 1849 وقام لايارد بحفر ممرات من الأنفاق تتبع جدران القصر المزخرفة، وتجاهلت محتويات الغرف الثمينة. ومن جديد، أمضى أياماً تحت الأرض يرسم المنحوتات بالشكل الذي تظهر به، في ضوء أعمدة التهوية، والشموع. أدت الأنفاق المضاءة بشكل خافت إلى الكشف عن تماثيل أسود عظيمة كانت تحرس بوابات القصر. وكانت ألواح الحجر

الجيري في المداخل ما تزال تحمل الاخاديد التي خلفتها عجلات العربات الآشورية. كشف عمال لايارد عن الواجهة الجنوبية الشرقية بأكملها لقصر الملك سنحاريب (705 - 681ق.م)، الذي قام بحملات عسكرية في بلاد ما بين النهرين، وسوريا، وإسرائيل، ومنطقة يهودا (منطقة جبلية في جنوب فلسطين). قدّمت نقوش القصر وقائع الفتوحات، والحصار، والإنجازات الملكية. بدا الملوك، والآلهة نابضين بالحياة، وكأنهم يتقدمون إلى الأمام لاستجواب الزوار المتطفلين. العديد من نقوش تل قويجنق معروضة الآن في المتحف البريطاني، وأنا احرص دائما على زيارتها. كان نحتها مذهلا. كانت هناك مجموعة من النقوش تظهر ما يقرب من 300 عامل يجرون ثورا كبيرا برأس إنسان في عوامة على النهر، وهي تتجه إلى القصر. وهناك رجل جالس على عرش الثور يوجه العمل. في هذه الأثناء، وكان الملك يراقب العمل وهو جالس في عربته، التي كانت تحوي مظلة كبيرة تقيه من اشعة الشمس.

جاء اكتشاف لايارد الأكثر إثارة عندما كشف عن حصار واحتلال مدينة مجهولة - وبقيت غير معروفة، حَتَّى تم فك رموز الكتابة المسمارية المصاحبة لها في خمسينيات القرن التاسع عشر (أنظر الفصل 5). كانت النقوش، هي، مصدر اهتمامه الأول: فالاكتشافات الصغيرة، ما لم تكن ذات قيمة، كانت لا تثير إلّا اهتماما بسيطا.

وقد أسفرت الحفريات عن اكتشاف قرص طيني اجزاؤه مقطعة يحتوي على نقش بكتابة مسمارية، لكن العديد من هذه الاكتشافات كان يعلوها الغبار، غير مفخورة، وهشة. ثُمَّ اصبح لايارد مفتونا بالذهب، على الرغم من أنه مر بعض الوقت قبل أن يدرك ذلك. وقرب نهاية الحفر، قام بنقل مئات الألواح الطينية المسجلة إلى ستة صناديق. واصبحت هذه الصناديق جزءًا من المكتبة الملكية، وتبين أنها واحدة من أهم اكتشافاته. بعد عمليات التنقيب التتي اجراها في العام 1850، قام بشحن أكثر من مائة صندوق أسفل نهر دجلة.

وبعد محاولة تنقيب غير ناجحة في بابل ومدينة جنوبية قديمة أخرى (التي فشلت لأن طرقه كانت شديدة البدائية في التعامل مع الحجر غير المفخور)، عاد لايارد إلى بلده.

يحتوي المتحف البريطاني على العديد من الرسومات التي خطتها يد لايارد – وهي السجل الوحيد للاكتشافات التي لم يتمكن من شحنها. كان يمتلك غريزة عالم الأثار العظيمة التي تميز بين الاكتشافات المهمة، والتافهة؛ ومثل جيوفاني بلزوني، كان يمتلك حدسا يدله على الاكتشافات، وهو الذي قاده إلى القصور الملكية، والاكتشافات المذهلة. لكن أساليبه كانت بدائية للغاية، وافقدته الكثير. واحتاج الامر إلى أن يمر نصف قرن قبل أن يقوم العلماء الألمان بتحويل الحفريات الأثرية في اليونان، وبلاد ما بين النهرين إلى نظام علمي (انظر الفصل 20).

لا يمكن ان تحزر طبيعة لايارد، بكل المعايير، كان منقبا متعجّلًا لا يرحم يبحث عن الاكتشافات، والكنوز المثيرة. حفر مدنا بأكملها مع واحد، أو اثنين فقط من المساعدين الأوروبيين، ومئات من العمال المحليين. في نهاية المطاف، كان كل ما يهتم به هو الشهرة، وجلب الاكتشافات الآشورية الرائعة إِلى المتحف البريطاني. ومع ذلك، فقد تفوق في التعامل مع السكان المحليين، وكثير منهم أصبحوا أصدقاء أوفياء له، وهو أمر غير مألوف بين علماء الآثار الأوائل.

وبالنسبة لجميع كتاباته البليغة، وأوصافه الثرية، كان أوستن هنري لايارد في النهاية مغامرا بقدر ما كان عالما أثريا. لكنه سلط الضوء على الآشوريين الذين ذُكروا في التوراة، وأظهر أن الكثير مما ذُكر في العهد القديم كان مبنيًا على أحداث تاريخية. سرعان ما زاد فك رموز النصوص المسمارية من اهمية تنقيباته (انظر الفصل 5). لكن متطلبات التنقيب، وسأمه من الكفاح المستمر للحصول على الأموال اديا إِلى إنهاك قواه. تخلى عن علم الآثار في سن السادسة والثلاثين. بدلًا من ذلك، قام بتغيير مسار حياته، فأصبح سياسيا، ثُمَّ دبلوماسيًا – وقد استفاد في عمله هذا من خبرته في التعامل مع أشخاص من ثقافات أخرى. في نهاية المطاف، تقرر أن يصبح السفير البريطاني في القسطنطينية، وكان يعد في ذلك الوقت واحدا من أهم المناصب الدبلوماسية في أوروبا. وهو امر ليس سيئًا بالنسبة إلى مغامر، عالم آثار.

الفصل الخامس



الألواح الطينية وحفر الأنفاق

لم يكن علم الآثار حَتَّى أربعينيات القرن التاسع عشر، سوى مجرد القيام بعمليات حفر بحثا عن الحضارات القديمة المفقودة. قام لايارد باكتشافات رائعة في نمرود، ونينوى، لكنه كان يواجه صعوبة واحدة: فلم يكن بإمكانه قراءة الكتابة المسمارية المصاحبة للنقوش الرائعة على جدران القصر الآشوري. فلم يعرف من هم هؤلاء الملوك الأقوياء الذين ذهبوا إلى الحرب، وحاصروا المدن، وصنعوا منحوتات على شكل أسود برؤوس بشرية تقف أمام بوابات قصورهم؟ كان ذلك المنقب الشاب على دراية بالمشكلة، لكنه لم يكن خبيرا في اللغات القديمة. كان يحتاج إلى شخص يستطيع قراءة النقوش المكتوبة على الجدران، والكتابات الصغيرة الموجودة في الأقراص الطينية التي كشفت

عنها الخنادق التي حفرها. في كتابه الأول، نينوى وآثارها، كان قد افترض أن نمرود كانت هي مدينة نينوى القديمة. لكن هذا كان مجرد تخمين، وكان على وشك أن يثبت خطأه.

كان شديد الاهتمام بالبحث في تل قوينجق، ونمرود – وهذا كان حال هنري رولينسون أيضًا، وهو دبلوماسي بريطاني كان يعمل في بغداد. كان هنري كريسويك رولينسون (1810 – 1895) فارسا بارعا، ماهرا في الرماية، ولغويًا حاذقا. انضم إلى الجيش الهندي في سن السابعة عشرة كضابط في فرقة الرماية في جيش بومباي التابع للجيش البريطاني الهندي، وقد بذل جهودا مضنية لتعلم الهندية، والفارسية، وغيرها من اللغات.

في العام 1833، انضم إلى بعثة عسكرية مقرها في مدينة كرمانشاه الكردية. وقد استقطع جزءًا من وقته، رغم مشاغله منْ أَجل ان يذهب إلى صخور جبل بيستون العظيمة، حَيْثُ امر الملك داريوس، عظيم الفرس (550 – 486ق.م) بصنع منحوتة ضخمة تغطي مساحة 111 مترا مربعا على الوجه الصخري المصقول، اللامع لتلك الجبال. يشمخ تمثال داريوس الأول العظيم (الملك الاخميني الثالث) منتصرا على غاوماتا، منافسه على العرش في عام 522 قبل الميلاد، بارتفاع 90 مترا فوق سطح الأرض. وقد كتبت ثلاثة نقوش بالعيلامية، وهي اللغة الفارسية القديمة، (لغة كانت منتشرة في جنوب شرق إيران الحديث)، ويعلن انتصاره على البابليين أيضًا.

ومثل غيره ممن سبقوه، أدرك رولينسون أن هذا النقش الموجود على جرف المنحدر الصخري الذي يصعب الوصول إليه عمليا كان بمثابة حجر رشيد بلاد ما بين النهرين. وقد تم فك رموز هذا النص الفارسي القديم، الذي كان مرتبا حسب الحروف الأبجدية، في العام 1802. وقام بتوسيع جرف المنحدر الصخري، ونسخه. لكن النصوص المكتوبة باللغتين البابلية، والعيلامية كانت تكمن في فجوة عميقة.

نصب راولنسون على وجه السرعة سقالات مؤقتة، وعرض حياته للخطر، لانه ارتفع عاليا فوق سطح الأرض لكي ينسخ النص العيلامي. كانت واجبات رولينسون العسكرية كثيرة، وتأخذ الكثير من وقته، ما جعله لا يملك الكثير من الوقت لتفحص النصوص، وهكذا تباطأ بحثه حَتَّى حصل على وظيفته الدبلوماسية في بغداد عام 1843. سمح له منصبه الجديد بقضاء بعض الوقت في البحث في الكتابة المسمارية، وبإجراء عملية نسخ أكثر دقة لصخور جبل بيستون. وقام بالاتصال بباحثين آخرين كانوا يحاولون اكتشاف اسرار الكتابة المسمارية، لَا سِيَّما إدوارد هينكس، وكان كاهنا في أحد أرياف إيرلندا، وجول أوبرت، وهو لغوي فرنسي ألماني. كان هولاء الثلاثة هم من وضع المبادئ الأساسية لفك رموز الكتابة المسمارية.

حدث الإنجاز الكبير في العام 1847، عندما قام رولينسون برحلته الثالثة إلى جبال بيستون لنسخ النقوش المكتوبة باللغة البابلية، التي يتعذر الوصول إليها. قام شاب كردي، ماهر

بتسلق الجبال مثل ماعز جبلي، بتعليق حبال من الأوتاد، وشق طريقه عبر وجه الجبل الصخري، وفي نهاية المطاف نصب الصبي كرسيا محمولا بسيطا لنفسه. ثُمَّ ضغط بالورق المبلل على الكتابة المنحوتة. وجفف الورق في قوالب يمكن استخدامها لتكرار الرموز. وباستخدام النقش بكامله، أصبح بإمكان رولينسون، الآن، استخدام الترجمة الفارسية لفك شفرة النص البابلي.

امتدت بحوث رولينسون حينها إلى النقوش التي عثر عليها لايارد في تل قوينجق ونينوى. وعندما كان يستعرض النقوش على جدران قصر الملك سنحاريب في تل قوينجق، حدد مراحل الحصار، ومِنْ ثَمَّ الاستيلاء على المدينة. وكيف عسكر جنود الجيش الآشوري الكبير أمام أسوار المدينة. وكيف كانوا يشقون طريقهم من خلال التحصينات. وعلى الرغم من المقاومة الشرسة، فقد سقطت المدينة. كان الملك سنحاريب، هو، من يقرر مصير المواطنين المهزومين، الذين سيصبحون عبيدا.

استطاع رولينسون ان يقرأ النص المرافق للنقوش: سنحاريب، الملك العظيم، ملك آشور، يجلس على العرش بينما كانت الغنائم من لكيش (مدينة في فلسطين) تمر من أمامه. لقد كان هذا امرا مثيرا – تم وصف حصار لكيش في العام 700 قبل الميلاد في سفر الملوك الثاني في الكتاب المقدس. توافد سكان لندن لمشاهدة المنحوتات عندما وصلت إلى المتحف البريطاني. وما تزال معروضة هناك، وهي تستحق الزيارة. كل هذه الاكتشافات أثارت اهتمام

العامة بعلم الآثار بشكل كبير جدا في وقت كان فيه تعليم الكتاب المقدس منتشرا في المدارس.

شجع رولينسون الباحثين الآخرين على التنقيب في جنوب بلاد ما بين النهرين، وكان من بينهم ج. ت. تايلور، وهو دبلوماسي في البصرة في الجنوب. أرسله رولينسون لاستكشاف مدن توراتية محتملة، بما في ذلك بعض التلال المنخفضة بالقرب من بلدة الناصرية، التي غالبا ما كانت تغمرها مياه نهر الفرات القريب. عثر تايلور على أسطوانة فيها نقوش مكنت رولينسون من التعرف على المكان، الذي كان يعرف محليا باسم تل المقير، كمدينة أور الكلدانية التوراتية، التلّ الذي يرتبط في سفر التكوين مع ظهور إبراهيم (انظر الفصل 20). وبالمقارنة مع مدن الشمال، فإن المدن في جنوب بلاد ما بين النهرين لم تكشف سوى عن اكتشافات مذهلة قليلة حَتَّى تحسنت أساليب الحفر بشكل كبير. كان الطابوق الطيني غير المفخور شديد الهشاشة بحَيْثُ لا يمكن للحفارين التعامل معه.

في العام 1852، قام المتحف البريطاني بتعيين هرمز رسام (1826 – 1910) كمدير لعمليات التنقيب تحت إشراف رولينسون. كان رسام نفسه آشوريا، ولديه صلات مع السكان المحليين، وكان يعمل مساعدا للباحث لايارد (انظر الفصل الرابع). كان شخصا طموحا، قاسيا، مخادعا، مشاكسا. أراد باستماتة أن يتم الاعتراف به كعالم آثار عظيم، وكان يعتقد أن الاكتشافات الرائعة هي طريقه إلى النجاح. عندما استأنف العمل في تل قويجنق،

حفر في منطقة تم تعيينها للفرنسيين، وكان يعمل ليلا، وفي السر، وقد كشفت له الممرات التي قام بحفرها عن نقش يظهر فيه ملك آشوري وهو يصطاد الأسود من عربته. في نهاية المطاف كشفت الحفريات عن القصة الكاملة للحملة الملكية الناجحة بدقة لصيد الأسود، وقد اكتملت بصور المتفرجين المبتهجين والاسود الميتة. وكما هو الحال مع قصة حصار مدينة لكيش، يمكنك أن ترى هذه المطاردة في المتحف البريطاني.

للأسف، فان الحفريات التي قام بها هرمز رسام في القصر كانت متسرعة وتجري بلا مبالاة، فلم يحافظ فيها سوى على بعض الرسومات. أما النقوش التي كانت مصنوعة على يد فنان ماهر، هو وليام بوتشر، فقد قام رولينسون بتقسيمها بين فرنسا، وملك بروسيا فريدريش فيلهلم الرابع. وعبئت حصة فرنسا في 235 صندوقا، وارسلت إِلى متحف اللوفر في باريس. أما الشحنة التي ربطت، وكانت متجهة إلى برلين، فقد شحنت على طوافات مصنوعة من جلد الماعز. لكن إلى الجنوب من بغداد، هاجم رجال القبائل الذين كانوا يقومون بأعمال السلب تلك الطوافات ونهبوها، ما اسفر عن رمي الصناديق في نهر دجلة، ومقتل العديد من أفراد الطاقم. لم يصل إلى باريس سوى صندوقين يضمان الاكتشافات الفرنسية في خورسباد، في أعالي نينوى. لحسن الحظ، فان النقوش التي تتحدث عن صيد الاسود تم شحنها بشكلٍ منفرد، ووصلت بسلامة إِلى لندن.

غادر هنري رولينسون بغداد في العام 1855. وأصبح ناشطًا في الشؤون الهندية، وكان يزور المتحف البريطاني باستمرار. وكان المتحف قد قرر بالفعل ان لا يستقبل أية حفريات آشورية أخرى. فقد تم العثور على الكثير من المنحوتات إلى الحد الذي اصبح فيه الكثير من الملوك الآشوريين يتواجدون في لندن. تلاشى اهتمام الرأي العام بالاثار في خلال سنوات حرب القرم (1853 – 1856) بين بريطانيا، وفرنسا، وروسيا. واصل عدد قليل من الباحثين الاهتمام بمئات الألواح المشحونة من بلاد ما بين النهرين من قبل لايارد وهرمز رسام، وغيرهم، أو في المجموعات التي تم شراؤها من التجار الذين يتعاملون بالحفريات غير القانونية.

عندما قام هرمز رسام بمسح أرضية الغرفة التي تضم تمثال الأسد البرونزي في تل قوينجق، وجد أيضًا مخبأ ضخما من ألواح الطين. ونظرا لأنه عدَّها غير مهمة، قام بتكديسها بسرعة في صناديق التعبئة. لكنه كان مخطئا للغاية، فقبل ثلاث سنوات، كان لايارد قد اكتشف جزءًا من مكتبة الملك آشور بانيبال الملكية في غرفتين صغيرتين (انظر الفصل الرابع). والآن وجد هرمز رسام البقية، التي سقطت على أرضية القاعة الكبرى عندما انهار السقف. احتوى أرشيف الملك على سجلات الحروب، وكذلك الوثائق الإدارية، والدينية. يسجل أحد اللوحين كيف أمر موظفيه بجمع الالواح الطينية الموجودة في جميع أنحاء مملكته. وبعد مرور أكثر من قرن ونصف، ما تزال تلك الألواح التي

يبلغ عددها 180 ألف لوح التي تضمها مكتبة أشور بانيبال، التي تم فك رموزها موجودة، ووفرت ما يكفي من المعلومات للسماح بتأليف قاموس كامل عن حياة الآشوريين القدماء.

وانتقل التركيز في الابحاث الآشورية من ميدان العمل إلى المتحف، والمكتبة. قامت مجموعة صغيرة من العلماء المختصين بالكتابة المسمارية بتفحص مجموعة من الالواح الموجودة في مكتبة الملك آشور بانيبال. وعملوا في قاعة دراسية مكتظة من دون معاجم، أو قواميس. أحدهم كان جورج سميث (1840 – 1876)، وكان صبيا خجولا، هادئا يتدرب على النقش، ومهتما بشدة بالكتابة المسمارية، بسبب أنه قرأ أعمال رولينسون في سن مبكرة.

وفي العام 1872، كان سميث قد قام بالفعل بفرز العديد من الألواح، وتصنيفها على فئات، وكانت إحدى تلك الفئات تدعى (أساطير). وعثر بالمصادفة على نصف قرص، ووجد فيه إشارة إلى سفينة موجودة على أحد الجبال، وهناك ذِكْرٌ لحمامة تم إرسالها للعثور على مكان للراحة، وكانت مجبرة على العودة. أدرك سميث في الحال أن هذا كان جزءًا من قصة الفيضان الواردة في سفر التكوين. الحكاية مألوفة لكل من قرأ الكتاب المقدس: قام نوح بجمع الحيوانات في سفينة، لينقذها من الطوفان، ثُمَّ أرسل حمامة، وغرابًا للبحث عن الأرض. لقد أنقذ نوح، وسفينته البشريةَ من الدمار. قفز سميث الذي كان عادة هادئا، وبات يتحرك في أرجاء الغرفة في حالة من الهياج الشديد.

في 3 كانون الأول 1872، ألقى جورج سميث محاضرة في اجتماع لجمعية الآثار التوراتية، وهي منظمة كانت تعنى بالحفريات المتعلقة بدراسة الكتاب المقدس. كان رئيس الوزراء وليام جلادستون يحضر الاجتماع. حقق سميث بتلك المحاضرة انتصارا، إِذ قام بترجمة أجزاء رئيسية من السرد تحمل إشارة مذهلة إلى القصة التوراتية. اشتبه سميث في أنه يمكن إرجاعها إلى أساطير سابقة. كانت القصة جزءًا من كلاسيكيات الأدب المبكر في بلاد ما بين النهرين، وهي ملحمة جلجامش. وكان جلجامش، وهو ملك مدينة أوروك في حوالي سنة 2600 قبل الميلاد، أي قبل فترة طويلة من ظهور الكتاب المقدس، قد قام برحلة ملحمية بحثا عن الخلود، لكنه فشل في العثور عليه. وبدا أن أقراص الفيضانات تثبت أن الإنجيل كان صحيحا. قدمت صحيفة ديلي تلغراف منحة للمتحف البريطاني مقدارها ألف جنيه لإجراء تنقيب جديد في نينوى للعثور على الفجوات المفقودة في القصة، بشرط أن يكون سميث، هو، من يقود العملية. وبشكل مثير للدهشة، وفي ظرف أسبوع واحد فقط من التنقيب في تل قوينجق في مقتنيات لايارد المتروكة، وجد سميث السطور السبعة عشر المفقودة حول بداية الفيضان.

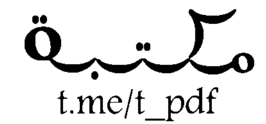
بعد شهر واحد فقط من الحفر، بدأ سميث رحلة العودة إِلى الوطن. وبعد أربعة أشهر، أرسله المتحف البريطاني مرة أخرى في محاولة للعثور على المزيد من الاكتشافات لصالح المكتبة الملكية. استعاد سميث أكثر من ثلاثة آلاف لوح في خلال ثلاثة

أشهر، وبشكل أساسي عن طريق التنقيب عن محتويات الغرف التي قام لايارد بحفر أنفاق حول جدرانها. في تلك الاثناء، كان لدى سميث 600 رجل يعملون في الحفريات. في العام 1875، وبينما كان عائدا من رحلته الثالثة، توفي بسبب عدوى في المعدة، فكانت وفاته خسارة كبيرة للمتحف البريطاني.

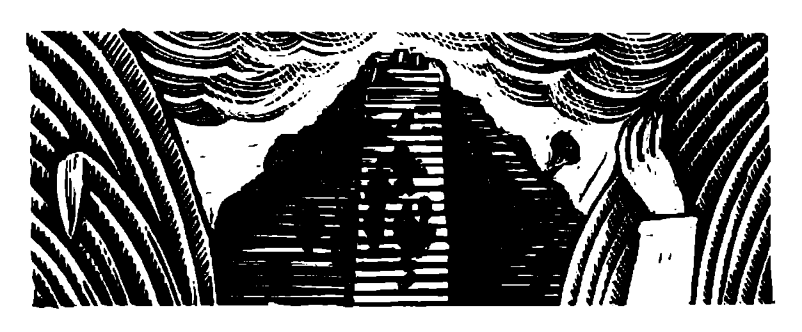
استؤنفت عمليات الحفر، والتنقيب في تل قوينجق تحت إشراف هرمز رسام. قام فريقه بتطهير أرضيات غرف القصر، واسترداد المزيد من الأقراص. وصف أحد النقوش المكتوبة على أسطوانة طينية، وكان يتألف من 1300 سطر، الغزوات التي قام بها آشور بانيبال. انتقل هرمز رسام إلى بابل، ولكنه مثل لايارد، كانت لديه أساليب غير مبتكرة للغاية للعثور على جدران من الطوب غير المفخور.

كان هرمز رسام يسارع بالانتقال من موقع إلى آخر، وانتهى به المطاف إلى تل (أبو حبة)، عند المدينة القديمة المسماة سابقًا سبار، حَيْثُ حفر حوالي 170 غرفة، واستعاد ما يصل إلى 70000 لوح. وكان أحد الالواح يصف كيف أصبح الملك البابلي المسمى نابونيدوس مهتمًا بعلم الآثار، وقام بالتنقيب في مدن أسلافه. عندما غادر هرمز رسام إلى إنكلترا، تحرك المتاجرون بالآثار، وتسببوا في تدافع غير لائق على الألواح المسمارية نتج عنه صراع شديد بين المتاحف في جميع أنحاء أوروبا. ما تسبب في أضرار لا تعد، ولا تحصى. كان لايارد، ومزهر رسام وروولينسون من الرواد، وكانوا يعملون في المناطق النائية في ظروف من الاضطرابات

القبلية. كان هذا، هو، علم الآثار العشوائي، الذي تجري ابحاثه دون أي تخطيط مسبق، دقيق؛ لكنه كان علم الآثار الذي برهن على صحة الكثير من حقائق التاريخ المذكورة في العهد القديم، ووضع بإحكام مكانا للمدن القديمة في التاريخ المكتوب. في تلك الأيام، عندما كان علم الآثار ما يزال في مهده، كان العديد من علماء الآثار أكثر انتهازية مثلهم مثل الحفارين. ومع ذلك، كان بعضهم عمالقة في مجالهم. واعتمدت الأجيال التي خلفتهم من علماء الآثار المحترفين على حقائق الاكتشافات التي قاموا بها.



الفصل السادس



اكتشاف حضارة المايا

المكان: مدينة كوبان في هندوراس. الزمان: العام 1840. كانت القرود تتنقل بين قمم الأشجار. كان صوت تكسر الاغصان اليابسة يبدد صمت الغابة، ويزعج الهدوء الذي يسود المدينة المهجورة التي تقع عبر النهر. تحرك قطيع من القرود يتألف من أربعين، أو خمسين قردا في طابور، مثل أرواح أولئك الناس المجهولين الذين كانوا قد سكنوا يوما في تلك الأطلال الغامضة. كانت هناك أهرامات ضخمة تكسوها النباتات ترتفع بين الأشجار. وكان جون لويد ستيفنز (1805 – 1852)، وهو رحالة، ومحامٍ أمريكي، وفريدريك كاثروود (1799 – 1854)، وهو فنان إنكليزي موهوب، قد أصيبا بالهلع، والدهشة، حينما شاهدا لأول مرة، الآثار المعمارية لحضارة المايا القديمة. حَيْثُ

شقا طريقهما من خلال تلك الشجيرات، وتعثرا ببعض الحجارة التي كانت منتصبة، ومنحوتة بإتقان. فلم يسبق لهما ان رأيا مثل هذا الفن المعماري من قبل.

كان كلا الرجلين من المغامرين ذوي الخبرة. ولد ستيفنس في نيو جيرسي. وقد التحق بجامعة كولومبيا في سن الثالثة عشرة، وتخرّج بمرتبة الأول على صفه في العام 1822. وكان من المقرر ان يتدرب على مهنة المحاماة، لكنه فضل السياسة، والسفر.

بدأ ستيفنس أولى تجاربه في السفر بقيامه برحلة اخذته غرب الولايات المتحدة إِلى مدينة بيتسبرغ في ولاية بنسلفانيا، واماكن ابعد منها. في العام 1834، انطلق في رحلة استكشافية استغرقت عامين أخذته عبر أوروبا إِلى ان وصل إِلى بولندا، وروسيا. ثُمَّ قام باستكشاف وادي النيل والقدس. وذهب أيضًا إِلى مدينة البتراء، وكانت تعد في ذلك الوقت مكانا بعيدا، خطيرا. وقد اثارت إعجابه مدينة قوافل الجمال العظيمة تلك مع معابدها الصخرية. وفي الاغلب فإن مدينة البتراء جعلته شغوفا بالحضارات القديمة مُنْذُ تلك الليلة.

كان ستيفنس كاتب قصص موهوبًا، بدأ رحلته مع الكتابة مع رسائله إِلى عائلته التي كان يروي فيها تفاصيل رحلاته. ظهرت بعض رسائله في صحف نيويورك، واستمتع بها الناس على نطاق واسع. ثُمَّ ألف كتابين عن مغامراته، وكان عنوان الكتابين كليهما هو (حوادث في السفر). أحدهما عن مصر، والأرض المقدسة، والآخر كان وصفا لاحوال بولندا، وتركيا،

وروسيا. كان اسلوب ستيفنس في الكتابة مباشرا وممتعا، وكان مراقبا دقيقًا للناس والأماكن. أصبح كلا الكتابين من أكثر الكتب مبيعا، وجعلا منه كاتب رحلات من الطراز الأول.

وعن طريق زملائه المؤلفين التقى بالفنان فريدريك كاثروود. كان كاثروود المولود في لندن صاحب موهبة فنية رائعة، ظهرت جليا عندما زار إيطاليا في العام 1821. وكان مثل ستيفنس، رحالة لا يهدأ له بال. وقام بين العامين 1822 و1835، بالتجوال على نطاق واسع في الشرق الأوسط. وعمل في مصر، مع الرحالة روبرت هاي، الذي زار، ودرس العديد من المواقع. كما زار القدس، حَيْثُ قام برسم سقف مزخرف، ومنيع لمسجد قبة الصخرة الإسلامي الذي شيد في القرن الحادي عشر. وللقيام بذلك، استخدم الكاميرا لوسيدا - وهي في الأساس مرآة تعكس صورة السقف على لوح الرسم الذي كان يستعمله. وعند عودته إلى لندن، ابتكر كاثروود مشهدا بانوراميا هائلا للقدس، زاد من شعبيته بشكل كبير. التقى ستيفنس مع كاثروود لأول مرة في المعرض في العام 1836. وفي وقت لاحق من ذلك العام، استدعاه كاثروود إلى نيويورك، وأسس مشروعا تجاريا ليعمل فيه كمهندس معماري. بحلول ذلك الوقت، أصبح هذان الرجلان صديقين، يتقاسمان الحماس للمغامرة، والشغف بالحضارات القديمة. ولكونه رجلا جادا فإن كاثروود كان ذا شخصية مختلفة تماما عن ستيفنس.

وفي ما كان الفنان يبحث باستمرار عن فرص جديدة، لفت انتباه صديقه إلى اثنين من المنشورات المعروفة على نطاق ضيق يصفان أنقاض اشياء غامضة في غابات أمريكا الوسطى. فاتفق الاثنان على القيام بفحصها، والتحقق منها يوما ما. ولحسن الحظ، فإن إنجازات كاثروود المعمارية، ومعروضاته حققتا أرباحا جيدة، وكذلك حققت كتب ستيفنس ارباحا لا بأس بها، فاصبح بمقدورهما السفر. ولتسهيل عملية دخولهما إلى تلك البلدان، تمكن ستيفنس من الحصول على وظيفة كدبلوماسي أمريكي في أمريكا الوسطى. في 3 تشرين الأول من العام 1839، غادر الصديقان نيويورك إلى مدينة ساحلية صغيرة معزولة اسمها بليز، تقع، الآن، في البلد الذي يحمل الاسم نفسه. ومن هناك، اصبح باستطاعتهما السفر إلى داخل البلاد إلى آثار مكان يدعى كوبان.

لم تكن الرحلة البرية عبر شبه جزيرة يوكاتان المليئة بالغابات سهلة. وكان الوضع السياسي تسوده الفوضى. سقطت البغال التي تحملهما في الوحل وسط الطريق الضيقة. وفي نهاية المطاف وصلا إلى قرية كوبان، التي كانت تحتوي على نصف دزينة من الأكواخ المتهدمة. في اليوم التالي، قادهما الدليل عبر الحقول، والغابات الكثيفة إلى ضفة النهر. ولمحا على الجانب الآخر، جدارا لإحدى مدن حضارة المايا.

حين وصل ستيفنز، وكاثروود لم يكونا يعرفان ما ينتظرهما. عبرا النهر على ظهور الخيل، ووجدا نفسيهما وسط مجموعة من المدرجات والأهرامات. وبشكل غير متوقع، وجدا امامهما

عمودا حجريا مربّع الشكل منحوتا عليه بشكل بارز ومرتفع رسم لرجل، وخطوط هيروغليفية متقنة. وعلى الفور اصبح من الواضح لهما أن البنى المعمارية، والأساليب الفنية في كوبان كانت مختلفة عن أي شيء موجود في منطقة البحر الأبيض المتوسط. أقام البناؤون أهرامات (تغطيها النباتات حاليا)، تفصل بينها الفناءات، والساحات العامة. وقد غطت الكتابة الهيروغليفية المنحوتة في الجبس (الجص الرفيع) المباني، وكانت هناك سلسلة من الأعمدة الفردية المزينة بزخارف غنية (المعروفة تقنيا باسم اللوحات التذكارية في كوبان)، هي ألواح من الحجر، أو الخشب يكون ارتفاعها عادة أطول من عرضها، تنصب أمام قبر للتعريف بصاحبه، أو للتذكرة بحدث تاريخي هام، أو لتحديد حدود بلد، أو حدود قطعة أرض تشكلت في عدة أشكال فقد تكون نقشا على البارز، أو نقشا محفورا، أو نقشا بارزا بحَيْثُ تخرج بعض الأعضاء، أو الأجزاء من اللوحة، أو غير ذلك. وكانت تصطف - هذه الاعمدة - التي تحمل صورا للحكام بشكل متداخل في الساحة المركزية. كما تم العثور عليها بالقرب من مجمع ملكي كبير من الاهرامات، والساحات، والقصور المتداخلة المتدرجة التي شكلت النواة الرئيسية للمدينة. وكان أكثر الاهرامات ارتفاعا، ما يعرف الآن باسم (المعبد رقم 16)، ويبلغ ارتفاعه أكثر من 30 مترًا، وكتب ستيفنس مادحا الغابة المهيبة، والساحات العامة، كمكان مثالي يشبه أي مدرج روماني قائلا: (كانت المدينة مهجورة)، (وكل شيء فيها غامض، يحمل

سرا غامضا ومبهما) وتساءل من بنى هذه الآثار المدهشة؟ كانت الطلاسم التي تحتويها تختلف تماما عن تلك الموجودة عند المصريين، ولم يكن لدى السكان الهنود المحليين أي فكرة عمن قام ببناء كوبان. وقارنها ستيفنس مع حطام سفينة (كانت تتكوم أمامنا مثل قارب محطم)، وتمكنا باستخدام البوصلة وشريط القياس، من تحديد موقع المدينة القديمة من خلال تقسيم سطح الغابة على مربعات صغيرة، ودراسة كل مربع على حدة. كانت هذه أول محاولة لتحديد موقع حضارة المايا. وعلى عكس ما فعل لايارد في بلاد ما بين النهرين، لم يقوما بأي عمليات حفر، بل اعتمدا على القياسات، والملاحظات الدقيقة منْ أَجل الكشف عن قصة مدينة كوبان الأثرية.

مكث كاثيروود فترة من الزمن لكي يرسم اللوحات، والنقوش المزينة بشكل متقن - وهي مهمة معقدة اختبرت قدرته الفنية. في هذه الأثناء، كان ستيفنس ينعم التفكير في من يكون قد قام ببناء كوبان. لقد أدرك على الفور أنه ليس من عمل قدماء المصريين، أو من بعض الحضارات الأخرى التي أبحرت عبر المحيط الأطلسي قبل عدة قرون. كانت كوبان مدينة غريبة، وفريدة من نوعها. وفكر انهما إذا استطاعا نقل حَتَّى جزء صغير من هذه الأنقاض إلى نيويورك، فيمكن ان يقيما بها معرضا رائعا. بعد الكثير من المساومة، اشترى ستيفنس كوبان من المالك المحلي مقابل 50 دولارا. ولحسن حظ علماء الآثار الذين سيأتون في المستقبل، فإن النهر لم يكن يحتمل المراكب

الكبيرة، وبالتالي فلم يستطيعا نقل أي شيء في الواقع. أمضى ستيفنس ثلاثة عشر يوما فقط في كوبان، لكن كاثيروود بقي فترة أطول. وكان يعمل وسط الأمطار الغزيرة، وكان الطين يصل إلى كاحليه، ويتعرض إِلى هجمات البعوض. كان من الصعب رؤية النقوش إلّا بواسطة ضوء قوي. كانت مهمته شاقة، لأن كوبان كانت تمتد إِلى ما يقرب من 3 كيلومترات وتحوي ثلاث ساحات، وأهرامات، ومعابد رئيسية.

في نهاية المطاف، التقى ستيفنس، وكاثروود في مدينة غواتيمالا سيتي. وتخلى ستيفنس عن أي تفكير في عمله الدبلوماسي. وقرر الرجلان التحقق من تقارير عن وجود مدينة ضخمة أخرى تعرف باسم بالينكي في جنوب المكسيك، التي كان يقال إنها رائعة مثل كوبان. اخذتهم الرحلة عبر التضاريس الوعرة جدا. وفي ذلك الوقت، اضطروا إلى ارتداء القبعات ذوات الحواف العريضة، والملابس الفضفاضة التي تجعلهم يشعرون بالراحة، لارتدائهم أزياء السكان المحليين.

كانت المراحل الأخيرة من الرحلة مروعة، على الرغم من انه كان يساعدهما أربعون حمالاً من السكان المحليين. كان عليهما في كثير من الأحيان ان يشقا طريقهما من خلال الاشجار المتشابكة، الكثيفة. لكن في النهاية، بانت لهما مدينة بالينكي من الغابة. كانت أصغر بكثير من كوبان. كان يحكمها باكال العظيم للفترة من سنة 615 إلى 683 ميلادية، وكان المعبد ذو النقوش

الرائعة يمثل النصب الجنائزي الخاص به. وقد تم دفنه تحت هرم المعبد، الذي تم التنقيب فيه أخيرًا في العام 1952.

أقام ستيفنس، وكاثيروود مخيما في مجمع قصر باكال الذي كان رطبًا جدًا لدرجة أن الشموع كانت لا تشتعل، وكان ستيفنس يسلي نفسه بقراءة الصحف في ضوء حشرات اليراعات المضيئة. وبسبب محاصرتهما من قبل البعوض والأمطار الغزيرة، تعثر الرجلان في البنايات التي كانت غير مرئية عمليا بسبب الغطاء النباتي المتشابك. وبينما كان كاثروود يرسم، كان ستيفنس يقوم ببناء سلالم بدائية، وتنظيف جدران القصر لتكون واضحة للفنان. كانت جدران المبنى سميكة ومزينة بشكل متقن، ومحاطةً بعدة ساحات، وبلغ طول المبنى 91 مترا. وضع الرجلان خطة عمل صارمة في غضون بضعة أسابيع، لكن الرطوبة، وأسراب الحشرات لم تمكنهما من الالتزام بها. كان ستيفنس مدركا الاهمية العلمية لمدينة بالينكي، وما يمكن ان تدره من اموال، لذلك حاول شراء أنقاضها مقابل 1500 دولار – وهو مبلغ أكثر بكثير من مبلغ الخمسين دولارًا الذي دفعه لشراء المدينة النائية كوبان. لكن عندما اكتشف أنه سيتعين عليه الزواج من امرأة من السكان المحليين منْ أَجل إبرام الصفقة، تراجع بسرعة. فر الرجلان بحثا عن مركز آخر لحضارة المايا، وهو أوشمال. لسوء الحظ، فقد اصيب كاثروود بمرض خطير كان مصحوبا بالحمى، ولم ينجح سوى في تمضية يوم واحد فقط في هذا الموقع الرائع.

في تموز من العام 1840، عاد الرجلان إلى نيويورك، حَيْثُ بدأ ستيفنس يعمل على كتابه في حوادث السفر في أمريكا الوسطى، وتشاباز، ويوكاتان، الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعا بعد مرور عام. قدم ستيفنس في هذا الكتاب - أفضل ما عنده، وكتبه بأسلوب سردي بسيط. ورغم ان الكتاب كان، من ادب الرحلات، لكن ستيفنس كتب عن هذه المواقع الثلاثة الكبيرة من منظور شخص كان على دراية تامة بالسكان الهنود المحليين. لقد أدرك أن الناس الذين بنوا كوبان، وبالينكي، وأوشمال كانت لديهم ثقافة مشتركة. وكان فنهم ينافس أرقى أعمال الحضارات المتوسطية، وكانت له جذور محلية. أنهى ستيفنس الكتاب باستنتاج واضح استنادًا إلى ملاحظاته، ومحادثاته مع السكان المحليين: من ان الخرائب التي رآها قد بناها أسلاف سكان المايا المحليين.

لم يكن ستيفنس، وحده، من كتب عن حضارة المايا. ظهر كتابه قبل عامين من نشر مؤرخ بوسطن، وليام أيج. بريسكوت، مؤلفه الكلاسيكي، غزو المكسيك العام 1843. واعتمد بريسكوت على عمل ستيفنس، ما ضمن قراءته على نطاق واسع من قبل زملائه العلماء. في غضون ذلك، وبعد مرور خمسة عشر شهرا فقط على عودتهما إلى نيويورك، عاد كاثروود وستيفنس إلى أمريكا الوسطى، مصممين على قضاء المزيد من الوقت في أوشمال.

مكث الرجلان في الفترة من تشرين الثاني 1841 إلى كانون الثاني 1842، بين الانقاض يقومان برسم الخرائط وإجراء عمليات

المسح، والرسم لما يمكن ان يُعدّ اروع مراكز حضارة المايا جميعا. تشتهر أوشمال بأهرامات معبدها، ومباني القصر الطويلة. وكانت تسيطر على دولة محلية ظهرت في الفترة من سنة 850 إلى 925. بعد الميلاد وهذه المرة أيضًا، لم يقم الرجلان بالتنقيب، بل ركزا على كيفية التحقق من صحة وجود الموقع، وبنايته الرئيسية، التي كانت تسمى بدير الكهنة. حاول كاثيروود كتابة سجل دقيق قدر الإمكان حَتَّى يتمكن من إنشاء نسخة طبق الأصل له عندما يعود إِلى نيويورك.

تمكن ستيفنس، على الرغم من تعرضه لنوبات من الحمى، من زيارة مواقع أخرى في المنطقة المجاورة، مثل كابا. كما تمكن من استعادة عدد قليل من عوارض ابواب خشبية منقوش عليها طلاسم معينة، وحملها معه في النهاية إلى نيويورك. ثُمَّ سافرا دون ان يحملا معهما امتعة ثقيلة، عبر يوكاتان. وأمضيا ثمانية عشر يوما في مدينة تشيتشن إيتزا، التي سبق ان اشتهرت من قبل بهرمها الكبير، كاستيلو، وساحة كبيرة للعب كرة القدم. كما التقيا ببعض العلماء المحليين الذين تشاركوا معهم في معلومات تاريخية قيّمة.

قام كاثروود، وستيفنس بزيارة كوزوميل وتولوم، وهي الأماكن التي أشار إليها المستكشفون الأسبان الأوائل، ولم يكن هناك الكثير لرؤيته باستثناء اسراب البعوض. مع ذلك، عاد المستكشفان إلى نيويورك في حزيران العام 1842. وظهرا بعد ذلك بأربعة أشهر أخرى، ثُمَّ صدر بعد تسعة أشهر كتاب

ستيفنس الذي انتشر أيضًا على نطاق واسع بعنوان أحداث السفر في يوكاتان، أعاد المؤلف التأكيد في الفصول الأخيرة من الكتاب، على أن أطلال حضارة المايا كانت من صنع السكان المحليين، الذين كانوا يعيشون حالة من الازدهار حَتَّى تعرضهم للغزو الإسباني. تستند جميع الأبحاث اللاحقة حول حضارة المايا إلى استنتاجه الصائب هذا.

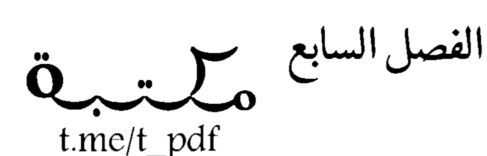
وكانت هذه هي نهاية المغامرات الأثرية لهذين الرجلين. عاد كلاهما إلى أمريكا الوسطى للمساهمة في مشاريع السكك الحديد. وعندما تمكن منهما مرض الملاريا، غادرا امريكا الوسطى. توفي ستيفنس في نيويورك عام 1852، بعد ان نهكته سنوات من المعاناة من الحمى المدارية. وهلك كاثروود في حادث تصادم في البحر قبالة نيوفاوندلاند بعد ذلك بعامين.

كان ينبغي ان تنقضي أربعون سنة قبل أن يتم القيام بأي عمل علمي في المواقع التي سجلاها بالكلمات، والرسومات. ومثل أوستن هنري لايارد، كان جون لويد ستيفنس راضيًا عما وصفه، وقام بتسجيله، تاركًا التنقيب لمن سيخلفه. وبصرف النظر عن صعوبات السفر، لم يكن لديه أي أموال للقيام بعمليات التنقيب. وعلى أي حال، فقد كان منشغلا بتأليف كتاب رحلات.

زحفت الغابات على مواقع حضارة المايا القديمة، وغطتها بعد وصول الأسبان في القرن الخامس عشر. ومع ذلك، فإن الأحفاد الجدد لأولئك الذين بنوا بالينكي، والمراكز الكبيرة الأخرى مايزالون يحتفظون بالعديد من عناصر ثقافة المايا

القديمة، بما في ذلك تقاليد الطقوس القديمة. لقد ضمن كاثروود وستيفنس برسوماتهما، ومنشوراتهما، أن حضارة المايا لن تختفي مرة أخرى في غياهب النسيان التاريخي.

الفصل السابع





الفؤوس والفيلة

وفقا لما جاء في سفر التكوين: « ان الله خلق في البدء السماوات والأرض » وأكمل تلك المهمة في ستة أيام. ثُمَّ قام بخلق رجل - (كائن حي). وضع الله الإنسان الأول في جنة عدن. التي كانت تتدفق منها أربعة أنهار، اثنان منها كانا نهر الفرات، ونهر دجلة في بلاد ما بين النهرين، التي تسمى ميزوبوتاميا، وتعني الأرض التي ما بين الأنهار.

إذن كم يبلغ عمر البشرية؟ ومُنْذُ متى كانت الأرض موجودة؟

مُنْذُ قرنين من الزمان، كانت التعاليم المسيحية تعدّ قصة الخلق المذكورة في العهد القديم حدثًا تاريخيا حقيقيا، وقد حسبت الكتب المقدسة وقت حدوثها في سنة 4004ق.م، وكان الاعتقاد بغير ذلك يعدّ تحديا لنصوص الدين المسيحي، وجريمة خطيرة.

لكن تبرز مشكلة كبيرة في هذا الامر: هل يمكن أن لا يكون كل تاريخ البشرية إلّا مجرد ستة آلاف سنة؟

شغلت مسألة الأصول البشرية عقول العلماء في وقت مبكر من القرن السادس عشر. واصابت الحيرة المهتمين بالاثار في جميع أنحاء أوروبا عندما عثروا على مجموعات من الأدوات الحجرية في الحقول المحروثة. وكان العديد منهم ينظر إِليها على انها اشياء من الطبيعة تشكلت بواسطة الصواعق. ثُمَّ جاء جون فرير وتغير كل شيء. كان جون فرير (1740 - 1807) أحد ملاك الأراضي الإنكليز، وخريج جامعة كامبردج، حَيْثُ درس الرياضيات، وحقق فيها نجاحا نسبيا. وأصبح عمدة مدينة سوفولك المرموق، وعضوًا في البرلمان من عام 1799 إلى عام 1802، لكن اهتمامه الرئيسي في أواخر حياته كان منصبا على الجيولوجيا (علم دراسة الصخور والأرض)، وعلم الآثار. كانت صلاته السياسية، والاجتماعية ممتازة، وانتخب زميلاً (عضوا) في الجمعية الملكية، وجمعية الآثار في لندن، وكانتا، كلتاهما، من الجمعيات المرموقة الكبرى في تلك الايام. وبكل المقاييس، كان رجلاً ساحرا، ينعم بفضول عميق نحو المناطق الريفية المحيطة بمنزله في رويدون هول في نورفولك، في شرق إنكلترا.

في العام 1797، اكتشف بعض عمال الطوب فؤوسا حجرية وعظام حيوان كبير في أحد حفر منجم لاستخراج الطين في هوكسن، وهي قرية صغيرة تبعد حوالي 8 كيلومترات عن منزل فرير، فنزل في الحفرة، وبدأ يحفر بعناية في جدرانها، حَيْثُ كشف

المزيد من الفؤوس، وعظام الفيلة المنقرضة (وهي ما تعرف اليوم بالحيوانات المدارية) الموجودة وسط طبقات الارض الخصبة.

أدرك فرير أن هذا شيء غير عادي. وفعل ما كان يقوم به معظم علماء الآثار في ذلك الوقت: كتب رسالة قصيرة إلى جمعية الآثار في لندن، مع العلم أن معظم الناس المهتمين في الماضي كانوا أعضاء فيها. وكما جرت العادة، تم في 22 حزيران 1797، قراءة تقريره الموجز علنا على الأعضاء، ونُشِر بعد ثلاث سنوات. قد يعتقد أحدهم انه حدث تافه؛ لكن ما كتبه فرير كان جديرا بالذكر حقًا. فقد وصف اكتشافاته بأنها: « أسلحة حربية، صنعها، واستخدمها شعب لم يكن يستخدم المعادن ». وعند هذه النقطة، لم يكن هناك شيء مدهش بشكل خاص، لأن العديد من زملائه كان يعتقد أن البريطانيين القدماء لم يكن لديهم أي نوع من المعادن. لكن ما كتبه بعد ذلك كان رائعًا حقًا: « إن الوضع الذي تم العثور فيه على هذه الأسلحة قد يغرينا بأن نجعلها تشير إلى فترة بعيدة جدًا بالفعل، حَتَّى أبعد من عالمنا الحالي ».

كانت كلمات فرير تتناقض بشكل أساسي مع التعاليم الدينية، ويجب أن تكون قد صدمت جمعية الآثاريين مثل الرعد. فقد كان أعضاؤها حذرين، وقوما محترمين، وكان من بينهم العديد من الكهنة. ولذا فقد نشروا الرسالة بهدوء، ثُمَّ نحوها جانبا، لقد تم تجاهل اكتشاف جون فرير مدة ستين سنة. لكن حَتَّى قبل الاكتشافات التي عثر عليها في قرية هوكس، كانت هناك بعض الاكتشافات القليلة لعظام الفيلة إلى جانب الأدوات

الحجرية التي صممها البشر في أوروبا. كان هذا مفاجئا، لأنه لم تكن هناك فيلة في القرن التاسع عشر. ومع ظهور المزيد من بقايا الفيلة، والأدوات الحجرية، أصبح من الواضح بشكل تدريجي أن البشر عاشوا في أوروبا قبل فترة طويلة من استخدام أي شخص للمعادن، وسكنوا إلى جانب الحيوانات المنقرضة مُنْذُ فترة طويلة. وعلى ما يبدو، أنهم حَتَّى كانوا يقومون باصطيادها. هل فعلوا هذا قبل تأليف الكتاب المقدس قبل ستة آلاف سنة؟

اصبحت ستة الآلاف سنة، تلك، من الوجود البشري مليئة باشخاص، وأحداث أكثر. على سبيل المثال، كيف يمكن للمرء أن يفسر الدوائر الحجرية الغامضة التي عثر عليها في أفيبوري، وستونهنج؟ كانت هذه بالفعل قديمة عندما غزا الجنرال الروماني يوليوس قيصر بريطانيا قبل أكثر من ألفي سنة. بدأ الناس يفكرون في مسألة لم يكن من الممكن التفكير فيها قبل ذلك: هل كان العالم موجودًا قبل الخلق الإلهي؟ عدّت التعاليم المسيحية هذا التفكير بانه غير مسؤول، وجريمة جنائية.

نحن نميل إلى النظر إِلى علم الآثار على أنه مجرد دراسة للمجتمعات البشرية القديمة، لكن وجهة النظر الضيقة هذه خاطئة. لا يمكنك الاعتماد على الحفريات الأثرية، والمصنوعات اليدوية وحدها لإعادة تكوين الماضي. فقد تطور علم الآثار جنبا إلى جنب مع التخصصات الأخرى، مثل علم الأحياء، والجيولوجيا. وقد اجتمعت جميعا عندما بدأ العلماء في مواجهة مثل هذه القضايا الصعبة كالبحث عن البدايات البشرية. لم تكن هناك

طريقة لفهم أصولنا دون دراسة كل من الحيوانات الأحفورية، وجيولوجيا الأرض، لإثبات أن البشر قد عاشوا قبل فترة طويلة من عام 4004 قبل الميلاد، وكان عليهم إثبات أنهم عاشوا إلى جانب الحيوانات المنقرضة مُنْذُ فترة طويلة وجدت آثارها في صخور طبقات الأرض.

دخل العلم والدين في صراع حاد. أعلنت التعاليم المسيحية في ذلك الوقت أن الله قد خلق الطبقات الجيولوجية للأرض في سلسلة من الأفعال الإلهية. وكانت هناك عدة مخلوقات فرقتها الكوارث. وأدت بعض هذه الأحداث إلى انقراض الحيوانات - وكان آخرها طوفان نوح. وبقدر ما كان الكتاب المقدس معنيًا، لم يكن بين البشر والحيوانات المنقرضة علاقة ببعضهم. ولكن مع تزايد وتيرة العمل في مجالات علم الآثار فانه بدأ يكشف عن الادلة التي تثبت تعايشهم معا في عصور جيولوجية قديمة جدا.

حدثت اكتشافات فرير للفؤوس الحجرية، وعظام الفيلة في قرية هوكسن في خلال فترة شهدت فيها بريطانيا تغييرات كبيرة. فقد بدأت المدن تزدهر وتتوسع. وبدأت أعمال حفر القنوات، وغيرها من أنشطة البناء التي كانت تجري على نطاق واسع، تكشف عن مزيد من الطبقات الجيولوجية في جميع الأماكن. وفي حين نسيت جمعية الآثاريين أعمال فرير، أحدث خبير متواضع في حفر القنوات المائية اسمه ويليام سميث (1769 - 1839) ثورة في الجيولوجيا من خلال ملاحظاته الميدانية التي سجلها

في أثناء عمله في تصميم طرق الممرات المائية عبر الريف. فقد حدد سميث التشكيلات الصخرية من مسافات طويلة. وحدد تسلسلات طويلة منها، تشكلت بوضوح على مدى فترات طويلة من الزمن. كان حماسه للتكوينات الجيولوجية معديا، وسرعان ما أصبح يعرف باسم (ستراتا سميث)، (وستراتا هو المصطلح الجيولوجي لطبقات، أو مستويات الارض).

وكان هذا الجيولوجي الرائع أيضًا جامعا متحمسا للاحافير. ساعدت خبرته الواسعة في الطبقات الجيولوجية على إدراك أن العديد من طبقات الأرض تحتوي على أحافير مميزة، وأن هذه التغيرات في الاحافير تمثل تغيرات في الزمن. كانت هذه طريقة مختلفة تماما للنظر إلى العالم. لم تكن هناك اشارات إِلى الكوارث المفاجئة، أو الأعمال الإلهية المثيرة. أصبح من الصعب على نحو متزايد أن نفترض أن الله قد خلق فجأة هذه الطبقات المعقدة. ومن المؤكد أنها تشكلت في خلال عدد من العمليات الطبيعية، مثل هطول الأمطار والفيضانات، والعواصف الرملية، أو الزلازل.

ظهرت عقيدة علمية جديدة، هي (الوتيرة الواحدة). وبعبارة أخرى، فإن العوامل الجيولوجية البطيئة نفسها التي شكلت الأرض في الماضي كانت ما تزال تعمل. لقد تطورت الأرض كما نعرفها في خلال عملية مستمرة من التغيير المستمر الذي امتد إلى الماضي البعيد. بدأ عالم الجيولوجيا البريطاني الشهير السير تشارلز ليل (1797 - 1875) عمله من حَيْثُ ما انتهى إِليه سميث. درس التعاقبات الجيولوجية في جميع أنحاء

أوروبا، وكتب أحد كلاسيكيات علوم القرن التاسع عشر. كان كتابه مبادئ الجيولوجيا محاولة لشرح التغييرات في الأرض التي نتجت عن العمليات الطبيعية التي كانت ما تزال تعمل، وفي تطور مستمر. هذا، بالطبع، جعل من الممكن القول بأن البشر قد نشأوا مُنْذُ فترة أطول بكثير من ستة آلاف سنة. لكن الكنيسة كانت ما تزال هي من تمتلك النفوذ بالكامل، وكان ليل حريصا على عدم مناقشة المسألة الشائكة للأصول البشرية في كتابه.

ومثل العديد من التطورات العلمية العظيمة، أثرت دراسة ليل الرائعة في الباحثين الميدانيين في تخصصات أخرى. وكان من بينهم عالم الأحياء الشاب تشارلز داروين، الذي قرأ مبادئ الجيولوجيا بينما كان في رحلة علمية استغرقت خمس سنوات على متن السفينة بيغيل بين عامي 1831 - 1836 جالت به جميع أنحاء العالم.

لاحظ داروين ان الطبقات الجيولوجية في أمريكا الجنوبية قد تشكلت بوضوح على مدى فترات طويلة من الزمن. كما إنّه كشف عن عدد من الاحافير، وتفحص الأنواع الحديثة من الحيوانات، وخاصة الطيور، التي تغيرت تدريجيا مع مرور الوقت. كانت هذه الملاحظات هي التي قادته إلى نظريته الثورية في التطور، والانتخاب الطبيعي.

ازداد الاهتمام بالحيوانات المنقرضة، خصوصًا عندما ظهرت عظامها من الطبقات المدفونة في الكهوف. أصبحت حفريات الكهوف طريقة عصرية للعثور على حيوانات منقرضة مُنْذُ فترة

طويلة. وبدأت الأدوات الحجرية تظهر في بلجيكا، وفرنسا في نفس طبقات الكهوف التي ظهرت فيها عظام الحيوانات المنقرضة. في بريطانيا، قام كاهن كاثوليكي، هو الأب جون ماكنري (1797 – 1841)، بالحفر في كهف كينتس، وهو كهف كبير بالقرب من توركاي في جنوب غرب إنكلترا، في عامي 1825 و1826. ووجد هناك قطعا حجرية، وعظاما لحيوان وحيد القرن المنقرض مدفونة في نفس المستوى، تحت طبقة من الصواعد (رواسب جيرية تتشكل على أرضية الكهف بواسطة نزول قطرات من السقف). ربما كان ماكنري كاهنا، لكنه أصبح مقتنعا بأن الناس والحيوانات (التي هي الآن منقرضة) قد عاشوا جنبا إلى جنب مع بعضهم البعض مُنْذُ أكثر من ستة آلاف سنة. اختلف معه أتباع الكنيسة البارزون، وادعى بعضهم أن الناس قاموا بالحفر في وقت لاحق في المستويات القديمة، وتركوا أدواتهم جنبا إلى جنب مع احافير عظام الحيوانات.

على الرغم من ذلك، وبفضل ما عثر عليه في كهف كينتس، بدأ قادة المؤسسة العلمية في الانتباه إلى القطع الأثرية البشرية. والحيوانات المنقرضة التي بات يتم العثور عليها الآن بشكل روتيني. وكانوا مهتمين بشكل خاص باكتشافات جاك بوتشر دي بيرتيس (1788 – 1868)، وهو مسؤول جمارك صغير، في أبفيل في وادي السوم في شمال فرنسا. كان بأوتشر دي بيرثس يزور مقالع الحصى التي حول المدينة في كل يوم تقريبا. واكتشف فؤوسًا حجرية مصنوعة بدقة في نفس المستويات التي وجدت

فيها عظام الفيلة المنقرضة، والوحوش، الغابرة الأخرى. اصبح مهووسا بأدواته، وكان يقول انها من صنع الناس الذين عاشوا قبل الفيضان التوراتي.

للأسف، منحت الفرصة لدي بيرث لان يلقي محاضرات طويلة مملة عن اكتشافاته. وفي عام 1841، كتب كتابا بعنوان من الخلق، وهو عبارة عن احاديث بخمسة اجزاء حول أصول الإنسان، وقد جعل العلماء يصفونه بالنزق. بحلول عام 1847، عندما نشر الجزء الأول لمقالة أخرى طويلة، كان بأوتشر دي بيرتيس مقتنعا بأن الفؤوس التي اكتشفت في وادي السوم كانت قديمة جدا بالفعل. وقد اتى إصراره بنتيجة. فقد زار عدد قليل من الخبراء الفرنسيين المقالع، واستنتجوا أنه كان على حق. وصلت آراؤهم المؤثرة إلى كل من باريس، ولندن. ولو لم يكن بأوتشر دي بيرتيس مملا بهذا الشكل، فربما تم الاعتراف باكتشافاته قبل وقت اطول بكثير.

في العام 1846، شكلت جمعية توركوي للتاريخ الطبيعي فريقا لاستكشاف كهوف كينتس من جديد. وأوكلت إِلى ويليام بينجلي، وهو أستاذ جامعي، وعالم جيولوجيا موهوب، مهمة قيادة فريق التنقيب الجديد. وأكدت اكتشافاته استنتاجات الأب ماكنري. وظهر كهف آخر في أثناء التنقيب فوق مدينة بريكسهام، عبر خليج توركاي في العام 1858. وقد لاحظت لجنة بارزة من الجمعية الملكية تحقيقات بنغلي هناك. فقد اكتشف العديد من عظام الحيوانات المنقرضة. تحت طبقة سميكة من الصواعد

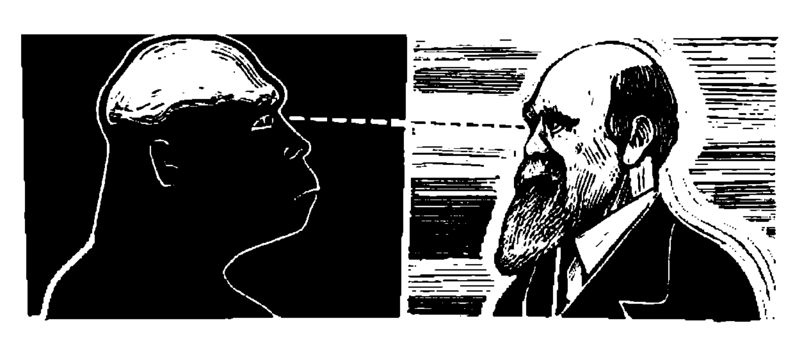
على أرضية الكهف وشملت هذه الحيوانات أسود الكهوف، والماموث (وهو الفيل الذي يحب الاجواء الباردة، ويمتاز بطول الشعر)، وأشكالا قديمة من حيواني وحيد القرن، والرنة، جنبا إلى جنب مع الأدوات الحجرية التي صنعها الإنسان. ومُنْذُ ذلك الحين لم يعد أحد يشك في الارتباط بين الأدوات البشرية والحيوانات المنقرضة.

في العام 1859، قبل أن ينشر تشارلز داروين كتابه أصل الأنواع، قام عضوان بارزان في المؤسسة العلمية بزيارة قصيرة إلى مواقع وادي السوم في فرنسا: وهما الجيولوجي جوزيف بريستويش، والآثري جون إيفانز، الخبير الرائد في الأدوات الحجرية. حفر ايفانز بنفسه بحثا عن فأس حجرية في طبقة على نفس مستوى الطبقة التي اكتشف فيها عظم الفيل المنقرض. عاد العالمان إلى لندن مقتنعين بأن البشر عاشوا على الأرض قبل فترة طويلة من زمن الخلق المذكور في الكتاب المقدس. ونشْرا النتائج التي توصلا إليها في مقالات تمت قراءتها في الجمعية الملكية، وجمعية الآثار في لندن، في نفس المكان الذي عرضت فيه رسالة جون فرير المختصرة حول مكتشفات قرية هوكسن قبل ستة عقود.

لقد تغير الزمن في النهاية، ولم تعد الأدلة العلمية موضع خلاف. لم يعد هناك أي شك في أن البشر لهم تاريخ يمتد إِلى فترة زمنية طويلة للغاية.

اثارت اكتشافات بريكسهام والسوم تساؤلات خطيرة حول السلالة البشرية. من الواضح أن البشر قد ظهروا لأول مرة قبل ستة آلاف عام بفترة طويلة. لكن كم هو طول هذه الفترة؟ كان من شأن نظرية التطور الشهيرة التي جاء بها تشارلز داروين، واكتشاف جمجمة بشرية غريبة المظهر في ألمانيا أن تمهدا الطريق لدراسة ماض إنساني نهايته مفتوحة.

الفصل الثامن



نقطة التحول الكبرى

حدثت مفاجأة مذهلة بعد بضعة أشهر من عودة جون إيفانز، وجوزيف بريستشتش من زيارتهما إلى مقالع الحصى في وادي السوم مصطحبين معهما الادوات الحجرية، وعظام الفيلة. فقد ادى كتاب اصل الانواع الذي قام بتأليفه تشارلز داروين إلى وضع علم الآثار في مركز المناقشات حول الأصول البشرية. أثبت علماء الآثار، والجيولوجيون أن البشر عاشوا على الأرض إلى جانب الحيوانات المنقرضة. قدمت نظرية داروين في التطور، والانتقاء الطبيعي تفسيرات لكيفية تطور الحيوانات، وغيرها من الكائنات الحية بمرور الوقت.

أزالت نظرية داروين الجديدة كل إمكانية لوجود حدود بين العالم الحديث، وأي عالم سابق مأهول بالحيوانات المنقرضة.

لم تبعد الفيضانات الرهيبة، أو الانقراض العظيم العلماءَ الذين عاشوا في منتصف القرن التاسع عشر عن الاماكن الطبيعية التي كانت تسكنها الحيوانات البدائية، أو البشر الأوائل. ولم يعد هناك أي شك حينها في أن الحيوانات المنقرضة، والبشر عاشوا على الأرض في نفس الوقت. كان العام 1859 نقطة تحول ضخمة في علم الآثار – وفي العلوم بشكل عام. واجهت أسئلة جديدة علماء الآثار وعلماء الأحياء على حد سواء. هل كانت هناك أشكال سابقة من البشر على وجه الأرض قبلنا؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكم يبلغ طول الفترة الزمنية التي مرت مُنْذُ ان عاشوا؟ وكيف يمكن أن نأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الكبيرة بين المجتمعات البشرية الحية وأسلافها؟ وجهت قنبلة داروين رسالة إلى علماء الآثار لكي يبحثوا عن إجابات لهذه الأسئلة – ويبحثوا عن البشر الأوائل وأدواتهم.

أصبح تشارلز داروين (1809 – 1882) عالِما بيولوجيا متحمّسا، وهو ما يزال طالبا في جامعة كامبريدج. رحلته الطويلة حول العالم على متن السفينة بيغل التي استمرت للفترة من 1831 إلى 1836 زودته بمعلومات حول العديد من النباتات، والحيوانات. سرعان ما بدأ يدون في دفتر ملاحظاته التغييرات التي طرأت على الحيوانات مع مرور الوقت. وقام بفحص الطبقات الجيولوجية في اراضي أمريكا الجنوبية، وأدرك أن حجج تشارلز لييل في نظرية الوتيرة الواحدة كانت صحيحة. ولكن التحول الكبير حدث عندما قرأ داروين مقال الباحث توماس مالثوس حول

مبدأ السكان، الذي نشر في العام 1798. الذي جادل فيه ان أعداد الحيوانات، بما في ذلك البشر، تزداد إلى حدود تفوق حجم إمداداتها الغذائية. وقام داروين بتطوير هذه الحجة إلى مرحلة متقدمة، وكتب يقول إن التقدم البشري كان نتاجا للطبيعة، وان الآلية لتحقيق هذا التقدم هي العملية التدريجية للانتقاء الطبيعي.

يسبب الانتقاء الطبيعي تغيرات في خصائص الكائنات الحية من جيل إلى جيل. وتتميز الحيوانات بوجود تباينات فردية في مظهرها وسلوكها، مثل حجم الجسم، وعدد السلالات، وما إلى ذلك. بعض الصفات تكون موروثة - تنتقل من الوالدين إلى الابناء. في حين يكتسب البعض الآخر من الصفات، بشدة، بتأثير الظروف البيئية. ومن غير المرجح ان تنتقل من الوالدين إلى الابناء. وقد نجا الأفراد الذين لديهم سمات مناسبة تماما للمنافسة على الموارد المحلية فحسب - وهو ما أسماه داروين (الصراع منْ أَجل البقاء). فقد حافظ الانتقاء الطبيعي على التغيرات الطفيفة، والمفيدة التي نقلها أعضاء من أجناس مختلفة من الحيوانات إلى أبنائهم. نجا الأفراد المحظوظون، وتكاثروا في حين رحل الأشخاص الأضعف. وينطبق الانتقاء الطبيعي على جميع الحيوانات، بما في ذلك البشر.

طرح داروين آلية الانتقاء الطبيعي على طاولة البحث. لكنه لم يتناول قضية التطور البشري، لأنه شعر أنه سيمنع الكتاب من الحصول على التقييم الذي يستحقه. وقد اشار إلى أن جوهر نظريته هو مجرد تسليط الضوء على تطور البشر. مرت اثنتا عشرة سنة

قبل أن ينشر كتاب (أصل الإنسان)، الذي استكشف العلاقة بين الانتقاء الطبيعي والتطور البشري.

وضع داروين، أيضًا، نظرية تفيد أن اصل البشر قد نشأ في إفريقيا الاستوائية، حَيْثُ عاشت العديد من القرود العليا. اليوم، نحن نعرف أنه كان على حق. قدم بحثه الرائد سببًا مقنعًا لبحث علم الأثار في اماكن وجود البشر الأوائل. جعلت نظرية التطور انه من المؤكد القول إن البشر قد جاءوا من القردة. أصاب الرعب العوائل المحترمة في العصر الفيكتوري. ضمّت الأمهات أطفالهن إليهن، وهمسن بعضهن إلى بعض بأنهن يأملن أن تكون الشائعات غير صحيحة. واستهزأت المجلات الساخرة من فكرة ان اسلاف الإنسان هم القرود بنشر رسوم يظهر فيها داروين بجسم قرد، وآخر يظهر الغوريلا، وهو غاضب من ادعاءات داروين بأنه أحد احفاده. كان رجال الدين يهاجمون نظرية التطوُّر في مواعظهم الدينية.

ولحسن الحظ، كان لداروين حلفاء أقوياء، من بينهم توماس هنري هكسلي (1825 – 1895)، أحد أعظم علماء الأحياء في القرن التاسع عشر. كان هكسلي رجلاً مميزا له هيئة تشبه الأسد، وشعر، وشارب أسود. وكان خطيبا مفوها بارعا، طرح قضية التطور، والانتقاء الطبيعي بقوة لدرجة أنه أصبح يُعرف باسم (كلب داروين المخلص). وبالتدريج، تلاشت المعارضة لأفكار داروين، إلّا في أوساط المسيحيين الأكثر تشددا. لم يكن لدى أحد أي فكرة عن شكل البشر الأوائل. قبل ثلاث سنوات من

نشر كتاب (أصل الأنواع) لداروين، اكتشف عمال المحاجر في وادي نياندر بالقرب من مدينة دوسلدورف، في ألمانيا، جمجمة سميكة، ومجموعة من عظام الأطراف في أحد الكهوف. كانت الجمجمة ذات المظهر البدائي لها جبين واسع متجعد، وكانت على شكل كعكة - على عكس الرؤوس الملساء المستديرة للأفراد المعاصرين تماما. احتار الخبراء بهذا الاكتشاف. وأعلن عالم الأحياء المعروف هيرمان شافهاوزن أن هذه المكتشفات هي بقايا سكان قبيلة قديمة متوحشة من أوروبا. وانكر زميل للعالم شافهاوزن يدعى رودولف فيرشو، وهو أيضًا جراح موقر، تلك الفرضية قائلا ان العظام تلك خاصة بإنسان غبي مشوه.

ولكن كلب داروين المخلص كان له رأي آخر. إذ اعلن أن جمجمة نياندر تعود لإنسان بدائي عاش قبل البشر المعاصرين، أي قبلنا نحن. وقام بإجراء دراسة مفصلة عن تلك البقايا وقارن العظام واحدة، واحدة مع الهيكل العظمي لحيوان الشمبانزي. كانت أوجه التشابه بين الاثنين مذهلة. وكتب هكسلي كتابا كلاسيكيا عن التطور البشري استنادا إلى النتائج التي توصل إليها. وفي كتابه (مرتبة الإنسان في الطبيعة)، الذي صدر في العام 1863، أعلن أن جمجمة إنسان نياندرتال كانت تعود لأوائل البشر البدائيين على الإطلاق، ولشخص له صلة واضحة بأجدادنا الشجعان. وهذا كان الدليل على أن البشر ينحدرون من القردة، كما لمحت إلى ذلك نظرية داروين. كانت جميع الدراسات الحديثة عن أحافير البشر الأوائل موجودة في هذا

الكتاب القصير المكتوب بشكل جميل، واضح. تأثر هكسلي بشدة بالنتائج الحديثة في علمي الجيولوجيا، والآثار، بالإضافة إلى نظرية التطور.

ظهرت المزيد من الهياكل العظمية لإنسان النياندرتال في الكهوف، وملاجئ الصخور في جنوب غرب فرنسا في خلال ستينيات القرن التاسع عشر، وسبعينياته. وبدا إنسان النياندرتال بفكه المتعرج، والحواجب الثقيلة، والجبهات المنحدرة، المدمجة بإحكام بشكل بدائي، كثير الشبه بالقردة العليا. وأصبح أحد الشخصيات الكاريكاتورية التي تعيش في الكهوف، وقد صوّرهم رسامو الكاريكاتير وهم يحملون الهراوات الثقيلة. كانت هناك حاجة إلى اكتشاف المزيد من الاحافير لإثبات حَتَّى التفاصيل الأساسية للتطور البشري.

وتزايد الحديث عن وجود (حلقة مفقودة) بين القرود، والبشر، وهذه الحلقة المفقودة تمثل آخر اسلاف البشر. يعتقد كثير من الناس أن داروين كان على صواب في أن مثل هذه الحلقة المفقودة سوف يتم اكتشافها في إفريقيا الاستوائية. بما أن هذا هو المكان الذي ازدهرت فيه معظم أشكال القرود، فكان من المنطقي الافتراض أن البشر الأوائل ظهروا هناك. بدلا من ذلك، حدثت الاكتشافات الاحفورية البشرية الهامة التالية بعد إنسان نياندرتال في أماكن أخرى.

كان أوجين دوبوا (1858 – 1940) طبيبا هولنديا، وأصبح مهووسا بالأصول البشرية. كان يعتقد أن أسلافنا جاءوا من

جنوب شرق آسيا، حَيْثُ تم العثور على العديد من القردة أيضًا. كان دوبوا عازما بشدة على اكتشافها إِلى الحد الذي ادعى فيه أنه يعمل موظف صحة حكوميًا في جاوا في العام 1887. في خلال العامين التاليين قام بالبحث بصبر، وأناة في حصى نهر سولو، بالقرب من بلدة ترينيل الصغيرة. واكتشف هناك قمة جمجمة، واحد عظام الساق العلوية، واضراس أسنان تعود لإنسان يشبه القرد اطلق عليه اسم Pithecanthropus erectus، الذي يعني (إنسان القرد الذي يقف منتصبا)، لكنه كان يُعرف شعبيًا باسم (إنسان جاوة). لقد كان، يمثل كما قال، الحلقة المفقودة بين القرود والبشر. واليوم، يعرف باسم الإنسان المنتصب. وقد سخر المجتمع العلمي الأوروبي من ادعاءات دوبوا، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن كل الأحافير البشرية المبكرة كانت تأتي من أوروبا حَتَّى ذلك الوقت. سخر العلماء منه. وقد فتنوا من قبل بإنسان نياندرتال، الذي (بدا) بدائيا. تحطمت نفسية دوبوا، وعاد إلى أوروبا، ويقال إنه أخفى الاحفوريات تحت سريره.

في مطلع القرن، أصبح ناس النياندرتال، بالنسبة لمعظم الناس، هم سكان الكهوف المتوحشين الذين يمشون بتثاقل، كما صورتهم الرسوم الكاريكوتورية في الصحف، والمجلات. وفي المقابل، أصبح العلماء مهووسين (باكتشاف) رائع قام به أحد المحامين، وصيادي الأحفوريات، ويدعى تشارلز داوسون، في محجر الحصى في بيلتداون في جنوب إنجلترا العام 1912.

فقد زعم داوسون أيضًا أنه عثر على (الحلقة المفقودة) – لكنها كانت مزيفة. فقد صُنعت من جمجمة تعود إِلى القرون الوسطى، وفك سفلي لإنسان يبلغ من العمر 500 عام، وأدخل إِليها بعناية أسنان شمبانزي من إحدى المتحجرات، ولطخت العظام بمحلول الحديد لتبدو قديمة. كان من شبه المؤكد ان داوسون، الذي كان متعطشا للاعتراف العلمي به، هو من صنع هذا التلفيق الفاضح. كان داوسون يعرف أن العلماء في ذلك الوقت كانوا يعتقدون أن تطور الدماغ الكبير حدث قبل استهلاك نظام غذائي متنوع من قبل البشر المعاصرين. وهكذا (يُعتقد) أنه خلق بهدوء إنسانا أحفوريا بجمجمة كبيرة من شخص معاصر خضع لعملية تشريح، ثُمَّ أضاف أسنان شمبانزي معدلة بشكل مناسب لصنع (إنسان بيلتداون) البدائي.

وعلى الرغم من أنه يبدو مدهشا، لم يكن أحد يشك في الاكتشاف. لكن يجب أن نتذكر أنه في ذلك الوقت لم تكن هناك الأدوات التحليلية اللازمة للتحقق من عمر الاحفور الذي يكتشف. وقد كشف التحليل الكيميائي للعظام الذي اجري في العام 1953 عن التزييف الذي حصل. ومع ذلك، فإن اكتشافات الاحفوريات الأخرى التي جرت في ذلك الوقت في كل من إفريقيا، والصين كانت تلقي بظلال من الشك على إنسان بيلتداون، الذي لم يكن يبدو انه يشبههم بأي شيء. كان اكتشاف دوبوا الذي سماه Pithecanthropus erectus قد تعرض للنسيان نوعا ما حَتَّى حلول عشرينيات القرن العشرين، عندما

قام فريق مسح جيولوجي صيني بالتنقيب في كهف عميق في منطقة تشوكوديان التي تقع جنوب غرب بكين. وقد اكتشف الفريق، الذي ضم باحثًا ميدانيا سويديا، وعالما صينيا يدعى بى وينزهونج، عظاما بشرية. أثبتت العينات أنها مطابقة تقريبًا لما اكتشفه العالم دوبوا في منطقة تريلين في إندونيسيا. سرعان ما تم جمع شكلا Pithecanthropus البيثكانكوثروبوس، واطلق عليهما تسمية Homo erectus (الإنسان المنتصب).

على الرغم من اكتشاف إنسان نياندرتال والإنسان المنتصب، بقيت هناك فجوات هائلة في قصة الماضي لا يعرف شيء عنها. فقد كانت تفصل آلاف السنين بين الفؤوس الحجرية التي تم اكتشافها في قرية هوكسن، ووادي السوم من، والأحافير البشرية التي تم اكتشافها لاحقا والمواقع الأثرية الاحدث بكثير مثل ستونهنج. لم يستطع أحد أن يحدد عمر الأحافير التي اكتشفها دوبوا، أو ما تم اكتشافه في كهف نياندر. كل ذلك ساهم في ملء الفجوة التاريخية بين حفريات جافا، وإنسان النياندرتال، واصبحت إدراج المتاحف مليئة بالأدوات الحجرية التي لا يعرف تاريخها. وأظهرت أن التكنولوجيا أصبحت أكثر تعقيدا بمرور الوقت، ولا شيء آخر.

كان السؤال الملح هو من كان أقرب إِلى البشر؟ والسؤال الآخر كيف عاشت معا تلك المجتمعات البشرية المختلفة إِلى حد بعيد؟

ظهرت نظريات التطور الاجتماعي الإنساني، بشكل خاص في أعمال عالم اجتماع اسمه هربرت سبنسر (1820 - 1903). عمل سبنسر في زمن التصنيع السريع، والتغير التكنولوجي الكبير. لذلك من غير المستغرب أن يجادل سبنسر بأن المجتمعات البشرية قد تطورت من مجتمعات بسيطة إلى معقدة، ومتنوعة للغاية. سمحت هذه النظرية لعلماء الآثار أن يتصوروا وجود عملية تطور منظمة من المجتمعات القديمة البسيطة إلى المجتمعات الحديثة المعقدة. لكن ماذا كانت تشبه المجتمعات القديمة؟ كان سبنسر يكتب مؤلفاته في وقت أصبحت فيه المعرفة بالمجتمعات غير الغربية في إفريقيا، والأمريكتين، وآسيا، والمحيط الهادئ متاحة على نطاق واسع. وباستخدام أوصاف المستكشفين للقبائل غير المعروفة حَتَّى ذلك الحين، بالإضافة إلى أعمال كاترينوود، وستيفانز، وغيرهم، يمكنك بسهولة تخيل شجرة التقدم. كان يوجد في القاعدة البشر البدائيون النياندرتال، وكذلك الشعوب التي كانت تعيش على الصيد مثل السكان الأصليين لاستراليا، وتسمانيا. في المرتبة الأعلى كانت توجد الحضارات المتطورة مثل حضارات الأزتيك، والمايا والكمبودية. وبالطبع كانت تتربع على القمة، الحضارة الفيكتورية. كان الناس يحاولون سبر اغوار كل من الاحفوريات البشرية، والاكتشافات الأثرية في إطار سهل الفهم، ومنطقي. جلبت نظريات التقدم البشري إطار عمل ملائمًا للماضي الذي لم يكن معروفا كثيرا، الذي كشف عنه علماء الآثار. لكن بعض الناس ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك.

فقد اعتقد عالم الاجتماع البريطاني، السير إدوارد تايلور (1832 – 1917) ان المجتمعات البشرية مرت بثلاث مراحل: الوحشية (مجتمعات الصيد والطيور)، والبربرية (مجتمعات زراعية بسيطة)، والمتحضرة. كانت رؤية بسيطة، وتدريجية إلى الماضي غازلت الجماهير الفيكتورية، التي كانت تؤمن بقوة بالتقدم التكنولوجي كعلامة على الحضارة. ومن كان يستطيع إلقاء اللوم عليهم؟ في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعرف أي شيء تقريبًا عن علم الآثار خارج الحدود الضيقة لأوروبا. تعكس هذه النظريات البسيطة الافتراض الشائع بأن الحضارة في القرن التاسع عشر تمثل ذروة تاريخ البشرية الطويل. وكما شاع في الستينيات، والسبعينيات من القرن التاسع عشر، بدا تطور الإنسانية مثل سلّم مرتب بشكل منظم. لكن كل ذلك كان قد تغير عندما كشفت الاكتشافات الأثرية في إفريقيا والأمريكتين، وآسيا عن عالم ما قبل التاريخ الأكثر تنوعا وحيوية.

الفصل التاسع



مفهوم العصور الثلاثة

كانت اكتشافات علماء الآثار الأوروبيين في بداية القرن التاسع عشر لغزا محيرا. بالنسبة إلى معظم دارسي ماضي أوروبا، فان التاريخ الحقيقي بدأ مع يوليوس قيصر والرومان. وكان هذا هراء، بالطبع، لأن هناك العديد من المواقع الأثرية الموجودة قبلهم. لكن كل شيء اقدم من يوليوس قيصر مثل الفؤوس الحجرية المصقولة، والسيوف البرونزية، والزخارف المصنوعة من البرونز، كانت عبارة عن خليط من المكتشفات المحفوظة في إدراج المتاحف وخزاناتها، والمقتنيات الخاصة لبعض الافراد. لم تكن فوضى المصنوعات اليدوية، والمواقع الأثرية ذات معنى تاريخي. فالكتب المقدسة، وهي مصدر تاريخي شائع الاستخدام، ليس لديها ما تقدمه. كيف يمكنك إنشاء إطار للماضي البعيد؟

هل استخدمت شعوب مختلفة أدوات حجرية، أو سيوفًا معدنية متطورة؟ ماذا كانت تشبه؟ هل كان هناك أناس يعيشون في بريطانيا، ودول أوروبية أخرى يشبهون الأمريكيين الأصليين، كما اشار جون أوبري (انظر الفصل الأول)؟ لم يكن أحد يعرف ما هي المجتمعات البشرية التي عاشت في أوروبا قبل الرومان.

أخذ قليل من الأوروبيين علم الآثار على محمل الجد، مثل الدانماركيين. لم يغزُ الرومان الدنمارك ابدا، ما يعني أن شعبها شعر بعلاقة قوية بسكان البلاد القدماء.

كان علم الآثار هو الطريقة الوحيدة لدراستهم، وتطور جنبا إلى جنب مع اهتمام وطني قوي بالقطع الأثرية لعصر ما قبل ظهور المسيحية. لكن المنقبين الدنماركيين، مثل نظرائهم الإنكليز، والفرنسيين، خاضوا صراعا مع الفوضى التي اثارتها الاكتشافات الأثرية. لم يكن من قبيل المصادفة أن المحاولات الأولى لخلق النظام بدلا من تلك الفوضى نشأت في الدول الاسكندنافية.

في العام 1806، ألفت الحكومة الدنماركية لجنة مختصة بالآثار لحماية المواقع الأثرية، ولإقامة متحف وطني. في العام 1817، كلف أعضاؤها كريستيان يورجنسن تومسن (1788 - 1865) ليقوم بترتيب مجموعات الاثار الوطنية وعرضها، (كانت في ذلك الوقت، مكدسة في الطابق العلوي لإحدى الكنائس).

كان تومسن ابن أحد التجار الأثرياء، وكان جامعًا متحمسا للعملات المعدنية. وقد جعل منه عقله الدقيق، المنظم الشخص المثالي لترتيب موجودات المتحف. فأي شخص يجمع العملات

بشكل جاد يصبح مصنفًا، ومعتادًا على وضع الأشياء بالتسلسل وفقًا لنماذجها. وبكل المقاييس، استمتع تومسن أيضًا بمقابلة الناس، والمشاركة في المحادثات. أضف إلى ذلك موهبته في كتابة الخطابات، التي منحته فرصة إقامة اتصالات في جميع أنحاء الدنمارك وخارجها، واصبح مدير متحفٍ مثاليًا.

بدأ تومسون المجتهد بتسجيل المقتنيات الأثرية في سجل، أو دفتر محاسبي خاص، تماما كما هو الحال في الأعمال التجارية. واصبح لكل قطعة رقم خاص بها. وتم تصنيف المقتنيات الجديدة، وترقيمها أيضًا. وهذا مكنه من الوصول الفوري إلى أي قطعة في المتحف. وتمكن في غضون بضعة أشهر، من تصنيف 500 قطعة أثرية. وقد منحته هذه العملية الروتينية من تصنيف القطع الأثرية، وإدخالها في السجلات نوعا من الإلفة مع مجموعة واسعة من القطع الأثرية التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ. تضمنت مجموعات كوبنهاغن آلاف الأدوات الحجرية المستخدمة في مواقع الصيد القديمة جدا، وصفوفًا من الفؤوس الحجرية، والبلطات (أداة قطع بشفرة موضوعة بزاوية قائمة على المقبض) التي كانت تستخدم في أعمال النجارة في الماضي البعيد. كانت هناك خناجر حجرية مصنوعة بشكل جميل، وسيوف برونزية، والعديد من الزخارف. كانت الفهرسة شيئا واحدا، لكن تصنيف مجموعة مختلطة من السيوف الحجرية والسكاكين الصغيرة، والبلطات البرونزية، والدروع، والحلي الذهبية المتفرقة كان أمرا مختلفا تماما. لاحظ تومسون أن الكثير من المقتنيات الأثرية جاءت

من المدافن، حَيْثُ كان يرقد الاموات جنبا إلى جنب مع الأواني الطينية، أو الفؤوس الحجرية، وربما كان إلى جانبهم بروشات، أو دبابيس مزخرفة. تباينت مرفقات المقابر (هي الحاجيات التي تدفن مع الجثث. غالبا ما تكون مرفقات المقابر أشياء شخصية، أو مؤنًا تلطف من رحلة الميت بعد الموت، أو تكون قرابين للآلهة) متفرقة عن بعضها، وكان ما يميزها الاختلافات في المصنوعات اليدوية. لاحظ تومسن بعد فحصه العديد من المدافن، أن بعض القبور تحتوي على قطع آثرية معدنية، لكن البعض الآخر يحتوي على قطع أثرية من العظام، أو الحجر فحسب. قرر استخدام المواد الخام المستخدمة لتصنيع الأدوات الأثرية كأساس للتصنيف.

في العام 1816، قسم التاريخ الدنماركي على ثلاث مراحل. المرحلة الأقدم، وهي التي تقابل ما نسميه اليوم مرحلة ما قبل التاريخ، وعصر ما قبل التاريخ المكتوب، وهي (الفترة الوثنية). وقسمها على ثلاثة عصور: العصر الحجري، والعصر البرونزي، والعصر الحديدي. وهكذا وُلد نظام (العصور الثلاثة الشهير) الذي غير التصورات حول عصور ما قبل التاريخ.

واستند نظام العصور الثلاثة إلى القطع التي جمعها تومسون في المتحف. فكان العصر الحجري يمثل الفترة التي كانت تستخدم فيها الحجارة، وقرون الوعول، والعظام، والخشب فحسب في صنع الأدوات والأسلحة. يتبعه العصر البرونزي الذي يضم التحف البرونزية، والنحاسية. ثُمَّ يأتي، بعد ذلك، العصر الحديدي، عندما دخلت إلى حيز الاستخدام الأدوات المصنوعة

من الحديد. فكر تومسن في الأعمار الثلاثة كإطار زمني لعصور ما قبل التاريخ. ولقد طوّره بعناية، مستخدما مجموعات مختلفة من المكتشفات في المدافن التي لم يمسسها أحد، والمواقع الاثرية الشاخصة آنذاك. ربما كان المرء يتوقع أن يكون تومسون امين متحفٍ مهووسًا بجمع القطع الأثرية، لكنه لم يكن كذلك. لم تعرض قاعات متحفه الأعمال اليدوية التي تعود إلى العصور الثلاثة فحسب؛ بل عرضت أكثر من ذلك بكثير، لأنه تأكد من أن زواره كانوا يعلمون أن علم الآثار لا يهتم بالأشياء فحسب، بل بالناس أيضًا.

كان توماس يحدث زوار المتحف عن تلال الدفن المتناثرة في الريف حَيْثُ كان يعيش في يوم ما الرجال، والنساء، وعن الحلي الذهبية، والبرونزية التي كانت تلمع على صدور النساء، أو كانت متوهجة في ضوء الشمس في ساحة معركة طويلة طواها النسيان. كان المتحف يفتح ابوابه يومين في الأسبوع، وبعدها بدأ يفتحها فترات أطول. كان تومسون يقوم في كل يوم خميس في الساعة الثانية، بعرض المقتنيات للزوّار المتجمعين حوله، المفعمين بالحماس، واحيانا يقوم حَتَّى بوضع قلائد ذهبية قديمة حول رقاب الفتيات الصغيرات. لقد استطاع ان يجعل الماضي ينبض بالحياة. ألف تومسون كتابا واحدا فقط، وهو دليل قصير إلى آثار بلدان الشمال، نُشر العام 1836 وانتشر في جميع أنحاء أوروبا. وقام بوصف مفهومه عن العصور الثلاثة، الذي كان بسيطًا، ومبنيا على مقتنيات المتحف الموثقة جيدا. وتمكن نظام

تومسن للعصور الثلاثة من حل هذا الارتباك. في غضون وقت قصير بشكل مدهش، أصبح نظام العصور الثلاثة هو الإطار المستخدم لتقسيم عصور ما قبل التاريخ.

يعتمد علم الآثار على عمليات التنقيب، والاستقصاءات الميدانية، لكن الأبحاث التي تجرى داخل المختبرات كانت ذات أهمية مماثلة. لا أحد يستطيع أن يصف تومسون، فقد عرّف نفسه بباحث ميداني، فهو، قبل كل شيء، امين المتحف. تركزت حياته المهنية على التنقل بين قاعات المتحف. ولم يقم بعملية تنقيب إلّا مرة واحدة فقط، في العام 1845، عندما قام هو وزميل له بالبحث في مدافن العصر البرونزي. كان أحد الموتى قد تم حرق جثته، وقد وضع سيفه، وبروش فآخر له في مخبأ مصنوع من جلد ثور. تميزت عملية التنقيب التي قام بها تومسن بدقتها، وهذا انعكاس لدقة تفكيره، وشغفه بالتفاصيل.

قضى توماس الكثير من وقته في البحث عن المقتنيات الأثرية البسيطة، والأعمال اليدوية المتناهية الصغر، لكنه أحدث أيضًا ثورة في الإطار العام للماضي. فمع تطور نظام العصور الثلاثة، وُلد الوجه الجديد لعلم الآثار، والتصنيف الأثري.

لكن ما زالت هناك حاجة إلى إثبات أن العصور الثلاثة تتبع بعضها بعضا، وهناك حاجة إلى تحديد تأريخها.

في العام 1838، جاء طالب جامعي شاب يدعى ينس ياكوب فوغسوي (1821 – 1885) لمقابلة تومسن. كان مهتما بعلم الآثار مُنْذُ فترة طويلة، وكان يحتفظ بمجموعة كبيرة من

الآثار. أصبح هذا الشخص، واسع الذكاء، متطوعًا في المتحف يعمل بلا أجر، لكنه سرعان ما ازعج تومسون، لانه لم يكن يخشى ان يعبّر عن آرائه، وكان كاتبا متمكنا.

لحسن الحظ، فان الملك كريستيان الثامن استحسن كثيرا أبحاث هذا الشاب الذي صدر كتابه الأول (أقدم الآثار في الدنمارك) العام 1843، وترجم إلى الإنكليزية العام 1849. كان كتابا رائعا عن نظام العصور الثلاثة، واصر فوغسوي على أن حفر المواقع الأثرية، هو، السبيل الوحيد لكتابة المراحل الأولى المبكرة من تاريخ الدنمارك، باستخدام المصنوعات اليدوية بنفس الطريقة التي يستخدم بها المؤرخ الوثائق. أعجب الملك كثيرا بفوغسوي الشاب لدرجة أنه أرسله في جولة في الجزر البريطانية لدراسة آثار الفايكنغ، وهم البحارة، والتجار الاسكندنافيون الذين عاشوا بين القرنين الثامن، والحادي عشر. وقد أسفرت تلك الرحلة عن تأليفه كتابا آخر، وكدليل على قوته انها جعلت الملك يعينه مفتشا على عمليات حفظ الآثار. كان فوغسوي يسافر باستمرار، يسجل المواقع، وينقذ الكثير منها من الدمار. وعلاوة على كل شيء، قام بحفر العديد من المدافن المغلقة العائدة إلى العصر البرونزي، واستعاد جثث الموتى وممتلكاتهم، التي شملت السيوف، والدروع، والأواني الطينية وبقايا الملابس الجلدية. وقد وفرت هذه الاكتشافات لمحات تعريفية بحياة أشخاص مختلفين، والتقنيات التي كانوا يستخدمونها – وهي لمحات من نظام العصور الثلاثة التي كشفت عن الماضي. وكانت

اكتشافات فوغسوي ذوات أهمية كبيرة. وأكدت ملاحظاته الدقيقة أن ترتيب نظام العصور الثلاثة الذي وضعه تومسون كان صحيحا. وإِلى الوقت الذي جرت الحفريات التي قام بها فوغسوي، كانت الابحاث الأثرية تعتمد كليا على مقتنيات المتحف. والآن باتت تعتمد على الحفريات أيضًا.

اثبت فوغسوي بعمله الدؤوب أن البحوث الأثرية يمكن أن تنتج لنا حقائق عن الماضي. عندما ظهرت جثة امرأة محفوظة بشكل جيد في أحد المستنقعات في جنوب الدنمارك، زعم اصحاب الافكار التقليدية الذين كانوا يؤمنون بالأساطير أنها جثة الملكة الاسطورية غونهيلد، وتعود إِلى بدايات العصور الوسطى. اعلن فوغسوي انه لا يتفق معهم، وأثبت أنها تعود لامرأة من العصر الحديدي.

اهتمت الكثير من أبحاث فوغسوي بالتلال المدفونة، وفي الحقيقة، فقد تم الحفاظ على قدر كبير من ماضي الدانمارك في مثل هذه المعالم، لكن ليس جميعه. على طول الخطوط الساحلية في البلاد، توجد مئات من أكوام الصدف الكبيرة من الأزمنة السابقة – أكوام هائلة من اصداف المحار، وغيرها من الرخويات. بعضها كان مجرد أكوام قمامة. لكن بعضها الآخر عاش فيه الناس، وبنوا المنازل.

كان أول شخص قام بالتحقيق في هذه المسألة، هو، يابيتوس ستينستروب (1813 – 1897)، وهو أستاذ علم الحيوان في جامعة كوبنهاغن. وقد أطلق على جميع هذه المواقع

اسم (kjokkenmoddinger) وهي كلمة دنماركية تعني (ما يتبقى من طعام في المطبخ)، والطريقة الوحيدة لفهم هذه المواقع، هي، بدراسة المجتمعات غير الغربية التي ما تزال تعيش حينها، ويعتمد نظامها الغذائي أساسا على المحار. كان ستينستروب وزملاؤه، ولَا سِيَّما عالم الآثار الإنكليزي جون لوبوك، مهتمين بشكل خاص بالهنود الفيجيين الذين كانوا يعيشون في الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية. كان تشارلز داروين قد وصفهم في أثناء رحلته على متن السفينة بيغل. كان لديه - وفي الحقيقة كان لدى لوبوك وستينستروب أيضًا - اعتقاد بانهم لا يتصفون بقدرات عالية، وقاما بالتعليق على أساليب الحياة البدائية لجامعي المحار.

وقد عينت الحكومة الدنماركية في حينه لجنة من ثلاثة علماء - ضمت كلا من ستينستروب، وفوغسوي لفحص هذه المواقع. كما تم جلب علماء آخرين، بما في ذلك علماء الحيوان لتحديد نوعية المحار.

قام فوغسوي بفحص العديد من أكوام الاصداف. وكان أكبر ما حققه، في أثناء القيام بأعمال الطرق، العثور على كوم كبير من الاصداف في منطقة ميليغارد حَيْثُ كشف مقطع عرضي لاحد التلال عن طبقات سميكة من اصداف المحار وبلح البحر. كما تم الكشف عن قرون لوعول، ورؤوس حراب، وأدوات حجرية، ومداخن، وهي أدلة على وجود نشاط قديم جدا. ووصف فوغسوي ميليغارد بأنها كانت (مكانا لتناول الطعام).

ظل ستينستريوب، وفوغسوي لسنوات سابقين عصرهم. لم يدرسا القطع الأثرية فحسب، بل قاما أيضًا بتسجيل أنواع الرخويات التي كانت موجودة في اكوام الاصداف - وكان ذلك أول بحث معروف عن طريقة عيش الناس آنذاك.

وفي الوقت نفسه، درس زملاء فوغسوي التغيرات المناخية في الماضي السحيق، مستخدمين طبقات من طين المستنقعات التي تحتوي على بقايا نباتات فيها. ومع انتهاء العصر الجليدي، كانت المساحات المفتوحة الواسعة من الاراضي المحيطة بالصفائح الجليدية قد فسحت المجال لنمو غابات اشجار البتولا المتحملة البرودة. وبعد ذلك، ومع ارتفاع درجة حرارة المناخ، حلت غابات البلوط محل البتولا. حَتَّى إنّ ستينستروب فحص عظام الطيور المهاجرة ليحدد الفصول التي كان تستخدم فيها اكوام الاصداف تلك. كان ذلك تطورا ثوريا، بحقّ، في علم الآثار، عزز البيئات القديمة. نشر ستينستروب عمله قبل ان تصبح هذه الأساليب شائعة بقرن من الزمان.

كان فوغسوي يمثل قوة رئيسية في علم الآثار الاسكندنافية لعدة عقود. وقام بتدريس عصور ما قبل التاريخ في جامعة كوبنهاغن، وهو أول أستاذ لهذه المادة في الدول الاسكندنافية. ثُمَّ غادر الجامعة ليصبح مديرا للمتحف الوطني في العام 1866، وهو المنصب الذي شغله حَتَّى وفاته في العام 1885.

في وقت وفاته، كان علم الآثار الإسكندنافية متقدما سنواتٍ عن منافسيه. وقد وفر التطبيق الصارم لنظام العصور الثلاثة،

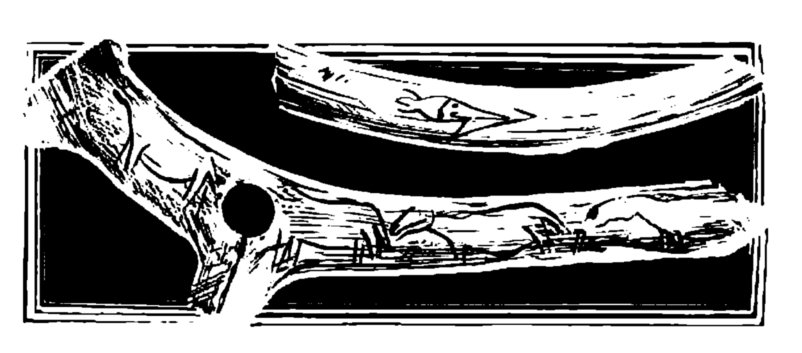
والمراقبة الدقيقة لطبقات التربة، واكوام الاصداف إطارا عاما لعلم الآثار في شمال أوروبا. وجرت عدة محاولات لتنقيح مفهومه في العقود التالية، فأصبح نظام العصور الثلاثة، والتصنيفات المفصلة لجميع أنواع المصنوعات اليدوية لعصر ما قبل التاريخ، مسائل روتينية في جميع أنحاء أوروبا.

وضع توماس ورساي الأسس لعلم الآثار الأوروبي لعصر ما قبل التاريخ - بل ولعلم الآثار عموما. جلب نظام العصور الثلاثة تنظيما واسعا إلى عصر ما قبل التاريخ. وقد شمل العصر الحجري الفؤوس التي عثر عليها في وادي السوم، والاكتشافات التي قام بها فرير، والإنسان المنتصب، وإنسان نياندرتال، بالإضافة إلى المجتمعات الزراعية المبكرة.

أما العصر البرونزي، والعصر الحديدي فقد غطيا فترات أكثر حداثة، حَتَّى ظهور الحضارة في الشرق الأوسط، واماكن أخرى أبعد.

قدم هذا الإطار العام نوعا من الجسور المنظمة التي تربط بين أقدم المواقع المعروفة. مع المزيد من المواقع المكتشفة حديثا. لكن بقيت هناك فجوات كبيرة. وسوف تقوم الاكتشافات المهمة في وديان الأنهار في جنوب غرب فرنسا، والبحيرات السويسرية بملء تلك الفجوات بمجتمعات الصيد الرائعة، والمجتمعات الزراعية المتطورة.

الفصل العاشر



صيادون من العصر الحجري في عالم جليدي

في العام 1852 عثر أحد عمال الطرق، مصادفة، على كهف في سفوح جبال البيرينيه، بالقرب من قرية أورينيك الصغيرة في جنوب فرنسا. قام العامل بالحفر في أرض الكهف الملساء، بحثا عن كنز مدفون. وبدلاً من ان يجد ذهبا، كشف عن بقايا رفات سبعة عشر شخصا دفنوا بجانب خرزات مصنوعة من الاصداف، وأسنان ماموث. فقام الكاهن المحلي بإعادة دفنهم في مقبرة القرية على الفور.

وصلت الأخبار في النهاية إلى إدوار لارتيه (1801 – 1871)، وهو محامٍ محلي له شغف بالجيولوجيا والاحفوريات، والأدوات الحجرية القديمة. بعد ثماني سنوات من البحث الأصلي، ذهب إلى أوريغناك، واقحم نفسه في البحث عما تبقى من الكهوف التي

تم ردمها. كشف حفره المتسرّع عن مدخنة من الرماد والفحم، بالإضافة إلى عدد من الأدوات الحجرية المصقولة بشكل رائع التي كانت قديمة جدًا. احتار لارتيه في اكتشافاته. وتساءل من هم الذين صنعوا هذه الادوات القديمة؟ كانت الأدوات التي اكتشفت في أوريغناك مختلفة تماما عن الفؤوس الحجرية التي عثر عليها بوشيه دو بيرث على طول نهر السوم (انظر الفصل 7).

وقد بدأ لارتيه تدريبه الجيولوجي، وأدرك أن أفضل فرصة للعثور على الإجابات تكمن في الكهوف التي يسكنها البشر، وملاجئ الصخور (الصخور المتدلية في المنحدرات).

إذا زارت أجيال عديدة من الأشخاص نفس الموقع، فستزداد الفرص لوجود طبقات عاش فيها الإنسان كلما امتد الزمن. ترك لارتيه الاحفوريات الجيولوجية، واصبح عالم آثار. في هذه العمل، كان رائدا في مقاربة جديدة للتنقيب لا تتضمن تلالا مدفونة، مثل تلك الموجودة في الدول الإسكندنافية، بل كهوفا، وملاجئ صخرية.

قام لارتيه بالتنقيب في العديد من الكهوف الأخرى، ووجد عظام حيوانات، وأدوات حجرية. وقادته اتصالاته مع الجيولوجيين إلى قرية صغيرة، كانت تُعدّ نائية في ذلك الوقت، تدعى ليه إيزيس، تقع في منطقة دوردون بجنوب غرب فرنسا. وهذا موقع رائع من فرنسا يستحق ان يستكشفه المرء، إِذ يمر به نهر الفيزير، والأنهار الأخرى عبر الوديان العميقة المنحوتة بفعل الفيضانات القديمة. أنا دائما أحب زيارة هذا الريف ذي

الاراضي الرطبة، والحقول الخضر، والغابات الكثيفة، والمروج على ضفاف النهر. تعلو فوقك مرتفعات الحجر الجيري. تثقبها الكهوف العميقة والتلال الصخرية في الأودية المحجوبة التي توفر الحماية المناسبة في خلال فصول الشتاء التي تكون فيها درجات الحرارة دون الصفر المئوي.

لم يكن لاريه يملك الاموال الكافية لتمويل أعماله، لكنه اقام صلات قوية مع هنري كريستي (1810 – 1865)، وهو مصرفي إنكليزي ثري، ساهم في العديد من الأعمال التجارية (وكان من ضمنها تجربة استعمال الحرير المنسوج بدلا من فراء القندس التقليدي لقبعات الرأس). كان كريستي أيضًا جامعًا متحمسا للآثار، وأصبح مهتما بجمع مقتنيات الأمريكيين الأصليين. في العام 1853 زار اسكندنافيا، حَيْثُ فتنته مجموعات الآثار المعروضة في متاحف كوبنهاغن، وستوكهولم. وفي أثناء وجوده في أمريكا العام 1856 التقى إدوارد تايلور، وهو عالم أنثروبولوجيا (كان يدرس المجتمعات غير الغربية التي كانت موجودة آنذاك)، وسافر معه إلى المكسيك.

بعد ان سمع قصصا عن آثار ليز إيزيس، زار كهوف دوردوني مع إدوار لاريه. أصبح الرجلان صديقين متعاونين. قدم كريستي الأموال، وحاز على معظم المكتشفات. في حين قام لاريه بأعمال التنقيب. وفقا لمعايير التنقيب في الكهوف في وقتنا الحاضر، فقد كانت تلك أعمال حفر بدائية. كان (لاريه) جيولوجيا تعود على فحص طبقات الارض من خلال متحجرات الحيوانات المتغيرة.

كان يعلم أن أول الدلائل على أي نشاط سيكون موجودا في القاع. أثمرت تلك الحفريات عن اكتشاف العديد من القطع الأثرية مثل قرون، وعظام الحيوانات، والمصنوعات اليدوية من حجر الصوان. واستطاع لاريه بالاعتماد على الأدوات الحجرية المميزة، والحيوانات المختلفة الموجودة في كل طبقة، مثل حيوانات الرنة، والخيول البرية، اكتشاف عدة مستويات للنشاط البشري. وكشفت حفرياته عن الكهوف، والملاجئ الصخرية التي اصبحت أسماء مألوفة لعلماء الآثار اليوم مثل لو موستيرو، لو فيراسيه، وكذلك لو ماديلين.

تقع الملاجئ الصخرية المعروفة باسم لو ماديلين على حافة مياه نهر فيزير. هنا اكتشف لارتيه أرقى الإشغال اليدوية المصنوعة من القرون، والعظام تحوي جميع النقاط الحساسة في القرون، وتحوي، أيضًا، الحراب التي توجد النصال والإبر على جانب واحد منها، أو على كلا الجانبين. وما اثار دهشته، انه وجد، أيضًا، شظايا عظمية مزينة بنقوش دقيقة، يحمل بعضها أنماطًا بسيطة، بينما كان بعضها أكثر تعقيدا. ومع ذلك تم نحت العظام الأخرى في شكل حيوان جميل. كانت إحدى المنحوتات التي على شكل ثور يلعق جراحه مفصلة للغاية بحَيْثُ يمكن رؤية الدموع، وهي تترقرق في عيني الثور.

لكن من هو الذي كان فنان لو مادلين؟ بعد عدة سنوات من الحفريات، اكتشف لاريه، وكريستي سلسلة من التغيرات المتعاقبة التي شهدتها مجتمعات العصر الحجري. كان أقدمها

اكتشاف نشاط لإنسان نياندرتال في كهف لا موستير. كان إنسان نياندرتال، ذو الحواجب الكثة، مختلفا تماما عن الناس المعاصرين. لم يكونوا مثلنا على الإطلاق. إذن من هم الذين كانوا اسلافنا؟

جاءنا الجواب في العام 1868 عندما كشف العاملون الذين كانوا يقومون بحفر أساسات لمحطة سكة حديد جديدة في ليز إيزيس، عن مأوى صخري مدفون في كهف يدعى كرو ماغنون. حفر لارتيه في الجزء الخلفي من المأوى، وقام بالتنقيب في خمسة هياكل عظمية بشرية، بما في ذلك بقايا جنين، وعدد من البالغين. كانت بينهم امرأة واحدة، ربما تكون قد قُتلت بضربة في الرأس. كانت الهياكل العظمية موجودة وسط خرزات الصدف، والقلائد العاجية المبعثرة. لم تكن تلك الهياكل العظمية تعود لإنسان النياندرتال ذي حافات الحواجب الكثة: كانت ذوات رؤوس مستديرة، وجباه مستقيمة. كان مظهرهم مطابقا لمظهر البشر المعاصرين. اعتقد لاريه، بشكل صحيح، أنه وجد الأجداد البعيدين للأقوام الأوروبية المعاصرة. جاءت تلك الهياكل العظمية من نفس الطبقة الاثرية التي جاءت منها عظام حيوان الرنة، والحيوانات الأخرى المحبة للبرودة. كان هذا دليلاً على أن البشر المعاصرين عاشوا في أوروبا في فترة من البرد الشديد، في العصر الجليدي الأخير (المعروف الآن أنه كان موجودا مُنْذُ حوالي ثمانية عشر ألف سنة). كتب لاريه، وكريستي عن ما سمّياه (عصر الرنة)، لكن هل كان هذا حقيقة؟ لقد أمضى

عالم الجيولوجيا السويسري لويس أغاسيز سنوات عديدة في دراسة حركة الأنهار الجليدية في اعالي جبال الألب. في فترات البرودة الشديدة، كان الجليد ينحدر إلى أسفل الوديان الجبلية. وفي خلال الفترات الأكثر دفئا، كانت الأنهار الجليدية تتقلص، تماما مثلما تفعل اليوم بسبب ظاهرة الاحترار العالمي. كتب أغاسيز عن العصر الجليدي العظيم، الذي انتهى بالاحترار السريع قبل أن تبدأ السجلات المكتوبة بالظهور. تزامنت فترة البرد الأخيرة في العصر الجليدي مع ما سماه لاريه، وكريستي بعصر الرنة.

ماذا كان يشبه هذا العصر الجليدي المتأخر؟ قبل صدور كتاب داروين اصل الأنواع، كان الناس يلجأون إلى الكتاب المقدس، والكتب الكلاسيكية منْ أَجل استكشاف الماضي. لكن الآن اصبح هناك مصدر جديد للمعلومات: انه علم الأنثروبولوجيا. كانت الاقوام المشابهة بشكل واضح لسكنة كهوف كرون ماغنون هي اقوام الإسكيمو، التي تكيفت ببراعة للعيش وسط ظروف البرد القارس، ووجدوا حلولا لمشاكل العيش في ظروف جوية تبلغ فيها درجات الحرارة دون الصفر المئوي. كان هناك بالفعل العديد من أوجه الشبه. على سبيل المثال، كان صيادو الإسكيمو يلاحقون قطعان الوعول في فصلي الربيع، والخريف. في حين كان سكان كهوف كرون ماغنون يصطادون غزال الرنة في المواسم نفسها. وأظهرت الإبر المصنوعة من العاج، والعظام التي تم العثور عليها، أن الساكنين في ملاجئ دوردوني الصخرية ربما كانوا يرتدون ملابس مميزة،

مثل البنطلونات، والمعاطف المشمعة ذوات القبعة، تماما مثل الشعوب التي عاشت في القطب الشمالي.

وأصبح سكان كهوف كرون ماغنون يمثلون الإسكيمو في الخيال الشعبي، وفي تصورات علماء الآثار. وكثيرا ما كانوا يصورون، وهم مرتدون ملابس الإسكيمو مثل السترة الفرائية المقنعة. وعلى الرغم من الفجوة الزمنية الهائلة التي تفصل ما بين الزمن الذي عاش فيه سكنة كهوف كرون - ماغنون والإسكيمو، فإن المقارنة في الأقل أعطت انطباعا عن طبيعة الحياة التي عاشوها. ومثلما قارن داروين بين الفيجيين، والصيادين القدماء البدائيين، استخدم السير جون لوبوك، وعلماء الأنثروبولوجيا الأوائل هذه المقاربات مع المجتمعات غير الغربية الحية. وأوجدوا طريقة جديدة في علم الآثار. وباتت هذه التشابهات، التي يعرفها علماء الآثار اليوم بـ (التماثلات)، تشكل جزءًا أساسيا من علم الآثار في وقتنا الحاضر.

قام لارتيه، ومن عاصره من علماء الآثار بعمليات التنقيب بشكل فج، باستخدام المجارف، والمعاول (وكانوا أحيانا يستخدمون اشياء أصغر). كان عملهم يشبه إلى حد ما الصيد الأحفوري، لكن بدلا من البحث عن الأحافير كانوا يبحثون عن الناس، الأمر الذي يتطلب عناية أكبر بكثير. كان الجميع يبحث عن الأدوات المزينة بدقة، والأسلحة المصنوعة من قرون الرنة، والادوات الحجرية. وكانوا يحفرون في الطبقات الأثرية الواحدة بعد الأخرى بسرعة في خلال زيارات قصيرة

كانوا يقومون بها الواحدة تلو الأخرى، للمواقد، وغيرها من آثار المساكن المؤقتة.

يتناقض هذا النهج مع ما يحدث في وقتنا الحاضر، عندما يتبنى خبراء التنقيب قي الكهوف طريقة المستكشفين الأوائل. فهم دائمًا يحفرون باستخدام المجاريف، وأدوات الأسنان، والفرشاة، الرفيعة، بحَيْثُ يمكنهم تمييز كل طبقة رقيقة لا تمثل سوى رحلة استكشاف قصيرة. يتم تمرير كل شيء من خلال غرابيل دقيقة، وحَتَّى أصغر البذور، وعظام السمك، والخرزات يتم استخراجها. وتضمن شبكة مربعة الشكل توضع فوق الأرض إِلى جانب أجهزة المسح الإليكتروني أن كل شيء ذا أهمية قد تم تسجيله في ذلك المكان.

وقد زودت الأشكال المتغيرة للأدوات (لارييه) بسجل خاص بتطور مجتمعات إنسان النياندرتال، وسكنة كهوف كرو - ماغنون. وقد سجلت الادوات الحجرية، وتلك المصنوعة من قرون الحيوانات، التغييرات التكنولوجية التي حدثت عبر الزمن. كان هناك تشابه وثيق في الطرق التي تغيرت فيها الأدوات مع مرور الزمن في العديد من المواقع التي استكشفها. كان لدى لارتيه، كونه عالمًا جيولوجيا، موقف موضوعي نوعا ما تجاه الشعوب القديمة. لكنه كان في الأقل يدرك أن الناس قد صنعوا الأدوات، وقاموا بصيد الحيوانات.

كان العلماء الآخرون يهتمون باكتشافات الكهوف الفرنسية أيضًا. في العام 1865 نشر عالم الآثار البريطاني السير جون

لوبوك كتابه عصور ما قبل التاريخ، وهو أول بحث عام لهذا الموضوع، قسم لوبوك في كتابه العصر الحجري على العصر الحجري الباليوثي، أو العصر الحجري القديم (من الكلمة اليونانية باليو قديم ولوثي وتعني، الحجر)، وفترة العصر الحجري النيولوثي الأحدث، أو العصر الحجري الجديد (من الكلمة اليونانية: نيو وتعني، جديد، ولوثي، وتعني، الحجر)، عندما امتهن الأوروبيون الزراعة. وهذه المصطلحات ما تزال تستخدم حَتَّى اليوم.

أنتج لوبوك إطارا عاما للغاية، تماما كما فعل كريستيان يورجنسن تومسن مع نظام العصور الثلاثة في الدول الاسكندنافية. كان لوبوك، إضافة إِلى اهتمامه بالمجتمعات غير الغربية التي كانت تعيش آنذاك، شخصا اجتماعيا للغاية. لم يكن الآخرون كذلك، كانوا مهووسين بالأعداد الهائلة من الأدوات الحجرية الموجودة في الكهوف الفرنسية، بدلاً من الأشخاص الذين صنعوها. أصبحت مصنوعاتهم اليدوية المتغيرة معلما بارزا للتقدم البشري، لَا سِيَّما على يد جابرييل دي مورتيليه، وهو عالم جيولوجي فرنسي تحول إِلى عالم آثار.

انضم جابرييل دي مورتيليه (1821 – 1898) إلى المتحف الوطني للآثار في سان جيرمان في العام 1863، واصبح مشرفا على مقتنيات العصر الحجري. كان مفتونا بالقطع الأثرية، وطبق أفكاره الجيولوجية عليها. كان يؤمن بشكل متعصب بحتمية التقدم البشري الذي يمكن قياسه عن طريق الأشكال المتغيرة

للأدوات. وقد تبنى هذا النهج بعد تنظيمه عروضا عن تاريخ العمل في المعرض العالمي لعام 1867 الذي اقيم في باريس، الذي احتفى بالتقدم البشري في الماضي والحاضر.

استعار مورتيليه مصطلحات من علم الجيولوجيا، وكتب عن أحافير متغيرة النوع، باستخدام المصطلح الجيولوجي الذي يشير إلى أدوات مثل رؤوس الحراب، والرماح المصنوعة من قرون الحيوانات. تشير (الاحفوريات النوعية) المميزة إلى فترات مختلفة من تطور تقنيات العصر الحجري. لقد تطور البشر ومجتمعاتهم بنفس الطريقة تقريبا في كل مكان. كان مورتيليه يؤمن أن هناك (قانونا عالميا للتقدم البشري).

لقد هيمنت أفكار عالم الآثار ذي التفكير الصلب، المدرَّب جيولوجيا على علم الآثار الخاص بالعصر الحجري لأجيال عدة. واستمر هذا النهج، لأنه خلق انطباعا عن حدوث تقدم منظم في خلال العصور القديمة، وكان سهل الفهم.

ما يزال بإمكانك رؤية منهج موتيليه في المتحف الجديد في ليز إيزيس. تعرض قاعات الطابق العلوي صفوفا من الأدوات الحجرية المصنوعة من قرون الحيوانات، وعظامها مرتبة حسب التاريخ. أجد المعروضات الجميلة شيئا كئيبا: كل شيء يبدو منفصلاً بهدوء، كما لو كانت في زمن موتيليه. لحسن الحظ، فان المعروضات الأخرى تتحدث عن إنسان النياندرتال، وسكان كهوف كرون ماغنون، كأشخاص، لكن عرض الأداة يُسلط الضوء على مشكلة في علم الآثار، فالموجودات، مثل السكاكين،

والكاشطات، ورؤوس الرماح التي تم التنقيب عنها، وتصنيفها، وتخزينها في صناديق تصبح رموزا غير شخصية للسلوك البشري. أنت تميل إلى نسيان أنه تم صنعها، واستخدامها من قبل أشخاص كانوا يعيشون ذات يوم. نحن نفقد الاتصال البشري.

ومع كل هذا، فقد ترك مورتيليه تراثا واحدا. فقد قسّم المستويات الأثريّة المختلفة، ومصنوعاتها مستخدما علامات ثقافيّة لكلّ منها. وسمى الطبقات بأسماء المواقع الأثرية التي تم العثور عليها فيها. فقد اطلق تسمية أوريغناسيان على إحدى الحضارات التي تستخدم رؤوسًا مصنوعة من قرون مفلوقة القاعدة على اسم كهف أوريغناك، واطلق تسمية ماجديلينيان على اسم لو مادلين، مأوى الصخور الذي تميز بالحراب المصنوعة من قرون الوعل. كان هذا كله موضوعا جيولوجيا للغاية: وقد نسي أن الأدوات الحجرية صنعها البشر، الذين تباينت سلوكياتهم باستمرار. وعلى الرغم من هذا القيد، فقد استمر منهج مورتاليه الصارم، خصوصًا في دوائر الابحاث الفرنسية، هو السائد إلى حد كبير في القرن العشرين.

قد تكون حفريات الكهوف الفرنسية فجة لكنها أطلقت حقبة جديدة في علم الآثار الخاص بالعصر الحجري. فقد كشف الباحثون عن إنسان نياندرتال باستخدام تقنية بسيطة، تبعها الكشف عن مجتمع صيد غزال الرنة في كهوف كرون ماغنونس، مع أسلحة أكثر انقانا. وكشفت تنقيبات لاريه، وكريستى عن العصر الحجري القديم، عن المجتمعات الأوروبية التي اختفت،

وتكيفت ببراعة مع ظروف البرد القارس. لكنها أثارت تساؤلات حول الأشخاص الذين عاشوا في أوروبا بعد العصر الجليدي مباشرة. هل كانوا أيضًا صيادين في عالم أكثر دفئا بكثير، أم أنهم أصبحوا مزارعين؟ وكما سنرى في الفصل التالي، ظهرت مستوطناتهم، أول مرة، في الأجواء الخلابة لجبال الألب.

الفصل الحادي عشر



التنقل عبر العصور

ظل الصيادون على ضفاف البحيرات السويسرية يشتكون، سنوات، من ان شباكهم يلتصق بها شيء، وينزل بها إلى القاع، ثُمَّ تتقطع، وتضيع صنارات الصيد، وتعلق شباك صيدهم بشيء غامض يجرها إلى القاع. وتطفو على السطح، في بعض الأحيان، اجزاء من الشباك الممزقة، وهي متشابكة مع اغصان اشجار. كان هناك حديث يدور عن وجود غابات تحت الماء.

لم يهتم أحد بشكواهم حَتَّى جاء موسم 1853 – 1854، عندما أدى حدوث جفاف كبير إلى انخفاض مستويات البحيرات بشكل كبير. تبين أن (الغابات) تلك، عبارة عن دعامات خشبية، أو (أكوام) من الخشب، وقد غاصت في طبقات من الرواسب الداكنة. وكانت موجودة يوما ما لتدعم الأكواخ المبنية

فوق الماء. تابع علماء الآثار المحليون هذا الموضوع، وبحلول العام 1869 كانوا قد عثروا على أكثر من 200 من هذه المواقع على ضفاف البحيرات.

ولفتت هذه النتائج انتباه فرديناند كيلر (1800 – 1881)، وهو أستاذ اللغة الإنكليزية في جامعة زيوريخ، ورئيس جمعية زيورخ الآثارية. فقاد عمليات حفر كبيرة في متاهة من أكوام الخشب التي ظهرت في المنخفض المكشوف من بحيرة زيورخ بالقرب من قرية أوبيرميلين، وذلك في العام 1854.

كان هذا نوعا جديدا تماما من علم الآثار بالنسبة لسويسرا، الذي يتناول المواد العضوية التي عادة لا تصمد على الإطلاق أمام تأثيرات البيئة، والظروف المناخية. وما لم تبقَ رطبة، فان مثل هذه المواد لا بُدَّ من ان تجف بعد فترة قصيرة، أو تتصدع، أو حَتَّى يذروها الغبار. كان الطين الرطب يحافظ على مجموعة مذهلة من الأشياء التي تضيع عادة: مثل الفؤوس، والبلطات ذوات المقابض الخشبية، والعجلات الخشب، وشباك الصيد، والسلال، والحبال. وكانت هناك الكثير من عظام الماشية، والأغنام، والماعز، وبقايا حيوان الأيل الأحمر، والقندس، والخنزير. كان هناك العديد من بذور القمح، والشعير، والفواكه البرية، والبندق، والبازلاء، والفول.

كانت أساليب كيلر في العمل بدائية. قام بالحفر حول الدعامات، واستعاد أكبر عدد ممكن من الأشياء. ومع ذلك، لم يكن لديه أي طريقة لتحديد عمر الموقع ومحتوياته.

جاءت اكتشافات المساكن في هذه البحيرة في الوقت الذي جلب فيه غابرييل دي مورتيليه، وآخرون نظاما متدرجا للتقدم البشري يعود إلى العصر الحجري القديم. لكن الكثير من الناس المهتمين بالماضي البعيد تساءلوا عن مجتمعات ما قبل التاريخ التي اعقبته. ما الذي حدث في أوروبا حين ارتفعت درجات الحرارة بعد العصر الجليدي؟ متى بدأت الزراعة في أوروبا؟ ما هي المحاصيل التي كان يزرعها مثل هؤلاء الناس؟ أما اكتشافات كيلر في أوبيرمايلين فقد كشفت الستار على بعض أوائل المزارعين في أوروبا.

عرف كيلر من خلال اكتشافاته أن المساكن التي على البحيرة كان يشغلها افراد على مدى عدة آلاف من السنين. لكن لماذا بنى السكان هذه البيوت على الماء؟ ومثلما فعل كل من لارتيه، وكريستي مع اكتشافات كهوف كرون ماغنون، تحول كيلر إلى الأنثروبولوجيا. وقد فكر على الفور في وصف المستكشفين الفرنسيين لقرى غينيا الجديدة، التي تضم منازل ذوات ركائز في المياه الضحلة. وهكذا، تصور كيلر أن الأكوام الخشبية تلك كانت تعود للبيوت ذوات الركائز، ذاتها، التي بنيت في عصور ما قبل التاريخ، التي كان سكانها يقومون برمي أدواتهم، وبقايا طعامهم في المياه أسفل مساكنهم. وأطلق على تلك المنازل تسمية (المساكن المتكدسة).

بعد ذلك بفترة طويلة، أثبتت عمليات الحفر الأكثر دقة أن كيلر كان مخطئا. فبعض مساكن البحيرة السويسرية تقع على

أرض مستنقعات غمرتها المياه جراء ارتفاع منسوب مياه البحيرة. فيما تم بناء مساكن أخرى فوق الماء، وغاصت في اعماق الأرض عندما كان يتم تثبيت هياكلها. ومع ارتفاع منسوب المياه، غطّى الطمي الناعم طوابق المنزل، والمواقد الموجودة بين المواقع، ومع حفاظها على العديد من بقايا الحياة الزراعية المبكرة، فان اكتشافات فرديناند كيلر بدأت تلقى اهتماما كبيرا. قام الفنانون بتصوير عملية إعادة بناء القرى في لوحاتهم. وحددوا موقعها (وكانوا مخطئين) في انها شيدت على منصات ترتبط بالأراضي الجافة بمعابر خشبية، كما لو كانت المستوطنات.

كانت في جزر خشبية صنعها البشر. وعلى عكس سكان كهوف كرون ماغنون، الذين كانوا يتنقلون باستمرار، عاش هؤلاء القرويون في نفس المكان فترات طويلة من الزمن. كان عليهم فعل ذلك، لأنهم كانوا مزارعين مرتبطين بحقولهم. وقد وجدت بقايا محاصيلهم في تلك المواقع.

نحن نعرف اليوم أن معظم المستوطنات التي وجدت على ضفاف بحيرة كهذه يعود عمرها إلى 4000 سنة قبل الميلاد، وفي اماكن أخرى إِلى سنة 1000 قبل الميلاد. وتوجد هناك أنواع مماثلة من القرى عند بحيرات جبال الألب في فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وسلوفينيا. في أواخر القرن التاسع عشر، أصبحت أوبرمايلين، ومواقع مشابهه لها تمثل معيارا لدراسة حياة المزارعين الأوروبيين الأوائل. فقد وفرت ارشيفا ثريا للغاية من الأدوات وبقايا الطعام، وأصبحت نوعا من القاموس لفهم

هؤلاء الناس، وحَتَّى أولئك الذين يعيشون في أماكن بعيدة عن البحيرات السويسرية.

يحتاج المزارعون إلى الملح - ليس لاضافته إِلى نظامهم الغذائي المتكون من الحبوب بشكل رئيسي فحسب، ولكن أيضًا للحفاظ على الأسماك، واللحوم ليتم تناولها في وقت لاحق. كان الملح الصخري مثل غبار الذهب بالنسبة لأولئك المحظوظين بما يكفي ليعيشوا بالقرب من مصادره، والذين تمكنوا من الاتجار به. تحتوي جبال زالسكامرغوت على كميات هائلة من الملح الصخري. وكان الناس يقومون بتعدينها بالقرب من سالزبارغت وهي قرية صغيرة فوق بلدة تقع على ضفاف البحيرة تدعى هالشتات، بالقرب من سالزبورغ، في النمسا، ويعود عمرها، في الأقل، إِلى سنة 1000 قبل الميلاد، وربما إِلى وقت ابعد من ذلك.

عملت أجيال من عمال المناجم في جبال زالسكامرغوت، وكان من بينهم يوهان جورج رامساور (1795 - 1874). الذي تدرب على التعدين وهو في سن الثالثة عشرة. وسرعان ما أصبح خبيرا في منصب بيرغمايستر، الذي يعني مدير جميع أنشطة التعدين.

كان رامساور ذا شخصية مميزة فعلا. عاش في حصن يعود إِلى القرون الوسطى يدعى رودولفستورم، بالقرب من المنجم. كان رجلا يحب العائلة، والاطفال كثيرا، فقد اعتنى باثنين وعشرين طفلًا حَتَّى كبروا، وبلغوا سن الرشد. شغفه الآخر كان التنقيب

الأثري. كرس وقت فراغه لحفر 1000 قبر، أو نحو ذلك في مقبرة ضخمة تعود إِلى العصر الحديدي، تم اكتشافها في أثناء عمليات البناء بين حصن رودولفستورم، والمنجم. كانت تلك القبور تعود لافراد من شعب هالستات، وسميت حضارتهم باسم رامساور، وهو الاسم المحلي للمدينة. وقد كانوا من عمال المناجم، الذين حفروا في التلال في ضوء مشاعل الصنوبر. وحافظ الملح على حقائبهم الجلدية، والقفازات، والقبعات.

قام رامساور بحفر المقبرة في الفترة ما بين عامي 1846 و1863 – وهي فترة تزامنت مع اكتشاف إنسان نياندرتال الأول، وحفريات قرى البحيرة السويسرية. وقام رامساور بتوظيف رسام يساعده في عمله، وامضى هذا الرسام سنوات في رسم الاكتشافات والمقابر، وتسجيلها. تظهر لوحاته المائية مواقع الأوعية، والأشياء المعدنية، وأثاث القبور الأخرى التي لها علاقة بالعظام البشرية، أو بقايا الجثث المحروقة.

وفي اثناء كل عملية تنظيف للقبور، كان يتم رسمها، ووصفها في ملاحظات شاملة. وكان نصف الجثث تقريبا محروقًا، ونصفها مدفونا. لم يكن الموتى روساء قبائل، أو أشخاصًا مهمين. كانوا من عمال المناجم والمعادن، مدفونين بجانب الحلي مع أدواتهم وأسلحتهم. وكان هؤلاء تجارا ذوي خبرة، انتشرت منتجاتهم المعدنية، وتجارتهم بالملح عبر مناطق واسعة من أوروبا. كانوا على اتصال واضح بشبكات تجارة من اماكن بعيدة جدا: وبعضهم كان يمتلك الحلي العاجية التي تصنع في إفريقيا البعيدة، بينما

كان البعض الآخر يلبس الخرز المصنوعة من العنبر (الكهرمان) (راتنج متحجر من الاشجار الصنوبرية المنقرضة) التي توجد في منطقة بحر البلطيق.

وللأسف، توفي رامساور عام 1874 قبل ان ينشر عمله. كما إنّه لم يسجل العظام، أو تفاصيل الأشياء التي عثر عليها في القبور. اختفت ملاحظاته المكتوبة بخط اليد، ولم يتم العثور عليها إلّا في مكتبة لبيع الكتب المستعملة في فيينا في العام 1932. ولا يمكن التأكد من مدى موثوقيتها كسجل لأعماله. لكن تم نشرها أخيرًا في العام 1959. إنها لمعجزة حقا ان ينجو هذا الكم من المعلومات القيمة التي تم الحصول عليها من تلك الحفريات الهائلة. لكن للأسف، فانها لا تمثل سوى جزء بسيط مما كان يمكن الحصول عليه من معلومات من المقبرة لو تم إجراء الحفريات في ايامنا هذه.

ولكن كم كان عمر قرى البحيرة، ومقبرة هالستات؟ نحن نعلم اليوم أن حضارة هالستات ازدهرت من القرن الثامن إلى القرن السادس ق.م، لكن في منتصف القرن التاسع عشر، وأواخره، لم يكن هناك طريقة لتخمين ذلك. ولكن علم الجيولوجيا الجديد، ونظرية التطور، واكتشاف إنسان النياندرتال قد فتحت نافذة واسعة، غير معروفة لاستكشاف الماضي. كما إنّ أعمال التنقيب التي قام بها فورغسوي، ونظام العصور الثلاثة، حددت إطارا عاما للماضي، لكن لم يتم حَتَّى ذلك الوقت تحديد تواريخ فعلية لأي مجتمع أوروبي لما قبل الرومان. ولحسن الحظ، فان عالم

الآثار السويدي أوسكار مونتيليوس (1843 - 1921)، بدأ من حَيْثُ انتهى يانس جاكوب فوغسوي، وآخرون. وكرس حياته المهنية لبناء أطر كرونولوجية (تسجيل الأحداث حسب تسلسلها الزمني) في جميع أنحاء أوروبا.

لكي يكون المرء خبيرا في المصنوعات اليدوية، فان هذا الامر يستلزم صفات شخصية معينة خاصة عندما لا يعرف شيئا عنها تقريبا. كان العمل يتطلب صبرا لا نهاية له، وشغفا بالتفاصيل الغامضة، التي تكون في كثير من الأحيان صغيرة للغاية، وعشقا للماضي. امتلك مونتليوس هذه الصفات بشكل وافر. كان لغويا بارعا، وكان ذا شخصية هادئة، جذابة. كان الناس ينجذبون إلى محاضراته، وقام بالكثير منْ أَجل الحفاظ على اهمية علم الآثار في نظر الجمهور.

ولد مونتيليوس في ستوكهولم، وقضى حياته المهنية الكاملة في متحف الآثار الوطني هناك، وترقى فيه إِلى ان اصبح مديرا له. كان واحدا من أوائل علماء الآثار في المتحف. يقضي مثل هؤلاء العلماء حياتهم المهنية منغمسين في العمل بشكل كامل وسط المقتنيات الاثرية، والمصنوعات اليدوية.

شغف مونتليوس كثيرا بمعرفة التسلسل الزمني لتلك المصنوعات اليدوية، والمواقع التي تم العثور عليها فيها. لقد أدرك مُنْذُ البداية أن الطريقة الوحيدة لتحديد مثل هذه الجداول الزمنية، هي، السفر إِلى جميع أنحاء أوروبا، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، والشرق الأوسط. فهناك، يمكن للمرء

العثور على اشياء مؤرخة من قبل عصور زمنية معروفة لتلك المواقع التي تم العثور فيها على مصنوعات يدوية، أو من خلال السجلات التاريخية. وهذه القطع الأثرية ستكون المراجع التاريخية لمواد مشابهة وجدت على بعد مئات الأميال في أوروبا في عصر ما قبل التاريخ.

وفي اثناء الرحلة التي قام بها. زار مونتليوس مئات المتاحف، وكان العديد منها يقع في بلدات صغيرة بعيدة عن المدن الكبيرة. لم تكن هناك سيارات، وليس هناك سوى السكك الحديد، ورحلات لا نهاية لها بواسطة عربات تجرها الخيول، أو على ظهور الخيل. كانت الإضاءة الكهربائية ما تزال غير معروفة، وبالطبع لم تكن هناك آلات كاتبة، أو أجهزة كمبيوتر. كان يجب تسجيل كل شيء باليد. حصل مونتليوس على المعلومات ليس من أسفاره الخاصة فحسب، لكن أيضًا من شبكة واسعة من الزملاء الذين قابلهم في أثناء رحلاته، أو تبادل معهم الرسائل.

بعد سنوات طويلة من البحث، طور مونتيليوس تقنيته المعروفة بـ (التسلسل النمطي عبر التاريخ)، باستخدام أشياء ذوات أعمار معروفة من حضارة قدماء المصريين وحضارات مناطق البحر الأبيض المتوسط الأخرى، وربط ما بين القطع الأثرية قطعة تلو الأخرى في جميع أنحاء أوروبا من خلال مقارنة تفاصيلها البسيطة، وميزات أسلوبها. كما قام بمقارنتها بالأشياء القديمة. شكلت الأساور والخناجر، والأوعية الطينية، والدبابيس جزءًا من تحديد مونتيليوس للتسلسل الزمني. وانتهى به المطاف إِلى

الحصول على شبكات مترابطة من المصنوعات اليدوية المعروف تاريخها، ومن جميع الأنواع التي تمتد من نهاية واحدة من أوروبا إلى أخرى. في العام 1885 نشر مونتليوس تحفته المعروفة، وهو كتاب في تحديد عمر العصر البرونزي. وقد أنتج هذا العمل الرائع، بناءً على دراسته الآلاف من الأشياء، والمواقع التي أتت منها، منتجا بذلك أول سجل تاريخي لأوروبا القديمة. ومن خلال استخدام الفؤوس، والدبابيس، والسيوف، وغيرها من المصنوعات اليدوية، قام بتقسيم العصر البرونزي الأوروبي على ست فترات زمنية. وكان دليله على هذه المراحل، استنادًا إلى عدد هائل من المكتشفات، كان مقنعًا لدرجة أنه سرعان ما أصبح مقبولاً عالميًا. وفي وقت لاحق، حدد مونتيليوس بداية العصر البرونزي بسنة 1800 قبل الميلاد. واعتقد العديد من زملائه ان هذا وقت مبكر جدا. ولكن بعد أكثر من ثلاثة أرباع القرن، في أوائل السبعينيات، أثبتت تقنية تحديد عمر الاشياء باستخدام الكربون المشع، التي كانت غير معروفة في ايام مونتليوس، أن ذلك التاريخ صحيح (انظر الفصل 27).

كما إنّ مونتيليوس كان يعتقد أن على علماء الآثار أن يشاركوا اكتشافاتهم مع الجمهور. وتحقيقا لهذه الغاية، قام بإلقاء المحاضرات، وكان يعمل مرشدا للسياح في المتحف، ما جعله يتحدث إلى مجموعة واسعة من الناس. وكان يتكلم بطلاقة اللغات الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية – ومن دون ان يستعين مع جميعها بأي ملاحظات مكتوبة. وتدفقت

العديد من المقالات، والكتب الشعبية من قلمه. ومتأثرا بزوجته ناضل منْ أَجل حقوق المرأة. ومن نواحٍ عديدة، كان عالم الآثار الأوروبي الرائد في عصره وتفوق كثيرًا على معاصريه.

في الوقت الذي أصبح فيه مونتليوس مديرًا لمتحف الآثار الوطني السويدي، كان علم الآثار قد قطع شوطًا طويلاً. وبفضل أبحاثه الدقيقة، وأبحاث أسلافه الاسكندينافيين، أصبح الكثير من الأوروبيين يدركون الآن أهمية عصور ما قبل التاريخ. ومع ذلك، كانت أساليب الحفر (ما عدا بعض الاستثناءات البارزة) ما تزال خشنة، ومتسرعة، خصوصًا في أراضي مناطق البحر المتوسط. وظل التوق لعينات المتحف، والاكتشافات الاثرية المذهلة مستمرا دون هوادة. ولكن للمرة الأولى، اصبح هناك إطار زمني لأوروبا ما قبل الرومان، استنادًا إلى المصنوعات اليدوية، وسياقاتها، ولم تعد مستندة إلى بعض الاكتشافات العظيمة فحسب.

في أواخر القرن التاسع عشر، كان علماء الآثار المحترفون سلعة نادرة. ما يزال كثير من عمل علماء الآثار لا يتعدى إلّا قليلا جمع القطع الأثرية. وقد تم إنجاز كل ذلك تقريبا في اليونان، وإيطاليا، والشرق الأوسط، وأوروبا. لكن علم الآثار كان يتقدم في مكان آخر، وخاصة في الأمريكتين. فقد ساعدت الاكتشافات المثيرة التي حدثت هناك على يد جون لويد ستيفنز، وفريدريك كاثروود في توجيه عقول علماء الآثار الآخرين نحو ثلاثة أسئلة أساسية. من هم أسلاف الأمريكيين الأصليون؟ ومن أين اتوا؟ وكيف عبروا إلى الأمريكتين؟

الفصل الثاني عشر



أسطورة بناة الروابي

بناة الروابي (هم من أقدم هنود أمريكا الشمالية، اشتهروا ببناء هضاب تذكارية كبيرة من التربة. وكانوا يقومون ببناء الهضاب لاستخدامها مدافن، ومنصات لتشييد المعابد، ومساكن الزعماء والرؤساء. وما زالت آلاف الهضاب حَتَّى الآن في كندا، والولايات المتحدة. وقد قام ببنائها العمّال الذين كانوا يحملون التراب، والصخور، وغير ذلك من المواد). في 12 تشرين الأول (أكتوبر) من العام 1492، وطِئت قدما الرحالة الإيطالي كريستوفر كولومبوس، الذي منحه ملك إسبانيا رتبة أمير البحار، والمحيطات، إحدى جزر البهاما. هناك وجد اناسا اعتقد أنهم سيكونون خدما مثاليين له. لكن على مدى بضعة أجيال، أدت الأمراض غير المألوفة، وسوء المعاملة إلى انخفاض كبير في عدد

سكان جزر الكاريبي. توقف عدد قليل من الناس للتساؤل من أين جاء هؤلاء السكان الأصليون، أو كيف وصلوا إلى موطنهم.

بدأ الجدل حول الأمريكيين الأصليين عندما قام كولومبوس بعرض بعض أسراه أمام الملك الإسباني. من هم هؤلاء الناس الغريبون؟ هل هم بشر؟ كان من المفترض أنهم يحملون مشاعر بسيطة، غير معقدة إلى ان قام القائد والفاتح الإسباني هرنان كورتيس، وجنوده بالكشف عن العالم الراقي، المتطور لشعب الأزتيك في العام 1519. كانت عاصمة الأزتك تينوختيتلان (ومعناها موضع الصبار)، تقع في المكان الذي تقع فيه مدينة مكسيكو سيتي الآن، موطنًا لأكثر من 200 ألف شخص، وكان فيها سوق كبيرة تنافس تلك التي كانت في القسطنطينية، وإشبيلية.

أثار التنوع المذهل لمجتمعات الأمريكيين الأصليين، من مجموعات الصيد البسيطة إلى الحضارات الغنية، جدلا حقيقيا في أوروبا في ما يتعلق بقصة الخلق الواردة في الكتاب المقدس التي كانت سائدة في الشرق الأوسط. كيف وصل هؤلاء الهنود إلى الأمريكيتين؟ هل جاءوا برًا أم من آسيا؟ أم هل كانت هناك بعض طلائع المستكشفين غير المعروفين قد عبرت المحيط الأطلنطي قبل كولومبوس بفترة طويلة؟ ما يزال علماء الآثار الأمريكيون يبحثون في هذه القضايا حَتَّى اليوم.

وفي العام 1589، أعلن مبشر إسباني كاثوليكي، هو خوسيه دي أكوستا، أن المستوطنين الأوائل قد عبروا إلى أمريكا الشمالية قادمين من آسيا، وقاموا بالإبحار (لمسافات قصيرة فقط).

نحن نعلم الآن أن كلام أكوستا كان صحيحا، وأن الأمريكيين الأصليين هم من أصل آسيوي بالفعل.

بعد ثلاثة قرون تقريبا، في العام 1856، حصلت هذه النظرية على دفعة جديدة عندما أكد عالم يدعى صامويل هافن أن الهنود عبروا مضيق بيرينغ في العصور القديمة. كان هافن صاحب موقف في الوقت الذي كان فيه آلاف المستوطنين يتحركون غربا عبر جبال أليغني إلى منطقة مجهولة. معظمهم كانوا مزارعين متلهفين للعثور على أرض خصبة. لقد فوجئوا بالعثور على مئات التلال الكبيرة، والاسيجة، والمنحدرات الترابية في وادي أوهايو، والبحيرات العظمى التي تمتد من نبراسكا إلى فلوريدا. ووسط توقهم للعثور على الذهب، والثروات المدفونة، ذهب العديد من المزارعين للبحث عن الكنوز، فوجدوا العديد من الهياكل العظمية البشرية، والحلي المصنوعة من الاصداف والأسلحة، لكن لم يكن هناك ذهب.

نشات السدود الترابية الغامضة (اكوام التربة الاصطناعية) في الغالب بسبب الغابات الكثيفة في اثناء قيام المزارعين الأوائل بتنظيف أراضيهم. كانت بعض التلال، أو الروابي تنتصب بمفردها؛ وكانت تلال أخرى على شكل مجموعات مرتبة بإحكام. أحاطت السياجات الكبيرة ببعضها. كانت السدود الترابية قديمة بشكل واضح، حَيْثُ لم تقم أي من الشعوب الهندية الحديثة ببناء أي شيء من هذا النوع. وكان بعضها عبارة عن تلال مدفونة بشكل واضح، مع طبقات واضحة المعالم من الهياكل العظمية،

أو غرف دفن مع شواهد مكتوبة بعناية. عندما قام المزارعون بالحفر (حفر خنادق) في التلال، عثروا على أنابيب حجرية، وفؤوس ذوات نهايات نحاسية ناعمة، وحلي، وآنية فخارية جيدة الصنع، وأدوات أخرى كان من الواضح أنها عمل حرفيين مهرة. لم يلاحظ الخبراء القلائل الذين تفحصوا المكتشفات أوجه تشابه مع المصنوعات اليدوية المصرية، أو غيرها.

أصبح بناة الروابي شيئا مجهولا، وغامضا.

إذا من هم بناة الروابي؟ افترض الجميع تقريبا أن الهنود بدائيون جدا. وهكذا انتشرت الحكايات عن الذهب، والمحاربين الشجعان، والحضارات الغريبة كالنار في الهشيم. كانت هذه أماني الأحلام للمستوطنين المغامرين في أرض غير مألوفة. وتشكل حكايات طويلة مسلية للمزارعين في أمسيات الشتاء. في أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر، قام الكاتب الشعبي جوسيا بريست بنسج قصص عن جيوش جرارة من المحاربين البيض، والفيلة الحربية التي تخوض القتال في السهول، وأبطال ليس لهم مثيل. لقد منح الأمريكيين الشماليين تاريخا خياليا، وبطوليا تماما، يُعرف اليوم، عادة، باسم أسطورة بناة الروابي.

كان صيد الكنوز أمرا شائعا، لكن كان هناك عدد قليل نسبيا من الاكتشافات الرائعة. كان الحفر يجري بشكل سريع، مدمر. وقد سويت القبور بالارض بواسطة المحاريث، وقليل من المستوطنين قاموا بفحص الاكوام الترابية، والتلال على نحو منتظم. ولكن كان هناك استثناء واحد، أو اثنان.

قام كالب أتواتر، مدير مكتب بريد سيركل فيل في ولاية أوهايو، بمسح أعداد كبيرة من التلال، وحفرها في أوائل القرن التاسع عشر. ووجد مئات المدافن، والعديد من الحلي الجميلة المصنوعة من الميكا (معدن شفاف)، بعضها على شكل مخالب طيور، أو بشر. أصر أتووتر الذي كان شديد التدين على أن أولئك الذين بنوا التلال كانوا رعاة ومزارعين من آسيا عبروا مضيق بيرينغ بعد الفيضان المذكور في التوراة مباشرة. أما بالنسبة للهنود، فقد افترض أنهم وصلوا بعد ان تم هجر السدود الترابية بفترة طويلة.

كان صمويل هافن يعتمد في تطوير نظريته عن الهجرة القديمة على عمل باحث آخر، هو إفرايم سكويير (1821 - 1888). كان سكويير أميركيا ذكيا، ذا تعليم جيد، ولديه اهتمام كبير بالماضي. بدأ مسيرته المهنية كصحافي في ولاية نيويورك، ثُمَّ عمل في صحيفة محلية صغيرة في أوهايو. وفي وقت لاحق، أصبح رحالة، ودبلوماسيًا ناجحا، وبتكليفه بالعمل في بيرو في العام 1868 سيصبح أحد أوائل الغرباء الذين يصفون مواقع الإنكا المذهلة في جبال الأنديز. ولكن قبل وقت طويل من رحلته إلى أمريكا الجنوبية، تعاون سكواير مع طبيب محلي في مدينة تشيليكوث، يدعى إدوين ديفيز. وبين عامي 1845 و1847، قام الاثنان بعمليات التنقيب، والمسح، ومحاولة حل لغز مجموعة مذهلة من السدود الترابية، وتلال الدفن في وادي أوهايو.

كان سكواير يمثل الطرف الفاعل في هذه الشراكة، فقد كان مسؤولاً عن خطط الشركاء الدقيقة للعديد من أعمال الحفر، مختصا بالسدود الترابية. وكانت استطلاعاته دقيقة للغاية بحَيْثُ ما تزال تستخدم اليوم، وتظهر في العديد من كتب الإرشاد السياحي. وبدعم من الجمعية الأمريكية للاثنولوجيا، تمكن الرجلان بسرعة من حفر ممرات داخل أكثر من 200 تل، واستطلعا العديد من السدود الترابية والاسيجة، وجمعا مجموعة ضخمة من القطع الأثرية. أحد المواقع الهامة التي تم مسحها كان تلة الثعبان الكبير، وهو تل طويل منحنٍ في حافته على شكل ثعبان يتلوى، وقد امسك بتل صغير بفكه المفتوح.

جمعت كل هذه البحوث معا في كتاب من تأليف سكوير وديفز صدر في العام 1848، بعنوان الآثار القديمة لوادي المسيسيبي. أراد (سكوير) إنتاج حقائق تحل محل النظريات الخاطئة التي عفا عليها الزمن، وكان الكتاب الذي يضم 300 صفحة قد صدر بشكل انيق، واحتوى على رسوم توضيحية وافرة. وظل الكتاب الوحيد الذي يتحدث عن بناة التلال لعدة أجيال. حاول المؤلفان تصنيف السدود الترابية والتلال إلى فئات إبداعية مثل (تلال التضحية)، و(تلال المعابد)، حَتَّى إنّ مخزونهم من المواقع، وخططهم التفصيلية تفرح المرء عندما يتفحصها، ويمكن ربطها بالخرائط الحديثة. في كثير من الحالات، قام المؤلفون بتسجيل ملامح اختفت مُنْذُ ذلك الحين.

وصف سكوير، بعناية، الاكتشافات الصغيرة التي حصل عليها من حفرياته المتعجلة. حَتَّى إنّه حدد بشكل صحيح موضع وجود خام النحاس بالقرب من بحيرة سوبيريور، التي تقع في اقصى الشمال، الذي تم طرقه لتصنع منه فؤوس، وبلطات بسيطة، وكانت هناك مزامير، وأشكال حيوانات منحوتة من الحجر الأملس. وهذه الأشكال الأخيرة ادهشت سكوير لانها كانت أكثر تطورًا من أي شيء آخر ابدع في صنعه الهنود المحليون.

كتب سكوبر وديفيز عن بناة التلال بشكل عام، مشيرين إلى أنهم كانوا خبراء في بناء السدود الترابية الدفاعية. تأثرت أفكارهم بالحكايات الشعبية للجيوش العظيمة، والمعارك الضخمة التي جرت في أوقات سابقة. وقاما برسم صورة لبناة (التلال الأوائل) المحبين للسلام: وعندما هاجمتهم (جحافل وحشية معادية)، قاموا ببناء الدفاعات بشكل محموم منْ أَجل حماية أنفسهم. لكنها كانت، كلها، دون جدوى: فقد تمكن منهم الغزاة، واختفى بناة التلال. افترض سكوير وديفيز أن الهنود الذين صادفهم الأوروبيون كانوا هؤلاء الوافدين الجدد الذين يتسمون بحب القتال والعدائية، وكانوا، لذلك، مؤهلين لان يمثلوا سكان منطقة أوهايو اكثر من تمثيلهم الأوروبيين.

ربما كان سكوير وديفيز متحاملين، لكن كتابهم، ومسوحاتهم وضعت الخلافات المحيطة ببناة التلال على أساس جديد تماما. ومع ذلك، استمرت التخمينات الخاطئة بالظهور. فقد أعلن وليام بيدجون، الذي ادعى أنه تاجر في الغرب، ويتمتع بخبرة

طويلة في معرفة تاريخ الهنود، مصرّحًا في العام 1858 أن آدم المذكور في الكتاب المقدس قد بنى أول تل في أمريكا. وقد تبع آدم الكثيرون، بما فيهم الإسكندر الأكبر ومختلف المصريين والفينيقيين. جمعَ بيدجون ثروة من كتابه، الذي قال إنه يستند إلى احاديث له مع شخص هندي يدعى دي كوو داه. وقد رحل هذا الهندي عن الدنيا في الوقت المناسب، بعد ان افشى له بأسراره.

بالنسبة لجميع مخترعي الأساطير، كانت التغييرات تجري على قدم وساق. تلقت ابحاث علم الأثار دفعة قوية إثر نشر كتاب داروين أصل الأنواع، واكتشاف إنسان نياندرتال (انظر الفصل 8). بدأ جيل جديد من الأبحاث، يتركز في مؤسسات مثل جامعة هارفارد، ومؤسسة سميثسونيان. لكن على الرغم من العديد من الادعاءات، لم يجد أحدٌ فؤوسا مصنوعة باليد كتلك التي تم اكتشافها في وادي السوم، أو أحافير إنسان النياندرتال في أي مكان في أمريكا الشمالية. كان الجدل الرئيسي يحيط ببناة التلال في الغرب الأوسط، والجنوب.

كانت التكهنات حول بناة التلال متضاربة للغاية، إلى الحد الذي أقنعت فيه مجموعةٌ من علماء الآثار الكونغرسَ الأمريكي في العام 1881 بتخصيص أموال للقيام بأبحاث حول بناة التلال. وتقرر أن يعمل قسم استكشافات التلال التابع لمعهد سميثسونيان لعلم الاعراق البشرية تحت إشراف البروفيسور سايروس توماس (1825 – 1910). لم يكن يُعرَف الكثير عن توماس، الذي كان قد درسس علم الجيولوجيا. ومع ذلك،

فنحن نعلم أنه كان يعتقد في الأصل أن افراد أحد الاعراق البشرية - ليس له علاقة بالهنود الحمر - قاموا ببناء التلال.

انتشر توماس، وثمانية مساعدين له في مناطق التلال، وخاصة في وادي المسيسيبي. في ذلك المكان كان المزارعون يحفرون في التلال بحثا عن الكنوز، وكان هناك حينها سوق نشط لبيع المصنوعات اليدوية. قضى تاجر ورق يدعى كلارنس مور موسم الصيف، وهو يطوف على طول نهري ميسيسيبي، وأوهايو على متن قارب يشبه اليخت. كان عليه ان يتوقف، ويبدأ عماله بالحفر، وسوف تختفي آلاف القطع الأثرية تحت سطح القارب - ليتم بيعها، أو إضافتها إلى مجموعته.

تركزت معظم أعمال توماس على المنطقة المحصورة بين أوهايو، وويسكونسن. لقد قام بنشر فريقه بشكل حذر على الأرض، وقد عمل اعضاء الفريق طوال العام في المسح والتنقيب بأقل قدر من الدمار. واستغرق العمل أكثر من سبع سنوات. قضى توماس قسما منها في التخطيط لهذا البحث الأثري، وجمع البيانات الدقيقة على نطاق واسع. وقام هو ورجاله بأخذ عينات من أكثر من 2000 تل وسد ترابي من كل حجم ونوع. وحصل توماس على حوالي 38 ألف قطعة أثرية في خلال عمليات التنقيب، أوعن طريق التبرع.

في العام 1894 نشر توماس تقريرا بـ 700 صفحة، وصف فيه المئات من السدود الترابية، والتلال بتفاصيل دقيقة. وعلى الرغم من أن قراءة عمل توماس ليس بالأمر السهل، إلّا أنه يستند إلى بيانات تم جمعها بعناية.

وفي حين كان يصف أعمال الحفر والقطع التي تم العثور عليها، تغيرت معتقداته حول بناة التلال بشكل جذري. وباعتباره باحثا دقيقا، قام بمقارنة القطع الأثرية، والأعمال الفنية من أعمال التنقيب التي قام بها، ومجموعاته الخاصة مع الأشياء التي صنعتها المجتمعات الأمريكية الأصلية التي كانت تعيش آنذاك. ووجد تشابها كبيرا بين الأدوات، والاسلحة القديمة، والحديثة. كما درس الكتب التي كتبها الرحالة الأوروبيون، الذين وصفوا التلال التي كانت ما تزال قيد الاستخدام في وقت متأخر من القرن الثامن عشر.

وبعد مرور فترة من الزمن ليست بالطويلة لم يعد توماس يؤمن بوجود حضارة بناة تلال اختفت في وادي المسيسيبي. وبدلاً من ذلك، ذكر أن جميع المواقع التي فحصها قد شيدت من قبل «القبائل الهندية التي تقطن المنطقة تلك عندما زارها الأوروبيون أول مرة».

لقد غيّر كتاب توماس الذي يعتمد على البيانات، قواعدَ اللعبة في علم الأثار، وجاء العلم ليحل محل التخمينات. لكن التحيز ضد الأمريكيين الأصليين استمر، وتم الاستيلاء على أراضيهم، وفي كثير من الأحيان، على أسس قانونية واهية. وتدريجيا، أعطى الحفر غير العشوائي من قبل غير الخبراء المجال للعمل الميداني المنهجي للباحثين المحترفين.

مرت سنوات عدّة قبل أن يظهر علماء الآثار المدربون جيدا. لكن الامور بدأت تاخذ طريقها نحو النجاح، وبصرف النظر

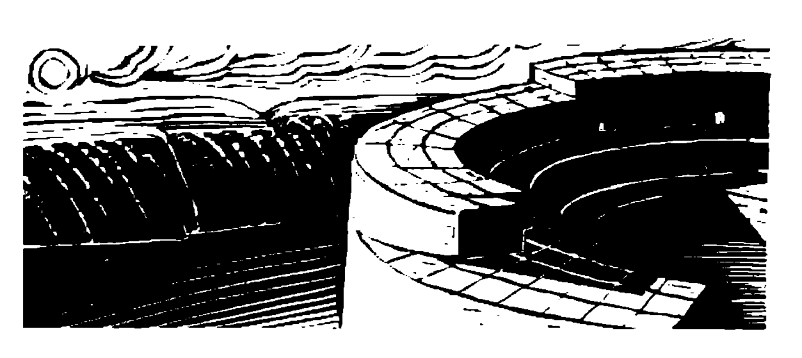
عن بعض المواقع النادرة في الحدائق العامة، فإن جميع الأماكن تقريبا المذكورة في دراسة توماس (وكانت دراسة مفصلة) قد عانت، بشكل مأساوي في الاقل، من بعض الضرر.

ما يزال تقرير توماس يشكل مصدرا أساسيا لعلماء الآثار اليوم. لكن إرث هذا الباحث الميداني النشط يمتد إلى أبعد من ذلك: فقد اشار بملاحظاته إلى التنوع الكبير للشعوب التي عاشت في بلاد بناة التلال في العصور القديمة. كان التحدي المستقبلي امام علماء الآثار هو تحديد هذه المجتمعات المتنوعة، وعلاقاتها مع الثقافات السابقة، واللاحقة.

مُنْذُ قرن من الزمان، مُنْذُ كشف سيروس توماس أخيرًا عن أسطورة بناة التلال، أثبتت الأبحاث هذا التنوع المميز. واليوم، فاننا نعرف الكثير عن ما يسمى مجتمعات أدينا، وهوبويل، والمسيسيبي التي بنت السدود الترابية، وعن تفاصيل معتقداتها، وطقوسها. كما نعلم أن العديد من الطقوس، والمعتقدات الدينية لأولئك الذين قاموا ببناء سدود ترابية كبيرة في أمريكا الشمالية قد عاشت إلى فترة التاريخ المسجل.

فشل عمل توماس في وقف موجات الدمار الهائلة، لكنه في الأقل نجح في إقناع مجموعة من السيدات في بوسطن بجمع ستة آلاف دولار لشراء تل الافعى الكبير، الذي قام بترميمه ليصبح متنزها عاما للزوار في العام 1887. ويعد الآن نصبا تذكاريا، ومعلما تاريخيا وطنيا لولاية أوهايو.

الفصل الثالث عشر



(البحث في المجهول)

في نيسان من العام 1883، اصابت الدهشة الجنود في مقاطعة فورت أباتشي في ولاية أريزونا، عندما اتجه مسافر وحيد كان يمتطي بغلا إلى البوابة. كانت المقاطعة في طريقها إِلى الحرب، ما جعل السفر إِليها صعبا للغاية.

كان الفارس هو أدولف فرانسيس الفونس بانديلييه المولود في سويسرا (1840 – 1914)، الذي كان يتجول في المناطق الهندية النائية من الصحراء ليدرس (المدن المدمرة)، والناس الذين عاشوا هناك قبل فترة طويلة من مجيء كولومبوس.

كان تشارلز يسافر عبر جنوب الغرب الأمريكي الذي كان مكانا مجهولا فعليا. وكانت بعض البعثات التي تقودها إسبانيا من المكسيك تقوم بزيارة قريتي هوبي، وزيوني بويبلو الهنديتين

بحثا عن الذهب، لكنها تركتها خالية الوفاض. كانت هناك حكايات عن مستوطنات هندية مزدحمة، ومتعددة الطوابق، يطلق عليها، عادة، اسم (بويبلوس)، ولم تكن هناك سوى تفاصيل قليلة عنها. ظهر أول وصف مطول لقرى الهنود، ومدنهم القديمة في العام 1849، عندما قام الملازم الأمريكي جيمس هنري سيمبسون، والفنان ريتشارد كيرن بزيارة عشرٍ منها، بما في ذلك أطلال كبيرة لها في بويبلو بونيتو، وفي شاكو كانيون، ونيومكسيكو، وقرية نافاغو في كانيون دي شيلي في شمال شرق ولاية اريزونا.

زاد عدد المسافرين الغرباء إلى المنطقة بشكل كبير بعد الانتهاء من مد خط السكة الحديد العابر للقارة العام 869، ومع تحرك المزيد من المستوطنين غربا. فقد قررت الحكومة الأمريكية تنظيم بعثات رسمية لرسم خريطة، واستكشاف ما هو في الأساس مختبر بيئي ضخم. وشملت مهامهم دراسة جيولوجيا المنطقة، وجمع المعلومات حول قرى الهنود، ومستوطناتهم.

انصب اهتمام معظم البعثات الحكومية على مسائل الجيولوجيا، وفرص التعدين المحتملة أكثر من اهتمامها بالقرى الهندية. أما أدولف بانديليه الذي كان يمتطي بغلته المتواضعة فقد كانت لديه اهتمامات مختلفة تماما. كان بانديلير ذلك الشخص الهادئ، ذا المعرفة الواسعة، الذي عمل مصرفيا في مدينة صغيرة في ولاية نيويورك، ثُمَّ مديرا لمنجم فحم، يكرس وقت فراغه لدراسة

المؤلفات الإسبانية التي تتحدث عن المكسيك، والمنطقة الجنوبية الغربية في وقت كان فيه الجميع منبهرا بالغرب الأمريكي.

ولكونه لغويا ماهرا، فقد بحث في الارشيف الذي لم يكن معروفا إلّا قليلا، لكنه فعليا لم يتعلم منه شيئا عن تاريخ القرى الهندية. وتحولت هوايته إِلى هوس، وسرعان ما أدرك أنه بحاجة إلى توسيع أبحاثه النظرية بالذهاب إلى الحقول في الجنوب الغربي. تخلى باندلير عن كل شيء منْ أَجل السفر إلى مدينة سانتا في ولاية نيو مكسيكو، ولم يكن يملك سوى مبلغ منحة بسيطة. وعلى الرغم من أنه كان مفلسًا تقريبا، ولا يملك إلّا القليل عدا بغله، اصبح يمكنه الآن في الأقل دراسة علم الآثار، وتاريخ القرى الهندية بشكل ميداني.

كان يعرف أن أي بحث في الماضي لا بُدَّ من ان يبدأ مع مجتمعات القرى الهندية الموجودة. توقف أولاً في القرى المهجورة مؤخرا في نيو مكسيكو. وفي اثناء السنوات التي سبقت القرن السابع عشر قليلا، عاش ما يصل إلى 2000 شخص في بيكوس. وقد غادر آخرهم بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أي قبل خمسين عاما من وصول باندليار.

ولانه أتقن اللغة المحلية في عشرة أيام بشكل مذهل، استطاع جمع المعلومات التاريخية الحيوية من السكان المسنين. كما قام بعملية مسح لأنقاض قرية كبيرة، وقدم وصفا لها، لكنه لم يقم بالحفر، والتنقيب فيها: فلم تكن لديه المعرفة، ولا المال اللازم للقيام بذلك. وقد أقنعه بحثه في بيكوس بأن الطريقة الوحيدة

لدراسة تاريخ القرى التي كانت موجودة في وقت سابق كان من خلال العمل بطريقة استرجاعية بدءًا من المجتمعات الحية حينها إِلى تلك التي عاشت في الماضي البعيد، باستخدام علم الآثار. كتب بانديلير تقريرًا مفصلاً عن أبحاثه في بيكوس، لكنه لم يجذب سوى القليل من الاهتمام.

بدأ يبحث الآن عن مواقع واعدة أخرى. في أواخر العام 1880، أمضى ثلاثة أشهر يعيش مع سكان قرية كوشيتي. وساعده الكهنة الكاثوليك في نيو مكسيكو على نطاق واسع في الاتصال بالمخبرين الهنود، خصوصًا بعد أن تحول إلى الكاثوليكية.

كانت القرى التي زارها بانديلير تتألف من غرف طينية مرصوصة، متقاربة، متصلة ببعضها بواسطة متاهة من المداخل، والممرات الضيقة. كان في بعض القرى الاكبر اكواخ ذوات طابقين – أو حَتَّى أكثر، مثل الاكواخ التي على شكل نصف دائرة التي كانت متعددة الطوابق في قرية بونيتو في تشاكو كانيون. كما تم العثور على غرف دائرية واسعة تحت الأرض في الموضع المفتوح في الأشكال نصف الدائرية. كانت هذه الأماكن التي تسمى كيفا مخصصة لإقامة الاحتفالات السرية. وعلى الرغم من أن هذه القرى كانت متهالكة، وغير مرتبة إلى حد ما، إلّا أنها كانت تمثل في، الواقع، مجتمعات عالية التنظيم، إِذ عاشت فيها العائلات الممتدة لأجيال عديدة.

تجول باندلر في الفترة من 1881 إلى 1892 في أرجاء أريزونا، ونيو مكسيكو. وعلى الرغم من أنه قدم ملاحظات واسعة في

أثناء رحلاته، إلّا أنه لم يعش لرؤيتها مطبوعة ومنشورة (وقد صدرت اخيرا في ستينيات القرن العشرين، وسبعينياته)، وهي تحتوي على معلومات ذوات أهمية آثارية، وتاريخية كبيرة.

وإذا اردنا الحديث بصراحة لم يكن باندلر عالم آثار بالمعنى الدقيق للكلمة. لكنه كان يعمل، ويتصرف مثل عالم آثار، ولم يكن يعوزه سوى التوصيف. لم يقم باندلر أبدًا بالحفر في أي موقع أثري. ولكنه بالمقابل، قام من خلال خططه، وتوصيفاته، الموقعية، بوضع الحجر الأساس لأعمال التنقيب التي قام بها الباحثون لاحقًا.

تناول باندلر تاريخ ما عرف بهنود البويبلو مستخدما المصادر المكتوبة، والاحاديث الشفوية، بالإضافة إلى ملاحظاته الخاصة. كان أول عالم آثار أمريكي يستخدم ملاحظاته عن القبائل الهندية التي كانت تعيش آنذاك لتفسير الماضي. لم يكن يعدّ علم الآثار دراسة للأشياء فحسب، ولكن دراسة للتاريخ، والمعلومات التي تقدمها الاكتشافات الاثرية. كان باندلر يتعقّب الاشياء من الحاضر إلى الأزمنة القديمة، مستخدما كل شيء، من تصاميم الأواني الهندية، إلى التاريخ المحلي الذي كان ينتقل من جيل إلى جيل. وكما عبر بانلو عن ذلك، فقد عمل (من المعروف إلى المجهول، خطوة بخطوة). ووضع العمل الميداني الرائع الذي قام به باندلر أسس العمل الرائد في علم الآثار الذي ستسير الاجيال التالية على خطاه. كل الذين ساروا على خطاه كانوا

يبدأون عملهم من الحاضر باتجاه الماضي، كما يفعل علم الآثار في الجنوب الغربي حَتَّى يومنا هذا.

دعم باندلر تجواله بكتابة التاريخ الكاثوليكي، ومقالات في المجلات - وحَتَّى إنّه كتب رواية، بعنوان صناع الفرح، تدور أحداثها في عصور ما قبل التاريخ. كان هدفه من القيام بذلك أكثر من مجرد كسب المال (على الرغم من أن ذلك كان موضع ترحيب). أراد أن يطلع على تاريخ الجنوب الغربي جمهورٌ أوسع. لم تحقق الرواية نجاحا تجاريا، لكنها كانت مدهشة نظرا لادراكها طبيعة مجتمع الاقوام الهندية. غادر باندلر الجنوب الغربي في العام، 1892 وقضى بقية حياته في العمل في المكسيك، وأمريكا الجنوبية، وإسبانيا.

وعلى عكس بدايات علم الآثار في أجزاء أخرى كثيرة من العالم، كانت عن طريق القيام بأعمال حفر واسعة النطاق، فان الكشف عن ماضي الجنوب الغربي بدأ مع دراسات باندلر الدقيقة حياة المجتمعات القائمة آنذاك، وتاريخ هنود البيبلو. لقد أدرك باندلر أن على علماء الآثار، لكي ينجحوا، ان يعودوا عبر القرون عن طريق الحفر في أكوام القمامة التي خلفها هنود البيبلو، وتفحص الآلاف من أجزاء أوعيتهم المكسورة. لم يستطع باندلر أن يفعل ذلك بنفسه، ولذلك ارضى فضوله بالخرائط، والاستطلاعات، والحديث مع هنود البويبلو الذين كانوا على قيد الحياة. كانت هناك مشكلة أخرى أيضًا. فقد كانت ما تزال

الكثير من مزارع هنود البويبلو الواعدة بالنسبة لعلم الآثار يعيش فيها الناس، الأمر الذي جعل الحفر فيها مستحيلاً.

وجنبا إِلى جنب مع باندلر كان هناك رحالة آخر ساعد في وضع الأساس لعمليات التنقيب في وقت لاحق – وهو عالم أنثروبولوجي رائع عاش بين الهنود في زوني، وحصل على معرفة من الداخل بمجتمعهم. كان فرانك هاملتون كوشينغ (1857 – 1900) ابنا لطبيب. وكان عالما ذا اسلوب مقنع، ويحب الإثارة، ولديه ميل نحو الترويج للاشياء بعناية. في العام 1875، تم تعيين كوشينغ أستاذا مساعدا في علم الأعراق (دراسة الشعوب غير الغربية) في مؤسسة سميثسونيان، حَيْثُ تعرف على هنود بويبلو في نيو مكسيكو.

في أواخر العام 1879، رافق كوشينغ العقيد في الجيش الأمريكي جيمس ستيفنسون في بعثة سميثسونيان نحو الجنوب الغربي. وصل كوشينغ إلى قرية زوني التي يسكنها هنود البويبلو بينما كانت شمس شهر أيلول تتوارى خلف القرية. وقد وصف كوشينغ قرية البوبيلو كثيفة السكان بأنها: «جزيرة صغيرة من الهضاب (التلال المسطحة)، المصطفة الواحدة تلو الأخرى».

كان من المفترض أن يبقى ثلاثة أشهر فقط. لكنه بقي بدلا من ذلك، أربع سنوات ونصف، وغادرها بعد ذلك ليهتم بإشغاله المهملة في واشنطن.

آثر كوشينغ البقاء بعدما غادر ستيفنسن، ورفاقه. ومرت بضعة أيام، حَتَّى أدرك أن عمله قد بدأ بالكاد. تجول باندلر في

القرى بحرية في جميع أنحاء الجنوب الغربي، يجمع المعلومات ويحدد المهجورة. لكن كوشينغ اتخذ نهجا مختلفا تماما. أدرك أن الفهم الحقيقي لشعب الزوني (أحد شعوب أمريكا الأصليين المعترف بهم اتحاديا، ويعيش معظمه في مقاطعة بويبلو زوني على نهر زوني، أحد روافد نهر كولورادو الصغير، إلى الغرب من نيو مكسيكو، الولايات المتحدة)، لا يمكن أن يتحقق - الفهم - إلّا بالعيش وسطهم، وإتقان لغتهم، وتسجيل يوميات حياتهم بالتفصيل. وفي ايامنا هذه، يطلق علماء الأنثروبولوجيا على هذه الطريقة البحثية اسم (تقنيات المراقبة المشتركة)، لكنها كانت فكرة جديدة في زمن كوشينغ. لم يكن كوشينغ عالما أثريا، لكنه كان مدركا أن حضارة شعب الزوني امتدت إلى الماضي. وعرف أن بحثه قدم قاعدة أساسية لدراسة الماضي السحيق. في بادئ الامر هدده الهنود بالقتل عندما حاول تسجيل رقصاتهم. لكن رده الهادئ جعله يترك انطباعا عميقا لديهم، ولم يتعرض للمضايقة بعدها. سمح له هنود الزوني بدراسة بنية مجتمعهم، حَتَّى إنّه بدأ يحضر طقوسهم الدينية السرية. ثقب كوشينغ أذنيه، ولبس ملابس هندية. وفي نهاية المطاف، حاز على ثقة هنود الزوني إِلى الحد الذي جعلهم يقومون بتعيينه القائد الحربي للقبيلة. وبجانب تدويناته المتعددة لحكايات الزوني، وأساطيرهم، منح نفسه لقبا خاصا: «القائد الحربي الأول في الزوني: أستاذ مساعد أمريكي في علم الأعراق».

أصبح كوشينغ مؤيدًا للزوني، ومتعاطفا معهم، وقام بالكثير لحماية أراضيهم ضد هجمات المستوطنين الأوروبيين. لكنه أزعج بعض الأشخاص الأقوياء في واشنطن الذين كانت أعينهم على الأرض في تلك المنطقة، فتم استدعاؤه إلى واشنطن. على الرغم من سوء حالته الصحية، قام بإلقاء المحاضرات على نطاق واسع، وكان يتحدث عن تجربته مع الزوني، وما كتب عنها لجمهور الحاضرين. لقد ساعدت جاذبيته الشخصية القوية، ومهاراته في التحدث أمام الجمهور على زيادة الاهتمام العام في الجنوب الغربي. قدمت كتبه، ومحاضراته رؤية رومانسية لحياة هنود البويبلو التي كانت في كثير من الأحيان بعيدة عن الواقع. ومع ذلك، فإن كتاباته حول التقاليد، والطقوس التي كان يقيمها هنود الزوني ما تزال تحتفظ بقيمتها حَتَّى يومنا هذا.

سيكون كوشينغ هو أول من يعترف بأنه ليس عالم آثار. لكنه عدّ علم الآثار وسيلة لنقل بحوثه عن الشعوب التي كانت تعيش آنذاك إلى القرون السابقة، وتطبيقها. كان يعلم أن التنقيب طريقة للعمل في الأزمنة الحديثة، للكشف عن الماضي. وفي وقت لاحق، وفي اثناء رحلة قصيرة إلى الجنوب الغربي، قام بحفر مقبرة في وادي سولت ريفر في أريزونا. وقد دمر زلزال قوي قرية لهنود البويبلو، كانت قريبة، فقام بالبحث فيها أيضًا. لكن أبحاثه في الجنوب الغربي كانت قد انتهت بحلول العام 1890.

كشف كل من واندر، وكوشينغ عن إمكانية القيام بأعمال تنقيب جدية، نظرا للبيئة الجافة في الكهوف، ومحافظة هنود

البوبيلو على السلال القديمة، والأواني المزخرفة، وحصائر النوم المنسوجة، وحَتَّى القبور البشرية المتيبسة. وقد جرى نقل العديد من هذه الاكتشافات إلى الساحل الشرقي للولايات المتحدة، وحققت أسعارا مرتفعة.

من المؤكد أن جامعي الأوعية الفخارية، وتجار التحف القديمة انتقلوا إلى قرى البوبيلو. كان ريتشارد ويذريل، صاحب مزرعة في ولاية كولورادو، تحول إلى تاجر للقطع الأثرية، ومقتنٍ لها، واحدًا من أولئك الذين انغمسوا في البحث عن الكنوز، واستطاع الحصول على الفخار المطلي وغيره من القطع الأثرية من عشرات المواقع الأثرية.

في العام 1888، كان ويذريل، وشخص آخر يملك مزرعة للابقار، يدعى تشارلي ماسون، يبحثان عن ماشية تاهت في وادي ميسا فيردي في جنوب كولورادو عندما صادفا مسكنًا كبيرا لهنود البوبيلو في أحد الكهوف - وكان أكبر منحدر صخري مسكون في أمريكا الشمالية. ويعرف الآن باسم قصر المنحدر الصخري، تم بناء مسكن البوبيلو، من الحجر الرملي، وكانت المونة التي تربط الكتل الحجرية معا مصنوعة من التربة، والمياه، والرماد، سكن حوالي مائة شخص في قصر كليف في الفترة ما بين 1190 و1260، قبل أن يتم تركه، ربما بعد فترة طويلة من الجفاف. وكان هذا القصر مركزا هاما للشؤون الإدارية، وإقامة المراسم الاحتفالية، بالإضافة إلى احتوائه على ثلاث وعشرين غرفة كانت مغمورة بالتراب.

وأصبحت ميسا فيردي، والمواقع الأخرى في المنطقة منجم ذهب لعائلة ريتشارد ويثريل، وامضى السنوات الأخيرة له في البحث عنها في قرى بونيتو في شاكو كانيون. في العام 1897، افتتح متجرا بالقرب من ذلك الموقع لبيع القطع الأثرية. وبحلول العام 1900، قام بتطهير أكثر من 190 غرفة - كانت تشكل أكثر من نصف الموقع - وقام ببيع محتوياتها. وقد وصلت تكاليف (الحفريات) التي قام بها إلى ما لا يقل عن 25000 دولار قام بتمويلها عدد من الأفراد، الذين قاموا بإهداء هذه الاكتشافات إلى المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي في نيويورك. بعد ان وصلت الشائعات عن تحقيق عمليات التنقيب عن الآثار أرباحا ضخمة، إلى واشنطن، تم منع أعمال التنقيب التي يقوم بها ويثريل بأمر رسمي. في العام 1907، وقع ويثريل على إقرار بمنح ملكية الأرض للحكومة. وفي الوقت نفسه، تمكن العدد القليل من علماء الآثار المحترفين في الجنوب الغربي، بقيادة إدغار هيويت (1865 - 1946)، تلميذ أدولف باندلر، من تشكيل مجموعات ضغط لإقرار بعض القوانين لحماية المواقع الأثرية على الأراضي العامة. قدم قانون الآثار الأمريكية للعام 1906 حماية محدودة للمناطق الرئيسية مثل شاكو كانيون، وميسا فيردي. انشأ هيويت مدرسة ميدانية لتدريب علماء الآثار الشباب على طرق التنقيب الصحيحة - وليس تلك المستخدمة من قبل علماء الاثار الهواة. وقد شمل الكثير من العمل الذي قاموا به تنظيف المواقع التي دمرها اللصوص.

ارسى باندلر، وكوشينغ، وآخرون اسس مبدأً أساسي للعمل الآثاري في الجنوب الغربي: فأنت بحاجة إلى العمل بطريقة استرجاعية من الحاضر إلى الماضي. وقد اتبع علماء الآثار هذا المبدأ مُنْذُ ذلك الحين.

الفصل الرابع عشر



ثيران... ثيران!

في العام 1868، بينما كان أحد الصيادين الإسبان، ويدعى موديستو كوبياس، يمارس رياضة صيد الثعالب اضاع أثر كلبه بين بعض الصخور. وتناهى إلى سمعه من تحت الأرض صوت كلب ينبح. عثر كوبياس على الحفرة التي اختفى فيها الكلب، فقام بتوسيعها لتقوده إلى كهف مختفٍ مُنْذُ فترة طويلة. لم يدخل الكهف ليستكشف ما فيه، لكنه أبلغ مالك الارض عنه، وهو الماركيز دي ساوتولا (1831 – 1888)، الذي كان يعمل محاميا يملك العديد من العقارات في شمال إسبانيا، ولديه العديد من الاهتمامات، من بينها قراءة الكتب، والبستنة، وعلم الآثار.

لكن البحث في الماضي لم يكن يشكل أولوية كبيرة لمالك الأرض المشغول دائما. مرت 11 سنة قبل أن يزور كهف كوبياس

المعروف الآن باسم التاميرا، وهي كلمة اسبانية تعني (وجهة نظر حاذقة). عندما كان يتجول في الكهف، لاحظ بعض علامات سوداء على الحائط، لكنه لم يشغل تفكيره بها. بعد ذلك بفترة وجيزة، زار باريس حَيْثُ شاهد عرضا – لقطع أثرية قديمة عُثِر عليها في كهف كرو ماكرون الذي يقع في جنوب غرب فرنسا. وكانت تضم اجزاء من قرون، وعظام حيوانات مزخرفة بشكل جميل فتحول ذهنه إِلى كهف التاميرا، وتساءل في ما إذا كان يمكن ان توجد اكتشافات مماثلة في الطبقات الاثرية لذلك الكهف.

بعد عودته إلى المنزل، قرر الماركيز القيام بعمليات تنقيب. توسلت إِليه ابنته ماريا البالغة من العمر تسع سنوات لكي ترافقه أيضًا. وبينما كان الأب، وابنته ينظران إلى العمال وهم ينقبون في أرضية الكهف باستخدام المجارف، والمعاول في بحث متسرع عن الأدوات المزخرفة، سرعان ما سئمت ماريا من العمل وسط الوحل، وتجولت للعب في أعماق الكهف. وفجأة، صرخت في وسط غرفة جانبية سقفها منخفض: (الثيران! الثيران!) فاسرع الماركيز نحوها، فأشارت إلى لوحة تصور ثور البيسون (البَيسون الأمريكي، أو الثور الأمريكي، أو الجاموس الأمريكي، وهو حيوان ثديي يَقطن حاليًا محميات أمريكا الشمالية، وخصوصًا الولايات المتحدة، وكندا إلى حد ما، ويَعيش هذا النوع أيضًا في المكسيك)، متعدد الألوان، كانت تلك واحدة من العديد من اللوحات التي تصور الحيوانات الموجودة على الصخور. كانت هناك ثيران، وخنازير برية، وغزلان ظهرت مجتمعة معا

في السقف. جعلت ألوان الحيوانات الزاهية هذه اللوحات تبدو كما لو كانت قد رسمت قبل يوم واحد فقط. قامت ماريا بواحدة من أعظم الاكتشافات الأثرية في القرن التاسع عشر.

كانت حجرة اللوحات في كهف التاميرا، بسقفها المنخفض، تشبه حديقة لحيوانات، ووحوش العصر الجليدي الضخمة. وكان يقف هناك الثور المنقرض مُنْذُ فترة طويلة، وقد رُسِم باللونين الأسود، والأحمر، بشعره الكثيف، وأحيانا برأس منخفض. وكانت تجثم وحوش أخرى. وكان هناك خنزير بري يتبختر عبر الصخور. والغزلان ذوات القرون الضخمة. كانت الحيوانات تملأ السقف، ويبدو الكثير منها أكثر حيوية بسبب النتوءات الموجودة في الصخور التي تزيد من حجم أجسامها. كانت توجد بين الوحوش بصمات يد حمراء. وقد تم صنع بعض هذه البصمات عن طريق رش مسحوق أحمر على السقف، بينما تم طلاء بعضها الآخر.

تأكد ساوتولا على الفور أن رسومات كهف التاميرا مشابهة للأشكال المنقوشة التي شاهدها في باريس. فاصدر كتيبا عن الكهف افترض فيه فكرة مفادها أن الرسوم الجدارية تلك يمكن أن تكون من نفس الفترة الزمنية للرسوم التي شاهدها في فرنسا. ولكن ما اثار استياءَه، هو، ان علماء الآثار الفرنسيين رفضوا الفكرة على الفور: فالرسوم التي تبدو حديثة المظهر، كما قالوا، كانت حديثة، ومتطورة للغاية، ولا يمكن ان تعود إِلى عصور ما قبل التاريخ البربرية. وذهب بعضهم إلى الحد الذي قال عنها

انها رسوم مزيفة، رسمها فنان حديث، ربما بالتعاون مع الماركيز. فضّل ساوتولا، الذي اعتصره الالم، والحزن ان، يتقاعد وسط املاكه، وتوفي في العام 1888، وكان ما يزال يُشتبه بتزويره تلك الرسوم. سيتطلب الامر ان تمر العديد من السنوات قبل أن يتم إعادة الاعتبار لاسمه.

تم العثور على بعض الرسوم، والنقوش في عدد من الكهوف في جنوب غرب فرنسا. وقد عدّها عدد من الخبراء أشكالا حديثة. لم يكن هذا مفاجئا، إِذ اعتقد معظم الناس في ذلك الوقت أن الصيادين القدماء (البدائيين) لا يمكن أبدا أن يكونوا فنانين. لكن في وقت لاحق ظهرت إِلى النور رسومات أكثر تعود إِلى عصور ما قبل التاريخ. في العام 1895، قام مالك كهف لاموث الذي يقع بالقرب من ليس ايزيز في منطقتي الصيد دوردوني – لارتيه وكريستي – بإزالة بعض اكوام التراب. وجد نفسه في قاعة كانت مغلقة حَتَّى تلك اللحظة، مع رسم مزخرف لثور البيسون المنقرض، وأشكال أخرى تغطي الجدران. كان من الواضح أنها قديمة. ظهرت إِلى النور المزيد من الكهوف التي تحتوي على رسومات، في المواقع التي أصبحت الآن مناطق جذب سياحي شهيرة مثل لاكوغابيل التي تشتهر بنقوشها، وكهف فونتي غوم القريب من ليز ايزيه، الذي اشتهر برسومات فيل الماموث الصوفي، وأصبح التعاطي مع فن العصر الجليدي أقوى، وأقوى.

في العام 1898، زارت مجموعة صغيرة من علماء الآثار منطقة لاكوغابيل. كان من بينهم عالم آثار فرنسي بارز يدعى إميل كارتياش (1845 - 1921)، وكاهن كاثوليكي شاب، يدعى هنري برويل (1877 - 1961).

تركت النقوش التي وجدت في الاعماق تحت سطح الأرض انطباعا قويا عند كارتاياش. بعد أربع سنوات، قام هو، وبرويل بزيارة كهف التاميرا. كان الكاهن الشاب يعتقد اعتقادا راسخا أن الرسومات هناك تعود إلى العصر الجليدي، لكن كارتياش كان يؤكد دائما أنها لا بُدَّ من أن تكون حديثة، ومع ذلك، غير رأيه حينها - فالرسومات كنت قديمة. في الواقع، وجد الأدلة قوية لدرجة أنه نشر مقالة مشهورة اعتذر فيها عن معتقداته السابقة. أعلن فيها أن كهف التاميرا هو بمثابة معرض فني لعصور ما قبل التاريخ. وأثبت في النهاية أن ماركيز دي ساوتولا وابنته كانا على حق.

يجب أن يذهب الكثير من الفضل في تغيير رأي إميل كارتياش إلى هنري برويل، الذي سيصبح عملاقا في مجال أبحاث الفن الصخري. كان برويل، وهو من مواطني نورماندي في شمال فرنسا، ابن محام. تم تعيينه كاهنا كاثوليكيا في العام 1900. واضافه إِلى انه كان رجلا عميق الايمان، فقد كان أيضًا عالما استثنائيا. كان إيمان هذا الكاهن الشاب قويًا لدرجة أن الكنيسة تجاهلت بحثه عن العصر الجليدي (الذي كان ضد تعاليمها)، وأعطته الإذن لمتابعة دراسته - ليس ككاهن، بل كعالم مستقل.

بعد فترة وجيزة من تنصيبه كاهنا، التقى برويل مع اثنين من الباحثين في عصور ما قبل التاريخ، هما الفرنسيان، لويس كابيتان، وإدوارد بييت، اللذان قدما له أرضية شاملة لإجراء البحوث عن الادوات المصنوعة من قرون، وعظام الحيوانات، ومن الحجارة التي تم اكتشافها في الكهوف الفرنسية. كان برويل يتمتع بعقلية قوية، ولم يكن يتسامح مع حماقات الآخرين - وإذا ما اختلفت معه فانت من سيتحمل العواقب. لكنه كان فنانا رائعا في زمن كانت فيه الإضاءة تحت الأرض والتصوير الفوتوغرافي عالي الجودة، أمورا شبه مستحيلة. تطلب نسخ الرسومات الصخرية الرقيقة من الفنان عمل رسومات تقريبية، ومِنْ ثَمَّ قياس الأشكال. وهذا ما اضطره إلى الاستلقاء على أكياس مليئة بنبات السرخس، والقش، واستخدام الشموع، أو مصابيح ذوات إضاءة، فحسب. قضى برويل أياما مذبذبة، محشورا في ممرات ضيقة في ظلام شبه تام، يتتبع النقوش والصور الباهتة على الورق. واحصى ذات مرة أكثر من 700 يوم قضاها تحت الأرض، منْ أَجل نسخ الرسوم، والنقوش.

أنهى برويل رسوماته الخام بواسطة الألوان المائية، ويقوم بفحصها من خلال مقارنتها بالصور بالأبيض، والأسود كلما أمكن ذلك. وبالفعل، كانت بعض النسخ مبتكرة إلى حد ما. ولكن حَتَّى اليوم، عندما تكون الصور الملونة متوفرة، فإنها تمثل أرشيفا للفن الصخري لا يقدر بثمن. ولسوء الحظ، فإن العديد من

الرسومات التي سجلها قد اختفت الآن بسبب التغيرات في هواء الكهوف التي أحدثها الزوار المتتابعون.

وقد ظهر اكتشاف مذهل في العام 1940، عندما فقد بعض تلاميذ المدارس الذين كانوا يطاردون الأرانب بالقرب من بلدة مونتيينياك، أثر كلبهم في جحر أحد الأرانب. وعلى إثر سماعه ينبح تحت الأرض، فتحوا الجحر، وهرعوا إلى الأسفل. وجد الأولاد أنفسهم في قاعة كبيرة مغطاة بالرسومات الرائعة للثيران البرية، وثيران البيسون المنقرضة، والحيوانات الأخرى. سارع برويل إلى ما يعرف الآن باسم كهف لاسكو. وقد أدهشته رسومات الثيران الضخمة، وثور البيسون الشرس، وقد كانت الالوان نابضة بالحياة، كحالها في اليوم الذي رسمت فيه. وبفضل تقنية تحديد التأريخ بالكربون المشع (انظر الفصل 27)، نعلم الآن أن تلك اللوحات، والنقوش قد تم دفنها تحت الأرض مدة 15 ألف سنة في الأقل.

بعد نسخه رسومات كهف ألتميرا، ابتكر برويل نظرية مفادها أن هناك اسلوبين فنيّين مختلفين في العصر الحجري القديم، تطورا من البسيط إلى الأكثر تعقيدا. وكان مقتنعا بأن الأعمال الفنية كانت شكلا من أشكال ما أسماه (سحر الصيد). كانت الصور مرتبطة بأرواح الحيوانات المرسومة على الجدران، التي تم رسمها لضمان نجاح الصيادين. واعتقد أيضًا أن بعض اللوحات، والنقوش، خاصةً على الأجسام القابلة للحركة، كانت تتمتع بمثل هذه الميزة الفنية، وانها صُنعت منْ أَجل

المتعة – وهذا دليل على إبداع فناني كهوف كرو ماغنون. اثبت التصوير بالألوان، وبالأشعة تحت الحمراء، وما جرى فيما بعد من اكتشافات كانت غالبا مذهلة في كهف لاسكو، أن هذه النظرية كانت مفرطة في التبسيط. وهناك أيضًا كهف آخر يحتوي على رسوم، هو كهف شوفيه اكتشف في العام 1994، ويحتوي على رسومات رائعة لحيوان وحيد القرن في العصر الجليدي، والحيوانات المنقرضة الأخرى، التي رسمت مُنْذُ حوالي 30 ألف سنة. وكانت رسومات مغارة شوفيه هي الأكثر إتقانا حَتَّى من رسومات كهف لاسكو، مع انها اقدم بكثير. لم يضع أحد حَتَّى الآن تسلسلا متفقا عليه بشكل عام لما هو واضح انها التقاليد الفنية المعقدة، الموغلة في القدم. ولا تمكن الخبراء من الاتفاق على معنى الفن. بعد فترة وجيزة من اكتشاف كهف لاسكو سافر برويل إلى جنوب إفريقيا، حَيْثُ بقي هناك حَتَّى العام 1952 يدرس الفن الصخري من اقوام السان (السكان الأصليين الذين كانوا يعرفون باسم البوشمن).

كان هو أول من شاهد الفن الصخري لاقوام السان في زيارته البلاد وفي اثناء انعقاد أحد المؤتمرات في العام 1929. كان الرحالة الأوائل، وعلماء الأنثروبولوجيا قد عثروا على رسومات اقوام السان قبل فترة طويلة من اكتشاف كهف التاميرا. وفي وقت مبكر من العام 874، قال عالم الأنثروبولوجيا في جنوب إفريقيا جورج ستو عند مقابلته بعض العاملين في الصيد، والقنص من اقوام السان انهم لم يكونوا يرسمون بأنفسهم، لكنهم يعرفون

من كان يقوم بذلك. كان الفن الصخري لدى اقوام السان يختلف تماما عن الأعمال التي اكتشفت في الكهوف الفرنسية. ففي جنوب إفريقيا، كانت هناك مشاهد لمطاردات في أثناء الصيد، أو لأشخاص يجمعون العسل، ومشاهد للرقصات، والاحتفالات، والحياة في المخيمات، وكانت هناك كذلك علامات، ورموز. عدّ برويل، مرة أخرى، هذا الفن نتاجا لسحر الصيد، لكننا نعلم الآن أنه كان له معان أكثر تعقيدا بكثير.

لم يكن برويل أول باحث يحاول فك ألغاز الفن الصخري لاقوام السان. ومن سخرية القدر، وقبل وقت طويل من اكتشاف كهف التاميرا، استطاع لغوي ألماني، يدعى ويلهلم بيليك (1827 – 1875)، تعلم عدة لهجات كان يتحدث بها افراد من اقوام السان في أثناء إقامته في كيب تاون. وقد تمكن من ذلك بعد نجاحه في إقناع السلطات بإطلاق سراح ثمانية وعشرين من المدانين ممن كانوا يعملون في صنع حاجز امواج في مرفأ كيب تاون ليعملوا كمدرسين له. وقد عاشوا في منزل بليك بينما كان، هو، وزوجة اخيه لوسي لويد لا يقومان بتجميع المفردات، والقواعد فحسب، لكن بتجميع مجموعة قيمة من الأساطير، والفولكلور. كان كل من بليك، ولويد مدركين جيدا حجم القطع الفنية لدى اقوام السان، لكنهما كانا لا يمتلكان سوى بضع نسخ فقط لعرضها على الجمهور في العام 1873، سافر باحث آخر، هو القاضي جي إم أورين، عبر جبال مالوتي الواقعة في ليسوتو، على بعد مسافة قصيرة من سلسلة جبال دراكنزبرغ.

وقام بتدوين الحكايات الشفوية التي تلاها مرشده السياحي من اقوام السان، التي كانت مشابهة، بشكل ملحوظ، للاساطير التي رواها بليك، ولويدز، فكلاهما شدّد على التركيز بشكل رئيسي على حيوانات الماعز الكبيرة، والاند، وهو صنف من البقر الوحشي، والفريسة المفضلة لدى الصيادين من اقوام السان.

أصبح بليك مقتنعا أن الرسوم كانت تشرح أساطير اقوام السان. لكن الباحثين الذين جاءوا بعد ذلك إما تجاهلوا الروايات التي تم جمعها بعناية، التي قام بليك بجمعها، أو عدّوا المعلومات ذوات قيمة مشكوكًا فيها، وركزوا، بدلا من ذلك، على تسجيل الأعمال الفنية بشكل منهجي.

أما برويل فقد أمضى الفترة ما بين عامي 1947 – 1950 في نسخ الأعمال الفنية في المنطقة التي تعرف الآن بناميبيا وزيمبابوي. وبدلا من التصوير الفوتوغرافي، استخدم قلم رصاص، وورق سميك، ما أدى إلى حدوث العديد من حالات عدم الدقة. في ناميبيا، قام بنسخ اللوحة الشهيرة المعروفة باسم السيدة البيضاء من براندبرغ، وتظهر اللوحة التي يبلغ عمرها 2000 عام شخصية بشرية ذات وجه وسيقان مطلية باللون الأبيض جزئيا، وتحمل قوسا، وسهما وهي تسير قدما، وتحمل زهرة. وذكر برويل أن اللوحة كانت لامرأة. وكانت لوحة غريبة، وادعى أن من رسمتها ليست من اقوام السان، لكنها زائرة من منطقة البحر الأبيض المتوسط، وربما كانت جزيرة كريت، حَيْثُ كانت الأشكال النسائية القديمة شائعة. كان برويل، الذي يبدو

أنه لم يكن يحترم كثيرا اقوام السان، مخطئا تماما. بعد وفاته في العام 1961، أظهرت الأبحاث باستخدام التصوير الفوتوغرافي الملون أن هذه اللوحة هي لرجل، وربما كان من الشامان الذين يمارسون الطقوس الدينية، مع ميزات له مطلية باللون الأبيض.

ساعدت بحوث بليك، ولويدز في القرن التاسع عشر على فتح بعض أسرار الفن الصخري الأوروبي، والأفريقي. لكن تظل الأسئلة الأساسية دون إجابة. لماذا قام فنانون من طراز فناني كهوف (كرو ماغنون) برسم، ونقش الحيوانات والرموز المعقدة في الكهوف المظلمة؟ هل امتلك الفنانون رؤى قوية وحدهم، في الظلام الدامس، ومِنْ ثَمَّ تذكرهم بلوحاتهم؟ لماذا عملوا بعيدًا عن ضوء النهار، لماذا كانت إنارتهم الوحيدة تأتي من مصابيح الزيوت الحيوانية. كانت رسوم اقوام السان توجد في الغالب في ملاجئ صخرية مفتوحة، والكثير منها يحتوي على شخصيات بشرية فارعة الطول، ترقص أحيانًا حول الإلهة المحتضرة. بلا شك، كان لفنهم أيضًا معنى خارق للطبيعة. يعتقد بعض الخبراء أن اللوحات كانت وسيلة للتواصل مع ما هو خارق للطبيعة، حَيْثُ تنتقل قواه إلى البشر من خلال بصمات اليد على جدران الكهوف. لن نعرف أبدًا ما الذي يعنيه ذلك الفن، لكن البحث مستمر.

الفصل الخامس عشر



البحث عن أبطال هوميروس

يُعَدّ هينريش شليمان (1822 – 1890) من أشهر علماء الآثار الأوائل، واكثرهم إثارة للجدل. كان الطفل الخامس لرجل دين بروتستانتي من شمال ألمانيا. ترك هذا الطالب الفقير المدرسة في سن الرابعة عشرة. ومع ذلك فقد وقع في اثناء سنوات مراهقته في حب قصائد هوميروس.

عندما بدأ هوميروس الكتابة في خلال القرن الثامن قبل الميلاد، ابدع في تأليف ملحمتين عظيمتين مليئتين بأبطال يونانيين، هما الإلياذة، والأوديسة اللتان ربما بنيتا على حكايات رواها، وغناها مغنو القصائد الإغريق على مدى قرون عديدة. تحكي الإلياذة قصة الحصار اليوناني لمدينة تدعى طروادة. وتروي الأوديسا مغامرات أحد المحاربين وهو، أوديسيوس، عندما

يعود إلى الوطن. وهي من بين أروع قصص المغامرات المكتوبة على الإطلاق.

وإذا ما صدقنا شليمان فإن والده كان يروي قصصا من ملاحم هوميروس في المساء. وفي سن مبكرة، كان هاينريش الشاب يحاول باستماتة اكتشاف طروادة، مؤمنا أن تلكما القصيدتين العظيمتين كانتا سجلين تاريخيين دقيقين.

هل كانت طروادة موجودة وأين مكانها؟ هل حدث الحصار بالفعل؟ قضى شليمان الكثير من سني حياته في محاولة معرفة ذلك.

نشأ عنده هاجس البحث عن طروادة نتيجة حبه هوميروس، وليس نتيجة أي أساس علمي. لم يكن العلماء يعتقدون حَتَّى إنّ المدينة كانت موجودة في يوم من الأيام؛ فقد رأى الخبراء الذين درسوا الملحمتين أنهما كانتا نتاج خيال هوميروس. وفي أفضل الأحوال، بدا انبهار شليمان بطروادة امرا غريب. وعلى أي حال، لم تكن هناك سوى فرصة ضئيلة تمكنه من إثبات خطأ الخبراء - فقد كان فقيرا مدقعا، وكان يفتقر إلى التعليم، وقد تدرب ليعمل بقالا.

في العام 1841 ابتعد شليمان عن العمل في البقالة، وانتهى به الأمر في أمستردام. كان يمتلك موهبة في العمل التجاري، وفي اللغات، وحقق ثروة من تجارة الأصباغ في سان بطرسبرغ، في روسيا، ومن الأعمال المصرفية في ولاية كاليفورنيا، ومن التجهيزات الحربية في خلال حرب القرم. وبذلك اصبح مليونيرا

في عام 1864، وتقاعد عن العمل منْ أَجل تكريس بقية حياته لعلم الآثار، وهوميروس.

في عام 1869 قام بجولة في إيطاليا، واليونان. وبدأ بتعلم اللغة اليونانية الحديثة، والكلاسيكية، وقد تعلم الأخيرة في غضون عامين. وشملت أسفاره موطن أوديسيوس، إيثاكا، والجزر اليونانية، وأخيرًا مضيق الدردنيل في تركيا. هناك التقى فرانك كالفرت، وهو دبلوماسي إنكليزي يمتلك نصف تل كبير يدعى هيسارليك، بالقرب من مدخل المضيق. وكان مثل شليمان، مهتما بعلم الآثار، وهوميروس، وطروادة. كان قد حفر بعض الخنادق الضحلة في هيسارليك، لكنه لم يجد شيئا تقريبا. ومع ذلك، كان يعتقد اعتقادا راسخا أن هذا المكان هو مدينة طروادة.

قام ضيفه بالتجوال حول التلال الترابية، والمناطق المحيطة بها، وهو يحمل الإلياذة في إحدى يديه. حاول إعادة بناء المشهد الذي احتدمت فيه المعارك التي وصفها هوميروس. جاء شليمان ليشارك كالفرت قناعته بأن هيسارليك كانت، حقا، هي طروادة التي تحدث عنها هوميروس. وبجيب ممتلئ بالنقود، وطموح لا يهدأ، قرر هاينريش شليمان الحفر منْ أَجل اكتشاف مكان واقعة حصار طروادة.

لم يكن شيلمان يمتلك اية خبرة في الحفر على الإطلاق. كان كل ما جعله يقوم بالحفر، هو، قناعته بأن هوميروس قد سجل حقيقة تاريخية. بدأ بالحفر بشكل متواضع في نيسان العام 1870 فحفر خندقًا تجريبيًا صغيرا، ووجد جدارًا حجريا ضخما. لكن

هل كانت المدينة التي تحدث عنها هوميروس في أعلى التل، أم في قاعدته؟ لم يفعل الجدار سوى انه زاد من شهيته للقيام بمزيد من عمليات الحفر.

تقدم بطلب للحصول على تصريح من سلطان تركيا، فلم يحصل عليه إلّا في العام 1871 وفي الوقت نفسه، تطلع إلى الاقتران بزوجة يونانية، وقابل العديد من المرشحات، وأخيرا تزوج من الشابة الجميلة صوفيا انغاسترومينوس، وهي ابنة صاحب متجر، كانت في السابعة عشرة من عمرها، وكان، هو، في السابعة والأربعين. كان الزواج ناجحا، فحظي بشريكة له في عمله.

في تشرين الأول 1871، بدأ هاينريش شليمان التنقيب في هيسارليك. قام بتجنيد ثمانين عاملاً، وأمرهم بالشروع في العمل في الجانب الشمالي من الموقع، بحثًا عن المدينة التي وصفها هوميروس. كان مقتنعا الآن أنها تقع في أسفل التل.

وكان الرجال قد حفروا خندقا كبيرا يبلغ طوله 10 أمتار في ستة أسابيع مسلحين بمعاول، ومجارف خشبية. لم يكن ما يقوم به شليمان تنقيبا أثريا: فقد كان يحفر بشدة من خلال الجدران، والأسس الحجرية. وظهرت مجموعة من الكتل الحجرية، ربما كانت تمثل بقايا جدران المدينة العظيمة، من أسفل مكانات الحفر، وقد بدأ شليمان العمل من دون وجود خطة ثابتة. كانت لديه نسخة من ملحمة الإلياذة، وشظايا وعاء، وجدران حجرية مكشوفة جزئيا، كانت تشير إِلى أن تجمعات اشياء مهمة، وثرية قد تكون موجودة تحت السطح. كانت طرقه مباشرة، وبسيطة – وهي

نقل الكثير من التربة باستخدام الكثير من الرجال. ولاحظ أن حجم حفرياته يتطلب ما لا يقل عن 120 رجلاً. اعترف شليمان بلا تردد في روايته عن الحفريات انه أضطر لهدم بقايا المعابد، والتحصينات، وحَتَّى المقابر، في سعيه الحثيث للعثور على مدينة هوميروس.

في 1872، عـادت عائلة شليمان مع مخزون ضخم من المجارف، والمعاول، وعربات اليد. بنوا لأنفسهم منزلاً على قمة التل. كانت الظروف المعيشية قاسية: كانت الرياح العاتية تطلق صفيرها عبر الألواح الخشبية الرقيقة لمسكنهم، وفي إحدى المرات هددت النيران منزلهم.

هاجم شليمان طـروادة على نطاق واسع. أشرف ثلاثة ملاحظين، ومساح على ما يصل إلى 150 رجلا. وقام هذا الفريق الكبير بالكشف عن طبقات التل الذي كان مثل كعكة متعددة الطبقات، ووصلت الحفريات أخيرًا إلى قاعدة التل على عمق بحوالي 14 مترًا.

وجدد شليمان هجومه الجريء، وقام بشق خندق ضخم يخترق التل من الشمال إلى الجنوب. في نهاية الموسم، كان قد حفر ما يقرب من 250 مترا مربعا من الطبقات الأرضية والأثرية. وحَتَّى بوجود معدات الحفر الحديثة، فان هذا يعد إنجازا هائلا. لكنه فعل كل ذلك بواسطة العمل اليدوي. لم يكن من قبيل المصادفة أن بعض مشرفي العمل سبق لهم ان عملوا في قناة السويس، التي تقطع مصر من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأحمر.

وكانت النتائج مذهلة. اتضح أن مدينة بعد مدينة قد ازدهرت في منطقة هيسارليك. أقامت كل مدينة مبانيها فوق أساسات المستوطنات السابقة. بحلول نهاية موسم 1873، كان شليمان قد حدد ما لا يقل عن سبعة مواقع لمدينة طروادة.

وفي العام 1890، أضاف موقعين آخرين. كانت المدينة الأقدم صغيرة جدا، لذلك أعلن شليمان أن المدينة الثالثة من القاعدة هي طروادة التي ذكرها هوميروس. كانت تحتوي على (كنوز كثيرة) من النحاس، والذهب، والفضة وسط طبقة كثيفة من الطوب، والرماد المحترق. وهذا أظهر أن المدينة قد أحرقت. ومن الواضح، كما قال شليمان، أنها المدينة التي دمرها اليونانيون. كانت المدن الأخيرة في الطبقات العليا حديثة أكثر.

وابتداء من أيار 1875، ركز الحفارون جهودهم على هذه المدينة الثالثة. في صباح أحد الأيام الحارة، اكتشف شليمان ذهبا يتلألأ على بعد 8.5 متر تحت سطح الارض فقام بإبعاد العمال عنه، وازال بنفسه، بسرعة، الأرض الرخوة، والتقط الاكتشافات التي لا تقدر بثمن، أو هكذا كتب، لأنه لا أحد شهد مثل هذا الاكتشاف المذهل.

وعندما عاد شليمان إلى موقع العمل، نشر (كنزه) من القلائد، والأقراط، والاساور، والدبابيس الذهبية، وغيرها من الزخارف الفريدة. وانتهز تلك الفرصة، فاطلق عليها تسمية (كنز بريام)، على اسم ملك طروادة الأسطوري الذي ذكره هوميروس، مدعيا أنها ملكية الملك.

وقد أثار هذا الاكتشاف المشاعر إلى حد كبير، لكن كانت هناك شكوك حقيقية حول ما إذا كان هذا الكنز قد تم العثور عليه في الواقع. يعتقد العديد من الخبراء أن شليمان جمعها من اكتشافات الذهب المتفرقة التي تم العثور عليها في أثناء عمليات التنقيب. ومهما كانت الحقيقة، فان شليمان قام بتهريب كل الذهب من تركيا بهدوء، وخبأ المصنوعات اليدوية في سقيفة حديقة في أثينا. وفي وقت لاحق، قام بتقليد زوجته صوفيا جزءًا من الكنز، وجعلها مثل أميرة من طروادة. عندما علم الأتراك بتلك الاكتشافات من خلال صحيفة ألمانية، انتابهم الغضب. لم يتم تسوية الخلاف حول عملية التهريب التي قام بها هاينريش شليمان إلّا بدفع مبلغ ضخم للحكومة العثمانية.

جعلت طروادة، و(كنز بريام) من شليمان من المشاهير العالميين. لكن العديد من الباحثين كانوا لا يثقون به بشكل كبير، حَتَّى إنّ بعضهم اتهمه بشراء تلك المقتنيات العديدة من اسواق القسطنطينية. إذا ما حقق أي من علماء الآثار الكثير من الإنجازات، فانه يتعامل مع الامور ببساطة، لكن هاينريش شليمان لم يكن كذلك. فقد توجه اهتمامه، بعض الوقت، إلى هضبة موكناي المسورة التي تقع في الزاوية الشمالية لسهل أرغوليوس الخصب، جنوب اليونان. وقيل أن موكناي تحتوي على قصر الملك الأسطوري أغاممنون زعيم الإغريق، وقبره، في طروادة. كان شليمان مقتنعًا بشدة بهذا الأمر، وفي العام 1876 منحته الحكومة اليونانية، على مضض، رخصة للتنقيب هناك.

ومرة أخرى، عمل شليمان على نطاق واسع: قام ثلاثة وستين رجلًا بإزالة بوابة القلعة الشهيرة المزينة بتمثال الأسد. وعمل آخرون داخل دائرة من الألواح الحجرية التي أطلق عليها شليمان تسمية (شواهد القبور). وحَتَّى قبل أن يحفر تحتها، أعلن شليمان أنه وجد مكان دفن أغاممنون. بعد أربعة أشهر، اكتشف شليمانز خمس مقابر تحتوي على 15 جثة، كل واحدة منها مطلية بالذهب. وإِلى ان تم اكتشاف مقبرة الفرعون المصري توت عنخ أمون في العام 1922، كانت مدافن موكيناي أعظم كنز أثري على الإطلاق. تم الكشف عن العديد من أقنعة الموتى الذهبية التي تتميز باللحى، والشوارب المقصوصة. واستخرجت من القبور أطباق منقوشة بالذهب، وتيجان، وأوعية جميلة، دقيقة الصنع، وعشرات من الحلي الصغيرة.

بات شليمان يتنعم بمجد عالمي، وكان العالم كله يتابع أعمال التنقيب التي يقوم بها، وزار اثنان من الملوك، ورئيس للوزراء مواقع الحفر. أعلن شليمان أنه وجد جثث الأبطال الذين ذكرهم هوميروس. رفض العلماء الألمان، على الفور، تلك الادعاءات. وبحلول العام 1900، أثبت علماء الآثار من أمثال آرثر إيفانز (انظر الفصل 18) أن شيلمان اكتشف، في الواقع، الحضارة الميسينية، وهي حضارة رائعة تعود إِلى مجتمع كان موجودا في العصر البرونزي ازدهرت حوالي العام 1300 قبل الميلاد - وكان ذلك بعد زمن هوميروس.

ما يزال هنريش شليمان يمثل شيئا من الغموض. ويبدو أنه، هو، نفسه كان يعتقد أنه رسول مبعوث من الله، أُرسل ليكشف الحقيقة عن هوميروس لعالم متشوق لمعرفتها. وصفه المعجبون به بانه عبقري. ووصفه أعداؤه بأنه مجنون وأناني. ربما كان متفردا في سعيه وراء الثروة، ووراء هوميروس، لكن خلف ذلك كله، كان، هو وصوفيا، شخصين لطيفين، طيبين.

جعلت اكتشافات الحضارة الميسينية من شليمان رجل دولة كبيرًا، ومرموقا في علم الآثار. عاد إلى هيسارليك في العام 1878، وكان يرافقه هذه المرة الباحث الألماني المرموق، رودولف فيرشو، الذي درس طبقات الارض في سهل طروادة، وتلالها. كان شليمان ذكيا بما يكفي ليعرف أن أساليبه كانت قديمة. فقد كان علماء الآثار الألمان الموجودون في أولمبيا، الموقع القديم للألعاب الأولمبية، قد أحدثوا ثورة في أعمال التنقيب العلمي (انظر الفصل 16). ففي خلال الفترة من 1882 إلى 1890، قام ويلهلم دوربفلد، وهو عالم آثار، ومهندس تم تدريبه في أولمبيا، بأعمال تنقيب إلى جانب شليمان. وقد عملا معا بشكل وثيق، وأثبتا أن المدينة السادسة، وليس الثالثة، هي التي تتماثل مع مدينة طروادة التي ذكرها هوميروس - إذن كانت موجودة بالفعل.

وفي الوقت نفسه، استمر شليمان في التنقيب في مكان آخر. وقام بالحَفرَ في قصرِ للحضارة الميسينية على قمة تيرنز ارغوس، وآخر يقع في سهلٍ. اشتهرت تلك القصور بجدرانها المحصنة المصنوعة من الصخور الضخمة. لكنه كان الآن يولي اهتماما

أكبر للاكتشافات الصغيرة مثل القطع الفخارية المكسرة (شظايا السيراميك)، التي تحمل العديد منها أنماطًا هندسية مرسومة تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في جزيرة كريت.

تحول تفكير شليمان الذي لا يهدأ، نحو تلك الجزيرة، موطن الملك مينوس، حاكم كريت في ملاحم هوميروس. تقول الأسطورة إن مينوس كان يحتفظ بالمينوتور، وهو مخلوق نصفه رجل، ونصفه الآخر ثور، في متاهة تحت قصره. وقيل إن ثيسيوس، ابن ملك أثينا، قتل المينوتور بمساعدة أريادن ابنة مينوس، التي قادته إلى الخروج من المتاهة عن طريق خيط. كانت قصة ثيسيوس، والمينوتور نوعًا من الغموض التاريخي الذي وجده شليمان لا يقاوم.

ويزعم أن القصر كان في كنوسوس، وهو أحد التلال بالقرب من العاصمة ايراكليون. وبجرأته المميزة، حاول شليمان شراء كنوسوس، لكن، لحسن الحظ، لم ينجح، وعاد إلى أثينا يشعور من بالاشمئزاز، تاركا البحث في الحضارة المينوسية لمن جاء من بعده من علماء الآثار الذين كانوا - أفضل تدريبا - (انظر الفصل 18).

وقد استوحى جيل جديد باكمله من علماء الآثار الالهام من عمل شليمان، وقدرته على تحقيق اعظم الاكتشافات. توفي شليمان فجأة في إيطاليا، مقتنعًا بأنه أثبت أن ما كتبه هوميروس في ملاحمه هو الحقيقة التاريخية. لكنه كان على خطأ في ذلك، على الرغم من أنه جعل الآلاف من الناس يدركون ما هو علم الآثار.

الفصل السادس عشر



المنطق السليم المنظم

أصبح كارل ريتشارد ليبسيوس (1810 - 1884) أستاذًا في علم المصريات في جامعة برلين في العام 1839. ونظرا لعقله المنظم، المنطقي، وللسنوات التي قضاها في دراسة مصر القديمة - وخاصة دراسته أعمال جان فرانسوا شامبليون عن الكتابة الهيروغليفية - فقد كان المرشح المثالي لمهمة تتطلب التنظيم الدقيق للبحوث الميدانية. وقبل كل شيء، كان ليبسيوس عالما يبحث في المصنوعات اليدوية، والبيانات النظرية على حد سواء.

بعد ثلاث سنوات من تعيينه، أصبح رئيسا لبعثة ألمانية ضخمة توجهت إلى نهر النيل، مماثلة لتلك التي قام بها علماء نابليون قبل نصف قرن من الزمان. حين قام جيوفاني بيلزوني، وبرناردينو دروفتي بنهب آثار مصر (انظر الفصل الثاني). لكن

أهداف ليبسيوس كانت راقية وطموحا. كان عليه إنشاء أول سجل تاريخي، وجدول زمني لحكم الفراعنة، الذين كانوا معروفين من خلال الكتابات اليونانية، والسجلات المصرية القديمة المتفرقة، فحسب.

مع ليبسيوس، دخلنا عصرا جديدا من علم الآثار الذي شدد على التعامل العلمي مع لاكتشافات، والمعلومات التي تتعلق بالماضي.

بدأ ليبيسيوس عمله في دلتا النيل في العام 1842، وقام بتسجيل الأهرامات، والمقابر التي لم تكن معروفة من قبل. ثُمَّ انتقل إلى المنبع لفك رموز النقوش، وإجراء بعض التنقيبات الأولى على طول نهر النيل للفت الانتباه إلى مستويات الانشطة المختلفة. عاد ليبسيوس إلى برلين وبحوزته 15 ألف قطعة أثرية، وقوالب جصية للنقوش المرسومة، ومجموعة من المعلومات التي أرست أسسًا جادة لعلم المصريات. وبين عامي 1849 و1859، نشر كتابا رائعا باثني عشر مجادا حول البعثة. وما يزال هذا الكتاب يمثل مصدرا قياسيا للعديد من المواقع التي اختفت الآن، وشاهدا على ما يمكن للعقل المنظم تحقيقه.

ساعد تقرير كارل ليبسيوس الذي بني على التنظيم الدقيق، وعمليات الحفر المتأنية، المسؤولة، والمعلومات السريعة، المفصلة على إحداث تغيير عميق في علم الآثار في منطقة البحر الابيض المتوسط. وبحسب المعايير الحديثة، كانت أساليبه في التنقيب ما تزال بدائية، متعجلة، لكن عمله الذي تم تنظيمه بعناية كان

عملا رائدًا. إِذ قام بإجراء مسح للعديد من المواقع التي زارها، وسجل المواقع المضبوطة للقطع الأثرية - وهو شيء لم يسمع به من قبل في ذلك الوقت.

كان ليبسيوس يدرك جيدا الحاجة الملحة إلى معايير أفضل للحفر، والتنقيب. لقد أمضى معظم حياته المهنية في إعداد جيل جديد من علماء الآثار، وتدريبهم، الذين كانوا مهتمين بقدر كبير بإعادة البناء، والحفاظ على الآثار بقدر اهتمامهم بعمليات الحفر. أحد هؤلاء كان ألكسندر كونز (1831 - 1914)، الذي كان أستاذًا في علم الآثار في جامعة فيينا للفترة من عام 1869 إلى 1877. وكونه باحثا ميدانيا أيضًا، متميزا في الحقل التنظيمي فقد قام بالتنقيب في جزيرة ساموثريس الواقعة شمال بحر إيجه، حَيْثُ كان هاينريش شليمان ينقب عن طروادة. لكن بينما كان شليمان يقوم بالتنقيب، وكأنه ينبش الارض بحثا عن البطاطا، ذهب كونز إلى ساموثريس للإجابة عن أسئلة تاريخية مهمة، وليس بحثا عن الشهرة.

كان تركيز كونزي منصبا على مرقد كابري، وهو كائن خارق، وغامض، نوعا ما، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بهيفايستوس إله النار عند الإغريق، الذي كان يحمي البحارة. في العصور القديمة، كان يقام في شهر تموز من كل عام مهرجان كبير على شرفهما يجذب إليه الزوار من جميع أنحاء بحر إيجه، وتعرض مسرحية دينية تتضمن طقوسًا لحفل زفاف. احتل المعبد ذاته ثلاث شرفات على منحدر الجبل. وفيه تم اكتشاف تحفة فنية،

هي تمثال النصر المجنح في ساموثريس في العام 1863، الذي أصبح مشهورًا عندما تم نقله إلى متحف اللوفر في باريس.

قام كونز بحفر المرقد للفترة ما بين عامي 1873 و1876. وقام بمسح العديد من الهياكل باستخدام تقنيات حفر متقدمة كانت غير معروفة في ذلك الوقت. كان اهتمامه الرئيسي هو الهندسة المعمارية. كان يتواجد مهندس معماري في الموقع طوال عملية الحفر، بينما كان مصور فوتوغرافي يسجل بلقطاته أعمال الحفر. وقد صدر اثنان من الكتب المفصلة بسخاء تروي تفاصيل الأعمال التي جرت هناك.

ومع اقتراب أعمال التنقيب التي قام بها كونز من نهايتها، لجأ الألمان إلى أولمبيا، موقع الألعاب الأولمبية. أجرى عالم آثار آخر تدرب بعناية، هو، ارنست كورتيوس (1814 - 1896)، عمليات حفر مخططًا لها بدقة. وفي بادرة مهمة تدل على الاحترام، تخلى علماء الآثار عن جميع حقوقهم بالاكتشافات، وقاموا ببناء متحف خاص على الموقع. وبين عامي 1875 و1881، قاموا بتنظيف الملعب الأولمبي، ونقطة انطلاق العدائين، ومقاعد الحكام. وكشفت الحفريات عن عدد من المعابد القريبة التي تحطمت أعمدتها بسبب الزلازل التي حدثت في الماضي، فضلاً عن العديد من المزارات، والمباني الصغيرة. كان هناك دائما مهندس معماري، ومصور فوتوغرافي يقومان بتسجيل ما تم تنفيذه بشكل صحيح؛ ومرة أخرى، تم نشر التفاصيل الكاملة لأعمال الحفر.

وضع كل من كونز، وكورتيوس معايير جديدة للتنقيب الأثري، وكانا متقدمين على عصرهما. كما كانا يهتمان بجميع القطع الاثرية، كبيرة كانت ام صغيرة. أدرك الألمان أن أعمال الحفر الأثرية ذاتها قد دمرت المواقع الاثرية إِلى الابد، الأمر الذي جعل من عملية حفظ السجلات الدقيقة مهمة ملحة.

لم يكن كورتيوس، وكونز، وحدهما، بل كانا بين علماء آخرين ابدوا انزعاجهم بشكل متزايد من الدمار الواسع الانتشار الذي تعرضت له المواقع الاثرية. لسوء الحظ، كان من يمولون عمليات الحفر حريصين على الحصول على نتائج مثيرة، ولم يكونوا يهدفون، بالضرورة، إلى تمويل الأبحاث المنظمة بعناية التي سجلت حَتَّى التفاصيل الصغيرة. وكان الكثير من العمل الآثاري ما يزال في أيدي مَنْ لديهم اهتمام بالماضي، والحصول على بعض المال منه، لكن يفتقرون إِلى التدريب الرسمي. عندها، وبمجرد ان أنهى كورتيوس عمله في أولمبيا، تلقى هذا الجنرال الإنكليزي الشغوف بالقطع الأثرية ميراثا رائعا. لقد بات يكرس، الآن، الكثير من وقته لتفحص مواقع عصر ما قبل التاريخ الموجودة على أرضه، وفي هذه العملية ساعد على إحداث ثورة في الحفريات الأثرية.

كان أوغستوس لين فوكس بيت ريفرز (1827 – 1900) منقبا عن الآثار لا مثيل له. وكان رجلا مهذبا، محافظا من الطراز الفيكتوري، جمع بين كونه عسكريا، وملاك أراضٍ. في العام 1880، كان ضابط عسكري غير معروف يدعى لين فوكس، قد ورث من عمه الغني ثروة عظيمة، وعقارا ضخما في

كرانبورن تشيس في جنوب إنكلترا - وكان شرط الحصول على الثروة أن يحمل لقب آل ريفيرز. منح هذا الميراث لين فوكس ما يقرب من 11000 هكتار، ووقت الفراغ الكافي ليفعل كل ما يريده.

كان بيتر ريفرز رجلاً ضخما. تعود ان يقف منتصبا، شامخا، وكان يرتدي الملابس الرسمية، حَتَّى في اثناء أعمال الحفر. وقد كان مجال تخصصه العسكري، الأسلحة النارية، ما دفعه إلى قضاء سنوات في البحث عن كيفية تطور الاسلحة، وغيرها من القطع الأثرية مع مرور الوقت.

وقد جذبه زواجه من أليس ستانلي، ابنة أحد البارونات، إلى الدوائر الأرستقراطية، واقام صلات مع مختلف المثقفين.

ومن بين أمور أخرى، أثبت أنه خبير في تنظيم المؤتمرات، وهذا جعله على اتصال بكبار المفكرين. لقد وقع تحت تأثير أفكار تشارلز داروين، وأصبح مهووسا بفكرة أن الأدوات التي صنعها البشر قد تطورت، مثل الكائنات الحية. وان مثل هذا التطور أنتج أطقم أدوات أكثر كفاءة، وقابلية للاستخدام.

وبفضل موارده غير المحدودة، كان بإمكان بيت ريفير أن يحصل على مجموعات كبيرة من الأشياء من المجتمعات غير الغربية في جميع أنحاء العالم. وقد أسس اثنين من المتاحف في حياته. الأول كان متحف بيت ريفرز في أوكسفورد، الذي ما يزال مزدهرا. والثاني كان على عقاره. وكان الهدف من كليهما أن يطلع الناس على ما أسماه (عمليات التطور التدريجي).

كان الانتقال إلى عمليات التنقيب امرا منطقيا بالنسبة لباحث مثقف ذي اطلاع واسع. كان من المؤكد أن بيت ريفرز قد سمع عن أعمال ليبسيوس والمنقبين الألمان الآخرين الذين كانوا يشددون على أهمية دراسة التغيرات التي حدثت للابنية المعمارية، والقطع الأثرية عبر الزمن. جعلت خبرة بيت ريفيرز في التنظيم العسكري، عمليات التنقيب منظمة بعناية فائقة، وتخطيطا منطقيا دقيقا للغاية.

شرع الجنرال بأعمال الحفر من نقطة الصفر. كل شيء تم تنظيمه بدقة وبانضباط عسكري. قامت فرق صغيرة من العمال المدربين بالحفر الفعلي، بينما أشرف ستة مشرفين على العمل. كان لديهم مساعدان - أحدهما رسام، والآخر مصمم نماذج. كانا يقومان بتسجيل شامل لكل طبقة أثرية، والاكتشافات التي وجدت فيها.

كان بيتر ريفرز مشرف عمل صارما، فقد أصر على أنه يجب تسجيل الموقع الدقيق لكل اكتشاف، مهما كان تافهًا - حَتَّى عظام الحيوانات، والبذور، وكان عماله يتوترون كلما زار مواقع الحفر! كان يتعامل مع المشرفين لديه، فحسب، أو موظفيه، كما سماهم. كانت عيناه تندفعان ذهابًا، وإيابًا، ولم يفوّتْ أبدًا حَتَّى أصغر التفاصيل - سواء أكانت كومة غير مرتبة من الفخار، ام بعض الأدوات التي توجد بالقرب من الخندق. وعندما كان يزور الموقع، كان ينظر إلى بعض الاكتشافات، أو يلقي نظرة خاطفة على سجلات الموقع، وقبعته السوداء مثبته بشدة على

رأسه اتقاء الريح. ثُمَّ يركب حصانه، ويغادر دون ان ينطق كلمة واحدة كالعادة.

بدأ بيت ريفرز أعماله مع التلال المدفونة التي تعود إِلى العصر البرونزي، ثُمَّ انتقل إلى معسكر وينكلبري، وهو حصن من العصر الحديدي يقع في هامبشاير، جنوب إنكلترا، حَيْثُ قام باخذ مقطع عرضي من السواتر الترابية لتحديد عمرها على أساس القطع الاثرية الموجودة فيها. في العام 1884، قام بالحفر في معسكر للجيش الروماني، يضم عدة هكتارات من ضفاف الانهار والروابي والمنخفضات. حينها قام عماله بإزالة التربة الفوقية، ثُمَّ قاموا باستخراج المناطق القاتمة غير المنتظمة في التربة التحتية ذات اللون الذي يشبه الطباشير الأبيض لتتبع معالم الخنادق، وغيرها من الهياكل مثل المواقد، والحفر. لم يستخدم أحد مثل هذه التغييرات في الالوان من قبل لتحديد عمر المباني القديمة.

في خلال كل عملية حفر، كان بيت ريفرز يفكر في الأبعاد الثلاثة للموقع، وهو ما يشكل حجر الزاوية في أساليب الحفر في وقتنا الحاضر، إِذ كان يقوم بحفر كل موقع إلى ان يصل إِلى قاعدته الصخرية، ويسجل كل طبقة، ويلاحظ الاختلالات التي احدثها البشر في التربة، لكنه كان يحفر خنادق ضيقة، ثُمَّ يقوم بردمها في أثناء تقدمه عبر الموقع الاثري. وحتما، ستضيع عليه، حينها، بعض الميزات، لأن المناطق الأكبر لم تكن قد استكشفت في الوقت نفسه. وفي الوقت الحاضر، تُعدّ عملية حفر الخنادق الكبيرة، القادرة على اكتشاف السمات الرئيسية

للموقع الاثري مثل أسس البناء، سمة أساسية لأي عملية حفر، وتنقيب تهدف إلى دراسة تصاميم أي مستوطنة قديمة. لكن بيت ريفرز كان مهتما بالتقنيات القديمة، والتغيرات في ثقافة المجتمعات إلى حد استبعد الاهتمام بأي شيء آخر. ولهذا فقد اهتم بدراسة بقايا الطعام، لكنه تجاهل الاساسات، وغيرها من الأدلة على طرق البناء.

في العام 1893، قام بيت ريفرز بالتنقيب في وير بارو، وهو عبارة عن تل مدافن طويل يعود إِلى العصر الحجري يحتوي على ستة مدافن شيدت في عصور ما قبل التاريخ. كانت أعمال التنقيب السابقة تقوم ببساطة بأعمال الحفر في تلال المدافن بلا مبالاة، ثُمَّ تقوم بإزالة بقايا البشر، وأثاث القبور. قام بيت ريفرز بالتنقيب في التل بأكمله، بما في ذلك ستة عشر هيكلا عظميا كانت فيها. ترك صفا من الأعمدة الأرضية أسفل مركز التل، وهو الذي أبقى الطبقات سليمة، ولذلك تمكن من تسجيلها بدقة. وقد ادى الكشف عن كل أرضية التل إلى ظهور تصميم مستطيل الشكل كشف عن تغير لون الطباشير في الاسفل على مساحة كبيرة. كانت هذه آثار القوائم الخشبية للمبنى الكبير الذي كان يحمي في وقت من الأوقات ست مقابر.

وعندما حفرت البنايات في الأصل، كانت خنادق تل وير بارو عميقة، وذوات حواف شديدة الانحدار. ولكونه عالم آثار ذا فضول ليس له حدود، ترك بيت ريفرز الخنادق المحفورة مكشوفة مدة أربع سنوات. ثُمَّ قام بإعادة حفرها لمعرفة كيف

انهارت خنادق الطباشير، وامتلأت بالرواسب بعد أن تم تركها. هذه المغامرة في علم الآثار التجريبي كان تقدما كبيرا في أي نهج كان يستخدم آنذاك. في الواقع، لم يتكرر ذلك الامر في إنكلترا حَتَّى الستينيات من القرن العشرين، عندما قام فريق من علماء الآثار ببناء نسخة من سدود ترابية لعصور ما قبل التاريخ لدراسة طريقة تآكلها على مدى قرون.

كان بيت ريفرز يملك الأموال التي جعلته ينشر تنقيباته في سلسلة من الدراسات المتخصصة التي أصبحت الآن من التحف النادرة، الثمينة. لم يكن يطيق علماء الآثار الذين كانت غايتهم من القيام بعمليات التنقيب، العثور على القطع الأثرية بدلا من الحصول على المعلومات. وكان يقول إن العلم هو (المنطق السليم المنظم). هكذا كانت الطريقة المنطقية التي أجرى بها حفرياته. عدّهُ معاصروه شخصا غريب الأطوار، وكانوا ينزعجون من طاقته، وسلوكه الصارم، وحب الاستطلاع الفكري الذي يميزه. حَتَّى موته، كان غير عاديّ: فقد تم حرق جثمانه، بدلاً من دفنه - وهو شيء لم يسمع به من قبل في العام 1900.

لم يتابع أحد تقريبا عمل بيت ريفرز حَتَّى عشرينيات القرن العشرين. فبسبب خلفيته العسكرية، وشغفه بالتنظيم، جعل من التنقيب عملية استكتشاف شديدة الانضباط. لكنه كان يُعلّم نفسه بنفسه، كما كان حال منقبين آخرين في بريطانيا، وأماكن أخرى. باستثناء الألمان الذين يعملون في منطقة البحر الأبيض المتوسط، كان علم الآثار ما يزال عملا عاديا - وقد تعرفت

على ذلك بينما كنتَ تمضي قدما في قراءة الكتاب. وكان القليل، فحسب، من علماء الآثار يحاولون تدريب الطلاب. فقد كانوا يبحثون عن أشخاص مستعدين للعمل بجد، وليس عن شباب يبحثون عن المغامرة.

ووفقا، لعالم الآثار البريطاني الذي لم يكن معروفا كثيرا ج. ب، دروب الذي ألف كتيبا عن عمليات التنقيب في العام 1915، فان التنقيب هو عمل يخص الرجال. وكان ذلك صحيحا في العموم، باستثناء وجود حفنة من النساء الموهوبات (انظر الفصل 19). أن يكون المرء عالم آثار متميزا فانه يجب ان يتسم بالفضول الكافي، ولديه، في الأقل، بعض الاهتمام بالماضي، وان يتحلى بالصبر. وتحمل العمل في البلدان الاجنبية مع السكان المحليين، والقدرة على الإشراف على أعداد كبيرة من العمال.

إذا كنت شخصا محظوظًا، فانك ستحصل على فرصة التدرب على يد منقب ذي خبرة. قد لا يكون حفّارا جيدا، لكنك ستتعلّم من خلال مراقبته – ومن الانتباه إِلى الأخطاء التي يرتكبها. اعتمدت بعض افضل عمليات الحفر، خصوصًا في المواقع الرومانية، على بعض أفكار بيت ريفرز. لكنها كانت بدائية وفقا لمعايير اليوم.

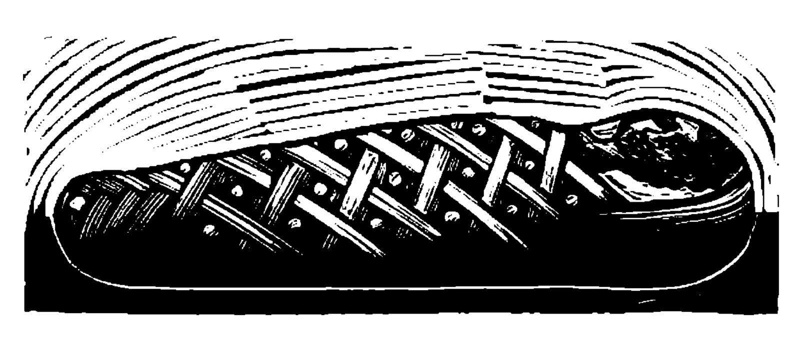
وقد وجد ليونارد وولي، عالم الآثار البريطاني الشاب الذي اشتهر لاحقا على نطاق عالمي بسبب حفرياته في المقابر الملكية في أور في العراق، نفسه مسؤولا عن عمليات تنقيب كبرى في

المواقع الرومانية على الرغم من أنه لم يكن لديه أي خبرة على الإطلاق (انظر الفصل 20).

وتقريبا فان جميع من عمل منقبا تعلم المهنة في خلال الممارسة. لم تكن هناك مدارس، أو دورات ميدانية لتعليم أساليب العمل الآثاري. لكن كونز، وكورتيوس، وبيت ريفرز بعقولهم المنظمة، ومواهبهم التنظيمية، عبّدوا الطريق امام الآخرين.



الفصل السابع عشر



أشياء صغيرة لا تلفت الانتباه

في ثمانينيات القرن التاسع عشر، العام 1880، أصبحت أهرامات الجيزة المصرية التي تقع بالقرب من القاهرة، محط اهتمام كل من علماء الآثار، وغريبي الأطوار. كان علماء الفلك المتميزون يتحدثون عنها باعتبارها تقاويم غاية في القدم تقيس الوقت عن طريق مراقبة السماء. وقد قام سائحون غريبون يمتلكون معلومات عن وحدات القياس المصرية القديمة، مثل الذراع، بالتجمع حول الهرم الأكبر حاملين اشرطة القياس، حَتَّى إنّ بعضهم حاول إزالة حواف صخور الاهرامات لجعلها تتطابق مع حساباتهم! لحسن الحظ، أصبح اثنان من أفراد عائلة بيتري من المساحين الإنكليز، مهتمين باهرامات الجيزة.

كان لعائلة بيتري تاريخ طويل من التحريات العلمية غير الرسمية. كان فليندرز بيتري (1853 - 1942) شخصا ذا تعليم ذاتي إلى حد كبير، وغريب الأطوار نوعا ما. تعلم البحث والاستطلاع والهندسة من والده، وفي العام 1872، قام اثنان من افراد عائلة بيتري بإجراء أول مسح دقيق لمنطقة ستونهينغ. وكانا يتحدثان دائمًا عن القيام بمسح الأهرامات بشكلٍ اكثر دقة، وهي مهمة لم يحاولها أحد من قبل. في العام 1880، سافر فلندرز بيتري، وقد كان في سن السابعة والعشرين، إلى مصر للقيام بمسح أهرامات الجيزة، وكان الجنرال بيت ريفرز قد بدأ لتوه حفرياته في كرانبورن تشيس.

في غضون أسبوع من وصوله إلى مصر، استقر بيتري بشكل مريح في قبر صخري بالقرب من الجيزة. استغرقت عمليات المسح التي قام بها مدة عامين حَتَّى تكتمل، وفي خلال هذه الفترة أقام نقاط مسح دقيقة، ودرس بناء الأهرامات. جذبت أعماله العديد من الزوار، من بينهم بيت ريفرز. كان بيتري يمتع نفسه للغاية، إذ كان يعيش ببساطة، ويتمشى حول الأهرامات بأقدام عارية، عندما تكون خالية تماما من السياح.

ظهر كتابه الأول (الأهرام ومعابد الجيزة) في العام 1883 ونال إشادة عالمية. وضعت القياسات التي قام بها أساسا جديدا لدراسة الأهرامات. في ذلك الوقت، كان علم المصريات يعاني من حالة اضطراب: كان يفتقر إلى الدقة وكانت عمليات النهب أمرا شائعا. وقد قرر بيتري، وقد اثار اشمئزازه الدمار الذي

حصل، ان يتحول من القيام بعمليات المسح إلى التنقيب. وقد حث العلماء ذوي النفوذ في صندوق دعم جمعية استكشاف مصر، على إرساله للعمل في دلتا النيل، والتنقيب عن المدن.

من البداية، كانت لديه خطة، وطريقة للعمل، وعلى الرغم من أنه استخدم أعدادا هائلة من العمال إلّا أنه شرع بالعمل بسرعة كبيرة وفقا للمعايير الحديثة. وقد استخدم الآت لحفر الخنادق، ووحدات حفر الابار، ومنظفات حجرية، تدعمها مجموعات من ناقلات التربة. كان العمل يبدأ في الخامسة والنصف صباحا، وينتهي في الساعة السادسة والنصف مساءً، ويتوقف العمل عند الظهر بسبب حرارة الجو، وعلى عكس أسلافه، كان بيتري يتواجد دائما في مواقع العمل. وحل مشكلة النهب بدفع رواتب مجزية لعماله، وتوفير مساكن لهم لضمان ولائهم.

العام 1885، كان بيتري يعمل في ناوكراتيس، وهي مركز تجاري كان يسيطر تماما على التجارة بين مصر، ومناطق شرق البحر الأبيض المتوسط بعد القرن السابع ق.م. كان هناك 107 رجال يعملون في الموقع، مع اثنين فقط من المشرفين الأوروبيين. قاموا بنقل أطنان من التربة لتطهير جزء من معبد، وسور كبيرين بناهما الفرعون بسوسنس الأول من الأسرة الحادية والعشرين (1047 – 1001 ق.م). كما عثر بيتري على كميات هائلة من الفخار، وسلال البردي. وقام بحشر بعضها بين الزجاج، وترجمة ما تحتويه من كتابات. حدث هذا عندما أدرك أن الأشياء الصغيرة

كانت ذوات أهمية كبيرة. وسبق لأعمال التنقيب في الماضي ان تجاهلتها إلى حد كبير.

ومع أعمال التنقيب التي قام بها نوكراتيس، أرسى بيتري من خلال أعمال التنقيب التي قام بها في نوكراتيس أسس تقاليد للعمل تابعها الآخرون لسنوات. تم شحن جميع الاكتشافات، مهما كانت صغيرة، إلى إنكلترا.

كان بيتري يصدر تقريرا عن الحفريات على الفور في نهاية كل موسم شتوي من الحفريات، قبل مجيء الموسم التالي، وكان يمنح عماله مبالغ ثابتة مقابل اكتشافاتهم، وبذلك منع القطع الأثرية المهمة من ان تقع في أيدي المتعاملين بالاثار من السكان المحليين.

كان من حسن الحظ أنه فعل ذلك. فقد كان، العديد من الأشياء المدفونة في خنادق الأساسات في نوكراتيس عبارة عن نقود معدنية يمكن حملها بسهولة، وهي تحمل تواريخَ، أو زخارف منقوشة يمكن تحديد عمرها بدقة. ومن خلالها، يمكنه تحديد تاريخ تشييد الهياكل المحيطة. كان هذا ابتكارا كبيرا لم يسبق ان تمت تجربته من قبل في مصر في العام 1887، أصبح بيتري منقبا مستقلا. انتقل من دلتا النيل إلى منخفض الفيوم الخصيب الذي يقع غرب النيل. هناك قام بحفر خندق في الهرم الذي بناه الفرعون امنمحات الثالث من ملك الاسرة الثانية عشرة في هوارة (حوالي عام 1840ق.م). كانت عملية الحفر تلك غير ناجحة، إذ لم يجد شيئا ذا أهمية، لكنه أصبح مهتما

بمقبرة رومانية تقع في مكان قريب يعود تاريخها إلى الفترة ما بين عامي 100 – 250 بعد الميلاد كانت مليئة بالمومياوات، ومزينة بصور زاهية لأصحابها، رسمت بالشمع الملون على الألواح الخشبية. كانت الصور معلقة في وقت من الأوقات على جدران المنزل، ووضعت مع المومياوات بعد الموت. وجد بيتري الكثير من القطع الاثرية لدرجة أنه اشتكى من أن خيمته باتت مليئة باشياء مثل أواني الطبخ – والمومياوات التي كان يخزنها تحت سريره للحفاظ عليها.

عندما عاد بيتري إِلى لندن، أقام معرضا كبيرا لاكتشافاته، بما في ذلك بعض اللوحات، في نفس القاعة المصرية حَيْثُ أقام جيوفاني بيلزوني معرضه قبل حوالي خمسة وسبعين سنة (انظر الفصل الثاني). تذكر إحدى الزائرات المسنّات المعرض الأصلي، وشخصية بيلزوني، طويل القامة. اتجهت حشود كبيرة من الناس لمشاهدة الاكتشافات التي ساهمت في جعل علم المصريات علما محترما، مشهورا.

وموسما بعد آخر، كان بيتري يعود إلى النيل. في العام 1888، قام بالبحث في مجتمع للعمال في اللاهون في منخفض الفيوم. وقد سكن في هذه المستوطنة التي تعود إِلى زمن الاسرة الحاكمة الثانية عشرة عائلات أولئك الذين قاموا ببناء هرم اللاهون القريب الذي بناه الفرعون سنوسرت الثاني (1897 – 1878 قبل الميلاد). كانت هذه المدينة المحكمة، المحاطة بالاسوار سليمة عمليا. قام بيتري بتطهير العديد من المنازل، واستعادة

العديد من المصنوعات اليدوية المحلية، التي مكنته من إعادة بناء وجوده كشخص عادي في ذلك الوقت الذي اتسمت فيه حياته بالعمل الشاق المستمر، في ظروف قاسية في كثير من الأحيان.

وبعيدا عن العمل الميداني كان الكثير من العمال العاديين يعملون في الإشغال العامة لقاء اجور زهيدة. وكان بروز هياكلهم العظمية دليلاً واضحا على العمل الشاق الذي كانوا يؤدونه. كانت حياتهم عبارة عن جولات من الشقاء المستتر: دعموا الدولة وقادتها، لكن المقاصد، والأغراض كانت غير مرئية للجميع وعلى عكس معظم معاصريه الذين كانوا أكثر اهتماما بالآثار، والمقابر الكبيرة، أدرك بيتري أن الحضارة المصرية القديمة كانت مجتمعا معقدا يعتمد على كدح الآلاف من العمال البسطاء.

تحول اهتمام بيتري التالي إلى (ابو غراب) بلدة الأسرة الثامنة عشرة التي تقع بالقرب من ممفيس، التي يعود تاريخها إلى حوالي 1500 قبل الميلاد. بعد ملاحظته بعض الاجزاء من وعاء ملوّن غير عادي مهشم من الخارج، قام بمسح حظيرة صغيرة مسورة قريبة من المعبد. وسرعان ما وجد المزيد من الاجزاء المكسورة في المنازل. وقد تبين أن هذه الاكتشافات الغامضة عبارة عن أوعية موكيانية من اليونان، مماثلة لتلك التي عثر عليها هاينريش شليمان في مدينة موكيناي (موقع أثري يقع في اليونان ويبعد حوالي 90 كلم جنوب غرب العاصمة أثينا، ويبعد 11 كلم جنوب آرغوس و48 كلم شمال مدينة كورنث، وتقع في مقاطعة أرغوليذا على طول الخليج الساروني،

ويعود بناء هذه المدينة إلى الألف الثاني قبل الميلاد في حوالي سنة 1600 – 1200ق.م. م).

بعد ثلاث سنوات، قام بيتري بنفسه بزيارة موكيناي، حَيْثُ تعرف على الأوعية المستوردة من مصر، التي تعود إلى نفس الفترة التي وجدها في (ابو غراب). كان هذا مثالا كلاسيكيا على طريقة المقاطع العرضية لتحديد الأعمار التي اعتمد عليها أوسكار مونتيليوس في وقت سابق – باستخدام كائنات ذوات عمر معروف في منطقة معينة لتحديد عمر مواقع أخرى في مكان آخر (انظر الفصل 11). أعلن بيتري أن المراحل المتأخرة من الحضارة الموكيانية تعود إلى الفترة ما بين 1500 و1200 قبل الميلاد.

كان لدى بيتري معرفة عميقة بعلم الآثار الذي يختص بأوروبا، ومناطق شرق البحر الأبيض المتوسط. لقد بنى لنفسه سمعة على أساس خططه الدقيقة، وحفرياته الجيدة، وتدوينه سجلات شاملة، ونشرها بشكل فوري. وهذا جعله شخصا فريدا من نوعه بين علماء الآثار في ذلك الوقت، ومكنه من الوصول إلى دائرة من العلماء واسعي الاطلاع، الذين امتدت اهتماماتهم إلى مجالات أوسع بكثير من الحفريات التي قاموا بها.

انتقل بيتري من (ابو غراب)، إلى تل العمارنة، عاصمة الفرعون إخناتون في صعيد مصر. كان هذا الملك شخصية مثيرة للجدل، تخلى عن عبادة إله الشمس القوي آمون لصالح شكل جديد من عبادة الشمس، هي عبادة قرص الشمس، آتون.

نقل أخناتون عاصمته إلى العمارنة بعيدا عن طيبة في 1349 ق.م. وعند وفاته، تم التخلي عن هذه العاصمة، ما وفر لبيتري فرصة فريدة لدراسة هذه المدينة المقدسة. وكشفت أعمال التنقيب التي قام بها، على نطاق واسع، عن القصر الملكي الذي زينت اللوحات جدرانه، وارضيته. توافد السياح لرؤية هذه اللوحات، وسحقوا في طريقهم حقول القرويين المحليين في خلال موسم الزراعة. غضب أحد المزارعين لدرجة أنه حطم الأرضيات التي لا تقدر بثمن.

وحدث أحد أهم اكتشافات بيتري عندما وجد المكان الذي عثرت فيه إحدى النساء على بعض الألواح المكتوبة بالخط المسماري، وهي لغة المراسلات الدبلوماسية الدولية في ذلك الوقت. فقام بالتنقيب في غرفة، وحفرتين مليئتين بألواح أصبحت تعرف في ما بعد باسم (بيت مراسلات الفرعون).

توفر الالواح التي تم العثور عليها في تل العمارنة التي زاد عددها على 300 لوح أرشيفا من التعاملات المصرية مع الحضارة الحثية غير المعروفة على نطاق واسع التي ظهرت في تركيا للفترة من حوالي سنة 1360 قبل الميلاد إلى عهد إخناتون. وتتضمن الالواح رسائل حول تبادل الهدايا، والتحالفات، والزيجات الدبلوماسية. وهناك مراسلات مع خليط غير مستقر من الولايات الواقعة إلى الشرق، ومع حكام صغار يقدمون فروض الطاعة بالركوع أمام الفرعون سبع مرات - ثُمَّ يركعون سبع مرات مرة أخرى. كما كانت هناك مراسلات بين المسؤولين المصريين

وممالك مستقلة مثل مملكة (اشيرطا) في قبرص، التي كانت مصدر مهم للنحاس.

وفي تلك الفترة، كما هو الحال الآن، كان الشرق الأوسط في حالة اضطراب مستمر. كانت هناك مؤامرات ومخططات، وملوك متمردون، وحملات عسكرية، عادة ما كانت مصحوبة بمواقف سياسية. وإذا ما وصفنا الأرشيف بأنه لا يقدر بثمن، فاننا نبخس حقه إلى حد بعيد!

كان بيتري يشجع علماء الآثار الشباب على التنقيب معه، وقام بتدريب جيل من شباب المستقبل من علماء المصريات. كان من بينهم رجل إنكليزي شاب يدعى هوارد كارتر، وهو فنان يعمل في صندوق استكشاف مصر. لم يكن لدى كارتر شيء يمكن أن يشيد به مخيما للحفر، إذ كان عليه بناء منزله الخاص من لبن الطوب، ويسقفه بالقصب. لم يكن لديه فراش، ولكن الصحف أدت الغرض بشكل جيد. وخصص علب الطعام الفارغة ليخزن بها القطع الاثرية الصغيرة. عمل القادمون الجدد من الشباب تحت إشرافه مدة أسبوع، ثُمَّ تُركوا بمفردهم مع عدد قليل من العمال المدربين. لكن كارتر أبلى بلاء حسنا، وعمل في المعبد العظيم لإله الشمس آتون، وأماكن أخرى في المدينة. وستثبت تجربته في العمل تحت إشراف بيتري في السنوات اللاحقة أنها لا تقدر بثمن (انظر الفصل 21).

في العام 1892، ومن دون ان يحمل أي شهادة جامعية، أصبح بيتري أول أستاذ في علم المصريات في جامعة لندن. وبشكل

سريع طبقت شهرته الآفاق باكتشافه مجتمعات عصر ما قبل الاسر المصرية - التي لم تحتوِ على نصوص هيروغليفية، وازدهرت على طول نهر النيل قبل مجيء عصر الفراعنة. حدث هذا عندما عثر على مقبرة شاسعة بالقرب من بلدة نقادة في صعيد مصر، مليئة بالهياكل العظمية إِلى جانب أوعية طينية بسيطة. في العام 1894 وحده، قام بيتري بحفر 2000 قبر، وكالعادة، طور بيتري نظاما لعمله في حفر المقابر. فكان بمجرد أن يكتشف الأولاد بقعًا ناعمة في الرمال، ويتبعوا حافة حفرة الدفن، يقوم بنقلها. ثُمَّ يصفّي العمال العاديون التربة بعيدًا عن الأواني. وأخيرا، يضع المنقبون ذوو الخبرة لمستهم الدقيقة، ويزيلون ما علق من اتربة بالهياكل العظمية، والأواني، قبل ان يسلموا العمل النهائي إلى علي محمد الصوفي، خبير الدفن لدى بيتري، الذي لا يفعل شيئا سوى تنظيف القبور.

كان من الممتع جدا الاحتفاظ بهذه الأواني لطيفة المنظر، لكنها لم تكن تحمل نقوشا، أو برديات تشير إِلى تاريخ صنعها. ومع ذلك، تم العثور على جرار مماثلة في مواقع أخرى مجاورة، مثل قرية هو جنوب مدينة نجع حمادي التي تسمى باليونانية ديوسبوليس بارفا.

في نهاية المطاف، قام بيتري بحفر عدد من القبور تكفيه ليتمكن من دراسة التغيرات التدريجية في شكل الأوعية. كانت المقابض مفيدة بشكل خاص لأغراض التصنيف، إِذ تغيرت مع

مرور الوقت من مقابض لغرض الاستخدام العادي إلى مجرد مقابض ذوات تمايلات مزخرفة لاغراض الزينة.

قام بيتري بترتيب القطع الاثرية على شكل سلسلة من المراحل تصنف مجموعات أثاث القبور، بدءًا من المرحلة رقم 30 (ST30). افترض بيتري أنه لم يعثر على أقدم واحدة، والتي كان من الممكن أن تكون المرحلة رقم 1 (ST1 80ST) وكانت المرحلة رقم 80 تربط التسلسلات إلى زمن الفرعون الأول، في حوالي سنة 3000ق. كانت هذه الطريقة التي تعرف (بالتأريخ المتتابع) أحد أهم مساهمات بيتري في علم الآثار. لكنها بالطبع، لم تكن بديلاً عن طريقة تحديد عمر المواقع الاثرية بالسنوات، لكن ذلك لم يحدث إلى ان تم التوصل إِلى تحديد عمر الاشياء بواسطة الكربون المشع (انظر الفصل 27). ومع ذلك، قدم بيتري تسلسلا منتظما لتاريخ مصر قبل الفراعنة.

وكان نطاق أعمال فليدرز بيتري وإرثه استثنائيًا. لسوء الحظ، مع ذلك، كان بيتري غير لبقٍ، بل كان مشاكسا. وغالبًا ما كان يؤدي افتقاره للتعليم الرسمي إلى الإصرار على أنه هو، وهو وحده، على حق، وهذه لم تكن صفة إيجابية في عالم الآثار. في العام 1926، عندما أصبحت القوانين الجديدة، الأكثر تقييدا للعمل نافذة في مصر، نقل بيتري عملياته إلى فلسطين. واستمر يعمل هناك حَتَّى اندلعت الحرب العالمية الثانية، وتوفي في القدس في سن التاسعة والثمانين.

في خلال سنوات طويلة من عمله، على طول نهر النيل، ادخل بيتري التنظيم لعمليات التنقيب، وأنشأ سجلا زمنيا ثابتا لمصر القديمة، وسلط الضوء على أشياء صغيرة غير واضحة.

الفصل الثامن عشر



قصر المونيتور

انه العام 1894، كان تجار التحف في سوق مدينة أثينا يعرفون ذلك الرجل الإنكليزي بشكل جيد. كان رجلا قصيرا، عدوانيا، يتكلم اللغة اليونانية بطلاقة، كان يأتي، كل صباح، ويتنقل ببطء من كشك إلى آخر، حَيْثُ كان يدقق ما تحتويه الصواني الصغيرة من الجواهر، والأختام. كان احيانا يلتقط ختما صغيرا، وينعم النظر تحت ضوء الشمس في النص المنقوش عليه غير المرئي غالبا. كان يعدّه التجار زبونا صعبا. كان يساوم، ويساوم على السعر، وأحيانا يترك البائع، ويمشي بعيدًا، ولا يعود إلّا إذا حصل على سعر مناسب له. وبينما هو يلف مشترياته بالورق، ثُمَّ يدسها في حقيبته الجلدية، كان يطرح الأسئلة. من قبيل من

أين تأتي هذه الأختام؟ في أي موقع صنعت هذه الأختام؟ وكان الجواب دائما هو جزيرة كريت.

كان آرثر جون إيفانز (1851 - 1941) هو عالم الآثار الوحيد على الإطلاق الذي اكتشف إحدى الحضارات بفضل قوة بصره. فقد كان بإمكانه قراءة حَتَّى أصغر الحروف من دون نظارات، أو عدسة مكبرة. وفي العام 1894 قام ايفانز مثل كلب الصيد، بتتبع رائحة القطع الأثرية لجزيرة كريت. كانت المدينة الرئيسية في الجزيرة، وهي ايراكليو، تحوي كنزا من الأحجار الكريمة، والأختام الكريتية. جاء معظمها من منحدر تل مغطى بأشجار الزيتون يدعى كنوسوس.

قام إيفانز بتمشيط ساحل التلال مدة ساعات، وجمع المصنوعات اليدوية، ونسخ العلامات الغريبة على الاجزاء المتكسرة من الأواني الخزفية. كانت الأوعية الحجرية المكتشفة في كنوسوس مماثلة لتلك الموجودة في ماكيناوي، وكان هناك ارتباط واضح بين الاثنين. ومن دون كثير من اللغط، قرر إيفانز شراء مدينة كنوسوس. لم يكن أول عالم آثار يحاول ذلك، فقد سبقه هينريش شيلمان، معتقدًا أن مدينة كنوسوس قد تكون موقع قصر الملك الأسطوري مينوس. لكن في حين فشل شليمان، نجح إيفانز، على الرغم من أنه استغرق سنتين يساوم على مبلغ الشراء.

وبينما كان على إيفانز أن يقوم باكتشافاته، كان كنوسوس بالفعل هو القصر الرئيسي في كريت، وربما منزل الملك مينوس الأسطوري، إذا كان موجودا في أي وقت مضى. لم يكن إيفانز

مهتما بالتخمينات حول حقيقة مينوس، ولا كان يصدق مزاعم شليمان حول طروادة، وماكينوي (انظر الفصل 15). لم يكن عالما أثريا ذا تعليم ذاتي يبحث عن الاكتشافات المثيرة، لكنه كان، بدلا من ذلك، عالما يبحث عن معلومات موثوق بها.

انغمس آرثر إيفانز في علم الآثار مُنْذُ الطفولة. لقد كان ابن السير جون إيفانز، وهو وراق إنكليزي ثري. وقد أيد السير جون إدعاءات بوشيه دو بيرث حول وادي السوم (انظر الفصل السابع)، وكان خبيرا في الأدوات الحجرية القديمة، وكذلك في العملات اليونانية، والرومانية. وبتشجيع من والده، كان آرثر يرسم عملات معدنية، وهو في سن السابعة. وبعد ثلاث سنوات، بدأ يرافق والده في رحلاته الأثرية.

وعندما كان آرثر طالبا، كان قلقا دائما، ويشكو من أن اساتذة جامعة أكسفورد كانوا مملين. أمضى الصيف يتجول في أوروبا سيرا على الأقدام، ووقع في حب سكان منطقة جنوب شرق أوروبا التي تعرف باسم البلقان. اشتهر إيفانز، الذي كان يعرف محليا باسم (الرجل الإنكليزي المجنون)، بولعه بالصحافة، وكتب عن الاضطرابات السياسية في الإمبراطورية النمساوية بشكل مؤثر للغاية، لدرجة أنه تم سجنه ستة أسابيع. وطردته السلطات من الإمبراطورية، وعاد إلى إنكلترا بحثًا عن عمل.

ورغم كل كتاباته السياسية، فان إيفانز كان يكرس جل وقته لعلم الآثار. وكان يقضي كل لحظة فراغ لديه في جمع التحف الفنية

من كل الانواع. لقد ورث غريزة الترف من والده، واكتسب معرفة موسوعية في علم الآثار.

في العام 1884، أصبح ايفانز القيّم على متحف آشموليان في أكسفورد، وهو المنصب الذي شغله مدة خمسة وعشرين عاما. كانت هذه مؤسسة مهملة، لكن القيم الجديد أعاد تنظيم عرض مقتنيات المتحف، وجلب إليه العديد من القطع الاثرية. كان يمضي معظم وقته في منطقة البحر الأبيض المتوسط، ومع ذلك، كان يقوم بجمع الابحاث الجيولوجية، وإجرائها. كان مساعده يقوم بإبلاغ الزوار أن القيم على المتحف (في بوهيميا). ولم يكن يبدو أن الجامعة كانت تمانع، ربما لأنه يكون أقل إزعاجا عندما يكون غائبا.

لا أحد يعرف متى سمع إيفانز بجزيرة كريت أول مرة. بدأت ابحاثه مع القطع الاثرية التي تم جلبها من منطقة موكيناي التي تقع في الأراض اليونانية، التي كانت تمثل مركزا تجاريا مهما في حوالي عام 1350 ق.م. حَيْثُ كانت القطع الأثرية تصل إِلى هناك من جميع أنحاء اليونان، ومن بحر إيجة. ادرك ايفانز بينما كان يفحص مئات الأختام الدقيقة، والأحجار الكريمة المنقوشة، أن لدى سكان موكيناي طريقة كتابتهم الخاصة. وان الرموز الموجودة على القدور المصنوعة في موكيناي جاءت من مناطق بعيدة مثل مصر. ولغرض البحث عن مخطوطة غير معروفة ذهب إيفانز إلى سوق أثينا، ومن هناك ذهب إلى جزيرة كريت.

في أثناء انتظاره إتمام صفقة شراء مدينة كنوسوس، استكشف إيفانز جزيرة كريت طولا، وعرضا على ظهر أحد البغال. وجد اختاماً مثل تلك الموجودة في موكيناي تباع في أسواق القرية الصغيرة للغاية، وأدرك أن هناك في الأقل نظامين للكتابة كانا ينتميان إلى الحضارة العظيمة التي كانت تحت قدميه في كنوسوس. وفي الواقع، كانت هناك أربعة انظمة!

أصبح القصر ملكه عندما تمرد سكان جزيرة كريت ضد أسيادهم الاتراك. ساعد إيفانز المتمردين، وقدم الطعام والدواء لهم على نفقته الخاصة. كان الأمير المنتصر جورج الذي اصبح، الحاكم الجديد لجزيرة كريت، ممتنا جدا له لدرجة أن تصريح السماح له بالتنقيب في مدينة كنوسوس قد وصله في غضون بضعة أشهر. وبدأت عمليات التنقيب في آذار العام 1900.

كان ايفانز يمتلك معلومات غزيرة عن القطع الاثرية وعلم الآثار، لكن خبرته في الحفر كانت لا تتعدى بضع تجارب صغيرة. واصبح عليه الآن ان يعالج موضوع الحفر في القصر. لحسن الحظ، كان لديه إحساس بضرورة تعيين مساعد له في عمليات الحفر، وهو شخص اسكتلندي يدعى دنكان ماكينزي، كان يعمل في كنوسوس لأكثر من ثلاثين سنة. نجح ماكينزي مع العمال، لانه كان يتحدث اللغة اليونانية بطلاقة بلكنة اسكتلندية. كان إيفانز هو من يقرر أين يتم الحفر، وكان يفحص كل اكتشاف، ويحتفظ بملاحظات مفصلة عنه. كما قام بإشراك المهندس المعماري تيودور فيف في إعداد الرسومات.

وبخلاف الحفريات التي قام بها شليمان، كانت أعمال الحفر هذه، قد تم التخطيط لها بعناية مُنْذُ البداية. في اليوم الثاني، وجد إيفانز نفسه يحدق في منزل يحتوي على رسومات جدارية باهتة. أصبح الموقع متاهة من الغرف، والممرات والأساسات. لم يكن هناك شيء يوناني، أو روماني في مدينة كنوسوس، التي كان واضحا انها اقدم من مدينة موكيناي. وسرعان ما بلغ عدد العاملين 100 رجل، قاموا جميعهم بتطهير غرف القصر.

ظهرت آلاف القطع الأثرية عند حفر الأساسات. فقد ظهرت جرار تخزين كبيرة، ومئات من الكؤوس الصغيرة، وتم الكشف حَتَّى عن نظام تصريف معقد للمجاري. وأفضل ما في الأمر أن إيفانز كان لديه عشرات من الألواح الطينية منقوش عليها كتابات متنوعة، وكان ذاك بمثابة اختبار لحدة بصره المجهرية. في نيسان 1900، تم الكشف عن لوحة جدارية ضخمة تصور ساقية كؤوس النبيذ بشعرها المنساب، وخصرها الرفيع، تم استخراجها من التربة. قام ماكينزي بتدعيمها بعناية بالجص لنقلها إلى متحف ايراكليون.

أعلن إيفانز، والسعادة تغمره عن اكتشاف الحضارة المينوسية القديمة لجزيرة كريت، على الرغم من أن الملك مينوس، وثيسيوس كانا مجرد أساطير. وسرعان ما امتدت الحفريات في كنوسوس لتشمل مساحة تقدر بهكتار واحد. في نيسان 1900، اكتشف الرجال غرفة حَيْثُ كان ما يزال فيها حمام للطقوس الاحتفالية، جنبا إلى جنب مع العرش الحجري. في حين اصطفت المقاعد

الحجرية بجانب الجدران، وهناك في الخلف اللوحات الجميلة لطائر الغرفين الخرافي، وهو بلا أجنحة. ربما كان هذا هو المكان الذي ظهرت فيه الكاهنة، التي تمثل الإلهة الأم، التي كان يُعتقد أنها تشرف على الأرض.

أرسل إيفانز في طلب إميل غيليرون، وهو فنان سويسري كان لديه خبرة طويلة في النقوش القديمة. قام الرجلان بتجميع لوحات جدار كنوسوس. وكان من بينها لوحة تمثل زهرة الزيتون، وصبيًا صغيرا يجمع الكركم (وهو نوع من التوابل الذي يتم جمعه من زهور الزعفران)، ولوحة تمثل الموكب الجليل لإحدى المسيرات العامة. لكن ما ستولى على عقل ايفانز كان لوحة كبيرة من الجص يظهر فيها ثور هائج. ظهرت الثيران في كل مكان: في اللوحات الجدارية، والمزهريات، على الأحجار الكريمة، والتماثيل. كان ايفانز في بداية الطريق لتشكيل صورة حضارة اختفت مُنْذُ فترة طويلة.

اعتاد ايفانز أن يشرع، في صباح كل يوم، بالتحقق من عمل اليوم السابق. وصفحة بعد صفحة كان يوثق بخط يده الدقيق كل طبقة اثرية، وكل قطعة، وكل غرفة. ويوماً بعد يوم، أصبح القصر اكثر تعقيدا من أي وقت مضى. كان بناءً غير عادي. فيمكنك دخول ساحة الفناء المركزية من خلال قاعة تحوي أعمدة كبيرة. وهناك صفوف من غرف التخزين الضيقة تقع في الجهة الغربية من الباحة، وينفتح كل منها على ممر ضيق. وقد اصطف العديد منها إلى جانب بعضها البعض، وكانت تقود

إلى منازل ذوات قيمة مرتفعة، وكذلك إلى مخزونات كبيرة من الحبوب. وقدر إيفانز أن ما يقرب من 100 ألف لتر من زيت الزيتون كانت مخزونة يوما ما في كنوسوس.

كانت هناك سلالم فخمة تقود إلى طابق ثانٍ من الغرف الضخمة المتميزة فوق الأضرحة. أما مدخل القصر الغربي فهو عبارة عن فناء مرصوف، يحوي في الخلف صورا ضخمة لعدد من الشباب وهم يقفزون فوق الثيران. استغرق الأمر من إيفانز وماكينزي أشهرا لفك لغز الغرف الملكية بجدرانها الجبسية، التي تم العثور فيها على بقايا من عروش خشبية. كان كنوسوس أكثر بكثير من مجرد قصر: فقد كان مركزا تجاريا، ودينيا، وورشة عمل ابدع فيها الحرفيون بصنع كل شيء من الأواني إلى الأجسام المعدنية، والأواني الحجرية.

شغلت كنوسوس بقية حياة إيفانز. وعندما ورث ثروة كبيرة، شرع في إعادة بناء جزئي، مبتكر نوعا ما، لبعض المباني ليخلق لدى الزوار انطباعا عن القصر. ولسوء الحظ، فإنه تم استخدام الإسمنت في أعمال إعادة البناء، الذي كان من المستحيل إزالته دون الإضرار بالهياكل الأصلية. كان يقامر بالماضي. فأي شكل من أشكال إعادة البناء للمواقع الاثرية من الصعب تنفيذه بنجاح. كيف يمكنك أن تكون على يقين من أن المباني ستبدو كما كنت تظن أنها كانت عليه في الماضي؟ ما هو الغرض من كل غرفة؟ ما هي استخدامات الطوابق المختلفة للقصر؟

بذل إيفانز، وغيليرون جهودا كبيرة مع مجموعة من المباني التي كانت مثل متاهة عند الاستخدام - واصبحت تبعث على الحيرة بشكل اكبر بعد عمليات الحفر. في زيارة قمت بها مؤخرًا، سرعان ما أصابني الارتباك، وعرفت لماذا كانت الأساطير اليونانية تشير إِلى المتاهة: لم تكن مباني كنوسوس ابنية جيدة التخطيط!

كان لدى إيفانز، وغيليرون رؤية رومانسية إلى حد ما بالنسبة إلى المينويين. لقد اعتقدا ان حضارتهم كانت مبهجة وخالية من التوترات، ومسالمة. نفذ عالم الآثار، والمعماري عملية إعادة البناء باستخدام أعمدة خرسانية لتحل محل الأعمدة الخشبية. وبفضل تصميمات الرسام ثيودور فايف، قام العمال بإعادة بناء الجدران والسلالم الكبيرة في قلب القصر، حَتَّى مع استمرار عمليات التنقيب.

لقد أمضى إيفانز الكثير من الوقت، وبذل قصارى جهده في استعادة رسومات الجدار من خلال اجزاء صغيرة من الرسوم وجدها في الخنادق، وكان الامر مثل أحجية ضخمة. وهذا يمنح المرء انطباعا رومانسيا، إلى حد ما، عن الحضارة المينونية.

ومما لا شك فيه أن إيفانز أضاف تفاصيل خيالية لبعض المشاهد مثل مشهد رقصة الثور. في إحدى الحالات، أعاد ايفانز بناء شخصية واحدة للملك بدلاً من الشخصيات الثلاث التي تدل عليها اجزاء الرسوم المبعثرة. وهذه كانت أخطاء رجل مهووس بالحضارة المينونية.

قضى آرثر إيفانز الفترة ما بين عامي 1900 و1935، في التنقل ما بين كنوسوس، وأكسفورد. بنى لنفسه فيلا في الموقع الاثري حَيْثُ درس مجموعات واسعة من المصنوعات الفخارية التي تم العثور عليها جراء أعمال الحفر والتنقيب. مكنته خبرته في القطع الأثرية من التعرف على بعض القطع الاثرية المصرية المتفرقة التي تتطابق مع الأوعية التي عثر عليها في نهر النيل. بالإضافة إلى ذلك، قام عالم المصريات الإنكليزي فليندرز بيتري باكتشاف الفخار الميناني بالقرب من ممفيس الذي يرجع تاريخه إلى ما بين 1500 و1200 قبل الميلاد (انظر الفصل 17). وقام إيفانز باستخدام مكتشفات بيتري منْ أَجل تحديد عمر الحضارة المينونية باستخدام تقنية المقطع العرضي (التقنية التي استخدمها أوسكار مونتيليوس). أرجع إيفانز تأريخ بدايات الحضارة المينونية إلى حوالي 3000ق.م وانها كانت في ذروة قوتها بين عامي 2000 و1250ق.م لكن الغزو الذي تعرض له المينيون من حدودهم البرية ادى في النهاية إِلى تدمير القصر.

أنتجت سنوات من العمل سردا رائعا عن المدنية المينوية، تم نشره بالكامل في كتاب قصر الملك مينوس، الذي صدر بين عامي 1921 و1935. وفي هذه التحفة الرائعة، وضع إيفانز القصر في مركز المسح الزمني لتاريخ الحضارة المينوية، وبنى قصته مرحلة بعد مرحلة. في الجزء الاخير من الكتاب، يودع ايفانز المدينة التي احبها كنوسوس. لكنه لم يندم إلّا على أمر

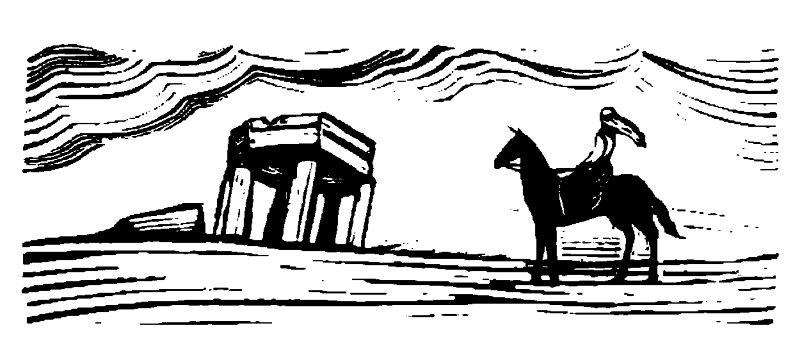
واحد فقط: فقد فشل في فك شفرة النصوص الأربعة التي عثرت عليها الحفريات.

ربما كان آرثر إيفانز شخصا رومانسيا، كان يميل إلى المبالغة في الجوانب الإيجابية للحياة المينوية. لكننا محظوظون لأن عالم الآثار الرائع ذو الرؤية الثاقبة هذا كان يمتلك الإحساس بضرورة الاعتماد على الخبراء المهرة. إلّا أنه على الرغم من ذلك كان هو من يمتلك الرؤية المتكاملة لحضارة المينويين وكنوسوس.

في كل مرة أزور كنوسوس، أنظر إلى ما حولي برهبة لما حققه آرثر إيفانز. وبالطبع فإن أعمال التنقيب الجديدة والنصوص التي تم فك رموزها، والتواريخ التي تم تحديدها عن طريق تقنية الكربون المشع قد عدلت، غالبا، الصور التي رسمها للحضارات المنسية، واليوم، نحن نعرف أكثر عن قصور الحضارة المينوية الاصغر، ويمكن أن نتخيل بعض العلاقات السياسية، والاجتماعية المعقدة التي تكمن تحت السطح الملون للحضارة تلك.

لا تستطيع سوى قلة من علماء الآثار ان تصف حضارة ما من أول مراحل ظهورها، من دون سجلات مكتوبة، بجهد فردي، وبمقاييس علمية دقيقة. لكن ارثر ايفانز فعل ذلك. توفي في العام 1941 عن عمر يناهز التسعين. ومُنْذُ ذلك الوقت، تغير علم الآثار كثيرا ليتجاوز مرحلة الاعتراف به إلى ابعد الحدود.

الفصل التاسع عشر



إنه ليس (عمل الرجال) فحسب

كان جميع علماء الآثار الذين التقينا بهم حَتَّى الآن من الرجال. لفترة طويلة جدا، كان علم الآثار شأنًا ذكوريا. لكن اثنتين من النساء الرائدات، هما غيرترود بيل، وهارييت بويد هاوز، أثبتتا أنه لم يكن عمل الرجال فحسب. لقد فتحتا الطريق امام عالمات الأثار في ايامنا هذه.

كانت المرأتان مختلفتين تماما: فإحداهما كانت رحالة تجوب الصحراء بمفردها، والأخرى كانت تقوم بأعمال التنقيب. كان معظم علماء الآثار الذكور في ذلك الوقت يعتقدون أن النساء يكنّ أكثر فائدة عندما يعملن في وظائف مكتبية، أو يصبحن أمهات، لكن، في وقتنا الحاضر، فان العديد من أرقى علماء الآثار في العالم، من النساء. كانت غيرترود بيل (1868 – 1926) ابنة

ثريّ، وصاحب مصنع للحديد في يوركشاير. في العام 1886، في وقت كانت فيه قلة من النساء يدخلن إِلى أي جامعة، ذهبت للدراسة في جامعة أكسفورد. كانت طالبة رائعة، وتخرجت وهي تحمل شهادة في التاريخ الحديث. وعلاوة على ذلك، اظهرت شغفا بالسفر، واكتسبت سمعة في القدرة على التعبير عن رأيها بصراحة، وثقة. في العام 1892، زارت طهران، وبلاد فارس - وكانت تُعدّ، في ذلك الوقت، وجهة بعيدة للسفر. ثُمَّ بدأت تقوم برحلات على نطاق، واسع وتمارس، رياضة تسلق الجبال - وهي هواية يمارسها الرجال في الغالب - لتصبح واحدة من أبرز متسلقات الجبال في وقتها.

كانت غيرترود عالمة لغويات موهوبة، وفي العام 1899 أمضت في القدس سبعة أشهر لتحسين لغتها العربية. ومن هناك سافرت إلى مناطق أبعد، إلى معابد تدمر في سوريا، وسافرت عبر الصحراء إلى البتراء. واكتشفت ما يتضمنه السفر في الصحراء من إزعاجات الخنافس السوداء، ومياه الشرب الموحلة. وبينما كانت تتبادل الاحاديث مع الشيوخ والتجار باللغة العربية التي أصبحت تتكلمها الآن بطلاقة، بدأت تفهم الأوضاع المعقدة، العنيفة في بعض الأحيان لهذه الأراضي القاحلة. وكان ذلك، هو، المكان الذي بدأت منه اهتمامها بعلم الآثار. لم تكن تقوم أبدا بأعمال التنقيب: كانت تقوم بإجراء مسوحات للمواقع البعيدة، وتصويرها، والكتابة عنها.

بعد التقاطها أكثر من 600 صورة لمعالم الآثار القديمة، أمضت غيرترود بيل السنوات القليلة التالية في مصر، وأوروبا، والمغرب، ودرست علم الآثار في روما، وباريس. في العام 1902، شاركت في عمليات التنقيب في غرب تركيا. ثُمَّ في العام 1905، اجرت مسوحات، ودراسات للمعالم الأثرية في سوريا وقيليقية (تركيا) التي يرجع تاريخها إلى الإمبراطورية البيزنطية (القسم الشرقي للإمبراطورية الرومانية القديمة، التي سقطت في النهاية بيد الأتراك في العام 1453). في العام 1907 صدر كتابها (الصحراء والبذور) الذي تتحدث فيه عن اسفارها، كما إنّ مقالتها عن الكنائس في مدينة بيربنكيليز البيزنطية - التي لم يعد وجود لاغلب معالمها - جعلت منها عالمة، وكاتبة رحلات.

كانت غيرترود بيل، قبل كل شيء، عالمة آثار صحراوية. وكانت تتصف بالصلابة، وذات شخصية مستقلة للغاية، وانصب اهتمامها على العمارة، والمواقع الاثرية غير المعروفة، والمهمة التي تعود إِلى الفترة التي تلت انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب (في العام 476م). وبعد ان تركت بيربينكيليز خلفها، انطلقت من حلب في سوريا عبر الصحراء السورية إلى مناطق نهر الفرات. لقد سافرت عبر بلد خطير، ولم ترافقها سوى قوة عسكرية صغيرة. كانت وجهتها قلعة العباسيين في الاخيضر، وهو حصن ضخم مستطيل الشكل بني في العام 775. (حكمت السلالة العباسية، المنحدرة من عم النبي محمد، الإمبراطورية الإسلامية من عام 750 حَتَّى عام 1258). قامت غيرترود

بيل لمدة أربعة أيام، بالتقاط الصور، وإجراء المسوحات الاثرية للحصن الذي لم يصفه أحد من قبل. أصر حراسها من الجنود على حمل بنادقهم بينما كانوا يحملون أشرطة القياس الخاصة بها. وشكت بيل من أنها: «لم تستطع أن تقنعهم بأن يضعوا تلك الاشياء الملعونة على الارض». لم تقم المس بيل بعمليات تنقيب، واكتفت لنفسها بوصف عام لابنية حصن الاخيضر. وكانت تلك مساهمة كبيرة منها، لأن حصن الاخيضر لم يكن معروفا فعليا. وقد وصفت في أشهر كتاب لها، وكان بعنوان من مراد إِلى مراد، الذي ظهر في العام 1911، الموقع لعامة الناس، وحاز على الكثير من الثناء. تم نشر بحثها الأكاديمي حول حصن الاخيضر بعد ثلاث سنوات، وما يزال مصدرا رئيسيا للمعلومات عنه.

سرعان ما تمتعت بيل بعطلة مرة أخرى - فسافرت إلى بغداد، وبابل، ثُمَّ إلى منطقة آشور في الشمال، حَيْثُ كان عالما الآثار الألمانيان يقومان بأعمال التنقيب في العاصمة الآشورية. وكان علماء الآثار ذوو الخبرة الذين كانوا يعملون في المواقع اليونانية قد دربوا كلا الرجلين، وكانت بيل معجبة بحفرياتهما الدقيقة. وقد علماها كيفية استخدام المصباح الكاشف عند تصويرها الاجزاء الداخلية المظلمة للمواقع الاثرية.

وفي طريق عودتها إلى ارض الوطن، توقفت المس بيل عند عمليات التنقيب التي كانت تجرى في مدينة كركميش في شمال سوريا، حَيْثُ التقت بعالمي الآثار البريطانيين ريجينالد كامبل

طومسون، وتي. إيج. لورانس (الذي أصبح في ما مشهورًا بمآثره الصحراوية في الحرب العالمية الأولى، التي أكسبته اسم لورنس العرب - انظر الفصل 20). واخبرتهما، بفظاظتها المعتادة، أن أعمال التنقيب التي يقومان بها تعد من أعمال (ما قبل التاريخ) مقارنة بأعمال التنقيب التي يقوم بها الألمان. لم يكن كامبل طومسون ولورنس سعيدين للغاية بما قالته، وحاولا إقناعها بخبراتهما الأثرية. لكنهما فشلا. وكان العمال في موقع مدينة كركميش يطلقون الضحكات، والعبارات الساخرة بينما كانت تغادر الموقع. بعد عدة سنوات، علمت أن لورانس أخبرهم أنها امرأة عادية للغاية، لا تجذب المرء للزواج منها.

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت جيرترود بيل قد انجزت أعمال المسح الرئيسية، لكن اصبح لديها أيضًا معرفة واسعة بالجزيرة العربية والمناطق المجاورة. كانت تقاريرها الإعلامية للمخابرات البريطانية قيّمة للغاية لدرجة أنه تم تعيينها في عام 1915 في مكتب المخابرات العربية في القاهرة. بدأ فصل جديد في حياتها بعد عام من نقلها إلى البصرة، التي تقع على رأس الخليج العربي (الفارسي في النص الاصلي)، لدراسة أوضاع القبائل المحلية. كانت مفتونة بالثقافة العربية، وأصبحت بطلة للاستقلال العربي، وخدمت كمستشار خبير للمسؤولين البريطانيين المحليين.

بمجرد انتهاء الحرب، سعت العديد من البعثات الأجنبية إلى العودة إلى بلاد ما بين النهرين للقيام بعمليات تنقيب في

اريدو (التي قيل إنها أقدم مدينة في العالم)، وأور (حَيْثُ عاش إبراهيم التوراتي، مؤسس الديانة اليهودية). لكن الزمن كان يتغير، ولم يعد بإمكان علماء الآثار الأجانب أن يحفروا أَيْنَمَا شاءوا، ولا يمكنهم تصدير كل مكتشفاتهم. باتت الحكومات تصر، الآن، على وجود تصاريح الحفر، التي كانت تمنح لعلماء الآثار المؤهلين.

كانت جيرترود بيل هي الشخصية الوحيدة في بغداد التي لديها معرفة بمسح المواقع الآثارية، وعمليات التنقيب، لذا كانت حكومة الدولة الجديدة المعروفة باسم العراق على حق، عندما قامت بتعيينها مديرة المتحف العراقي للآثار. لم يكن أحد يتوقع منها القيام بأعمال التنقيب، لكن تجربتها في استقصاء المواقع الاثارية، ومعرفتها بالآثاريين كانت لا تقدر بثمن. كما قامت بصياغة قوانين تنظم إجراءات التعامل مع الآثار، وأسست المتحف العراقي.

وكانت القوانين الجديدة تقتضي تقسيم جميع اللقى الأثرية بين الأجانب (عادة تكون متاحف)، والعراق. كانت المس بيل مفاوضة صعبة، ولذلك ازداد عدد المقتنيات الاثرية في المتحف العراقي بسرعة. في آذار 1926، منحت الحكومة المتحف موقعًا دائما له في بغداد، حَيْثُ عرضت فيه المس (بيل) اللقى الاثرية التي اكتشفتها جميع أعمال التنقيب الرئيسية، بما في ذلك أعمال التنقيب الألمانية في بابل (انظر الفصل 20).

كانت غيرترود بيل امرأة متغطرسة نوعا ما، وذات آراء قوية فيما يخص السياسة المحلية. لم تكن تطيق الحمقى، وصنعت لها العديد من الأعداء. وبات المسؤولون الحكوميون لا يثقون بها. وعندما ازدادت عزلتها، شغلت نفسها، أكثر فأكثر، بالمسائل الأثرية. وفي قمة الإنهاك بسبب كثرة العمل، وضعف الحالة الصحية، انتحرت المس بيل في تموز من العام 1926. وحضر جميع سكان بغداد جنازتها.

على الرغم من أن ذكاء المس بيل، ومعرفتها بعلم الأثار كانا اسطوريين، إلّا أنها لا تتمتع بسمعة طيبة في العراق اليوم: يعتقد الكثير من العراقيين أنها وهبت البعثات الأجنبية الكثير من اللقى الاثرية. قد يكون هناك بعض الحقيقة في ذلك، لكن المس بيل كان تميل دائمًا إلى وضع مصالح علم الآثار، والابحاث العلمية، فوق المصالح الوطنية البحتة؛ وفي ذلك الوقت لم تكن هناك مؤسسات في العراق يمكنها ان تحافظ على الأشياء الحساسة. ومع ذلك، فإن المتحف العراقي يمثل نصبا تذكاريا دائما لشخصية فريدة، مهمة في تاريخ علم الآثار.

كانت هارييت بويد هاويس (1871 – 1945) ذات الشخصية المشاكسة، أول امرأة تقوم بالتنقيب في كريت، كانت تقوم بالحفر في الوقت الذي كانت فيه غيرترود بيل تقوم برحلاتها. كانت هارييت بويد ابنة لمالك إحدى شركات تصنيع ادوات مكافحة الحرائق، توفيت والدتها في وقت مبكر. وعاشت مع أربعة أخوة أكبر منها، وتعلمت الاعتماد على نفسها. في العام 1881 بدأت

تدرس في كلية سميث في ماساتشوستس، تمامًا كما فعلت غيرترود بيل، حينما دخلت جامعة أكسفورد. تسببت محاضرة عن مصر القديمة ألقتها في الكلية الرحالة، والروائية، والكاتبة الأثارية الإنكليزية، أميليا إدواردز في إثارة اهتمام هارييت بالحضارات القديمة. بعد تخرجها، عملت مدرسة، وفي النهاية ادخرت ما يكفي من المال لزيارة أوروبا في العام 1895.

في أثناء وجودها في اليونان، أبدت هارييت اهتماما شديدا بقدماء الإغريق. عادت في السنة التالية للدراسة في المدرسة البريطانية لعلم الآثار في أثينا. وقد وجدت الوقت وسط حفلات الرقص، ودعوات العشاء، وغيرها من المشاركات الاجتماعية، لدراسة اليونان القديمة، والحديثة، وزيارة المواقع الأثرية. كما تسببت في إثارة جلبة عندما قامت بقيادة الدراجة الهوائية حول أثينا.

في العام 1897 اندلعت الحرب بين اليونان، وتركيا. وتطوعت هارييت على الفور للعمل في منظمة الصليب الأحمر في وسط اليونان. وقد منحتها رعايتها الجرحى في خطوط القتال أول تجربة مباشرة لها مع أهوال الحرب. كانت ظروف المستشفى مرعبة: كان الرجال يلتصقون، بعضهم ببعض، لدرجة أن تضميد جراحهم كان شبه مستحيل. بعد الحرب، بقيت تعمل ممرضة، واعتنت بضحايا وباء التيفوئيد. لم ينس السكان المحليون أبدا الفضل الذي يدينون لها به. وعندما عادت هارييت إلى الولايات المتحدة، حصلت على زمالة بحثية لدراسة النصوص المكتشفة في مدينة

الفسينا القديمة، التي تقع بالقرب من أثينا. أرادت هاريت القيام بعمليات التنقيب، لكن المدرسة الأمريكية للدراسات الكلاسيكية في أثينا هاجمتها: فقد عدّت الحفر من (عمل الرجال). وبدلاً من ذلك، اقترح عليها شخص لجأ بسبب الحرب إلى جزيرة كريت ان تقوم بالحفر في تلك الجزيرة، حَيْثُ لم يكن أحد يعمل فيها تقريبا. اتصلت هارييت بآرثر إيفانز، الذي كان على وشك ان يبدأ الحفر في كنوسوس، وعالم الآثار بجامعة أكسفورد، ديفيد هوغارث، الذي كان يقوم بالفعل بالتنقيب في جزيرة كريت. كما رتبت لها صوفيا شليمان، أرملة هاينريش شيلمان، لقاءات لها مع علماء الآثار المهمين الآخرين الذين كانوا يمرون بأثينا.

ووسط التشجيع التي تلقته من هؤلاء المؤيدين المؤثرين، وتحديها لأولئك الذين ظنوا أن مغامرتها مشينة، وصلت هارييت إلى كريت في وقت كان فيه هناك 19 كيلومترا فقط من الطرق المعبدة على الجزيرة. ومثل أي شخص آخر، كان علماء الآثار يسافرون على البغال. نصحها إيفانز وهوجارث بالتحدث إلى السكان المحليين في أثناء القيام باستكشافاتها على امتداد الساحل الشمالي. انتشرت قصة هذه الرحّالة غير العادية التي تسافر بمفردها عبر القرى المحلية. اصطحب مدير مدرسة في كريت الباحثة هارييت إلى خليج ميرابيلو. ووجدت هناك متاهة من الجدران الحجرية المكشوفة جزئيا، والعديد من الأواني الفخارية المطلية، ومسارات لزقاق ضيق مرصوف بالحجارة.

وفي اليوم التالي، عادت هارييت مع طاقم من العمال، الذين كشفوا عن كتل من المنازل. وقد اظهرت هارييت موهبة رائعة في أعمال الحفر. سرعان ما اصبح لديها مائة رجل، وكذلك، وبشكل غير معتاد، عمل معها عشر نساء – وربما كانت هذه المرة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا الامر – واستطاعوا اكتشاف ما اتضح أنه غورنيا، البلدة المينونية الصغيرة. كانت غورنيا أصغر كثيرا من كنوسوس، وقدمت صورة لا مثيل لها لمجتمع صغير من العصر البرونزي، مع قطع أثرية مماثلة لتلك التي اكتشفت في كنوسوس. عملت هارييت في المدينة في سنوات 1901 و1903 و1904، مع التركيز بشكل رئيسي على اهمية تحديد زمن إنشائها، بين حوالي 1750 و1490 ق.م. كشفت الحفريات التي كان يرعاها متحف جامعة بنسلفانيا جزئيًا، عن كتل كاملة تضم أكثر من سبعين منزلًا، وأزقة مرصوفة بالحصى، وقصر مينوني، ومقبرة. كانت غورنيا تمثل إنجازا مذهلًا لأي عالم آثار.

بعد مرور أربع سنوات على انتهاء أعمال التنقيب، نشرت هارييت تقريرا موسعا عرضت فيه كل تفاصيل أعمال التنقيب التي قامت بها. لا يمكن لأحد أن يتهمها، الآن، بالقيام بسلوك مشين، أو يتحدى مؤهلاتها في علم الآثار!

لقد كان هذا العمل الميداني الأخير لهاريت، الذي جعلها شخصية رائدة حازت على الإعجاب في علم الآثار الأمريكي في مناطق البحر الأبيض المتوسط. وأصبحت أول امرأة تحاضر في المعهد الآثاري في أمريكا.

في العام 1906، تزوجت من عالم الأنثروبولوجيا البريطاني تشارلز هاوز، واصبح لديهما طفلان. في عامي 1916 و1917، في خلال الحرب العالمية الأولى، انغمست بشدة في ممارسة مهنة التمريض في صربيا، والجبهة الغربية. تواصل انشغالها بعلم الآثار، لكن بشكل صارم من خلال الفصول الدراسية: حَيْثُ قامت بتدريس الفن القديم في كلية ويلسلي، في ماساتشوستس، سنوات عديدة.

كانت غيرترود بيل، وهارييت بويد هاوز، كلتاهما، نظيرتيْن لأيٍّ من علماء الآثار الذكور في وقتهما. استطاعت المس بيل، رحالة الصحراء، الخبيرة في الإدارة الحكومية، ان تفهم الناس في الصحراء أفضل من أي شخص غريب تقريبًا. ومن جانبها، كانت هاريت بويد هاويز منقبة رائعة. في العام 1926 عادت إلى جزيرة كريت، مرة أخرى، ضيفةً مرحبًا بها، وقد اصطحبها آرثر إيفانز في جولة في كنوسوس، وسافرت إلى غورنيا على بغل، فوصلت إليها وسط استقبال صاخب من السكان المحليين.

الفصل العشرون



الآجر الطيني والفيضان

كانت بابل واحدة من المدن العظيمة في بلاد ما بين النهرين. فقد نمت من مستوطنة صغيرة أُسِّست حوالي سنة 2300 قبل الميلاد، لتصبح مركز الإمبراطورية البابلية بين عامي 609 و539 قبل الميلاد. حولها الملك نبوخذ نصر الثاني (حكم في الفترة ما بين عامي 604 - 562 قبل الميلاد) إلى مدينة عظيمة ذات ثماني بوابات، وسميت البوابة الشمالية باسم الآلهة عشتار. بعد تدميرها في العام 612ق.م، اختفت بابل من التاريخ، ولم يتبق منها سوى التلال المغبرة.

هزمت أعمال التنقيب التي جرت في بابل العديد من علماء الآثار الأوائل، وكان من بينهم هنري لايارد (انظر الفصل 4). فهم لم يستطيعوا فعل أي شيء مع بقايا الطوب المتحلل، غير

المفخور. ثُمَّ وصل الألمان، واعادوا المدينة العظيمة إلى الحياة على يد منقب دقيق. كان روبرت كولدفاي (1855 – 1925) مهندسا معماريا، وعالما للآثار. وكان منقبا دقيقا حسب التقاليد الألمانية، وعلى يقين من أن التنقيب المنهجي للطوب المتحلل سيكشف عن مدينة بابل التي بناها نبوخذ نصر. بدأ عمله هناك العام 1899، واستمر طوال السنوات الثلاث عشرة التالية:

قام علماء الآثار الألمان، وفلاندرز بتري في مصر بتثبيت التنظيم الأساسي لعمليات التنقيب على نطاق واسع. لم يدم الامر طويلا لقيام العمال بالحفر عشوائيا في تلال المدينة. وبدلاً من ذلك، استخدموا فريقا تعامل ببراعة مع المعاول، وقام غيرهم باستخدام السلال. كانوا يعملون عن قرب. وقام كولداي بإضفاء الطابع الرسمي على هذه العملية، إِذ قامت عربات السكك الحديد الخفيفة بإلقاء التربة بعيدًا عن الخنادق. ثُمَّ قام بتدريب العمال على القيام بمهام متخصصة.

لقد بدأ بالابنية ذوات الطوب المفخور التي يمكن تحديدها بسهولة. كان طوب الطين غير المفخور يمثل تحديا كبيرا، لأنه كان يميل إلى الذوبان في التربة المتروكة، عندما يتعرض للأمطار، والرياح. لذلك، قام كولدوي بتدريب الفرق الماهرة التي لم تفعل سوى تتبع جدران من الطوب اللبن. وجد هو، وزميله والتر أندريه (الذي كان من المفترض أن يقوم بالتنقيب في آشور العاصمة الآشورية التي تقع على نهر دجلة) أن أفضل طريقة للتنقيب كانت أن تكشط الأرض بواسطة المجارف، وكان

الباحثون الخبراء يقومون بتفحص التغييرات التي حدثت في بنية التربة، أو في الجدران الفعلية. وبمجرد أن ظهرت الجدران، تتبعها العمال بدقة حَتَّى ظهرت الغرف. تركوا اكوام التراب على الارضيات دون مساس، بحَيْثُ يمكن حفرها في وقت لاحق، وتسجيل محتويات كل غرفة. أحدثت طريقة كولدوي ثورة في أعمال التنقيب عن المدينة.

كان اكتشاف كولدوي الأعظم في بابل، هو، بوابة عشتار التي شيدها نبوخذ نصر في الجانب الشمالي من المدينة، وكانت تكريما لعشتار إلهة الخصوبة. وقد وجد أن مهندسي الملك قد حفروا عميقا تحت الرمال لتشييد الأساسات. كانت الجدران ما تزال سليمة، ما سمح له بالكشف عن النقوش الضخمة التي تمثل التنانين، والثيران المصنوعة من الطوب المزجج. تم تسقيف البوابات الفعلية، والممر بخشب الارز.

في الكتابة المنقوشة التي تمتد على عشرة أعمدة، يتباهى الملك متفأخرا بتحفته هذه، التي وصفها أيضًا الكاتب اليوناني هيرودوتس. وبعمل صبور، قام كولدوي، وآخرون بغسل الآلاف من شظايا الطوب الزجاجية لتخليصها من الملح، ثُمَّ قاموا بتجميعها معا. وأعاد بناء البوابة حجرا بعد حجر في متحف بيرغامون في برلين. ومن خلال طريق الموكب المعبّد يمكن الوصول إلى معبد مردوخ، كبير إلهة بابل. وفي الوقت نفسه، كانت بوابة عشتار، وشارع الموكب يرتفعان أكثر من 13 مترا فوق السهل المحيط بهما.

وفي الوقت نفسه، أجرى والتر أندري عمليات تنقيب موازية في أعالي مدينة آشور للفترة من عام 1902 إلى عام 1914 متبنيًا الطريقة التي استخدمت في بابل في التنقيب عن عاصمة المملكة الآشورية التي كانت تقف على منحدر فوق نهر دجلة. تتبعت فرق خبرائه جدران المدينة، والعديد من المنازل، ومواقع المعابد. كان البناء الرئيسي هو معبد عشتار، زوجة إله المدينة، آشور. وكشف خندق عميق عن ستة معابد قديمة في نفس الموقع. كان اندريا أول منقب يقوم بتشريح ارض بلاد ما بين النهرين طبقة بعد طبقة. بعد أن أدرك أن الحفريات قد تسبب دمارا للمباني، قام هو وكولدوي بتسجيل كل مبنى قبل ان يقوما بإزالته منْ أَجل الوصول إلى مستويات أدنى.

جعل كل من إندراي، وكولدوي، وآخرون من الممكن القيام بالتنقيبات العلمية في أور، ومدن بلاد ما بين النهرين الأخرى بعد الحرب العالمية الأولى. واصبحت الحفريات تتم تحت رعاية المتاحف الوطنية، وليس الأفراد. في العام 1911، قرر المتحف البريطاني القيام بعمليات للتنقيب في كركميش مدينة الحيثيين غير المعروفة على نطاق واسع، والواقعة على نهر الفرات في شمال سوريا. بدأت الحفريات تحت إشراف ديفيد هوغارث (1862 – 1927)، وهو منقب ذو خبرة عمل مع آرثر إيفانز في كنوسوس. اشتهر هوغارث بسمعة سيئة نتيجة مزاجه الحاد قبل الإفطار، ما دفع عماله إلى ان يطلقوا عليه اسم (ملاك الموت). كان الموسمان اللذان قام هوجارث في خلالهما

بالتنقيب مثمرين إلى الدرجة التي دفعت المتحف إلى الشروع بتنفيذ مشروع للتنقيب طويل المدى، واختار ليونارد وولي البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا مديرًا جديدا له.

كان تشارلز ليونارد وولي (1880 - 1960) رجلا قصير القامة، ذا شخصية قيادية. ذهب للدراسة في نيو كوليدج، أكسفورد، ليصبح كاهنًا، لكن بينما كان ما زال عالمًا في الجامعة، تنبأ عميد الكلية بأنه سيصبح عالمًا في علم الآثار. أمضى وولي خمس سنوات في السودان - من العام 1907 إلى العام 1911 - يعمل بشكل رئيسي في المقابر. هناك اكتسب خبرة في التعامل مع العمال من الثقافات الأخرى، وتعلم لغاتهم، وكان يعاملهم بصرامة، لكن بإنصاف. وكان اختيارا ممتازا لعمليات التنقيب في كركميش.

كانت مدينة كركميش تحترس من المخاضة التي تمر عبر النهر حَتَّى العام 717 قبل الميلاد، إلى ان استولى الآشوريون على المستوطنة المتنامية. وقد أصبحت في ما بعد مدينة حيثيّة، لكن لم يُعرف أي شيء تقريبًا عن هؤلاء المنافسين لكل من الآشوريين، والمصريين في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط. كان أكثر من 15 مترًا من الاماكن المأهولة تنتظر عمليات التنقيب.

كان وولي قائدًا ملهمًا، وواحدا من الأشخاص النادرين، ويعرف ما يجب فعله. كما كان يتميز بروح مرحة نابضة بالحياة، وكان جادا، عندما يتعامل مع رمال السياسة المحلية المتغيرة، وقوة العمل التي تلجأ إلى العنف إذا كانت غير راضية. كان الاحترام شعاره، لكن كان يمكن أن يكون حازمًا أيضًا. عندما يرفض

مسؤول محلي إصدار تصريح له بالتنقيب على الفور، كان وولي لا يفعل سوى ان يبتسم. ويخرج مسدسا محشوا بالطلقات، ويضعه على رأس الرجل. فيرفع المسؤول يديه مرتعبا، ويقول إنه كان هناك خطأ. بعد دقائق، يغادر وولي المكان، ومعه تصريح موقّع.

كان وولي راوي قصص رائعًا، وكاتبا فصيح اللسان، الأمر الذي يجعل من الصعب أحيانا فهم ما حدث حقًا في كركميش. كانت الحفريات ناجحة، إلى حد كبير، لأن وولي وت. ي. لورنس – الذي وظفته جامعة أكسفورد لخبرته الأثرية، وكان يتجول في سوريا – تعاونا بشكل جيد في ما بينهما ومع العمال. كان المشرف على أعمال الحفر شخصا سوريا يدعى حمودي، كان يهتم بأمرين، هما علم الآثار، وأعمال العنف، وكان عبقريا في إدارة العمال. وقد أصبح أحد أقرب أصدقاء وولي، وعملا معًا في العديد من أعمال التنقيب في خلال الفترة من 1912 إلى 1946.

في العام 1912، لم يكن يُعرف إلّا القليل عن الحيثيين، باستثناء ما تم التعرف عليه من ألواح تل العمارنة التي عثر عليها فلندرز بيتري في مصر قبل عدة سنوات (انظر الفصل 17). كشف وولي عن الطبقات الاثرية لإحدى القلاع، وكشف كذلك عن قصرين. كانت تزين جدران القصرين رسوم فخمة لملوك وجنود الجيش. انتهت أعمال التنقيب في كركميش مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومثل غيرترود بيل (انظر الفصل 19)، أصبح وولي ضابطً استخبارات مهمًا، قبل أن يقع أسيرا في يد الأتراك.

بعد الحرب، وفي العام 1922، أصبح وولي مديرًا لعمليات تنقيب طموح، طويلة الأمد في المدينة التوراتية، أور (أور الكلدانية)، برعاية المتحف البريطاني، ومتحف جامعة بنسلفانيا. وبصرف النظر عن موقعها في موقع صحراوي قاس من الحرارة، والبرودة الشديدة، كانت أور موقعا معقدا، صعبًا للتنقيب فيه. لقد شكل هرم المعبد المدمر وأجزاء المدينة المدفونة بالكامل، والعديد من طبقات الارض التي كانت مأهولة تحديا حَتَّى لأكثر الحفارين مهارة. لكن وولي كان مثاليًا لذلك العمل، كونه نشيطًا، ومليئًا بالأفكار.

كان مراقب عملٍ بارعًا، استطاع ان يدير عمليات التنقيب الهائلة مع حفنة من المساعدين الأوروبيين، والرجل السوري الضخم حمودي. كانت الحفريات تبدأ عند الفجر، وبالنسبة للموظفين الأوروبيين، نادرا ما كانت تنتهي قبل منتصف الليل. كان أفضل زميل له هو ماكس مالوان، الذي أصبح لاحقا عالما آثاريا من الطراز الأول، وأول من تابع أعمال ليارد في نمرود. تزوج مالوان من أجاثا كريستي مؤلفة الروايات البوليسية، وقيل إنها استوحت بعض الشخصيات في روايتها (جريمة في بلاد الرافدين) من أناس كانوا يعملون في مدينة أور.

تم حفر خندق في موسم التنقيب في العام 1922 وتم العثور على لُقى مصنوعة من الذهب في داخله، ربما جاءت من مقبرة ما. اشتبه وولي بأنه ربما يتعامل مع مقابر ملكية مليئة بالكنوز العظيمة، وربما تكون في حالة هشة. كان يعلم أن مهمة تطهير

المدافن ستزيد من قدراته الفنية إلى الحد الأقصى، وسيتعين على عماله التدرب على العمل الدقيق. لذلك انتظر أربع سنوات قبل أن يحفر هناك.

في هذه الأثناء، حفر خنادق تجريبية لإنشاء تصميم للمدينة. ثُمَّ قام بحفر قرية صغيرة بالقرب من الموقع. عُثِر فيها على أوعية فخارية، وليست معدنية، تحمل رسوما، وعمرها قديم جدا. ربما كان سكّانها من أسلاف البناة السومريين لمدينة أور. كان لدى وولي 400 عامل يعملون تحت إشراف حمودي، الذي كان صارما، لكن حسّاسًا من المتاعب، وماهرا في مكافحة التعب، ورفع الروح المعنوية: في إحدى المرات، انتحل شخصية صاحب مركب في نهر الفرات، مستخدما مجرفته كمجداف، كان يطلق الأغاني المرحة في ما كان الرجال يفرغون التربة الثقيلة.

وأخيرا، بعد أن طهر المقبرة الملكية، حفر وولي خندقا كبيرا حَتَّى قاع أور. وفي القاعدة، اكتشف طبقة من رواسب الفيضانات، ولكن لم يعثر على أي قطع أثرية. كان هناك المزيد من الأدلة على ان هناك مناطق كانت مأهولة بالسكان في الأسفل، توجد فيها أوعية فخارية مشابهة لتلك التي تم الحصول عليها من قرية زراعية صغيرة جرى التنقيب فيها في وقت سابق.

انعمت كاترين، زوجة وولي النظر في الحفرة بشكل عرضي، واشارت إِلى أن الطبقة الاثرية الغامضة، هذه، يمكن أن تعود إِلى زمن طوفان نوح المذكور في سفر التكوين. كانت هذه الإشارة تمثل حلم حملة علاقات عامة لعملية حفر كان تعاني دائما من

نقص في المال. وبشكل خاص، شك (وولي) في الفكرة، لأن الخندق كان صغيرا، وعلى أي حال، لقد شيدت أور في منطقة كانت عرضة للفيضان. لكنه استخدم فيضان أور إلى اقصى حد في كتاباته الشعبية، مدركا أن اكتشاف فيضان محتمل مذكور في الكتاب المقدس سيكون له جاذبية شعبية هائلة، وسيساعد على جمع الأموال.

في الوقت الذي انتهت فيه الحفريات في أور، قام وولي بتطهير الزقورة العظيمة (الهرم) التي بناها الملك أورنمو، التي تشرف على الموقع في وقتنا الحاضر. كما كشف عن عشرات المساكن الصغيرة، والمئات من الألواح الطينية اللوحية التي ألقت الكثير من الضوء على تاريخ السومريين.

لقد كان التنقيب في المقبرة الملكية مهمة هائلة. وفي الواقع، كانت هناك مقبرتان: واحدة آشورية، والأخرى سومرية. وفي خلال أربع سنوات من العمل المضني، قام المنقبون بتطهير المقابر غير المزخرفة إلى حد كبير، بمشاركة ما لا يقل عن 2000 شخص. كما قام وولي بحفر ستة عشر من المدافن الملكية الفخمة. ومن خلال تفحص النصوص، والنقوش على الاختام والأقراص الطينية، قدر وولي تأريخها بما بين 2500 و2000 سنة ق.م، وهي أقدم فترة من تاريخ العراق المكتوب. وكانت توجد هذه القطع في قاعدة أعمدة طولها 9 أمتار، يمكن الوصول إليها على السلالم المنحدرة. كانت الجثث الملكية موجودة في سراديب القبور المبنية من الحجر والطوب، وكانت محاطة بضحايا القرابين. في إحدى

الحالات، تم ترتيب عشر نساء يرتدين غطاء للرأس على شكل صفين. استغرق استعادة الأشياء الاحتفالية التقليدية الكثير من الخيال، والإبداع. على سبيل المثال، تمكن وولي عن طريق صب جص سائل في حفرة غير واضحة المعالم، من صنع قالب لقيثارة خشبية متحللة، كانت مزخرفة برأس ثور نحاسي، وذيله.

بعد أشهر من العمل المضني، كتب وولي رواية شائعة عن مراسم الجنازة. كان وولي واحدا من علماء الآثار النادرين، واستطاع أن يتخيل نفسه يعيش في الماضي، وأعاد تخيّل إقامة مراسم دفن ملكية ببراعة: وصوّر بتألق الحراس، والجنود الذين اصطفوا في حفرة الدفن المرصوصة بالحصى. وكان سائقو عربات الثور الملكي مع سائسي الخيل يقودونها إلى داخل الحفرة. حمل الجميع كوبًا صغيرا من الصلصال يتناولون منه السم، ويرقدون، ثُمَّ يموتون. وأخيرا، قام شخص ما بقتل الثيران، وتم ردم العمود.

ولسوء الحظ، لم تكن ملاحظات وولي الميدانية كاملة، لذا لا يمكننا التحقق من قصته. في الواقع، أظهر بحث جديد أن الحاضرين للمراسم من العائلة المالكة لم يتناولوا السم، لكنهم قتلوا بضربات على الرأس. تم التعامل مع الجثث بطريقة ما للحفاظ عليها، وتم وضعها في حفرة الدفن. ولكن يمكنك أن تغفر لوولي استخدامه الدراما، وإبداعه الحيوي، عندما تتذكر أنه كان يعتقد أن علم الآثار كان قبل كل شيء يهتم بالبشر.

كانت عملية التنقيب، هذه، هي آخر الحفريات الضخمة التي يديرها عالم آثار بمفرده يعرف بانه من علماء الآثار الأوائل. واحتل ليونارد وولي المكان الذي يستحقه بين أعظم علماء الآثار.

لكن في العام 1922، اكتشف هوارد كارتر قبر الفرعون توت عنخ آمون في مصر (انظر الفصل 21). وفي النهاية، تم تجاهل الكتب الشعبية التي قام وولي بتأليفها بسبب الهوس الذي اصاب الجميع بحثا عن ذهب الفراعنة.

الفصل الحادي والعشرين



أشياء رائعة

المكان: وادي الملوك، في مصر، والزمان: 25 تشرين الثاني 1922. كان هوارد كارتر، واللورد كارنارفون، وابنته السيدة إيفلين هيربرت ينتظرون جميعا في الممر الحار المزدحم لمقبرة الفرعون توت عنخ آمون. أزال العمال آخر الأنقاض من أمام مدخل مغلق، وكانوا قد عرفوا من باب آخر يحمل ختم الملك، أن هذا هو مكان دفن توت عنخ آمون.

اصابتهم حالة من الإثارة مصحوبة بتوتر، وكانوا يتعرقون وسط الهواء الرطب الكثيف المحمل بالغبار. وبيديْن مرتجفتين، صنع كارتر فتحة صغيرة في باب من الجص، ودفع قضيبا حديديا من خلاله. حدث اندفاع للهواء الساخن من خلال الفتحة التي صنعها. قام بتوسيع الفتحة وإدخل شمعة، في حين تجمهر

الآخرون خلفه. اضطرب لهيب الشمعة، ثُمَّ استقر. سأله كارنارفون نافد الصبر (هل ترى شيئا؟) اجابه كارتر وهو يلهث (نعم، أشياء رائعة).

قام بتوسيع الفتحة، وسطع ضوء مصباح يدوي وسط غرفة مزدحمة، فتحت أول مرة مُنْذُ 3000 عام. تلألأ أمام عينيه عدد من الأسرة، وكراسي الفرعون الذهبية، وعجلات حربية مفككة، ومجموعة من الكنوز. وهكذا، بعد سبع سنوات من البحث العقيم، استطاعوا العثور على قبر توت عنخ آمون الذي لم يمسسه أحد قبلهم.

بدأ الطريق إلى هذا الاكتشاف في العام 1881، مع العثور المثير على مخبأ يضم عددًا من المومياوات الملكية، ومرفقات المقابر في شق صخري في التلال الواقعة على الضفة الغربية لنهر النيل قبالة الأقصر. بحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، أصبحت مصر مزارًا سياحيًا شتائيا عصريا لكل من الأوروبيين الأثرياء، والرحالة الذين كانوا يمرون عبر قناة السويس. وكان لصوص القبور في قرى القرنة التي تقع على الضفة الغربية للنيل، مقابل الأقصر، يجنون أموالًا طائلة. من نهبهم القبور. في العام 1881، انتشرت شائعات عن عرض آثار مميزة للبيع: كانت تضم جرارًا جميلة لتقديم الشراب، وجواهر رائعة، وتماثيل جميلة. بعض الأشياء كانت فريدة من نوعها وتم استخراجها من المقابر الملكية.

حامت الشكوك على اثنين من السكان المحليين، هما أحمد، ومحمد الرسول المعروف عنهما انهما من لصوص القبور، وقد

قاما بتهريب ما نهباه إلى مدينة الأقصر في حزم من الملابس، أو السلال. تم اعتقالهما، وتعذيبهما، لكن دون جدوى. إلى حين، انقلب أحمد ضد أخيه بعد أن تشاجرا حول كيفية تقاسم المسروقات. اعترف محمد، وقاد عالم الآثار الألماني المولد ايميل بروغش، وهو عضو في دائرة الآثار المصرية، إلى اخدود معزول يقع في الضفة الغربية لنهر النيل. وقد وضعت داخله مومياوات لبعض من أعظم الفراعنة في مصر، بما فيهم تحتمس الثاني، وسيتي الأول ورمسيس الثاني.

قبل ثلاثة آلاف سنة، قام كهنة المقبرة المسؤولون عن وادي الملوك بنقل المومياوات الملكية من مخبأ إلى آخر في سباق محموم ضد لصوص المقابر القديمة القساة. كانوا يعملون في عجلة من أمرهم، وهكذا كان الاخدود يكتظ باللقى الاثرية التي لا تقدر بثمن، وتكدست فيه توابيت الملكات في أكوام. وبمجرد أن تعافى بروغش من صدمته جراء هذا الاكتشاف، قام بتشغيل 300 رجل لاستعادة رفات 40 فرعونا. وفي وقت لاحق، تم الكشف بعض المومياوات، وبات علماء الآثار يحدقون في وجوه بعض من أقوى رجال العالم القديم. كان سيتي الأول، الذي اكتشف قبره بيلزوني، أفضل من تم الحفاظ عليه، وكانت ترتسم على وجهه ابتسامة لطيفة (انظر الفصل 2).

تسبب اكتشاف المومياوات الملكية بإثارة ضجة كبيرة. توافد السائحون الأثرياء على النيل، وكانوا يحلمون بالعثور على مدفن رائع مليء بالذهب، ويأملون عبثا في التنقيب في وادي الملوك. لقد

انفقوا ببذخ على المواد الموجودة في المقابر الأقل أهمية. ولم يكن بالإمكان تجنب استمرار أعمال التدمير والسلب والنهب، وكان العديد من المسؤولين يتغاضون عن هذه الامور. لحسن حظ العلم، فان بعضا من علماء الآثار، ولَا سِيَّما فلندرز بتري كانوا قد قاموا بتدريب بعض المنقبين الشباب. فقد اصطحب معه مساعدين شباب إلى ميادين العمل لسنوات، من بينهم رسام بريطاني يدعى، بيرسي نيوبيري. وفي خلال تسعينات القرن التاسع عشر، عمل نيوبري مع فنان موهوب يدعى هوارد كارتر (1874 – 1939). أرسله للعمل مع بيتري لتعلم طرق التنقيب. وهكذا كانت إحدى الشخصيات المركزية في اكتشاف توت عنخ آمون تعمل في الميدان قبل فترة طويلة من عام 1922.

ولد كارتر في عائلة بسيطة، فهو ابن فنان. لكنه أظهر موهبة استثنائية، لفتت انتباه وليام تايسن امهيرست، وهو رجل إنكليزي ثري كان يملك مجموعة كبيرة من التحف المصرية. في العام 1891 استأجرت عائلة أمهرست الصبي كارتر البالغ من العمر سبعة عشر عاما ليرسم بعض الأشكال على محتويات مجموعة التحف المصرية التي كانت تمتلكها. وفي وقت لاحق من ذلك العام، أرسله صندوق التنقيب المصري ليعمل كرسام مساعد لعالم المصريات بيرسي نوبري، الذي كان يسجل مقابر النبلاء المزخرفة في منطقة بني حسن في مصر الوسطى التي يعود تاريخها إلى حوالي 2000 سنة قبل الميلاد. كانت طريقة نسخ جداريات مقابر بني حسن التي قام بها كارتر مبهرة للغاية

لدرجة أنه أرسل للعمل مع بيتري في تل العمارنة. اصبح التنقيب أمرا طبيعيا لدى هذا الفنان الشاب.

في العام 1899 عيّن عالم المصريات الفرنسي غاسبار ماسبيرو، مدير دائرة الآثار المصرية، كارتر كبير مفتشي الآثار في صعيد مصر، وهو واحد من اثنين فقط من المسؤولين الذين يشغلون هذا المنصب في هذا البلد. واخذ العمل في التفتيش الكثير من وقته. تركزت الكثير من أعماله على وادي الملوك، حَيْثُ قام بتركيب مصابيح كهربائية في بعض المقابر.

لم يتقدم سوى عدد قليل من الزوار الأثرياء بطلبات للحصول على تصاريح للتنقيب في الوادي، لكن تم رفضها على أساس أن إمكانياتهم كانت ضعيفة، ولا تؤهلهم للبحث عن القبور. وكان كارتر، هو عالم الآثار الذي يبت في طلبات المتقدمين. كان تيودور ديفيس، المحامي الثري من نيويورك، هو صاحب الإمكانيات الأفضل، فحصل على تصريح للعمل في الوادي في العام 1902. وقد قام كارتر بالتنقيب لصالح ديفيس، وساعده في الكشف عن قبر رجل نبيل يدعى (موشيت)، وقبر (الفرعون تحوتمس الرابع). استعاد كارتر جزءًا من عربة الفرعون وأحد قفازاته. كان ديفيس حفارا صارما، لكن كان لديه قدرة ممتازة في توظيف علماء الآثار للقيام بأعمال التنقيب. وقد استمد كارتر معظم طرقه في التنقيب عن مقبرة الفرعون توت عنخ آمون من تجربة عمله مع ديفيس.

بعد النجاحات الباهرة التي حققها كارتر في الشمال، قام ماسبيرو في العام 1904 بنقل كبير المفتشين، هذا، إلى مصر السفلى. وقد اشتمل عمله على الحفاظ على المواقع الاثرية، والتعامل مع بعض المواقف الصعبة التي تحدث في بعض الأحيان. ولكونه رجلا صارما، كان كارتر بالكاد يتسامح مع السياح، وبعد نقاش عنيف مع بعضهم من الفرنسيين المخمورين في سقارة في العام 1905 قدم استقالته بسبب اشمئزازه من هذا الوضع. وبدأ يكسب عيشه على مدى العامين التاليين من العمل كفنان، ومرشد سياحي في الأقصر. في العام 1907، وكان يعيش اسوأ مراحل حياته المهنية، التقى جورج إدوارد ستانهوب مولينو هيربرت، الذي كان يحمل لقب الايرل الخامس لكارنارفون (1866 – 1923)، وهو الشخصية الرئيسية الثانية في اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون التي باتت الآن في الواجهة.

وعلى العكس تماما من كارتر، كان اللورد كارنارفون نبيلا ثريا، يجمع التحف الفنية باختيار دقيق، وذوق رائع، وكان يشارك في المقامرة في سباق الخيل. وعندما كان اللورد بورشيستر صبيا، وقبلها مُنْذُ ان ولد، كان سقيما ومنطويا، وكثيرا ما تعرض للمضايقة من الطلبة في كلية إيتون عندما كان في سن المراهقة. كانت سني دراسته كارثية، ربما كان يعاني من صعوبات في التعلم. في أثناء وجوده في إيتون، ربطته علاقة صداقة ستدوم مدى الحياة مع ابن المهراجا الهندي، فيكتور دوليب سينغ، الذي كان مقامرا عاديا في سباقات الخيل. ذهب اللورد بورشيستر إلى أكسفورد، وانقطع

عن الدراسة، التي كان يعدّها مثل وظيفة عسكرية، وانغمس في ممارسة الاشياء التي كان يعشقها، سباق الخيل، والإبحار، والرماية، والسفر. في غضون ذلك، بدا يلتهم الكتب، ويدرس بنفسه موضوعات الفن، والعلوم الإنسانية. في العام 1890، أصبح اللورد بورشيستر الإيرل الخامس لكارنارفون، وورث أملاك ابيه. بعد خمس سنوات، تزوج من الفتاة الارستقراطية المينا ويمبيل، ما جعله ينتقل إِلى أعلى الدوائر الاجتماعية. جعلت رئة كارنارفون الضعيفة من وادي النيل الجاف، الدافئ مكانا مرغوبا له لقضاء أشهر الشتاء. في خلال زياراته المتكررة، طور اهتماماته بالفن القديم، والتصوير. وبحلول العام 1905، كان يشعر بالملل من حفلات الرقص التي لا تنتهي، والرحلات السياحية المعتادة. فتحول اهتمامه إلى علم الآثار.

كان كارنارفون واحدا من العديد من الرحالة الأثرياء الذين كانوا يمارسون هواية التنقيب. أصبح علم الآثار بالنسبة له وسيلة مسلية لقضاء الوقت. وبفضل اتصالاته المؤثرة، حصل في العام 1907 على تصريح بالتنقيب في منطقة سبق وان تم العمل فيها تقع في مقبرة طيبة. امضى أول موسم له بالعمل ستة أسابيع دون مساعدة من الخبراء، ويبدو أنه استمتع بذلك إِلى حد بعيد، ولم تكن اكتشافاته المهمة إلّا عبارة عن قطة محنطة، ولوح طيني مطلي بالجبس. ومع ذلك عندما تم فك شفرة ذلك اللوح، تبين أنه اكتشاف مهم: فقد كان يتحدث عن الاحتفال بانتصار الفرعون احموس على ملوك الهكسوس المكروهين، الذين

كانوا قد احتلوا دلتا النيل الخصبة في حوالي سنة 1640 ق.م، وهو يعرف الآن باسم لوح كارنارفون.

قدّم كاسبر ماسبيرو، مدير الآثار، في تلك اللحظة، كارنارفون إلى هوارد كارتر الذي كان عاطلا عن العمل. أصبح كارتر مهووسا بشكل متزايد بوادي الملوك، لكن الحفر هناك يتطلب ثروة، والوصول إلى أعلى مستويات الحكومة. بينما كان ديفيز يعمل بلا جدوى في وادي الملوك، لم يصبح كارتر، وكارنارفون أصدقاء فحسب، بل شكلا فريقا كفئا أيضًا. كان كارتر، بخبرته الطويلة، هو القائد. كانت معاييره للحفر أعلى بكثير من تلك الخاصة بديفز، أو فليندرز بيتري. في هذه الأثناء، قام كارنارفون بتوفير التمويل اللازم، وعمل كمستشار يستطلع الامور من حولهما. لقد أدرك في وقت مبكر، عندما كانوا يقومون بتطهير المقابر في منطقة المقبرة التي تم التنقيب فيها بشكل جيد، أن كارتر كان يملك حدسا استثنائيا للاستكشاف: فقد واصل اكتشافاته حَتَّى عندما اعتقد الجميع أن المنطقة قد استنفدت. قام الرجلان بنشر كتاب ثمين عن خمس سنوات من العمل بينما كانا ينتظران فرصة للتنقيب في البقعة التي كان يحفر فيها ثيودور ديفيس في وادي الملوك.

اهتم كارتر الذي كان دقيقا في عمله بالبقاء على اتصال مع ديفيز، على الرغم من رفضه لأساليبه. وعلى عكس كارنارفون، الذي كان يتواجد بشكل دائم تقريبا في موقع العمل، كان ديفيس عالم الآثار الكلاسيكي الذي ينأى بنفسه عن أعمال الحفر. وبدلًا

من التنقيب، فضل ترفيه ضيوفه على متن قاربه الذي كان راسيا على النيل. لكنه كان يحضر دائما عندما يتم فتح مقبرة، وكان محظوظا بمساعديه (في الاقل كان هوارد كارتر واحدا منهم).

كان ديفيز يعمل بسرعة، مع القليل من الاهتمام بالتفاصيل. لكنه كان منهجيا في بحثه عن المقابر. وقد وجد العديد من المقابر الملكية، كان من بينها قبر الفرعون في الاسرة الثانية عشر أمنحوتب الثاني، الذي توفي العام 1401ق.م. وقبر يويا، وهو ضابط كبير في صنف العجلات الحربية. وكان القبر يعود إِلى حوالي سنة 1390ق.م، وقبر زوجته تويا، وكان يحتوي على عربة حربية كاملة، وسريرين، وثلاثة كراسٍ بأذرع مطعمة بالذهب، فضلا عن ثلاثة توابيت. وقد تم سرقة قبر يويا، وتويا، لكنه كان القبر الأكثر اكتمالا في الوادي إِلى حين اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون. كان ديفيس يمتلك الإصرار، والموارد اللازمة ليقوم بالحفر، موسما، بعد آخر، وكان يزيل الأنقاض من دون تحقيق نجاح يذكر. واستمر على هذا المنوال حَتَّى العام 1912، عندما انسحب من العمل، معلنا أن الوادي قد استنفد. كان قد وصل على بعد مترين من مدخل مقبرة توت عنخ آمون التي لم يصل إِليها أحد من قبل. وانتقلت رخصة التنقيب في وادي الملوك إلى كارنارفون في العام 1914، تزامنا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى. بدأ، هو، وكارتر العمل في العام 1917.

كان كارتر ينتمي إِلى نوع آخر من علماء الآثار، يختلف عن ثيودور ديفيز غير الجاد. كان يسير في كل ركن من اركان الوادي،

وكان على دراية بكل المقابر المعروفة. عدا إحداها، وكان مكانها مجهولًا: وهي مقبرة الفرعون غير المعروف، توت عنخ آمون، الذي توفي العام 1323 ق.م. كان كارتر مقتنعًا بأن قبر توت عنخ آمون كان ينتظر من يكتشفه، ربما في منطقة قريبة من قبر رمسيس السادس المعروف جيدًا. اتبع الرجلان حدس كارتر مدة سبع سنوات وقاما بإزالة الأنقاض من أرض الوادي بهمة كبيرة بحثا عن القبر.

في العام 1922، كان كارنارفون على وشك التوقف، فقد كانت عمليات البحث عن القبر تكلفه عدة آلاف من الجنيهات في السنة. عرض كارتر ان يدفع تكاليف عمليات البحث لموسم آخر من ماله الخاص، لكن كارنارفون وافق على مضض على دعم عمليات الحفر بالقرب من أكواخ العمال التي أقيمت في أثناء حفر قبر رمسيس السادس.

في 4 تشرين الثاني 1922، وكانت قد مرت أربعة أيام من موسم العمل حينذاك، وكان كارنارفون ما يزال، حينها، في إنكلترا، كشف العمال عن سلالم صخرية تؤدي إلى مدخل مغلق. انتظر كارتر ثلاثة أسابيع حَتَّى وصل كارنارفون مع ابنته السيدة إيفلين هربرت. بعد ذلك، في يومي 24 و25 تشرين الثاني، قاموا بفتح المدخل، فوجدوا أختام توت عنخ آمون على الجص، وشهدوا تلك اللحظة الرائعة عندما قام كارتر بمعاينة الحاجز، ورأى (أشياء رائعة).

وضع قبر توت عنخ آمون عبئا ثقيلا على صداقة كارتر وكارنارفون. أصر كارتر على أن يتم مسح القبر بشكل دقيق ومنهجي، في حين أراد كارنارفون، المقامر مُنْذُ الطفولة، إفراغ الضريح دفعة واحدة. وبسبب انفاقه لكل تلك الاموال، أراد بيع بعض الأشياء، وعرض المتبقية. ازدادت التوترات بينهما، وحدثت مشاجرات عنيفة، لَا سِيَّما بعد الافتتاح الرسمي لغرفة الدفن في شباط 1924. بعد بضعة أسابيع مات كارنارفون بشكل مأساوي إثر لدغة بعوض ملوثة (وعلى نحو غريب، مثلما حدث مع توت عنخ آمون)، ما وضع نهاية لشراكة دامت أربعة عشر عاما.

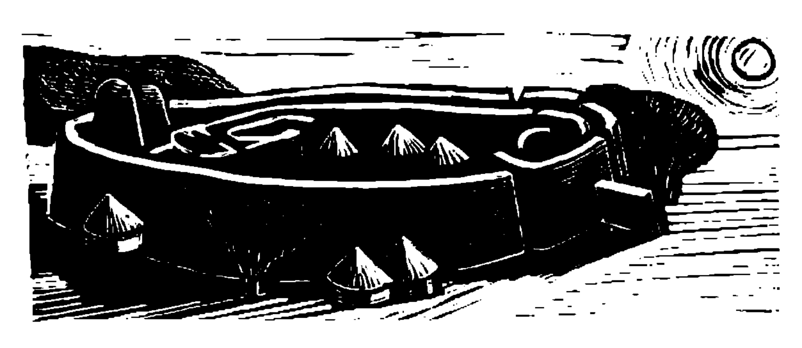
استغرق الأمر من كارتر ثماني سنوات لتطهير مقبرة توت عنخ آمون. في العام 1929 أكمل المهمة بمساعدة فريق من الخبراء. كانت ملاحظاته، وسجلاته دقيقة، وما يزال يتم الاستعانة بها من قبل الخبراء حَتَّى اليوم. لقد عمل على تطهير القبر في وقت صعب، عندما كانت مصر تدعي انها صاحبة الحق بكل القطع الاثرية التي تخرج من القبر. في العام 1930، تنازلت ليدي كارنارفون إِلى الحكومة المصرية عن جميع المطالبات بالقبر ومحتوياته. وفي المقابل، حصلت على تكاليف تطهير القبر. استنفد هوارد كارتر قواه من الإجهاد، ولم يكمل المؤلف الفخم الذي كان يأمل في كتابته. لكن عمله في القبر كان انتصارا، عظيما بالنظر إلى نوع التسهيلات المتاحة له آنذاك.

كانت مقبرة توت عنخ آمون علامة بارزة في البحث الآثاري. إن قناع الفرعون الذهبي الذي استقر على كتفيه هو قطعة أثرية مصرية قديمة رائعة يمكن رؤيتها في المتحف المصري. يرتدي الفرعون غطاء رأس ذهبيا، أزرق مع رسم وزخرفة لافعى كوبرا ملكية. ويحدق أمامه. تم كسر لحيته المنسوجة بعناية مؤخرا في أحد الحوادث، لكن تم ترميمها.

نحن ندين بمجموعة رائعة من الإكتشافات الرائعة لمهارة كارتر. على الرغم من مزاجه الشرس، كانت عملية تطهير المقبرة عبارة عن جهد جماعي منضبط. وحينها كان علماء آخرون يجرون بحثًا جديا في نهر النيل، من بينهم عالم المصريات في جامعة شيكاغو هنري برستد، الذي بدأ في العام 1929 مشروعا طويل الأجل لنسخ النقوش التي ما تزال موجودة حَتَّى يومنا هذا.

يتزايد عدد علماء الآثار المصريين ألذين يضطلعون بدور نشط في أعمال التنقيب، والمسح والتسجيل. وفي مصر، كما في البلدان الأخرى، ومع تزايد حرفية علم الآثار، وعالميته، ومع تزايد الاكتشافات الرئيسية، والصغيرة على حد سواء، أصبحت الآثار مسألة تدعو للفخر الوطني. فتح اكتشاف مقبرة الملك الصبي، وكنوزه فصلاً جديدًا في علم الآثار، وهو العمل الذي أصبح فيه العمل الجماعي، والحفر والتنقيب بشكل متأنٍ، مضنٍ هو القاعدة.

الفصل الثاني والعشرون



قصر الحاكم

ذات مرة دلفت إِلى مدخل ضيق في ضميمة (وهي تلك الأرض المحاطة المسيجة بسياج) ذات سور حجري عال، ووجدت نفسي في ممر ضيق بين الجداريْن الخارجي والداخلي. لم تكن لدي أي فكرة عما يمكن أن يكون في الداخل. كان أمامي برج مخروطي من الكتل الحجرية المرصوفة بعناية، كان بناء متماسكا، بلا مدخل، ولا غاية واضحة من بنائه، وبينما انا اتجول ما بين اجزاء المباني (الحجرية)، واتفحص أساسات الاكواخ المشيدة داخل الضميمة الكبرى في مدينة زيمبابوي العظمى (مدينة مهجورة كانت في يوم ما عاصمة مملكة زيمبابوي)، اجتاحني شعور بالارتباك. لقد أمضيت معظم اليوم في زيارة قرى أفريقية متعددة كانت أكواخها المسقفة بالقش مبنية من الطين، والجذوع.

كان التناقض حينها واضحا. لماذا قرر المزارعون والرعاة الذين يعيشون في هذه المجتمعات بناء مثل هذا الهيكل الغريب؟ كان وجوده يبدو غريبا، غامضا وسط هذه المناظر الطبيعية المشجرة. لم يكن هناك أي علامة على وجود قصور، أو معابد كبيرة: لم يكن هناك سوى تلك الضميمة الكبرى التي تنتصب عاليا.

كانت مدينة زمبابوي العظمى تحتل مساحة تقدر بأكثر من 24 هكتارا. وكانت عبارة عن تلة غرانيتية كبيرة مغطاة بالصخور الضخمة تطل على مزيج من الهياكل الحجرية، من بينها الضميمة الكبرى، الميزة الأبرز للموقع. كانت التلة المعروفة باسم الاكروبوليس، ومعناها بالإغريقية المدينة العالية، عبارة عن متاهة من الضميمات المشيدة من الجدران الصخرية، والحجرية. كانت كبراها، وهي الضميمة الغربية، قد سكنها الناس فترة طويلة من الزمن.

اشتهرت الضميمة الكبرى بجدرانها الحجرية العالية، التي بنيت من دون ملاط، وبرجها المخروطي الصلب، الذي يعلو فوق الجدار الخارجي. كان الملك الذي يحكم زيمبابوي العظمى يعيش في هذا المبنى، ربما ليكون معزولا عن رعاياه. وتوجد هناك العديد من الاسوار الأصغر الأخرى التي تقع إلى الشمال الغربي.

لكن ماذا كانت زيمبابوي العظمى بالضبط؟ من الواضح أنها كانت مركزا مهما لإقامة الطقوس، والشعائر الدينية. كان الأكروبوليس عبارة عن تل مقدس معزول عن بقية الموقع. وبسبب

تنوع الأشياء المستوردة مثل الخرز الزجاجي الهندي، والخزف الصيني، والأصداف البحرية، كان الملوك يتاجرون بالذهب، والنحاس، وعاج الفيل مع أناس من ساحل شرق إفريقيا.

الذي جعلنا نعتقد أن الرجال الذين عاشوا هناك كانوا ملوكا بسبب العثور على صنوج حديدية - وهي كانت تقليديا رموزا للقادة في إفريقيا - في الضميمة الكبرى. وبفضل تقنية تحديد عمر الاشياء بالكربون المشع (انظر الفصل 27)، بتنا نعرف أن زيمبابوي العظمى ازدهرت في الفترة الزمنية التي تمتد ما بين عامي 950 و1450. تقريبا، وتم النزوح عنها قبل وقت قصير من وصول السفن البرتغالية من ساحل المحيط الهندي في العام 1497.

أبحر البرتغاليون إلى المدن الساحلية مثل ماليندي، وومومباسا في كينيا الحالية، التي تتاجر بالعاج، والذهب، والعبيد من المناطق الداخلية البعيدة. في العام 1505، قاموا ببناء مركز تجاري في سوفالا، وهي محطة تجارية إسلامية قديمة بالقرب من مصب نهر زامبيزي. ووجدوا تجارا نصف أفارقة يقودون مجموعات صغيرة من الناس تجاه النهر نحو مرتفعات المناطق الداخلية، حاملين أقمشة هندية رخيصة، وسلاسل من الخرز الزجاجي، والأصداف الملونة. في المقابل، كان يحصل التجار على غبار الذهب الموجود في أشواك، أو ريشات حيوان الشيهم، وسبائك النحاس، وقبل كل شيء، أنياب الفيل.

وصلت بعض السلع المتداولة، مثل الخزف الصيني، والقماش إلى زيمبابوي العظمى. وعند قيام البرتغاليين باستكشافات متفرقة في المناطق الداخلية، علموا بوجود مستوطنة مبنية من الحجر، لكنهم لم يزوروها أبدًا. في العام 1531، أطلق فيسنتي بيجادو، قائد القوة العسكرية في سوفالا، عليها اسم (سيمباو)، وهو مكان بني من (أحجار ذات حجم رائع). وظلت الأمور على حالها حَتَّى العام 1867، عندما عثر صياد ومستكشف ألماني أمريكي يدعى آدم رندر مصادفة على بقايا آثارها. بعد أربع سنوات، أطلع عليها، عالم الجغرافيا، والمستكشف الألماني كارل ماوخ، الذي وقف مذهولا. زعم ماوخ أن زيمبابوي العظمى كانت قصر ملكة سبأ التوراتية، وان هذه الآثار هي بقايا حضارة متوسطية غنية بالذهب في جنوب إفريقيا. حَتَّى إنّه ادعى أن دعائم الابواب الخشبية قد تم نحتها من خشب الأرز اللبناني، وان من جلبها إلى الموقع مسافرون من بلدان البحر المتوسط القديمة.

في ذلك الوقت، تدفق تيار من المستوطنين البيض يتجه نحو شمال نهر ليمبوبو، وهو الذي يمثل حاليا الحدود بين جنوب إفريقيا وزيمبابوي الحديثة. جاء بعضهم ليعثروا على الذهب، وليصبحوا أثرياء. كان معظمهم متعطشين للحصول على الأرض، فشرعوا في إنشاء المزارع. لم يحصل العديد من القادمين الجدد على تعليم مناسب فكانوا ينظرون إلى الأفارقة نظرة دونية. استقر عدد كبير منهم في الأراضي الخصبة للمنطقة التي كانت تسمى ماشونالاند، حَيْثُ توجد زيمبابوي العظمى. كان هناك اعتقاد

على نطاق واسع بانه توجد في الشمال مملكة قديمة غنية بشكل خرافي اقامتها شعوب بيضاء جاءت من خارج إفريقيا.

لا يمكن مقارنة مقدار الدهشة التي اصابتني عندما زرت زيمبابوي العظمى بدهشة الأوروبيين الأوائل الذين انعموا النظر في ما تبقى من آثارها بعد العام 1871. لقد كانوا يتجولون وسط متاهة من البناء المتداعي الذي اخفته اغصان وأوراق الاشجار العالقة به. كان البرج المخروطي بالكاد مرئيًا بسبب الأشجار، والنباتات الملتفة حوله. لقد مثلت زيمبابوي العظمى صدمة عميقة. وكانت لغزا أثريا. من بنى هذه الهياكل الحجرية الفريدة من نوعها؟ هل كانوا يعملون في حضارة أجنبية اختفت مُنْذُ زمن طويل؟ مُنْذُ متى تركوها؟ وازداد حجم الإثارة عندما ظهرت بعض خرزات الذهب أثناء الحفر العرضي في الضميمة الكبرى.

وصلت الشائعات إلى اسماع رجل الأعمال البريطاني سيسيل جون رودس، والجمعية البريطانية لتقدم العلوم في العام 1891. وقد قررا ان يرعيا معا موسم من الحفريات في زيمبابوي العظيمة، وفي أطلال حجرية أخرى في شمال ليمبوبو. اختارا خبير الآثار البريطاني ج. ثيودور بنت لإجراء الحفريات. لم يتلقَ بينت تدريبا رسميا في علم الآثار، لكنه سافر على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية، واليونان، وتركيا (ما جعله يبدو مؤهلا لمثل هذه العمل). لحسن الحظ اصطحب معه أي. دبليو. ام. سوان، وهو خبير في عمليات المسح. رسم سوان أول خريطة لزيمبابوي العظمى. في هذه الأثناء، عثر بينت على أشياء مصنوعة من الذهب، وحفر

خنادق غير مستوية، وأشار في كتاب له بعنوان آثار مدن ماشون لاند، الذي صدر في عام 1892، إلى أن الموقع كان قديما جدا، وان هذه الأعمال أما من صنع افراد من منطقة البحر الأبيض المتوسط، أو من العرب. وقد أحب المستعمرون المحليون هذا الكتاب، لانه ذكر إن حضارة ثرية غير أفريقية شيدت زيمبابوي العظمى! أكد الأكاديميون، والمستوطنون البيض، على حد سواء، أن الأجانب قاموا ببناء الموقع: لم يكن أحد يعتقد أن أسلاف المزارعين المحليين الأفارقة يمكنهم بناء هذه المباني العظيمة، كان يُعتقد أن هؤلاء الناس بدائيون جدا، ويفتقرون إلى الخبرة.

عندما ظهرت أشياء مصنوعة من الذهب، والنحاس نتيجة الحفريات التي قام بها بينت، كان كل نقاش المستوطنين المحليين يتركز على الحضارات التي اختفت مُنْذُ زمن طويل، وكانت غنية إِلى حد كبير، وظهرت في مناطق البحر الأبيض المتوسط، وعلى الحكام العظام الذين استعمروا ماشون لاند بسبب ما تحتويه من ذهب. هذا أمر لا يثير الدهشة، لأن العديد من المستعمرين الأوائل قد جاءوا إلى إفريقيا بحثا عن الذهب وتكوين الثروات.

علاوة على ذلك، إذا كان الأجانب من منطقة البحر الأبيض المتوسط قد بنوا زيمبابوي العظمى، عندئذ يمكن القول إن خلفاءهم - القادمين الجدد الذين قاموا بتشريد السكان المحليين ونهب المزارع لأنفسهم - لم يقوموا سوى بإعادة ملكية الأراضي التي استولى عليها الأفارقة عندما أطاحوا بهذه المملكة التي

كانت ذات يوم مملكة عظيمة. وكان الاشخاص الأكثر طموحا بين المستوطنين قد أعجبوا كثيرا بالمصنوعات الذهبية التي عثر عليها بينت في زيمبابوي إلى الحد الذي قاموا فيه بتأسيس شركة الآثار القديمة في العام 1895 لاستغلال المواقع الأثرية لزيادة ثرواتهم. لم يكن هذا سوى محاولة للثراء السريع عن طريق القيام بعمليات حفر، وتنقيب في زيمبابوي العظمى، وغيرها من المواقع الأثرية. كان الامر يشبه عمليات سرقة القبور المصرية، لكن نظمته شركة عامة. لحسن الحظ، سرعان ما انهارت تلك الشركة بسبب عدم وجود اكتشافات قيمة.

ثُمَّ جاء دور ريتشارد هول، وهو صحافي محلي، لم يكن يمتلك مؤهلات في علم الآثار، ومع ذلك تم تعيينه أمينا لمتحف زيمبابوي العظمى. في العام 1901، بدأ بالقيام ببعض أعمال الحفر التي كانت نتائجها مدمرة. في الواقع، كان كل ما فعله هو تجريف جميع الطبقات الاثرية التي تشير إلى المناطق التي كانت مأهولة بالسكان من أكبر مبنى في زيمبابوي العظمى، وهو الضميمة الكبرى. كشفت الخنادق التي حفرها عن قطع متكسرة، وشظايا متفرقة من الالواح، والخرز المصنوعة من الذهب، وعدد من سبائك النحاس، وصنوج الحديد، من بين أشياء أخرى. كما عثر على قطع متكسرة من البورسلين الصيني المستورد.

لم يكن هال يعلم بوجود اكتشافات أثرية في أماكن أخرى، وكان يعرف القليل من قصص التاريخ التي لاتتعدى الحكايات

ذوات النمط الشعبي العنصري. فقد كان صحافيا أولاً وقبل كل شيء، مبدعا في كتابة القصة، وكان يكسب المال من كتاباته. قام بتحويل الاكتشافات المتنوعة التي عثر عليها من حفرياته إلى حكايات مثيرة عن حضارة اختفت مُنْذُ زمن طويل. كان يمتلك طاقة عظيمة، وحماسة معدية (وإن كان مع ذلك يحمل وجهات النظر الاستعمارية السائدة في تلك الايام)، عدّ هول الاثار في زيمبابوي العظيمة من عمل اناس من مملكة سبأ الواقعة في جنوب الجزيرة العربية، في ما يعرف الآن باليمن. كانت هذه هي أرض ملكة سبأ التوراتية التي زارت الملك سليمان. وبينما أثارت عمليات التنقيب التي قام بها هول ضجة كبيرة بين المستوطنين البيض المحليين، فان الأعضاء الرصينين للجمعية البريطانية لتقدم العلوم كانوا حريصين على ان يضبطوا عمليات التنقيب. في العام 1905 قاموا بإجراء تحقيق في تلك الآثار تولاه عالم الآثار ديفيد راندال ماكيفر (1873 - 1945). كان لدى راندل ماكيفر خبرة واسعة في عمليات الحفر في مصر، حَيْثُ أدرك حينها مدى أهمية القطع الأثرية في إنشاء سجل تاريخي للحضارة المستكشفة. ولكونه موضوعيا وذا خبرة عملية واسعة فان راندل ماكيفر صدم من عدم وجود أي قطع أثرية من أصل أجنبي يعود تاريخها إِلى ما قبل عصور القرون الوسطى. وليس هناك أيضًا ما يعود إِلى الزمن الذي ازدهرت فيه حضارات البحر الأبيض المتوسط القديمة، أو مملكة سبأ.

تم العثور على قطع متكسرة من أوعية الخزف الصيني التي جلبت من ساحل شرق إفريقيا في الخنادق التي قام بحفرها. ومن خلال تصاميمها، يمكن تحديد عمر هذه القطع الاثرية بدقة، وعلى أساس هذه الاكتشافات، اعلن رانـدال مكلفر بحزم أن زيمبابوي العظمى يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر، أو ربما قبل ذلك بقليل.

وأظهر التحليل الدقيق للأشياء المستوردة التي يمكن معرفة تاريخ صنعها أن زيمبابوي بنيت بعد فترة طويلة من ظهور الحضارات المتوسطية التي كان يزعم أنها من شيدتها. كان كل الخزف الموجود مع الهياكل الحجرية يعود تاريخه إِلى القرون الوسطى، وتم استيراده عبر طرق التجارة في المحيط الهندي. لذا فان السكان المحليين الأفارقة، وليس الأجانب، هم من شيدوا تلك الابنية. وقد جادل علماء الاثار بشكل منطقي ان كل ذلك كان صحيحا، لكن المستوطنين كانوا غاضبين، ورفضوا تصديقه. لذلك اجتاحت مشاعر الكراهية أوساط المستوطنين البيض المحليين بحَيْثُ مر ربع قرن من الزمان قبل أن يقوم أي شخص آخر بالتنقيب في زيمبابوي العظمى.

عندما كانت الجمعية البريطانية لتقدم العلوم تقوم بالتحضيرات لاجتماعها السنوي الذي سيعقد في جنوب إفريقيا في العام 1929، للاحتفال بمناسبة قرارها رعاية حملة تنقيب جديدة في زيمبابوي العظمى، قررت الاستعانة بعالمة الآثار الإنكليزية غيرترود كاتون طومسون (1888 - 1985). كانت

امرأة متشددة، عقلانية، تعلمت علم الآثار في مصر مع فلندرز بيتري. لكن بينما كان بيتري يبحث عن مقابر النبلاء، عملت كاتون – تومسون في مواقع اقدم تعود إِلى العصر الحجري. في العام 1924 كانت قد بدأت حملتها للتنقيب في الآثار المصرية بصحبة عالمة جيولوجيا من لندن هي إلينور غاردنر. وقامتا بالعمل في منخفض الفيوم، الواقع غرب النيل، وعثرتا على عدة مواقع زراعية قدرت كتون طومسون تاريخها بنحو أربعة آلاف سنة. قبل الميلاد، وهي أقدم مستوطنات زراعية كانت قد عرفت في ذلك الوقت.

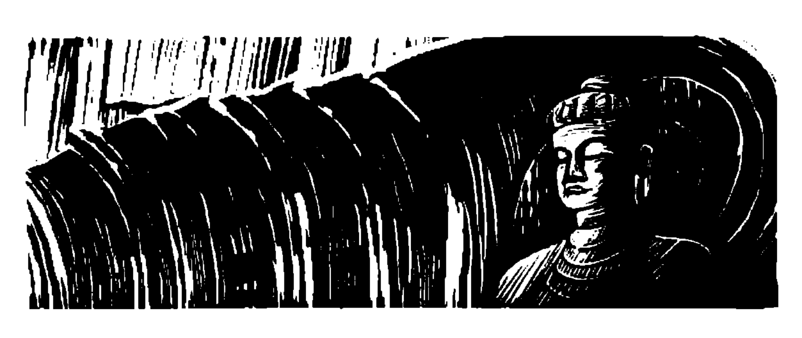
وكانت عالمة الآثار البارزة، هذه، هي المرشح المثالي للتنقيب في زيمبابوي العظمى. شمل تدريبها مع بيتري كلا من القطع الأثرية الصغيرة، وأهمية مبدأ التطابق التاريخي، الذي يتمثل باستخدام قطع ذوات أعمار معروفة، ومحاكاتها مع ادوات أخرى لتحديد عمر مستوطنات ما قبل التاريخ.

وصلت كاتون – تومسون إلى زيمبابوي العظمى بواسطة عربة يجرها ثور في العام 1928. صنفت الخنادق التي حفرتها بعناية فائقة وحفرت شقا عميقا في السور الغربي الموجود على الأكروبوليس. وباستخدام قطع متكسرة من الخزف الصيني المستورد، والزجاج الإسلامي الموجود في الخنادق التي قامت بحفرها، أظهرت كيف أن زيمبابوي العظمى بدأت كقرية زراعية صغيرة قبل أن تتوسع بشكل كبير لتصبح مركزا رئيسيا، يضم تلك الابنية، والاسوار. وقد أكدت استنتاجاتها أن راندل

ماكيفر كان محقا: فقد بلغت زيمبابوي العظمى أوج مجدها في القرون التي سبقت وصول البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا في العام 1497. وان هذا الموقع الأثري الأكثر بروزا على الإطلاق كان من صنع افكار ملهمة، وسواعد إفريقية.

عرضت كاتون طومسون استنتاجاتها على اجتماع الجمعية البريطانية للعام 1929. وحدثت من جديد ضجة بين المستوطنين، لان هذه الاستنتاجات لم تخدم مصالحهم. لكن علماء الآثار في كل مكان قبلوا استنتاجاتها الجادة، الدقيقة، التي صمدت أمام اختبار الزمن. أشعل عملها غضبا عارما في أوساط المستوطنين البيض إِلى الحد الذي لم يعد فيه أحد يحفر في زيمبابوي العظمى حَتَّى العام 1950، عندما أكدت تقنية تحديد التأريخ بالكربون المشع صحة التسلسل التاريخي الذي عرضته. ظلت كاتون طومسون صامدة على الرغم من سوء المعاملة التي تعرضت لها. وتجاهلت العديد من الرسائل الغريبة التي تلقتها، وحفظتها في ملف كتبت عليه كلمة (جنون). بعد الحرب العالمية الثانية، وضعت حفرياتها الرائعة التي قامت بها في العام 1928 الأسس لدراسة تاريخ إفريقيا السوداء. لم تعمل كاتون – تومسون ابدا في إفريقيا مرة أخرى، لكن بحثها أدى إلى استنتاج قوي: فالتفسيرات العنصرية للماضي لا تصمد أمام البيانات الأثرية المدروسة بعناية التي تم التنقيب عنها بشكل جيد. وحدثت حفرياتها في زيمبابوي العظمى في لحظة مهمة، عندما بدأ علم الآثار يترسخ في أماكن بعيدة عن أوروبا والبحر الأبيض المتوسط.

الفصل الثالث والعشرون



الشرق والغرب

أخذ علم الآثار مسارات تطور مختلفة في آسيا، وأوروبا في الشرق والغرب. مُنْذُ ما يقرب من ألفي عام، عمل المؤرخون الصينيون على تتبع الأحداث التاريخية التي جرت في الاقل في حوالي 3000 سنة ق.م، وتاريخ حكام الأسر الرئيسية الثلاث التي حكمت في الشمال: شيا، وشانغ، وزيو. ورسموا لوحة للصراعات المختلفة، وصعود الممالك الصغيرة، وسقوطها، إلى ان تم في النهاية، في سنة 221ق.م، توحيد البلاد في ظل أول إمبراطور صيني هو، تشين شيوانغدي (انظر الفصل 31). أدرك الصينيون أن تاريخهم معقد، ومتطور باستمرار. كانت السلالات الحاكمة تأتي وتذهب، لكن الحضارة كانت مستمرة. وفي هذا الامر كان يتم دعمها من قبل نظام الكتابة الصيني المميز، الذي

يعود إلى حوالي 1500 قبل الميلاد، ونشأ على شكل رموز صورية ولكنه تطور تدريجيًا ليصبح نصا مستخدما على نطاق واسع من قبل المسؤولين الحكوميين بعد 500 عام.

أما بالنسبة للجزء الاكبر من أوروبا فقد كانت له تجربة تاريخية مختلفة. بدأ ظهور السجلات المكتوبة هناك مع الرومان، ومع غزو بلاد الغال (فرنسا) على يد يوليوس قيصر في سنة 54ق.م، وأي شيء اقدم من هذا لا يمكن دراسته إلّا باستخدام الطرق الأثرية. ومن الامثلة على ذلك، نظام العصور الثلاثة، والأبحاث التي أجراها أوسكار مونتيليوس وآخرون التي وثقت عصور ما قبل التاريخ التي جاءت بعد العصر الجليدي (انظر الفصل 11). فبدلاً من الاعتماد على السجلات المكتوبة، قام علماء الآثار الأوروبيون بتحسين طرقهم في التنقيب، والاستقصاء، مع إيلاء اهتمام كبير لأشياء صغيرة مثل الدبابيس، والمشابك المزخرفة.

كان علماء الصين يتملكهم الفضول بشأن تاريخهم البعيد الذي يمتد إِلى أكثر من 2000 سنة، وكان لديهم اهتمام دائم بتاريخ الحضارات القديمة. نشأ علم الآثار في الصين من الشغف بجمع التحف، والمكانة، والسمعة التي يمنحها للافراد امتلاك الأشياء الجميلة التي تعود إِلى الماضي. كان جامعو التحف نشطين في وقت مبكر من عهد أسرة سونغ (960 – 1279). ومُنْذُ ذلك الحين، اعتاد الأباطرة الصينيون على جمع التحف الجميلة.

وعلى مدى قرون عدّة، كان المزارعون في شمال الصين يكتشفون عظام الحيوانات القديمة بجميع أنواعها في حقولهم،

واصفين إياها بـ (عظام التنين). وكانوا يقومون بترميم فتات المتحجرات لصنع الأدوية. في العام 1899، وصلت بعض العظام المكتشفة إِلى وانغ ييرونغ، رئيس الأكاديمية الإمبراطورية في بكين، الذي قام بجمع الادوات البرونزية القديمة، وأدرك أن النص المستخدم في العظام كان مطابقا لذلك المستخدم في بعض الأوعية التي يعود تاريخها إِلى الحقبة التي حكمت فيها سلالة زهو، وهي من بين أوائل السلالات الحاكمة في الصين. في العام 1908، ترجم لو تشن يو، وهو من المهتمين بالآثار، وخبير في اللغة، بعض النقوش العظمية، وتتبع أثرها إِلى مدينة أنيانغ في وادي النهر الأصفر، التي كانت عاصمة أسرة شانغ القديمة، التي بنت واحدة من أقدم الحضارات الصينية.

كشفت أعمال التنقيب التي قام بها عالم الآثار لي جي للفترة من 1928 إلى 1937 عن استعادة 20 ألف قطعة من النقوش العظمية، ومن عظام كتف الثور، والواح عظام كتف الثور، هذه، قد تم تسخينها ثُمَّ تم رسم علامات عليها بواسطة قضبان معدنية ساخنة. فسر الكهنة تلك العلامات على أنها رسائل إلهية، وأضافوا نقوشًا عليها. وعندما تمت ترجمتها اتضح ان هذه النقوش هي نبوءات تمت كتابتها منْ أَجل العائلة المالكة في شانغ، أو بوساطتها، وغطت جميع الموضوعات من الصحة إلى الزراعة، إِلى آفاق الانتصار في الحرب. كما قام لي جي أيضًا بحفر إحدى عشرة مقبرة ملكية في شانغ، واكتشف العديد من النقوش البرونزية التي لا تقدر بثمن.

باستثناء الحفريات التي اجريت في مدينة تشوكوديان التي تقع بالقرب من بكين، وأسفرت عن اكتشاف عظام الإنسان المنتصب (انظر الفصل 8)، فان معظم الحفريات التي جرت في البدايات الأولى لعلم الآثار الحديث، تمت على أيدي المستكشفين غير الصينيين (أو عدد قليل من علماء الآثار المحليين الذين عملوا من تلقاء أنفسهم). وقد جرت معظمها في شمال غرب الصين، ومنغوليا، والتبت. كان أشهر هؤلاء العلماء أوريل ستاين (1862 - 1943).

كان ستاين المستكشف، المهووس بالسفر، عالم الآثار، أحد آخر المغامرين الآثاريين الحقيقيين. ولد في بودابست، وعندما كان في سن المراهقة أظهر موهبة فكرية عالية. كما جعله التدريب العسكري الذي حصل عليه في المجر شغوفا بالمناطق الطبيعية، ومنحه الخبرة في مجال إجراء المسوحات. ومثله مثل علماء الآثار الآخرين الذين يعملون في المناطق البعيدة، كان لدى ستاين موهبة استثنائية في تعلم اللغات، ما مكنه من السفر على نطاق واسع في بلدان آسيا الوسطى غير المعروفة، باستثناء طريق الحرير القديم وطرق التجارة الأخرى، التي كانت تُعد في العالم الغربي عمليا مناطق خالية جغرافيا. (كان طريق الحرير عبارة عن شبكة من الطرق التجارية التي تمر عبر آسيا الوسطى وتربط بين الصين، والغرب).

انضم ستاين إلى هيئة التعليم الهندية في العام 1887، لكنه انتقل إلى هيئة المسح الأثري الهندية في العام 1910. وبحلول ذلك

الوقت، كان قد توغل عميقا في بلد بعيد على الحدود الصينية الهندية. وهناك بدأ بحوثه في إمبراطورية خوتان الغامضة، وهي من أوائل المراكز القديمة لانتشار البوذية من الهند إلى الصين. اصبحت إمبراطورية خوتان تتمتع بالثراء نتيجة التجارة على طريق الحرير في خلال القرن الثامن بعد الميلاد. كان اهتمام ستاين الرئيسي منصبًا على القطع الأثرية، والكتب المقدّسة التي كانت تُباع إلى جامعي التحف الاثرية في أوروبا.

بين عامي 1906 و1913، لم يعد أحد يرى شتاين فقد اختفى في الأجزاء التي لا يمكن الوصول إليها بسهولة في الصين. زار كهوف الألف بوذا، حَيْثُ تم نحت الرسوم الجدارية في الحجر الرملي في منطقة دونهوانغ التي تقع في أقصى غرب الصين. أقام الرهبان الصينيون أقدم ضريح في الكهوف في سنة 306 بعد الميلاد، وفي نهاية المطاف، كان هناك 492 معبدا في ما أصبح مفترق طرق مهماً لطريق الحرير. كان هناك حوالي 45 ألف متر مربع من الرسوم الجدارية التي تزين الكهوف، وتمثل واحدا من أقدم الفنون الصينية المعروفة.

سمع ستاين شائعات عن وجود مجموعة من المخطوطات القديمة، وكشف له أحد الرهبان عن غرفة مغلقة مكتظة بالوثائق من جميع الأنواع. كانت هذه الوثائق تمثل النسخ الصينية من النصوص البوذية، مكتوبة في الفترة ما بين القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد. تم تصميم العديد منها لكي يمكن تعليقها في الأضرحة.

اشترى ستاين المجموعة الكاملة، بالإضافة إلى سبعة صناديق أخرى من المخطوطات، وأكثر من 300 لوحة، لأربعة أحصنة فضية. وبهدوء تام ومن دون ان يعرف أحد به قام ستاين بتحميل كل تلك الاغراض على ظهور الجمال، والخيول، وفرّ بها إلى المتحف البريطاني. وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت له بسبب قيامه بعملية نهب مخادعة، إلّا أنه تمكن من إنقاذ العديد من القطع الأثرية التي لا تقدر بثمن لأوائل الاثار البوذية، والآثار الثقافية القديمة لمناطق وسط آسيا من ان يتم بيعها في الاسواق العامة.

وباستثناء أنشطة ستاين لجمع المقتنيات الآثارية، قامت هيئة المسح الأثري الهندي بدعم رحلاته التي كان يغيب فيها مدة طويلة من الزمن كوسيلة لجمع المعلومات الجغرافية، والسياسية الحيوية. بين عامي 1913 و1916، توغل ستاين في عمق منغوليا، وتتبع الامتدادات الطويلة لطريق الحرير. ومع ذلك، بدأ يواجه منافسة من علماء الآثار الآخرين وشكوكًا من المسؤولين. وعلى الرغم من هذه الصعوبات، عاد ستاين، ومعه مجموعة أخرى غنية من المخطوطات، والمصنوعات اليدوية المصنوعة من حجر اليشم، والفخار الجيد، وجميعها تم شراؤها بأقل سعر ممكن، أو جمعت من المواقع المهجورة. واصل ستاين التنقل باستمرار في المناطق النائية من آسيا الوسطى حَتَّى بلغ السبعينيات من عمره. في خلال عشرينيات القرن العشرين، قام بالتجول في مناطق غير معروفة في بلاد فارس، والعراق للكشف عن الروابط الثقافية

التي تجمعها بمدن موهينجو دارا، وهارابا (انظر الفصل 25). في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، بدأ يرسم خرائط للحدود الشرقية النائية للإمبراطورية الرومانية. وبشكل شبه مستقل، فان هذا الرحالة الرائع ربط بين الشرق، والغرب القديم. بالنسبة للصينيين، الذين يعدّونه سارقا، كانت أساليبه موضع شك؛ لكنه فتح أعين علماء الآثار الغربيين والمؤرخين على المساحة الفارغة الواسعة التي كانت تشغلها آسيا الوسطى.

ما هو تأثير الشرق الأوسط، والصين في أوروبا القديمة؟ قدم فيرد جوردون تشايلد (1892 – 1957)، وهو عالم آثار متخصص في فقه اللغة أسترالي المولد بعض الإجابات عن هذا السؤال. تمرد ابن رجل الدين في كنيسة إنكلترا على نشأته المحترمة، وأصبح ناشطا سياسيا بينما كان ما يزال في جامعة سيدني. ثُمَّ ذهب تشايلد إلى دراسة علم الآثار الخاص بالإغريق، وروما القديمة في جامعة أكسفورد. بعد مشاركة قصيرة في النشاطات السياسية لحزب العمل الأسترالي، عاد إلى بريطانيا، ثُمَّ أمضى خمس سنوات في التجوال عبر أوروبا، ودراسة ماضيها.

كان غوردون تشايلد يفكر دائما في عصور ما قبل التاريخ كشكل من أشكال التاريخ. لم تكن مصادره هي الوثائق، ولكن القطع الأثرية، والمواقع، وسلوك مجتمعات ما قبل التاريخ. وعلى عكس العديد من علماء الآثار السابقين، كانت لديه رؤية واسعة جدا إِلى الماضي، تتناقض بشكل كبير مع النظرة الضيقة، القائمة على الهوس بجمع التحف الفنية التي كانت سائدة في

صفوف علماء الآثار الآخرين. سمحت له خبرته الواسعة في المواقع، والأدوات الاثرية في جميع أنحاء أوروبا، ببناء صورة لتطور المجتمعات الأوروبية السابقة، بدءًا من اكتشاف الزراعة، وانتهاء مع وصول الرومان. ولكونها ملهمة له، فقد بحث في المجتمعات القديمة في الشرق الأوسط، التي انتشرت ابتكاراتها وأفكارها في أوروبا.

لم تكن هذه الفكرة جديدة. لطالما عدّ أسلاف تشايلد من علماء الأثار أن الحضارة قد تطورت في مصر، وبلاد ما بين النهرين. لكنه فكر، بشكل مختلف، عن أولئك الذين افترضوا أن أوروبا قد استوردت كل شيء جديد من الخارج. ففي حين أن مجتمعات الشرق الأوسط شكلت وحدات سياسية أكبر، وفي نهاية المطاف حضارات، فإن معاصريهم الأوروبيين قد تم تجزئتهم إلى العديد من الوحدات السياسية الأصغر. جادل تشايلد بأن هذا التجزؤ سمح للحرفيين والتجار بنقل أفكارهم، وابتكاراتهم، ونشرها في مناطق واسعة. بعد ذلك، عندما أصبح الحديد متاحا للجميع مجانا، ظهرت أول دولة ديمقراطية حقيقية.

ولكونه كاتبا متمكنا، ذا أسلوب سهل، ألف تشايلد سلسلة من الكتب التي انتشرت على نطاق واسع. وكان أشهرها كتاب (فجر الحضارة الأوروبية)، الذي صدر في العام 1925، وأصبح بمثابة الكتاب المقدس لاجيال من الطلاب التي تهافتت عليه في ستينيات القرن العشرين. كان هذا الكتاب سردا تاريخيا استند إلى علم الآثار. لم يتحدث تشايلد فيه عن الملوك، ورجال

الدولة، بل عن الثقافات البشرية، التي تم تحديدها من خلال تجميع عدد من المصنوعات اليدوية (مثل الأواني الطينية، والدبابيس، والسيوف البرونزية)، وأيضًا عن طريق الهندسة المعمارية، والفن.

ورأى تشايلد أن حوض الدانوب في أوروبا الشرقية، الذي يمتاز بالتربه الخصبة، والأمطار الوفيرة، هو، المنطقة التي طورت فيها العديد من المجتمعات الزراعية الأوروبية، التي تستخدم المعادن، أفكارا، وتقنيات قبل انتشارها غربا نحو المناطق البعيدة التي تقع على المحيط الأطلنطي.

كما استخدم تشايلد أيضًا التحف، والزخارف لتتبع التغيرات التي حدثت في المجتمعات البشرية عبر الزمن. واطلق على هذا النهج تعبير (التاريخ الثقافي)، وأصبح أداة أساسية لعلماء الآثار في كل مكان. كانت تقديراته لتواريخ التطورات، مثل ظهور الزراعة المبكرة، في معظمها، مثيرة للجدل، وهي معروفة الآن بأنها غير مكتملة (انظر الفصل 27).

في العام 1927، عُيِّن تشايلد بروفسورا في علم الآثار لعصور ما قبل التاريخ في جامعة أدنبرة. لكنه لم يكن أستاذًا جيدًا، وبدلاً من ذلك أمضى وقته في السفر، والكتابة. ولم تقترن باسمه سوى عمليات تنقيب قليلة نسبيا – في حوالي خمسة عشر موقعا في اسكتلندا، وإيرلندا. كان أكثر أعماله شهرة، التنقيب في (سكارا براي)، وهي قرية تعود إلى العصر الحجري في جزر أوركني قبالة شمال اسكتلندا، حَيْثُ وجد مفروشات حجرية

سليمة، يعود تاريخها إلى حوالي سنة 3000 قبل الميلاد. وقد فسر ذلك التاريخ بمقارنتها بالمفروشات الحجرية الموجودة في المساكن الريفية في المرتفعات الاسكتلندية في القرن التاسع عشر.

تحول اهتمام تشايلد من القطع الأثرية، إلى التطورات الاقتصادية في الماضي، وخاصة في مجال الزراعة، وأصول الحضارة. وذكر أن الجفاف واسع النطاق الذي حدث في نهاية العصر الجليدي، دفع المجتمعات البشرية إلى الواحات. وهناك أصبحت على اتصال مع الأعشاب، والحيوانات البرية التي يمكن ترويضها. وتحولت إلى الزراعة ورعي الحيوانات، في ما سماه الثورة الزراعية (انظر أيضًا الفصل 30). في العام 1934، تحدث عن ثورة حضرية، أدت إلى ظهور المدن والحضارات.

وخلص تشايلد إِلى ان هاتين الثورتين شجعتا على المزيد من التقدم التكنولوجي الكبير، وأنتجت المزيد من المواد الغذائية، وولدت زيادات سكانية كبيرة، ومِنْ ثَمَّ ابتكرت التخصص الحرفي، والكتابة، وبنت الحضارة في نهاية المطاف. وجادل بأن الثورات الزراعية، والحضرية كان لها تأثير كبير في تاريخ البشرية كما فعلت الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، مع محركاتها البخارية، ومصانعها ومدنها.

في العام 1946، غادر تشايلد إلى إدنبره ليصبح أستاذًا لعلم الآثار الأوروبية في معهد علم الآثار في لندن. ومع ذلك، بحلول خمسينيات القرن العشرين، تعرضت افكاره للهجوم. أدى ظهور تقنية تحديد التأريخ بواسطة الكربون المشع إلى نسف

العديد من التواريخ التي حددها للأحداث في أوروبا (انظر الفصل 27). وبشكل جزئي، واعتمادا على هذه الأسس، قلل جيل جديد من علماء الآثار من تأثير الشرق الأوسط في أوروبا، وأكدت البحوث الجديدة اهمية التغيرات الداخلية التي شهدتها تلك المجتمعات، وليس التأثيرات الخارجية. أصبح تشايلد مكتئبا، وبدأ يعدّ ما عمله في حياته أمرا فاشلاً. وبسبب أن قصصه المكتوبة، بشكل جيد، عن الماضي باتت لا تؤثر في اتجاه المجتمع المعاصر، قرر ان يتقاعد في العام 1956، وعاد إلى أستراليا، وانتحر بعد مرور عام.

نحن ندين بالفضل إلى غوردون تشايلد المفعم بالحيوية، الصريح، لكونه قدم لنا أولى القصص الكبرى عن عصور ما قبل التاريخ البشري، التي شملت مناطق أكبر بكثير من بلد، أو منطقة واحدة. لقد تمكن، هو، وأورل ستاين، وعلماء الآثار الصينيون الذين عملوا في أنيانغ، من ان يربطوا بين الشرق، والغرب. وحولوا علم الآثار إلى دراسة عالمية للماضي.

الفصل الرابع والعشرون



أكوام الأصداف، وهنود البيبلو، وحلقات الأشجار

يوجد مخرج في الطريق السريع في مدينة اميريفيلي، يمر عبر خليج سان فرانسيسكو إلى ولاية كاليفورنيا، يدعى شيل ماوند ستريت. ولسبب وجيه، كان يحوي كومة هائلة من الأصداف، قام ماكس أوهل (1856 – 1944)، عالم الآثار الألماني المولد، وبجرأة، بتحدي الافتراض واسع الانتشار بأن المجتمعات الهندية في كاليفورنيا لم تتغير على مدى آلاف السنين. كان الوضع مشابهًا للوضع في زيمبابوي العظمى: ببساطة، لم يكن أحد يعتقد أن سكان أمريكا الأصليين في كاليفورنيا قادرون على الابتكار.

لقد تلاشت تحت البنايات الحديثة، ومُنْذُ فترة طويلة، تلال المدافن الضخمة التي يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ، واكتشفها العالم أوهل. لكن في العام 1902، تم تكليف أوهل،

الذي عمل سنواتٍ في المواقع الأثرية في بيرو، بالعمل في التنقيب في أكوام الصدف في منطقة خليج سان فرانسيسكو. بدأ العمل في واحدة من تلك الاكوام التي كانت موجودة في ايمريفيل، التي كانت واحدة من أكبر الاكوام. كان طول الموقع 30 مترا، وارتفاعه أكثر من 9 أمتار، وكان يرتفع على الأرض المسطحة المحيطة به. وقد حفر خندقه إلى مستوى تواجد المياه، وإِلى ما تحته أيضًا.

اخذ أوهل مقاطع عرضية مفصلة لعشر طبقات رئيسية، وحسب عدد القطع الأثرية الموجودة في كل منها. وفي الوقت الذي كان فيه عدد قليل من المنقبين في كاليفورنيا يفكرون في السلسلة الطويلة المتعاقبة من الطبقات التي تدل على مناطق مأهولة بالسكان، فان تلك كانت خطوة كبيرة إلى الأمام. حَتَّى ذلك الحين، كان الناس قد قاموا بالحفر في عدة أكوام من الاصداف بسرعة ودون أي ترتيب، ولَا سِيَّما في خلال بحثهم المتسرع عن المدافن، والمصنوعات اليدوية. لم تكن هذه المواقع مثيرة، والتنقيب فيها كان عملا مملا، ورتيبا، وقد تراكمت بشكل عشوائي من قبل جامعي المحار. استمرت التحيزات السابقة ضد هؤلاء الناس الذين كانوا في أسفل السلم البشري. وفي النهاية، اختزل أوهل الطبقات التاريخية العشر إلى مكونين رئيسيين. اعتمد الناس الذين سكنوا في الطبقة السفلى بشكل رئيسي، في غذائهم، على تناول المحار، وكانوا يدفنون موتاهم في التلال، ويصنعون الأدوات من حجر مناطقهم. أما الافراد

الذين عاشوا في وقت لاحق، فقد كانوا يقومون بإحراق جثث الموتى، واستهلكوا أعدادا هائلة من الرخويات بدلاً من المحار، واستوردوا أحجارا دقيقة الحبيبات لصنع الأدوات. وقدر أوهل أن تلال إميريفيل استخدمت لأكثر من 1000 عاما.

كان أوهل منقبا بدائيا، وفقا لمعايير اليوم، لكن أساليبه في الحفر، كانت أفضل بكثير من الوسائل البدائية التي كانت شائعة في المواقع الأخرى. علاوة على ذلك، كانت لديه خبرة عملية هائلة في كل من الحفر، وتحليل القطع الاثرية، والطبقات الارضية التي كانت مأهولة بالسكان في بيئات مختلفة. وكان قد عمل في أحد مراكز الاحتفال الخاصة بإحدى المجتمعات التي سبقت ظهور الإنكا في تيواناكو في مرتفعات بوليفيا في العام 1894 (وقام بمنع الجنود المحليين من استخدام المنحوتات الموجودة هناك في تمارين الرماية). وبعد العام 1896، عمل في الساحل البيروفي القاحل، حَيْثُ كان يولي اهتماما كبيرا لنماذج القطع الاثرية المصنوعة من الفخار، والاقمشة، وهذه الأخيرة حفظتها البيئة الجافة، لأنها تغيرت مع مرور الوقت. في كل مكان عمل فيه في بيرو، قام أوهل بإنشاء سجل للتسلسل التاريخي للأحداث، والاشياء، مستخدما القبور الموجودة في المدافن، لهذا الغرض. بطريقة ما، كان أوهل يمثل فلندرز بيتري آخر، في مشهد صحراوي مختلف. وقد أثارت انتقاداته القاسية لعلماء الآثار المحليين استياءً لدى كل من زملائه في بوليفيا، وبيرو، الذين اتهموه ببيع القطع الأثرية منْ أَجل الربح. لقد غادر

أمريكا الجنوبية، وأصبح منشغلا بالبحث في تلال الكابوريا في كاليفورنيا.

كان أوهل كفوءًا، وذا خبرة ممتازة. كان ينشر نتائج تنقيباته على الفور، وبالتفصيل. ربما كان من المتوقع أن يرحب علماء الآثار الآخرون بتقييمه الشامل للتغيرات التي طرأت على حياة جامعي المحار في تلال ايمريفيل.

كانت استنتاجاته واضحة، موثقة بشكل جيد، على أساس سنوات دراسته الطويلة لعملية نشوء ثقافات الأمريكيين الاصليين في بيرو، وتطورها. لكن بدلا من ذلك، نزل غضب علماء الآثار المحليين على رأسه. لقد افترضوا مُنْذُ زمن طويل، أن ثقافات كاليفورنيا الهندية ظلت ثابتة طوال الماضي، ولم يروا أي سبب لتغيير ارائهم. ورفض عالم أنثروبولوجيا ذو نفوذ يدعى ألفريد كرويبر استنتاجات أوهل بشكل كامل. استمر أوهل في العمل، وهو يعلم أن استنتاجاته كانت صحيحة، وقد أثبتت أجيال لاحقة من الباحثين في تلال صدف المحار أنه كان محقا.

لم يكن ماكس أوهل، هو، الوحيد الذي أثبت أن مجتمعات قدامى الأمريكيين قد تغيرت بشكل عميق على مدى آلاف السنين. كان يعمل مع أكوام من الصدف البسيطة، والأدوات الحجرية، واصداف الرخويات غير المثيرة. لكن في الجنوب الغربي الأمريكي، كانت هناك مواقع أثرية أكثر إثارة للإعجاب، منها منازل الهنود الحمر متعددة الطوابق. وقد حافظ المناخ الجاف السائد هناك على اشياء أكثر بكثير من مجرد الأدوات الحجرية والفخار مثل

السلال، والمنسوجات، والصنادل، وحَتَّى المدافن. كان هناك عدد قليل من علماء الآثار في الجنوب الغربي ايام أوهل، لكن بعضهم حاول تحديد تاريخ النماذج الفخارية، ومنازل الهنود الحمر. وكان أحد هؤلاء ألفريد كيدر (1885 - 1963).

ادخل الفريد كيدر إِلى الجنوب الغربي اسلوب ممارسة التنقيب في الطبقات الاثرية، الذي أصبح فيما بعد الاسلوب الرئيسي في علم الآثار لحضارة المايا. ولد الفريد كيدر في مدينة ماركيت في ولاية ميشيغان، وكان ابنا لمهندس تعدين. انضم إلى جامعة هارفارد كطالب في مرحلة ما قبل الطب، وسرعان ما تحول تركيزه إلى الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان، وسلوك البشر). في ذلك الوقت، كانت جامعة هارفارد مركزا رئيسيا لعلم الأنثروبولوجيا في البلاد.

في العام 1907، أرسله اساتذته المشرفون على تعليمه، وكان من بينهم خبير مميز في حضارة المايا، هو ألفريد توزر، للقيام بمسح أثري في منطقة الزوايا الأربع في الجنوب الغربي، حَيْثُ تلتقي أربع ولايات أمريكية. لم يكن كيدر قد زار أبدًا غرب ميشيغان، لكنه وقع على الفور في حب المنطقة، وأصبح مفتونا بآثارها. تخرج في العام 1908، وزار اليونان، ومصر مع عائلته، ومِنْ ثَمَّ دخل كلية الدراسات العليا في العام 1909. وسرعان ما، دخل في دورة خاصة بالأساليب الميدانية الأثرية، كان يديرها جورج ريزنر، وهو عالم مصريات مشهور. زار كيدر مواقع الحفريات التي قام بها ريزنر في مصر، والسودان، وتعلم

أساليبه في علم طبقات الارض (تحليل عمر الطبقات الارضية، وتحديده)، وحفر المقابر الكبيرة، التي كانت تشكل جزءًا كبيرا من علم الآثار الخاص بالسودان.

كانت أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها كيدر دراسة عن أساليب صناعة الفخار في الجنوب الغربي. وجد العمل اقرب إِلى المستحيل، لأن المنقبين آنذاك تجاهلوا تحليل الطبقات الارضية. ومنْ أَجل القيام بعمله الميداني في هضبة باجاريتو في نيو مكسيكو، حَيْثُ تقع لوس ألاموس حاليا، استخدم كيدر نماذج من الفخار القديم والحديث لتكوين تسلسل تاريخي ثقافي. ونشره في مقالة احدثت تأثيرا كبيرا في العام 1915.

في العام نفسه، عينته مؤسسة روبرت س. بيبودي لعلم الآثار في أندوفر، في ولاية ماساتشوستس، مديرًا لمشروع تنقيب طويل الأمد في منطقة بيكوس، في مدينة نيو مكسيكو، حَيْثُ كانت توجد أكوام ضخمة متروكة لم يمسسها أحد من الاطلال التي تشير إِلى ما خلفه السكان الهنود الاصليون وراءهم. ومع ذلك، حدثت الحرب العالمية الأولى. وخدم كايدر بشكل مميز على الجبهة الغربية، حَيْثُ تمت ترقيته إلى رتبة نقيب في العام 1918. استؤنفت الأبحاث في منطقة بيكوس في العام 1920، واستمرت حَتَّى العام 1929. وحقق المشروع نجاحا باهرا. كان كيدر قائدا متحمسا، ديناميكيا يتمتع بشخصية جذبت الطلاب الشباب. وواصل الكثيرون منهم التمتع بالعمل في مهنتهم المميزة، تلك، في أماكن أخرى.

ومثل علماء الآثار الآخرين في الجنوب الغربي، قام كيدر بتطهير غرف الهنود الحمر، لكن بطريقة مختلفة. نظر عن قرب إلى التغيرات التي شهدتها أنماط صناعة الفخار، وتساءل عن معنى تلك التغيرات. قام كيدر بالتنقيب في أكوام مخلفات السكان في بيكوس على نطاق واسع. وبدلاً من التنقيب في مستويات عشوائية، كان يسجل ملاحظاته بعناية لبعض الاشياء المميزة، مثل أكوام العظام المهملة، والأواني المكسورة. لقد اتبع أسلوب ريزنر لتسجيل كل قطعة اثرية في ثلاثة أبعاد، حَتَّى يتمكن من توثيق حَتَّى أصغر الاختلافات في طبقات الارض. اتبع طريقة ريزنر في كتابة سجلاته التفصيلية عن الادوات الفخارية.

وفي خلال مواسم قليلة، قام كيدر بتسجيل وقائع تاريخية رائعة للتغييرات التي شهدتها أنماط صناعة الفخار في بيكوس، التي تميزت بشكل خاص بالزخرفة السطحية، مثل التصاميم المطلية باللون الأسود. كما قام بحفر مئات من المدافن البشرية.

وقام ي. أ. (هوتون) عالم الانثروبولوجيا في جامعة هارفرد، المسؤول عن الهياكل العظمية البشرية القديمة، بزيارة مواقع الحفريات، وفحص العظام، وتحديد جنسها، وعمرها. وأظهرت نتيجة هذا البحث معلومات قيمة، فريدة من نوعها عن كل من متوسط العمر المتوقع، وتأثيرات العمل الشاق في الهيكل العظمي البشري، وأن معظم الناس في بيكوس القديمة لقوا حتفهم، وهم في العشرينيات من أعمارهم.

توقفت أعمال الحفر، فعليا، في موقع بيكوس بعد العام 1922، عندئذ قام كيدر بتغيير إستراتيجيته. كان كيدر يمتلك معلومات عن الهندسة المعمارية، والتوسع في مناطق هنود البويبلو، وقام بالتنقيب في اقدم مستويات طبقاتها الارضية. وهكذا قام بتوسيع مجال بحثه إلى الاستطلاعات، والحفريات في مواقع أخرى، بينما كان يقوم بتحليل الكميات الهائلة من الاكتشافات. وامتدت دراساته إِلى أبعد بكثير من علم الآثار، وخاض في طرق الزراعة الحديثة لدى هنود البويبلو، وحَتَّى طرق المحافظة على الصحة العامة لديهم. شكل مشروع بيكوس مثالاً رائعًا للبحث الجماعي في وقت كان فيه معظم علم الآثار في أمريكا الشمالية غير متطور للغاية. لقد مهد مشروع بيكوس الطريق امام مشاريع البحث الميدانية المترابطة التي يزخر بها علم الآثار اليوم.

في العام 1927، كان لدى كيدر معلومات كافية لتجميع تسلسل تاريخي تفصيلي لحضارات هنود البوبيلو، والاقوام التي عاشت قبلهم في الجنوب الغربي. بدأ تسلسله التاريخي الطويل مع حضارات صانعي السلال التي كان عمرها يمتدّ إِلى 2000 سنة في الأقل. لم يكن هؤلاء الناس يصنعون الفخار، ولم تكن لديهم مساكن دائمة. كانوا يقلدون حضارات هنود البويبلو، والحضارات التي سبقتهم. وجد كيدر في بيكوس، ما لا يقل عن ست مستوطنات، كانت تتواجد الواحدة فوق الأخرى. كان هناك ما يكفي من المعلومات المتوفرة تحت يديه ليناقش، من خلالها، وجود ثماني مراحل حضارية رئيسية بين عامي 1500

قبل الميلاد (حضارة صانعي السلال)، و750 ميلادية، ثُمَّ كانت هناك خمس مراحل لهنود البويبلو بعد العام 750، وتنتهي في عصر التاريخ المكتوب (الذي بدأ في العام 1600). لقد أظهر التعاقب التاريخي لمدينة بيكوس أن الناس في الجنوب الغربي طوروا ثقافاتهم، ومؤسساتهم بشكل مستقل عن المناطق الأخرى. وقد شكل التسلسل التاريخي الذي وضعه كيدر للجنوب الغربي الأساس لجميع الأبحاث اللاحقة. كان هناك، بالطبع، العديد من التعديلات، لكنها كانت في إطار التخمينات فحسب.

مضى كيدر في افكاره قدما، وهيّأ الأوضاع لتنظيم مؤتمر غير رسمي في معسكره للتنقيب في بيكوس في آب 1927. حضر المؤتمر أربعون من علماء الآثار، قاموا فيه بمراجعة التقدم الذي احرز، ووضع الأسس لإطار عمل ثقافي أساسي، وهو أمر ضروري لأن المزيد من علماء الآثار بدأوا العمل في الجنوب الغربي. حدد المؤتمر ثلاث مراحل لحضارات اقوام مَن عرفوا بصانعي السلال، وخمس مراحل لسكان مستوطنات هنود البويبلو كتسلسل زمني إرشادي. على غرار العصور الثلاثة في أوروبا في القرن التاسع عشر، أدى نظام بيكوس إلى الحد من الفوضى التي أحاطت بأعمال التنقيب السابقة. وما يزال مؤتمر بيكوس يقام سنويا، في الجنوب الغربي، ويحضره عدة مئات من الأشخاص.

كان امام التسلسل التاريخي لبيكوس عائق رئيسي واحد. فلم يكن هناك وسيلة لتحديد تأريخ التسلسل بالسنوات التقويمية.

لحسن الحظ، فان أحد علماء الفلك من جامعة أريزونا، هو أ. ي. دوغلاس (1867 – 1962)، كان يدرس التغيرات في المناخ مُنْذُ العام 1901. وكان مهتما بتأثير الظواهر الفلكية، مثل البقع الشمسية في المناخ. وقد جادل ببصيرة رائعة، بالقول إن حلقات النمو السنوية الموجودة في الأشجار في الجنوب الغربي يمكن أن توثق التغيرات المناخية الرئيسية، والثانوية. ووجد دوغلاس أن هناك علاقة مباشرة بين سُمك حلقات النمو، وكمية الأمطار السنوية. فالحلقات الرقيقة تميز سنوات الجفاف، والحلقات السميكة تمثل السنوات الرطبة.

أما التجارب الأولية التي قام بها دوغلاس فقد اعادته إِلى ما قبل حوالي 200 عام. فانطلاقا من أقدم أشجار التنوب والصنوبر الحية، وسّع هذه التقنية لتشمل الأشجار الميتة، باستخدام دعامات خشبية من الكنائس الإسبانية في الفترة الاستعمارية. ثُمَّ التفت إلى أنقاض ما قبل التاريخ. في العام 1918، ابتكر مثقابا خشبيا مكنه من أخذ عينات من حلقات من الشجر من دعامات قديمة دون أن تؤثر في الهياكل التي كانت مستندة إليها.

كان أول ما حصل عليه دوغلاس من مثقابه هو دعامات خشبية لمساكن هنود البويبلو القديمة، المصنوعة من أشجار تم قطعها مُنْذُ فترة طويلة. ولأنها كانت ضاربة في القدم، فلم يكن بالمستطاع ربطها بحلقات من أشجار حية ذوات أعمار معروفة. كان هناك تعاقب تاريخي لثمانين سنة من أطلال حضارة الأزتك في شمال نيو مكسيكو، وأخرى من المساكن شبه الدائرية لهنود

البويبلو في وادي تشاكو الضيق. غير أن دوغلاس لم يتمكن من تحديد التواريخ بدقة، فقد تم (تعويم) مسألة استخدام تسلسلات حلقات الأشجار مع مرور الزمن. استغرق الأمر منه عشر سنوات لربط المراحل التاريخية المعتمدة على حلقات الأشجار بتقسيماتها الزمنية المؤكدة مع المراحل التاريخية الاسبق التي لم تكن مؤكدة. في العام 1928، سمح له الهنود بحفر الدعامات الخشبية في قرى هوبي في شمال أريزونا، وتثقيبها. وبعد عام من ذلك، كانت هناك دعامة خشبية متفحمة بين انقاض قرية في شو لو في ولاية أريزونا، وكان لها تسلسل تاريخي من حلقات الشجر متداخلة مع التقسيمات الزمنية غير المؤكدة في المواقع السابقة. وحينها اصبح بإمكانه أن يربط تسلسلات حلقات الاشجار التي وجدها في بيكوس مع الجدول الزمني الرئيسي الذي وضعه. وأخيرًا استطاع العلم الجديد الذي يحدد أعمار الاشجار من خلال حلقات الاشجار ان يقدم تسلسلا زمنيا لمراحل الازدهار العظيم لحضارة هنود البويبلو من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر بعد الميلاد.

انتشرت اساليب الفريد كيدر في تحليل القطع الاثرية، وأعمال التنقيب تدريجيا عبر امريكا الشمالية، واصبحت جميع البحوث اللاحقة في الجنوب الغربي، واغلب مناطق أمريكا، في نهاية المطاف، تستمد اساليب عملها من مشروع بيكوس. وبفضل تدريبه الميداني، بات طلابه الموهوبون يستخدمون أحدث الأساليب الميدانية عندما يعملون في مكان آخر. انتقل كيدر بنفسه

إلى منصب هام، فأصبح يشرف على الأبحاث المتعلقة بحضارة المايا في معهد كارنيغي في واشنطن العاصمة العام 1929.

في العام 1950، تقاعد من عمله، وذهب ليعيش في مدينة كامبريدج، في ولاية ماساتشوستس، حَيْثُ أصبح منزله مكانا لتجمع علماء الآثار، والطلاب حَتَّى وفاته العام 1963. وهكذا، فقد بنى علم الآثار الأمريكي أسسه اعتمادا على أعمال كيدر، واصبح جاهزا لأبحاث أكثر تفصيلاً. لقد جعل كيدر من الملاحظة الدقيقة، الصحيحة، وروح العمل الجماعي أساسا لعلم الآثار الأمريكي.



الفصل الخامس والعشرون



العملاق الذي يتنفس النار

المكان: موهينجودارو (موقع أثري يقع في مقاطعة السند، في باكستان. وقد تم تشييده العام 2600 قبل الميلاد، ولقد كان واحدا من أكبر المستوطنات القديمة في حضارة وادي السند، وواحـدا من أولى المستوطنات الحضرية الرئيسية). الزمان: سنة 1947، تجمعت مجموعة صغيرة من الطلبة، وعلماء الاثار الشباب تنتابهم الحيرة امام مباني من الطوب المحروق، وقد امتزجت بالرمل، وانتصبت فوق المدينة القديمة على ضفاف نهر السند. ساد الصمت بينما كان عالم آثار في منتصف العمر، ذو شارب كث، يمشي باستقامة متجها إليهم.

كان مورتيمر ويلر رجلاً ضخما، وكان الطلاب يشعرون بالرعب منه. وبقليل من الكلمات، لكن بإيماءات قيادية، أمرهم

بالقيام بالإشراف على فرق العمال المحليين الذين هجموا لإزاحة الرمال عن المباني. وتحول العدد القليل من الطوب المهترئ بفعل الظروف الجوية إِلى قطع كثيرة. وظهرت الجدران الصارخة لمنصة ضخمة من جانب التل. ثُمَّ اعلن بصوت عال، هذا الحصن «يرتفع بشكل قاتم وبغيض فوق السهل». هز علماء الآثار، والطلبة رؤوسهم بهدوء كدليل على اتفاقهم معه. كان الإعلان الجريء نموذجيًا لعالم الآثار الذي وصفه أحد الزملاء الساخطين بأنه (عملاق يتنفس النار). لقد كان العديد من علماء الآثار الأوائل من الشخصيات القوية. كان يجب عليهم أن يكونوا كذلك، لأنهم غالبا ما كانوا يعملون وحدهم تقريبا، وغالبا في مناطق بعيدة. كانت الكثير من تنقيباتهم تتم على نطاق واسع، باستخدام جيوش صغيرة من العمال. كان مورتيمر ويلر يمتلك صفات قيادية، لكن هذه المهارات تم تطويرها عندما خدم كضابط مدفعية في الحرب العالمية الأولى. وفي موهينجودارو، أدار عمليات تنقيب، وقام من خلالها بتدريب علماء الآثار الهنود الشباب بأساليبه الصارمة. وقد قادهم بحزم، ولم يترك أحدا في أي شك حول من كان رئيسا. إذا قال لطلابه أن كتلة الطوب هذه كانت حصنا، فقد كانت حصنا. لم يكن هناك من يجرؤ على النقاش.

لم يكن (العملاق الذي يتنفس النار) أول عالم آثار يعمل في موهينجودارو. كان علم الآثار جديدا في الهند، حَيْثُ بدأ التاريخ المكتوب فيها مع غزو الإسكندر الأكبر لها في 326ق.م،

كان عالم الآثار الأول المحترف الذي قام بالحفر هناك إنكليزيًا يدعى جون مارشال، الذي أصبح مديرا عاما لمؤسسة المسح الآثاري التي أُسِّست حديثًا في الهند في العام 1921.

انتقل مارشال إلى موهنجودارو بقوة: خلال موسم 1925 – 1926، استخدم قوة عاملة مؤلفة من 1200 شخص. كما درب علماء الآثار من الشباب الهنود على التنقيب. وكشفت الحفريات التي قام بها عن كتل كاملة من المنازل المبنية من الطوب، وشبكات الشوارع، وأنظمة تصريف المياه المتقنة. وظهر خزان مياه ضخم مبطّن بالحجارة كان بمثابة مغطس عام لممارسة الطقوس الشعائرية، والاحتفالية بين المباني العالية فوق المدينة. عندما وجد علماء الآثار العاملون في بلاد ما بين النهرين آثارا مشابهة لتلك الموجودة في موهينجدارو قدروا بان تاريخها يعود إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد (الفترة بين 3000 و2000ق.م)، وكان لدى مارشال تسلسل زمني تقريبي للعمل من خلاله. كان تقريره حول موهينجدارو، وحضارة السند هو العمل المرجعي المعياري حول هذا الموضوع – إلى حين مجيء مورتيمر ويلر.

اندفع روبرت إريك مورتيمر ويلر (1890 – 1976) ليقتحم علم الآثار الهندي مثل الرعد، وأصبح مديرا لمؤسسة المسح الآثاري في عام 1944. وقد ورث مؤسسة ميتة، ولكونه حازما، ومتحمسا للعمل فقد كان، هو، الرجل المثالي القادر على بث روح جديدة في تلك المؤسسة.

هو ابن صحافي، ولد في ادنبره، ودرس الادب الكلاسيكي (ويشمل أحيانا الدراسات الكلاسيكية، أو الحضارة الكلاسيكية، وهو فرع من العلوم الإنسانية التي تشمل اللغات والأدب، والفلسفة، والتاريخ، والفن، وعلم الآثار، والثقافات الأخرى من عالم البحر المتوسط القديم) في كلية لندن الجامعية. بعد التخرج، ذهب إلى راينلاند في ألمانيا لإجراء بحوث في صناعة الفخار الروماني. وقد أقنعته خبرته التي حصل عليها من خدمته في سلاح المدفعية في خلال الحرب العالمية الأولى أنه يمتلك موهبة في التنظيم، والمسائل اللوجستية، وهي من الصفات الأساسية اللازمة لمن يعمل منقبا. في العام 1920، أصبح ويلر مسؤول علم الآثار في متحف ويلز الوطني في كارديف، وبعد ذلك بأربعة أعوام، اصبح مديرا للمتحف. قام ويلر، وزوجته تيسا، في خلال اقامتهما في ويلز، بسلسلة من عمليات التنقيب المهمة في حصون الحدود الرومانية. وقد درسا اغلب طرق التنقيب التي كانت شبه منسية التي وضعها الجنرال بيت ريفرز (انظر الفصل 16). وكما فعل هو، فقد أوليا اهتمامهما البالغ حَتَّى بالطبقات الضحلة في التربة، واستعادا أصغر القطع الأثرية، ونشرا أعمالهما على الفور. واصبحت الرسومات الجميلة لويلر بمثابة رسوم توضيحية. فلم يشاهد أحد شيئا من هذا القبيل من قبل في علم الآثار الرومانية. وذهب ويلر أبعد من ذلك. واقتناعا منه بأن الجمهور لديه الحق في معرفة عمله، شجع الناس على زيارة الموقع، وألقى العديد من المحاضرات الشعبية.

خلق كتاب عصر ما قبل التاريخ وويلز في عصر الرومان، الذي صدر في العام 1925، وهو نفس العام الذي صدر فيه كتاب فجر الحضارة الأوروبية بقلم غوردون تشايلد (انظر الفصل 23)، سمعة للعالم ويلر. ورفض منصب الأستاذية في جامعة ادنبره (الذي قبله غوردون تشايلد لاحقا) وفي العام 1926 أصبح مسؤول متحف لندن الذي كان مهملا. وبسبب ما يتمتع به من طاقة لا حدود لها، استطاع ويلر إجراء تغييرات في المكان بسرعة. وفي الوقت نفسه، قام، هو، وزوجته تيسا بحفر المزيد من المواقع، التي تم اختيارها بعناية لدراسة العلاقة بين سكان بريطانيا الأصليين والمستوطنين الرومان. كما قام بتدريب جيل جديد من علماء الآثار الشباب على أعماله التنقيبية المكثفة.

في عامي 1928 و1929، قام ويلر بحفر معبد روماني في مدينة ليدني، في مقاطعة غلوسترشير. ثُمَّ تحول انتباهه إلى مدينة فيرولاميوم الرومانية، التي تقع مباشرة إلى الشمال من لندن، وقد كانت المنطقة مفتوحة ما يتيح القيام بأعمال التنقيب على نطاق واسع. بين عامي 1930 و1933، بحث هو، وزوجته تيسا في ما يقرب من 4.5 هكتار من مساحة المدينة. وكشفا التاريخ المعقد لاسوارها وسدودها، الترابية وأولى مستوطناتها.

ظل ويلر محتفظا بكامل طاقته، وبعد أن وضع متحف لندن على المسار الصحيح، توجه إلى تأسيس معهد لندن للآثار في عام 1937، ليصبح أول مدير له. وتحت قيادته، أصبح هذا المعهد مشهورا سواء أكان ذلك بعمله الميداني واساليب تدريبه

الممتازة على أعمال التنقيب، ام بأساليبه العلمية في البحث والتحليل، مثل تحليل المصنوعات الفخارية.

وقد اصاب الزوجان ويلر التعب من التنقيب في الآثار الرومانية، حَيْثُ قاما بأعمال التنقيب الاكثر طموحا بالنسبة لهما. في بريطانيا عندما قاما، بالتنقيب في تلال حصن قلعة مايدن الضخمة الواقعة في جنوب إنجلترا التي يقدر عمرها بألفي سنة، إِلى جانب اسوارها الترابية الضخمة. وللفترة من عام 1934 حَتَّى عام 1937، قام فريق العمل المتكون من الزوج والزوجة، بفحص التحصينات المعقدة وتحليلها، التي تحتوي على خنادق عمودية عميقة. وقاما، أيضًا، بفحص أجزاء من الداخل مع عينات من الخنادق الضحلة، وضعت في سلسلة من الصناديق. ومكن هذا التخطيط الأفقي من تتبع طبقات مختلفة من الارض على مساحة واسعة. وبقيامهما بفحص الخنادق، وتسميتها، وتسجيلها بعناية، فان ذلك سمح لهما بوضع تسلسل زمني للموقع من جميع جوانبه.

وحققت حفريات قلعة مايدن مستوى من التطور لم يسمع به في ذلك الوقت. شجع ويلر، بنشاط، الناسَ على زيارة الموقع، وكتب روايات مشوقة عنه. تصف حكايته الأكثر شهرة هجوما رومانيا على الحصن في سنة 43 بعد الميلاد، حَيْثُ يتسلل الناجون من الهجوم في الليل لدفن موتاهم (الذين عثر عليهم ويلر في الخنادق التي حفرها). هذا هو ويلر في أحسن حالاته تألقًا وبهجة.

كان ويلر ذا شخصية قوية، بعيونه البراقة، وشعره المتدفق. كان يكره الانتقادات، ولا يتسامح مع الاشخاص الاغبياء. كان يصدر أوامره الصارمة إِلى الجميع سواء أكانوا عمالا بأجور، أم من المتطوعين، دون ادنى مراعاة لمشاعرهم. لقد صنع أعداء له بسبب اساليبه الفظة، وطموحه الذي لا حدود له، وكذلك حبه للشهرة. لكن بفضل ما امتاز به عمله، هو، وزوجته تيسا من تخطيط منضبط، والخنادق التي قاما بحفرها، وتصميمها بعناية - ولكون غايتهما كانت الحصول على المعلومات، وليس المتاجرة بالقطع الاثرية - فقد استطاعا ان ينقلا عمليات التنقيب البريطانية إلى مصاف مثيلاتها في العالم الحديث.

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية عاد ويلر ليخدم مرة أخرى في سلاح المدفعية الملكية. وشارك في القتال في معركة العلمين التي جرت في شمال إفريقيا، معرضا نفسه لخطر نيران القتال. ثُمَّ، وعلى غير المتوقع، دعاه في العام 1944، نائب الملك في الهند ليصبح مديرا عاما لمؤسسة المسح الآثاري في الهند.

احدث ويلر هزة عنيفة في تلك المنظمة الخاملة بين ليلة وضحاها تقريبا. ومن خلال برنامج تدريبي صارم استمر ستة أشهر، تمكن واحد وستون طالبا من تعلم اسلوب معياري للتنقيب لم يسمع به سابقا في الهند. كان أول أعمال التنقيب التي شرع بها ويلر في الهند، في موقع اريكاميدو، وهو محطة تجارية تقع على الساحل الجنوبي الشرقي. فقد عثر فيها على اجزاء متكسرة

من وعاء روماني، أظهرت أن السلع الرومانية قد تم تداولها، والمتاجرة بها في أماكن بعيدة مثل تلك الاماكن.

لكن التحدي الأكبر الذي واجهه كان في هارابا، وموهينجودارو. كان ويلر قد قام بالتنقيب في المدن والحصون من قبل، لكنه لم يعالج مواقع كبيرة، معقدة مثل هاتين المدينتين القديمتين. وقام مدة خمس سنوات، وقد انضم إليه طاقمه من المتدربين، في البحث في الموقعين.

قام ويلر يتقسيم موهينجودارو على قسمين: المباني العليا، والقلعة، على الجانب الغربي. والمدينة المنخفضة التي كانت مأهولة بالسكان في الاغلب. كشفت حفرياته عن تخطيط شبكي للشوارع الضيقة المصفوفة على جانبيها مساكن من الطوب. كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. ومجارٍ مغطاة تربط الشوارع، والأزقة. كانت شبكات الصرف الصحي، وتصريف المياه متطورة بشكل لا مثيل له في العالم القديم. وقد اصابت الدهشة كلّا من ويلر، وستيوارت بيجوت، وهو عالم آثار بريطاني آخر، كفء للغاية، وقد قضيا أيضًا جزءًا من الحرب في الهند، من الإنجازات التكنولوجية لما بدا أنه حضارة متواضعة: لم يكن هناك حكام شبيهون بالالهة يتفاخرون بفتوحاتهم برسومات على جدران القصور والمعابد، كما كان الحال في مصر، وبلاد ما بين النهرين.

عندما قام ويلر بالتنقيب في قلاع موهينجودارو وهارابا، قام بتفسير الهياكل الموجودة في الأعلى كمبانٍ عامة، وهيكل آخر

مبني من خليط غير منتظم من الطوب على أنه صومعة. نعرف الآن أن ويلر كان على خطأ: لقد كانت قاعة مدعمة بالأعمدة. كان ويلر منقبا دقيقا، رغم أنه كان عدوانيا في بعض الاحيان، ومدركا تماما قيمة الاتصالات العامة للاكتشافات المهمة. وغالبا ما غمر نفسه تماما في الماضي من خلال أعمال التنقيب التي قام بها، وهي خاصية يمكن أن تؤدي به إلى المبالغة في أهمية اكتشافاته. وكانت ومضات من الإلهام - مثل مخزن الحبوب في موهينجودارو - نموذجية بالنسبة للكثير من أبحاثه. ومثل ليونارد وولي، كان أيضًا كاتبا حيويا، وكان يستخدم حَتَّى المكتشفات الصغيرة لرسم صورة لاساليب السلوك القديمة التي كانت جذابة لجمهور واسع.

وبالنسبة إلى جميع مدنها، وقلاعها، كانت حضارة وادي السند القديمة مختلفة تماما عن غيرها. لم تكن هناك قصور، أو مدافن ملكية. نجا عدد قليل من صور شعب وادي السند، لكن إحدى المنحوتات المعروفة - الناجية - يظهر فيها رجل هادئ على ما يبدو، ويعطي انطباعا عن كونه كاهنا، وليس حاكما قويا.

وصف ويلدر وبيغوت حضارة كانت متميزة عن حضارات مصر، وبلاد ما بين النهرين. تقع مدنها داخل الجدران مع بوابات مهيبة. كانت في البداية متراصة، ثُمَّ، مع نمو سكانها، تطورت الضواحي خارج الجدران، حَيْثُ اكتشف علماء الآثار مبانيَ تشبه الثكنات. جادل ويلر بأن العمال كانوا يعيشون هناك. ولكن مرة

أخرى، اشارت الأبحاث، في وقت لاحق، إلى أنها ربما كانت ورشًا لصناعة الأدوات المعدنية، والفخارية. ومن المرجح أن أولئك الذين عملوا معهم سكنوا في المدن.

الجدير بالذكر أن ويلر وصل إلى الهند مباشرة من ساحة المعركة، وأنه كان خبيرًا في مجتمع روما، الذي لعبت فيه الجيوش دورا رائدا. وكان يعتقد ان جدران مدينة السند القديمة كانت بمثابة حصون دفاعية. وعندما اكتشف الهياكل العظمية لسبعة وثلاثين رجلًا، وامرأة، وطفلًا ممددة في شوارع موهينودارو يعود تاريخها إلى الفترة الاخيرة التي سكن فيها الناس في المدن، خلص على الفور إلى نتيجة مفادها أن تلك كانت آخر مذبحة حدثت للأشخاص المدافعين عن منازلهم. لكن ذلك كان مجرد خطأ واضح منه: فقد جاء (الضحايا) من مجموعات مختلفة في المدينة السفلى، وليس من القلعة، التي تم الدفاع عنها حَتَّى النهاية. لم تظهر المدافن أية علامة على حدوث أعمال عنف. يعتقد علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية أن هولاء الموتى قضوا نحبهم من الأمراض، وليس الحرب. وفي الواقع، فان المنصات والجدران الضخمة تم بناؤها لا لكي تقف بوجه الغزاة، لكن لصد فيضانات نهر السند التي لا يمكن التنبؤ بها، التي تكون أحيانا كارثية.

لم ينشر ويلر أبدا التفاصيل الكاملة الخاصة بتنقيباته عن حضارة السند. بل كتب تقريرا أوليا، وكتابا عاما عن حضارة السند لجمهور أوسع. هذا هو أحد الأسباب التي جعلت تفسيره

لمدن السند صامدا بمرور الزمن. نحن نعلم اليوم أن حضارة السند ازدهرت في بيئة خصبة (وإن لم تكن غير ثابتة)، إذ كانت الأراضي الزراعية، وأعشاب الرعي وجميع أنواع الموارد متناثرة على مساحة واسعة، متنوعة. لقد قامت هذه الحضارة، لأن الناس، والمجتمعات كانوا يحتاجون إلى بعضهم البعض للحصول على ضروريات الحياة. ويبدو أنها ازدهرت من دون ان تحدث صراعات فيها. بعد مغادرة ويلر الهند في العام 1948، بعد نيلها استقلالها، أمضى خمس سنوات كأستاذ في المقاطعات الرومانية في معهد لندن الذي قام بتأسيسه. ثُمَّ أصبح مديرا للأكاديمية البريطانية التي كانت أوضاعها متدهورة، فأعاد تنشيطها. وقام، بعناية، بتوجيه الأموال إلى علماء الآثار الشباب الذين كانوا يعملون في الخارج.

بالنسبة لويلر فقد كان علم الآثار حدثًا عالميا أوسع بكثير من رؤية غوردون تشايلد لأوروبا، والشرق الأوسط. وفي السنوات اللاحقة اصبح ويلر، أحد المشاهير في التلفزيون، بفضل ظهوره في برنامج قناة بي بي سي، الحيوان، والنبات، والجماد، حَيْثُ كان الخبراء يطلعون فيه المشاهدين على أشياء من الماضي. كما استمر في الكتابة، وإلقاء المحاضرات على نطاق واسع، لأنه كان يعتقد أن علماء الآثار يجب أن يشاركوا أعمالهم مع الناس العاديين.

قد يكون ويلر شخصية مفعمة بالحيوية، لكن عمليات التنقيب الرائعة التي قام بها، وضعت معايير جديدة للتنقيب.

وربما كان جريئا، ويعبر عن ارائه بصراحة، لكن إنجازاته كانت هائلة. كان مورتيمر ويلر شخصية عالمية ساعدت على إرساء أسس معرفتنا بعصور ما قبل التاريخ العالمي.

الفصل السادس والعشرون



عند منحنى النهر

معظم الناس لم يسمعوا، قط، عن قبيلة الهنود الشيشون التي انتشرت في منطقة الحوض العظيم (هي منطقة كبيرة قاحلة في غرب الولايات المتحدة الأمريكية. تقع بشكل تقريبي بين جبال واساتش في يوتا وسييرا نيفادا، وليس لها أي اتصال مع البحر، ولذلك فهي حوض مغلق) في غرب أمريكا الشمالية. وهذا أمر أكثر من مؤسف، لان طريقتهم في الحياة كان لها تأثير عميق في الطريقة التي فكر فيها جيل كامل من علماء الآثار الأمريكيين في الماضي.

وإِذ ان احدا لم يكن يعدّ أفراد الشعب الشيشوني أبطالا، وانهم عاشوا في مجموعات صغيرة في واحدة من أكثر المناطق الطبيعية جفافا في الولايات المتحدة. وكانوا يأكلون طرائد

صغيرة، وأطعمة نباتية من أنواع كثيرة، ولا يستخدمون سوى أبسط أنواع عصي الحفر، والمطاحن، والأقواس، والسهام، ومع ذلك ازدهرت حضارتهم وسط بيئة قاسية للغاية مُنْذُ آلاف السنين. فلماذا كانوا ناجحين للغاية هكذا؟

قضى عالِم الأنثروبولوجيا جوليان ستيوارد (1902 - 1972)، الذي كان ذا اطلاع جيد على علم الآثار، عدة أشهر مع الشيشون. وقد عزا اسباب نجاحهم إِلى تنقلهم المستمر، ومعرفتهم الملحوظة بالأطعمة المتوفرة في ما سماه مساحة خضراء كانت برغم جفافها تحتوي على ما هو صالح للأكل. كان الشيشون يتنقلون باستمرار عبر المساحات الخضر للحوض العظيم، حَيْثُ كانت تحركاتهم تمليها إمدادات الغذاء، والمياه، وقد حدد ستيوارد في دراسة أنثروبولوجية كلاسيكية، كيف تغيرت أنماط استقرارهم من موسم إلى آخر. لكنه لم يكن عالما أنثربولوجيا ضيق الأفق: لقد أدرك ان تغيير حالات أنماط الاستيطان عبر المناطق الطبيعية المختلفة كان هو المفتاح لفهم المجتمعات القديمة. أصبح منهجه يعرف باسم علم البيئة الثقافية، الذي يعنى بدراسة العلاقة بين الناس وبيئاتهم.

مكنته حياته المهنية من الاتصال بعلماء الآثار من خلال مشروع ضخم لعلم الآثار على نهر ميسوري، الذي كان معروفا باسم برنامج استقصاءات حوض النهر، الذي بدأ بعد الحرب العالمية الثانية.

خلال الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين، بدأت طفرة في بناء السدود افضت إِلى تحولات في الولايات المتحدة - وعلم الآثار. فانتجت الأعمال التي جرت على موارد المياه على نطاق واسع مشاريع الطاقة الكهرمائية، والمياه المخزنة لاغراض الزراعة، والفيضانات المسيطر عليها، واتساع أعمال الملاحة في الأنهار الرئيسية. لكنها دمرت أيضًا الآلاف من المواقع الأثرية. كان المشروع الأكثر طموحا ينطوي على استغلال نهر ميسوري. ومن شأن ذلك إغراق 1600 كيلومتر من أراضي الوادي، وتدمير أكثر من 90 في المائة من المواقع التاريخية والأثرية على طول النهر.

تطورت عمليات مسح حوض النهر بينما كان علماء الآثار يكافحون منْ أَجل إنقاذ آثار الماضي من الغرق. وادت هذه الدراسات الاستقصائية إِلى حدوث تحولات في علم الآثار الأمريكي تخطت حدود الاعتراف به. في السابق، كانت معظم الأبحاث قد ظهرت في مناطق محدودة مثل الجنوب الغربي. وبحلول ذلك الوقت كان البرنامج قد انتهى، واصبح لدينا أول صورة لأمريكا الشمالية القديمة، أكثر تنوعا بكثير من مجرد تلال الدفن، ومساكن هنود البوبيلو.

كان حجم أعمال بناء سدود نهر ميسوري، وعمليات المسح وحدها ضخمًا للغاية. ولم يبقَ هناك سوى عدد قليل جدا من علماء الآثار المؤهلين، والقادرين على القيام بأعمال المسح. شاركت فورا في تلك الأعمال اثنتا عشرة جامعة، وأربعة متاحف،

ومؤسسات أخرى مختلفة. بحلول العام 1968، عندما انتهت عمليات مسح حوض النهر، قام العاملون الميدانيون المجتهدون بمسح حوالي 500 حوض من الأحواض الكبيرة، والصغيرة. وقد اختبروا أكثر من 20 ألف موقع أثري. كثير منها كانت مناطق فارغة في الخرائط الأثرية، لأن المسوحات فحصت مناطق لم تكن معروفة في حينها، وانتجت تلك الدراسات الاستقصائية ما يقرب من ألفي بحث متميز.

تدفق سيل من المعلومات، والبيانات الجديدة على شكل قطع أثرية، وغيرها من الاكتشافات على المختبرات الأثرية في جميع أنحاء البلاد. ولعل الأهم من ذلك كله، أن العديد من علماء الآثار أصبحوا مدركين مدى التهديد الذي يواجه الأرشيفات الهشة التي اعتمدوا عليها. فالتنقيبات دمرت المواقع، ولذلك اعتقدوا أيضًا أن القيام بالحفر كان هو الملاذ الأخير. مُنْذُ انتهاء الدراسات الاستقصائية، تم تكريس معظم جهود علم الآثار في الولايات المتحدة للحفاظ على سجلات آثار الماضي التي ما تزال قائمة.

امضى العديد من علماء الآثار الأمريكيين الشباب فترة تدريبهم في مسوحات مناطق الحوض العظيم، وفي مشاريع في مناطق الجنوب الشرقي بتمويل من إدارة مشروع الإشغال. قاموا بمسح المواقع الطبيعية المهددة بالانهيار والتنقيب فيها قبل أن تختفي تحت الماء. كان العدد الهائل من تلك القطع الاثرية، قد جاء معظمه من مواقع كان قد سكنها البشر مُنْذُ فترات زمنية

طويلة. وكان يجب غسل الأدوات الحجرية، وشظايا الأوعية مجموعة بعد أخرى، وتسميتها وتصنيفها.

واجه الأشخاص الذين قاموا بهذا العمل مشكلة مماثلة لتلك التي واجهها كريستيان يورجنسن تومسن في كوبنهاغن قبل 150 عاما (انظر الفصل التاسع). كيف يمكن وضع إطارٍ زمني لماضي أميركا البعيد؟ لم يكن نظام العصور الثلاثة موجودا في أمريكا الشمالية.

كرس بعض علماء الآثار الذين قاموا بإجراء مسوحات في الحوض العظيم حياتهم المهنية بالكامل لهذا الماضي. أحدهم كان جيمس أ. فورد، وهو خبير في القطع الأثرية، قام بتسجيل مئات القطع الاثرية من آلاف المواقع في جداول طويلة، مفصلة امتدت على مدى آلاف السنين. أسترجع صورته، الآن، وهو جالس ليقدم أحد عروضه، التي تكتمل مع ملفاته والرسوم البيانية. لم يكن فورد محاضرا مثيرا للاهتمام - كان هذا قبل وقت طويل من اختراع أجهزة الكمبيوتر - وكانت تتدفق منه البيانات بشكل لا نهاية له، غامض، وممل. يجب أن أعترف أنها جعلتني اغفو.

كان الكثير من علم الآثار في تلك الايام غامضا، منشغلا في التغييرات الدقيقة التي حدثت في القطع الاثرية، ونطاق عمله لا يتعدى تكوين إطار عمل للتقنيات المتغيرة. لحسن الحظ، اقترب عدد قليل من الباحثين من عملهم بمنظور أوسع، وهو التصميم على الابتعاد عن البيانات المجردة إلى دراسة احوال الناس الذين عاشوا في الماضي السحيق. كان غوردون

راندولف ويلي (1913 – 2002) أحد اصحاب هذه الرؤية بعيدة المدى. كان مقدرا له أن يصبح واحدا من أشهر علماء الآثار في القرن العشرين.

عمل ويلي في إجراء مسوحات للحوض العظيم، واجرى مسحا آخر في شمال غرب ولاية فلوريدا بينما كان ما يزال طالبا. لم تمنحه تلك التجربة الأرضية اللازمة لفهم القطع الاثرية التي تعددت أنواعها فحسب، لكن جعلته أيضًا يفهم الطريقة التي تكيف فيها الناس مع التغيرات الطبيعية في مناطقهم على مدى آلاف السنين.

خدم ويليام كاختصاصي في علم الإنسان في مكتب علم الاعراق الأمريكي في مؤسسة سميثسونيان للفترة من عام 1943 إلى عام 1950. بينما كان يعمل هناك في مسوحات الحوض العظيم في جنوب شرق الولايات المتحدة، اشترك مع فورد، وآخرين في كتابة سلسلة من التقارير التي أوصلت دراسة تاريخ الثقافة (انظر الفصل 23) إلى مستويات جديدة. كان هذا العمل أكثر تعقيدا بكثير من عمل العالم كيدر في مدينة بيكوس في الجنوب الغربي قبل ثلاثين عاما (انظر الفصل 24). في خلال سنوات الدراسة التي أجراها، عمل بشكل وثيق مع جوليان ستيوارد، الذي أخبر ويلي، وآخرين أنه يجب عليهم التوقف عن فحص المواقع الفردية وإلقاء نظرة على الأشخاص، ومستوطناتهم في سياق المناطق الطبيعية الخاصة بهم.

عندما انتهى ويلي من المسوحات، اكتسب تجربة فريدة من نوعها في أعمال المسح الأثرية الميدانية. لكن، بالإضافة إلى كونه عالم آثار، فقد كان أيضًا عالما أنثروبولوجيا. وقد جمع تدريبه بين الاثنين، إِذ أوضح له اساتذته أنه لا يمكنه دراسة الأمريكيين الشماليين القدامى من دون مراعاة البحث في المجتمعات الهندية التي كانت تعيش آنذاك. في أمريكا الشمالية، لم يكن علم الآثار مجرد حفريات، واستقصاءات، بل كان أيضًا علما أنثروبولوجيا.

قام ستيوارد بتشجيع ويلي بقوة على إجراء مسح آثاري في أحد وديان الأنهار في الساحل الشمالي القاحل لبيرو. وساعده في إعداد مشروع لدراسة المناطق الطبيعية المتنوعة، وأنماط الاستيطان في عصور ما قبل التاريخ في وادي فيرو الذي كان معروفا على نطاق ضيق. ألقى ويلي نظرة شاملة على الوادي بمساعدة الصور الجوية (صور مأخوذة من الجو). قام بمسح المناطق الواعدة سيرا على الأقدام، ونفذ عمليات حفر محدودة. وفي تقريره عن المشروع، الذي نشر في العام 1953، روى قصة الوادي على شكل سلسلة من المعالم الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية المعقدة، المتغيرة باستمرار. لم تكن الطبقات الارضية المتسلسلة، والقطع الأثرية سوى جزء صغير من القصة. أسست أبحاث ويلي في وادي فيرو ما يسمى الآن بعلم الآثار الاستيطانية، الذي يشكل عنصرا مهما في عالم علم الأثار اليوم.

حصل ويلي بفضل بحوثه التي اجراها في وادي فيرو على لقب الأستاذية من الدرجة الرفيعة في علم الآثار في أمريكا

الوسطى والمكسيك من جامعة هارفارد في العام 1950. وعمل هناك بقية حياته المهنية، وقام بتنفيذ عمل ميداني مهمّ عن حضارة المايا. كما اجرى مسوحات على مستوطنات في مواقع مهمة في بليز، وغواتيمالا. لم يكن تركيز بحثه على المدن الكبرى، بل على المستوطنات الأصغر التي ازدهرت في ظلالها. كان غوردون ويلي عالما أثريا ساحرا واسع الاطلاع، ومعلما رائعا للطلاب الصغار. وفوق كل ذلك، كان يشدد على أن علم الآثار الجيد يعتمد على البيانات، وليس على الأفكار الطنانة فحسب. كما سنرى في الفصول اللاحقة، وهذه كانت نقطة مهمة.

لم يكن ويلي بالطبع، وحده. كانت هناك شخصيات أخرى مهمة عملت في أمريكا الشمالية في خلال تلك الفترة. كان أحدها جيسي ديفيد جينينغز (1909 – 1997) وهو شخصية بارزة في علم الآثار في الغرب الأمريكي. التحق جيننغز بجامعة يوتا عام 1948. وأول بحث ميداني له في الحوض العظيم شمل حفر العديد من مواقع الكهوف الجافة، وخاصة الكهف الخطر (سمي بهذا الاسم لأن الصخور المتساقطة منه تسببت في مقتل اثنين من علماء الآثار). وقد حفر حينها 4 أمتار من مستويات الطبقات التي كانت مأهولة بالسكان بعناية شديدة، فكشفت عن وجود عدد من الزيارات العرضية لها يقدر تاريخها بنحو 11 ألف سنة.

كانت ظروف حفظ الادوات، والمواد في المستويات الجافة قريبة من الكمال، ما سمح لجينينغز بدراسة التعديلات الصغيرة التي قام بها السكان لتغيير الظروف المناخية في المنطقة. في ذلك

الوقت كان الكهف مأهولاً بالسكان، وكانت هناك مستنقعات قريبة، تكثر فيها الأسماك والنباتات الصالحة للأكل، والطيور المائية. وجد جيننغز الحبال المصنوعة من الألياف النباتية، وقطع متفرقة من الملابس الجلدية، والسلال، والحجارة المستخدمة لطحن المكسرات. حَتَّى إنّه حفر بقايا خنفساء كانت محفوظة جيدا، وبرازا بشريا، فكشفت الكثير عن النظام الغذائي للسكان الذي كان نباتيا في معظمه. كما كتب عن تقليد ثقافي قديم جدا، استمر حَتَّى العام 500 بعد الميلاد. ومثلما فعل ويلي وفورد في الجنوب الشرقي، وضع جينينغز أسسا سليمة لجميع أعمال الحوض العظيم التي حدثت في وقت لاحق. كان جينينغز بارعا، ويفيض، أحيانا، بالسخرية، فكان يفضل البيانات، ويقلّب في النظريات. وقد وضعت أعمال التنقيب التي قام بها معايير عمل ثابتة لجيل من علماء الاثار.

وفي الوقت نفسه، في شرق أمريكا الشمالية، ساعد جيمس ب. جريفن (1905 – 1897) من جامعة ميتشيغان على احداث تحولات في علم الآثار في أمريكا الشمالية. كان غريفين، قبل كل شيء، مختصا بالقطع الاثرية. وقضى الكثير من الوقت في دراسة المجموعة الضخمة من اللقى الاثرية التي تكشفت عنها المسوحات التي جرت في الحوض العظيم. ومثلما فعل فورد وويلي، حاول غريفين تنظيم غرف التخزين المليئة بالقطع الأثرية التي لم يتم فرزها. كانت معرفته بالاكتشافات الأثرية في شرق أمريكا الشمالية شيئًا أسطوريا. وأقام مستودعا لحفظ المواد المصنوعة

من السيراميك في جامعة ميتشيغان. واصبحت تلك المجموعة الكبيرة من المواد الفخارية عبارة عن أرشيف أساسي للباحثين حَتَّى يومنا هذا.

في أوائل الستينيات، كان هناك إطار عام للبحث في ماضي أمريكا الشمالية قبل مجيء كولومبوس، يستخدم على نطاق واسع. وكان يستند إلى عمليات التنقيب، والدراسات الاستقصائية، والمصنوعات اليدوية. ومثلما فعل غوردون تشايلد في أوروبا، فإن الذين طوروه افترضوا، بشكل معقول تماما، أن توزيع الثقافات البشرية على مناطق واسعة يعني أنها ازدهرت في نفس الوقت تقريبًا. وكان كلّ من غريفين، وجينينغز وويلي، قبل كل شيء، خبريْن في البيانات. ومع ذلك، وكما فعل ويلي مع أبحاثه في وادي فيرو التي كانت معروفة جيدا، كان التغيير يجري على قدم وساق.

كان جيل جديد من علماء الآثار على دراية بالبحث في البيئات القديمة، وكان رائدهم في الجنوب الغربي، من بين علماء آخرين، أ. ي. دوغلاس الذي اشتهر بخوضه في علم تحديد أعمار الشجرة (انظر الفصل 24). وبدأ علماء الآثار بطرح أسئلة جديدة، جاء بعضها نتيجة المسوحات التي اجريت في احواض الانهار. كيف تغيرت البيئات، والتضاريس الطبيعية بمرور الوقت؟ كيف تكيفت المجتمعات البشرية التي كانت تعيش آنذاك مع هذه التغييرات؟ ما هي التأثيرات التي أوجدتها الحاجة إلى مثل هذه التعديلات على المجتمع ككل؟

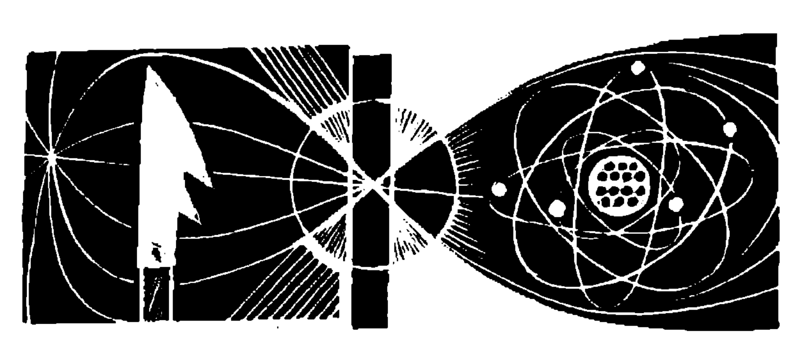
كان علم الآثار في أمريكا الشمالية من الثلاثينيات إلى أوائل الستينيات، في الأغلب، عبارة عن وصف للماضي، وتصنيف التفاصيل الثانوية لأدوات مختلفة، وتحديد المجتمعات المتغيرة على أساس التقنيات المستخدمة فيها. قليل من الناس فكروا لماذا تغيرت هذه الثقافات. لماذا، على سبيل المثال، انتقل الناس إِلى مجتمعات الزراعة بدلاً من مجتمعات صيد الحيوانات، والأسماك، وجمع ثمار الاشجار؟ لماذا كانت بعض مجتمعات الصيد، وجمع ثمار الاشجار، مثل تلك الموجودة في شمال غرب المحيط الهادئ، أكثر تعقيدا من تلك الموجودة في الحوض العظيم، أو أواسط ألاسكا، على سبيل المثال.

أراد الجيل الجديد من العلماء أن يتجاوز الاكتفاء بطرق التصنيف إلى مقاربات أكثر تطورًا مع الماضي. وكانوا يبحثون أيضًا عن طرق جديدة لتحديد عمر المجتمعات القديمة. كان من السهل القول إن حضارة ما كانت أقدم من حضارة أخرى. ولكن الاصعب هو ان تحدد كم كان عمرهما بالسنوات التقويمية؟ وكم كان عدد السنين التي تكبر فيها حضارة عن أخرى؟ وكما سنرى، كان اختراع تقنية تحديد التأريخ بالكربون المشع (الفصل السابع والعشرون) جزءًا من ثورة كبرى في علم الآثار كانت على وشك الحدوث.

حَتَّى خمسينيات القرن العشرين، استقر مركز ثقل علم الآثار في أوروبا، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، وكذلك في جنوب غرب آسيا. وتدريجيا، توسع البحث الآثاري بعيدا عن الشواطئ

الأوروبية. استغرقت العملية فترة طويلة، ويرجع ذلك جزئيا إلى التوزيع العالمي للمستعمرات البريطانية، والفرنسية. كان كلّ من علم الآثار، وعلم الإنسان، الأنثروبولوجيا، نشاطيْن مرتبطيْن بالحكم الاستعماري، سواء أكان ذلك في الهند، أم إفريقيا، أم المحيط الهادئ. وقد تم وضع جذور ما كان يسمى عالم عصر ما قبل التاريخ العالمي في القرن التاسع عشر. وبدا، حينها، يزدهر البحث في ذلك العالم.

الفصل السابع والعشرون



تحديد عمر العصور التاريخية

كم يبلغ عمره؟ هذا واحد من الأسئلة الرئيسية التي يطرحها علماء الآثار، كلما حفروا موقعا، أو قاموا بفحص قطعة أثرية. وكما رأينا، فان أي تحديد لعمر شيء ما، بعدد السنوات السابقة يومنا هذا، أو بصيغة ق.م، أو ب.م، كان لا يعدو أن يكون بشكل عام سوى (زمن تقديري). يمكن لحلقات الاشجار، والأشياء ذوات الأعمار المعروفة فحسب، مثل العملات المعدنية الرومانية، أن تحدد عمر المواقع التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ (انظر الفصول 11 و24 و26). ثُمَّ، في العام 1949، توصل ويلارد ليبي إلى طريقة تحديد التأريخ بالكربون المشع، الأمر الذي جعل من الممكن معرفة المواقع، والقطع الاثرية التي يعود تاريخها إلى أكثر من 50 ألف سنة.

كان ويلارد ليبي (1908 – 1980) عالم كيمياء أمريكيا، ولم يكن مختصا في علم الآثار. ومع ذلك، فقد أحدث ثورة في مجال بحوث علم الأثار أكثر من أي شخص آخر. أصبح ليبي، وكان ابنا لمزارع، خبيرا في النشاط الإشعاعي، والعلوم النووية. عمل في خلال الحرب العالمية الثانية، في جزء من مشروع مانهاتن، لتصنيع القنبلة الذرية. بعد الحرب، انتقل إلى جامعة شيكاغو، حَيْثُ بدأ العمل على طريقة تحديد التأريخ بالكربون المشع. وكان يؤمن أن هذه الطريقة يمكن أن تقدم وسيلة لتحديد تاريخ المواقع الأثرية بالسنوات التقويمية. وقد نال جائزة نوبل تكريما لجهوده في هذا المجال.

يفترض بحث ليبي أن الكربون المشع (المعروف باسم الكربون – 14) يتم تكوينه باستمرار في الغلاف الجوي عن طريق تفاعل الأشعة الكونية مع النيتروجين في الغلاف الجوي. جنبا إلى جنب مع الكربون العادي (غير المشع)، يتم امتصاص بعض الكربون 14 في الهواء، وتخزينه من قبل النباتات. ثُمَّ تكتسب الحيوانات الكربون المشع عن طريق تناول النبات. عندما يموت الحيوان، أو النبات، تتوقف عملية تبادل الكربون مع البيئة. مُنْذُ تلك اللحظة، ينخفض محتوى الكربون – 14، لأنه يخضع للتآكل الإشعاعي. أدرك ليبي أن قياس كمية الكربون 14 المتبقية في النبات الميت، أو شظايا الخشب، أو العظام يوفر طريقة لحساب عمره. كلما كان عمر العينة طويلا، كلما قلت كمية الكربون 14 فيها. كما إنّه حدد معدل التآكل: نصف الكربون المشع في أي

عينة سيتحلل بعد مرور حوالي 5730 سنة (والذي يسمى عمر النصف للكربون).

احتاجت تجربته إلى عدة سنوات حَتَّى يتم صقلها. حاول ليبي، وزميله، جيمس أرنولد، تحديد عمر عينات تعود إِلى عصر معروف، باستخدام الخشب الموجود في مقابر اثنين من الفراعنة المصريين، هما، زوسر، وسنفرو، التي يعود تاريخها، وفقا لبعض المصادر التاريخية، إلى حوالي سنة 2625 ± 75ق.م، وقد اثبتت التواريخ التي حددتها تقنية الكربون المشع انها تعود إِلى سنة 2800 ± 280 قبل الميلاد. قام ليبي، وأرنولد بنشر بحثهما في العام 1949. وبحلول العام 1955، كان ليبي قد حدد تاريخ ما يقرب من ألف قطعة تعود لكائنات ذوات أعمار معروفة، وأخرى من مواقع أثرية لعصور ما قبل التاريخ، غير مؤرخة من قبل.

تساءل علماء الآثار في البداية عن مدى دقة تحديد التأريخ بواسطة الكربون المشع. لأسباب مختلفة، كان بعضهم مترددا في تقديم عينات من تواريخ معروفة. كان الكثيرون يشككون في تواريخ ليبي التجريبية. آخرون كانوا خائفين من أن طريقة تحديد التأريخ بالكربون المشع قد تفسد نظرياتهم العزيزة على قلوبهم. مع تقدم عمليات البحث، قدم عدد أكبر، واكبر من المتعاونين عينات جديدة. كانت هناك بالطبع شكوك، وهو امر متوقع باستخدام طريقة جديدة لتحديد عمر الاشياء. ولكن بحلول أوائل الستينيات من القرن العشرين، تقبل علماء الآثار

طريقة تحديد التاريخ بالكربون المشع بحماس، فقد كان لديها القدرة على إحداث ثورة في المعلومات عن الخمسين ألف سنة الماضية من الوجود البشري. وأي شيء يزيد عمره على خمسين ألف سنة يحتوي على آثار من الكربون ذي النشاط الإشعاعي، ضئيلة جدا لا يمكن الاستفادة منها.

إذا كان تحديد التأريخ بالكربون المشع دقيقا، فان إمكانياته كانت هائلة. تحمس علماء الآثار لفكرة أن يكونوا قادرين على تحديد تأريخ ظهور أول فرد أمريكي، أو ظهور الزراعة في أجزاء مختلفة من العالم. نظريا أيضًا، سيكون من الممكن قياس معدل التغير الثقافي، مثل الانتقال من الصيد إلى الزراعة، أو انتقال شعوب مختلفة عاشت في عصور ما قبل التاريخ المختلفة إلى أوروبا، أو عبر المحيط الهادئ مُنْذُ آلاف السنين. كانت الاحتمالات محيرة، ومع ذلك، كانت هناك عقبات تقنية خطيرة يجب التغلب عليها. وكانت النتائج مع بعض أنواع العينات تبدو أكثر دقة من غيرها. في البداية، تم اعتبار الخشب، والفحم معايير قياسية، في حين كان ينظر إلى العظام، والقشرة على أنها أقل دقة. وسرعان ما أصبح واضحا أيضًا أن العينات يجب جمعها بدقة لتجنب تلوثها. كما إنّ مكانها الدقيق في الموقع مهم أيضًا. فضلاً عن ان النتائج يمكن أن تنحرف عن طريق ما إذا كانت العينة قد أتت من موقد، أو من محتويات وعاء للطبخ، أو ببساطة من الفحم المبعثر في أحد المساكن – على سبيل المثال لا الحصر. وقد تم

التغلب على هذه الصعوبات بالتدريج، إذ أصبح تحديد التاريخ بالكربون المشع أكثر تطورًا.

وكانت المشكلة الأساسية الأخرى هي أن تواريخ الكربون المشع كانت تمثل عمرا زمنيا للسنوات المشعة، وليست سنوات تقويمية. كان ليبي يفترض، في الأصل، أن تركيز الكربون المشع في الغلاف الجوي يظل ثابتا عبر الزمن. لكن هذا خطأ: فالتغيرات في قوة المجال المغناطيسي للأرض، والتقلبات في النشاط الشمسي تغير من تركيز الكربون المشع سواء أكان ذلك في الغلاف الجوي، أم في الكائنات الحية. على سبيل المثال، كانت العينات المأخوذة من ستة آلاف سنة مضت تتعرض لتراكيز كربونية أعلى بكثير من العينات المأخوذة في وقتنا الحاضر. وقد جاء الحل بمقارنة تواريخ الكربون المشع مع حلقات الشجر. بحلول الوقت الذي تم فيه تطوير تقنية تحديد التأريخ بالكربون المشع، قدمت طريقة تحديد عمر الاشياء بواسطة حلقات الشجر مواعيد تقويمية دقيقة في جنوب غرب أمريكا، وأماكن أخرى تعود إلى اثني عشر ألف، وخمسمائة سنة. كان هذا قبل نهاية العصر الجليدي. في السنوات الأخيرة، كما إنّ المقارنات التي تستخدم عينات من الشعاب المرجانية المتحجرة من منطقة البحر الكاريبي، أوعينات لبية جليدية من غرينلاند، وأماكن أخرى سمحت للعلماء بتحديد عمر حَتَّى الأجسام القديمة بالسنوات التقويمية. وكانت التقلبات البيئية على مر العصور تؤدي إِلى أن التواريخ المحسوبة من عينات الكربون 14، والتواريخ التي

تم الحصول عليها بمساعدة مصادر مثل حلقات الأشجار، أو اللبات الجليدية، أو الوثائق التاريخية، فحسب، يمكن أن تتغير - أحيانا بمقدار ألفي سنة. وقد نظمت نتائج الأبحاث المكثفة التي استخدمت اللبات الجليدية، ومصادر أخرى في جداول، سمحت للباحثين بتحويل تواريخ الكربون 14 المشع إلى تواريخ تقويمية دقيقة.

أثار أول التواريخ الذي حددته تقنية الكربون المشع للتطورات التي شهدها العالم مثل ظهور الزراعة، وانتشارها في أوروبا الدهشة، والارتباك. كانت التواريخ التي حددها غوردون تشايلد للأحداث الكبرى في أوروبا، التي كانت مستخدمة على نطاق واسع متأخرة للغاية: فتاريخ ظهور الزراعة على سبيل المثال، قفز من حوالي 4000 سنة ق.م إلى 9000 سنة ق.م، وفي ايامنا هذه، وبفضل التأريخ الدقيق، يعتقد أن الزراعة قد ظهرت مُنْذُ حوالي 12 ألف سنة. ومع وجود آلاف من التواريخ التي تتحدد بطريقة الإشعاع، اصبح بإمكان الباحثين تحليل أحداث الماضي بطرق، ووسائل لم يكن من الممكن تصورها في أيام ويلارد ليبي.

مع مرور الزمن تطورت تقنية تحديد التاريخ بالكربون المشع. كان علماء الآثار يعملون في أجزاء كثيرة من العالم. أثارت التقنية الجديدة أسئلة أساسية. مُنْذُ متى بدأت الزراعة في مصر وسوريا، وفي تركيا، وفي جميع أنحاء أوروبا؟ كم كان عمر موقع ستونهينج، وماذا كانت تواريخ مراحله المعمارية المختلفة، التي تم تشريحها بعناية عن طريق الحفريات؟ ولأول

مرة، اصبح من الممكن تحديد تاريخ ظهور المزارعين في الدول الاسكندنافية، وتاريخ أول مستوطنة بشرية في الأمريكتيين، وظهور المزارعين الذين يستخدمون الحديد في جنوب إفريقيا. وبحلول أوائل الستينيات، كانت الخطوط العريضة التقريبية لجوانب من عصر قبل التاريخ العالمي قد تم تجميعها من خليط صغير من التواريخ التي تحددت بواسطة تقنية الكربون المشع. وانهالت العينات على مختبرات الكربون المشع من جميع أنحاء العالم من أستراليا، وأيسلندا، وبيرو، وجزر المحيط الهادئ النائية. ولأول مرة، أمكن للعلماء مقارنة التواريخ في السنوات التقويمية لبداية الزراعة في أجزاء مختلفة من العالم. فقد أثبتوا، على سبيل المثال، أن الزراعة بدأت في نفس الوقت تقريبًا في الشرق الأوسط، وفي شمال الصين.

وقبل كل شيء، يمكن للمرء أن يفكر بجدية في كتابة تاريخ للبشرية قبل ظهور الحضارات المكتوبة في إطار مرتب زمنيا بشكل راسخ. كان هذا التقدم ذا أهمية كبيرة، خصوصًا في مناطق مثل جنوب الصحراء الافريقية، وأجزاء عديدة من الهند، والأمريكتين، حَيْثُ تمّ تحديد تاريخ السجلات الأولى المكتوبة بسنوات القرون الأخيرة. وفي بعض أجزاء وسط إفريقيا، كان تاريخ المحفوظات التاريخية الأولى يعود إلى العقد الاخير من القرن التاسع عشر.

وبعد ان أصبح تحديد التأريخ بالكربون المشع أكثر دقة، تحول الباحثون إلى استخدام تقنية مطياف الكتلة المعجل منْ

أَجل الحصول على قراءات أكثر دقة. ومثلت هذه التقنية تقدما كبيرا. فهي تسمح بتحديد تأريخ العينات على أساس حلقة شجرة واحدة، أو بذرة قمح مفردة (أو حَتَّى اجزاء صغيرة لبذرة ما). كما إنّها تسمح بتحديد تأريخ العديد من العينات، بحَيْثُ يتمكن العلماء من القيام بعشرات - أو حَتَّى المئات من التحليلات الاحصائية - لمستوى معين من المناطق التي كانت مأهولة بالسكان. حَتَّى وقت قريب، كانت الجداول الزمنية لمرحلة ما قبل التاريخ ما تزال فضفاضة بعض الشيء. لكن إدخال أساليب إحصائية متطورة جديدة ينتج لنا الآن تسلسلا زمنيا دقيقا بشكل مذهل.

ومن الامثلة على ذلك أحد المواقع الأثرية المشهورة، هو موقع ويست كينيت لونغ بارو في جنوب إنكلترا، الذي كان يحتوي على بقايا حوالي أربعين رجلاً، وامرأة، وطفلا، وقد تم تقدير عمره بأنه يعود إِلى حوالي 3650 سنة ق.م. لقد كان مكان دفن جماعيا، ولكن كم عدد السنين التي تم استخدامه فيها؟ كانت التواريخ التي تُحَدَّد بتقنية الكاربون المشع دقيقة للغاية، هي الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك. أظهر التحليل المتطور لعشرات العينات المأخوذة من الموتى أن تسلسل الدفن تكشَف عن ثلاثين عاما فقط، بدءًا من حوالي سنة 3640ق.م تم استخدام تلال الدفن الأخرى التي كانت موجودة في موقع قريب لثلاثة، أو أربعة أجيال في الأكثر. كان موقع (ويست كينيت لونغ بارو) مكانا للدفن الجماعي وقد استخدم لفترة قصيرة، وكان يمثل تقريبا

تاريخا عائليا لبعض مزارعي العصر الحجري. ولأنه استخدم فترة قصيرة كهذه، فإن أولئك المدفونين في غرف كومة الحجارة التي تغطي المدافن لم يكونوا مجرد أسلاف مجهولين، منعزلين: بعضهم كان معروفا شخصيًا للأشخاص الذين كانوا مايزالون يديرون أعمالهم.

لننظر إلى أبعد قليلاً، نعرف الآن أن استخدام تلال الدفن الطويلة استمر فترة قصيرة، وتوقف عند حوالي سنة 3625ق.م كل هذا يثير بعض الأسئلة الرائعة. هل دفن الناس في كومة الحجارة الكبيرة تلك، بسبب المطالبة بالأراضي في ذلك المكان، وفي وقت تزايد فيه التنافس على الأراضي؟ أم أن المجتمعات التي دفنت موتاها فيها لم تدم طويلاً لأنها كانت غير مستقرة، ولم تتحمل العيش في أوقات التوتر السياسي؟ لقد كشفت السجلات التاريخية الحديثة عن فترات من التغيرات السريعة، والأحداث المفاجئة.

لم يكن تحديد التاريخ بالكاربون المشع هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة أحداث الماضي. فان أقدم فصول الماضي تعود إلى أكثر من 3 ملايين سنة – وهي أبعد بكثير من نطاق تحديد التأريخ بالكربون المشع. ولذا فإننا نعتمد على طريقة التأريخ الجيولوجي، وهي ما تعرف بطريقة البوتاسيوم – أرجون.

تقوم طريقة البوتاسيوم – أرجون على تحديد عمر الصخور من خلال قياس نسبة الأرجون المشع إلى البوتاسيوم المشع الموجود في الصخور. يتحلل البوتاسيوم – 40 المشع إلى الأرجون – 40

المشع في كل من المعادن والصخور. توفر نسبة الأرجون – 40 إلى البوتاسيوم – 40 في المعادن، أو الصخور عمرا للعينة. يُعدّ الأرجون غازا خاملا يتبخر عندما تكون المادة الصخرية، مثل الحمم البركانية، في حالة انصهار. وعندما تبرد، وتتبلور في شكل صخور بركانية، لا يعود بإمكان الأرجون التبخر. يستطيع المطياف قياس تركيز الأرجون في الصخرة. عندئذ يمكن للباحثين استخدام معدل التآكل المعروف لحساب عمر الصخرة.

لحسن الحظ، تقع العديد من المواقع البشرية الأولى، مثل تلك الموجودة في منطقة أولدوفاي جورج في تنزانيا وبالقرب من منطقة عفار في إثيوبيا، في مناطق النشاط البركاني، حَيْثُ تكون طريقة البوتاسيوم – أرجون مفيدة. وقد تم دفن بعض الافراد بين طبقات من الرماد البركاني. في أولدوفاي، استخدم كل من لويس، وماري ليكي طريقة البوتاسيوم – أرجون، التي تم تطويرها في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، لتحديد عمر متحجرات بشرية يزيد عمرها على أكثر من 2.5 مليون سنة (انظر الفصل 29). وتحدد عمر آثار أقدام البشر التي وجدت في الرماد البركاني في ليتولي، التي تقع في تنزانيا أيضًا، بحوالي 3.5 مليون سنة. وتوسع استخدام طريقة البوتاسيوم – أرجون فساهمت في تحديد الفترة الزمنية للتطور البشري إلى تواريخ موغلة في القدم لا يمكن تصورها، تعود إلى ابعد من مئات الآلاف من السنوات من التقديرات السابقة.

يجرب الناس باستمرار أساليب تحديد التاريخ الجديدة، لكن لا أحد منها استطاع منافسة طريقتي الكربون المشع، والبوتاسيوم - أرجون، التي توغلت في الماضي البشري بأكمله. تتحسن دقة هذه الطرق كل عام، ولن يمر وقت طويل، حَتَّى نتمكن من تحديد عمر أجيال من الافراد بشكل روتيني.

لقد قطعنا شوطًا طويلاً مُنْذُ خمسينيات القرن العشرين. متى، على سبيل المثال، قام الناس بالاستيطان في الجزر البحرية في جنوب المحيط الهادئ؟

وفرت لنا أكثر من 1500 محاولة لتحديد التاريخ بالكربون المشع إجابة رائعة. حدث الاستيطان في جميع الجزر في وسط المحيط الهادئ، وشرقه، بما في ذلك هاواي ورابوا نوي (جزيرة عيد الفصح)، في غضون قرن فقط بعد سنة 1000 بعد الميلاد. وهذه الرحلات الطويلة تكشفت عن فترة زمنية قصيرة بشكل ملحوظ. والآن يجب علينا أن نعرف لماذا قام بها الناس.

وفوق كل ذلك، سمحت أساليب تحديد التاريخ الجديدة لعلماء الآثار بالتفكير في عصور ما قبل التاريخ العالمي بشكل جدي - وفي ماضي البشر بحَيْثُ تم ربط القارات مع بعضها قبل فترة طويلة من عصر الاكتشافات الأوروبية الذي حدث في خلال القرن الخامس عشر. نحن لدينا، الآن، معرفة بالتاريخ البشري، إذ جرت أحداث مثل ظهور الزراعة، ونشوء الحضارة المدنية في عالم كان متنوعا كما هو حاله اليوم.

الفصل الثامن والعشرون



علم البيئة والعالم في عصور ما قبل التاريخ

قام ربان سفينة الصيد الإنكليزية كوليندا بصب اللعنات عندما علقت بشباكه كتلة من الخث (نباتات متفحمة تنتشر في الأراضي الغدقة في المناطق المعتدلة. تتعفن ببطء في الطور الأول لتكون الفحم، وتتركب من الحزازيات، ونباتات المستنقعات القصبية كالغاب، والبوص) في منطقة ليمان وأوار عند شاطئ بحر الشمال في عام 1931. لكن مع انحناء افراد طاقمه لرمي الكتلة الغامقة على سطح السفينة، تمزقت كتلة الخث. وسقط جسم ذو اشواك بني اللون على سطح السفينة، وكان بعض الخث لا يزال يتشبث به.

لقد كان الربان مفتونا، ولحسن حظ العلوم، حمل الجسم الذي عثر عليه إلى الميناء. وفي نهاية الامر حل به المطاف في

متحف نورويتش، حَيْثُ حدده الخبراء على أنه نوع من رمح كلاسيكي لصيد الحيتان مصنوع من العظام على يد صيادين من العصر الحجري عاشوا في إحدى الدول الاسكندنافية. وقد تم عرضه في اجتماع لجمعية عصر ما قبل التاريخ في إيست أنغليا في عام 1932. وكان من بين الجمهور في هذا المعرض عالم آثار شاب من جامعة كامبريدج يدعى جون غراهام دوغلاس كلارك (1907 – 1995).

عندما كان كلارك في سن المراهقة في كلية مارلبورو، أطلق عليه اسم (الأحجار والعظام) لشغفه بالأدوات الحجرية، وعظام الحيوانات. كان تعرفه الأول على علم الآثار من خلال العالم الضيق لجمع أدوات الصوان. كان معظم العمل في علم الآثار، حَتَّى ذلك الحين، ما يزال من اهتمامات الهواة، الذين كانوا يتنقلون بين المقالع، والحصى النهرية بحثا عن الأدوات الحجرية، والفخارية. وهؤلاء كانوا اشخاصا ذوي اهتمامات محدودة، لكن كلارك تعلم الكثير من خلال مصاحبتهم.

كان عالم علم الآثار ما يزال يركز على المواقع المحلية. كان لدى عدد قليل من الباحثين مثل جوردون تشايلد رؤية أوسع. كان تشايلد ينظر إِلى الماضي الأوروبي كشكل من أشكال التاريخ، حَيْثُ كانت القطع الاثرية، وليس الناس، تمثل مركز اهتمام الباحثين. وجد كلارك هذا الامر أكثر إثارة للاهتمام من مجرد وصف الأدوات الحجرية.

في عشرينيات القرن العشرين لم تكن جامعة كامبريدج تقدم فصولا دراسية على مدى ثلاث سنوات في علم الآثار وحده، لذلك عندما ذهب كلارك إلى هناك العام 1926، أمضى سنته الأولى في دراسة التاريخ - وكانت تجربة لا تقدر بثمن، لأنها عرفته على بعض العلماء البارزين، كان من بينهم المؤرخ العالمي جورج تريفيليان، والمؤرخ الاقتصادي مايكل بوستان الذي قام بإطلاع كلارك على أحدث الأبحاث عن اقتصادات العصور الوسطى، التي سوف تلعب دورا هاما في طريقة تفكيره في السنوات اللاحقة.

وعندما حان الوقت ليشرع كلارك في دراسة منهج علم الآثار مدة عامين، كان لديه معلومات وافية، لا تخص عصور ما قبل التاريخ فحسب، لكن، أيضًا، في الأنثروبولوجيا البيولوجية والاجتماعية. ومن الناحية المنطقية، كان يبحث في الماضي من خلال الاستعانة بمجموعة من التخصصات الأكاديمية. وكان هذا منهجا غير اعتيادي.

في ذلك الوقت، كان علم الآثار الذي يدرس في جامعة كامبردج مختصا تقريبا بأوروبا. لكن كلارك كان يحضر المحاضرات التي كان يلقيها ليونارد وولي حول مدافن أور (انظر الفصل 20)، وتلك التي تلقيها غيرترود كاتون - طومسون حول القطع الاثرية التي اكتشفتها، التي تعود إلى أولى القرى الزراعية في الفيوم في مصر (انظر الفصل 22)، ومحاضرات جوردون تشايلد عن العصر البرونزي في أوروبا. في ذلك الوقت افترض العديد من

علماء الآثار أن حضارات عصر ما قبل التاريخ تطورت بنفس الطريقة في كل مكان، وبالتالي فإن ما كان موجودا في أوروبا سيتكرر في مكان آخر. في العام 1928، سمع كلارك عالمة آثار بريطانية أخرى تدعى، دوروثي غارود، وهي تخبر جمعية عصر ما قبل التاريخ لشرق أنجليا، بكل جرأة، أن الأمر لم يكن كذلك. وان ثقافاتهم الأوروبية التي يعتزون بها تختلف تمامًا عن ثقافات الشرق الأوسط. لم تكن هذه فكرة شائعة في الوقت الذي كان فيه علم آثار العصر الحجري يتمحور حول أوروبا. استوعب كلارك كل هذا بفارغ الصبر. كما أمضى ساعات طويلة في مختبر لويس ليكي، وهو يفحص الأدوات الحجرية المكتشفة في إفريقيا (انظر الفصل 29). وقد عرفته المحاضرات التي حضرها، وخبرته المختبرية التي اكتسبها، على علم آثار يتناول مناطق بعيدة جدا عن موطنه، وقد اصبح هذا العلم، بعد ذلك، تدريجيا موضوعا عالميا، وقد شجعه اساتذته في كامبريدج على دراسة ثقافات العصر الحجري في بريطانيا، للفترة التي تمتد من نهاية العصر الجليدي وصولا إلى ظهور الزراعة، التي أطلق عليها مصطلح (الميزوليتي) (نسبة إِلى الكلمة اليونانية: ميزو، وتعني المتوسط، وليتو وتعني، حجر)، أي (العصر الحجري المتوسط) الذي كان يُنظر إليه على أنه فترة انتقالية سبقت ظهور الزراعة. وجد كلارك نفسه وهو ينظر إلى الآلاف من رؤوس السهام الصغيرة المصنوعة من الصوان، ونصال حجرية حادة للغاية في المتاحف، ومقتنيات الافراد الخاصة. كانت أطروحته،

بلا شك، دراسة مملة عن الأدوات الحجرية الصغيرة، وقد جمع معظمها عشوائيا من سطح التربة، وليس من الطبقات الاثرية المأهولة بالبشر، ومع ذلك، ظهر كتابه (العصر الميزوليتي) في بريطانيا في العام 1932 الذي جعله الشخص المهيمن على هذا الموضوع الغامض.

وكجزء من بحثه، تجول كلارك على نطاق واسع في الدول الاسكندنافية، مدركا أنه بحاجة إلى معرفة ما حدث على الجانب الآخر من بحر الشمال. هناك، كان سجل الثقافات الميزوليتية أغنى بكثير، وذلك بفضل المواقع المحفوظة في المستنقعات التي غمرتها المياه. وقد أسفرت رحلاته عن اكتشاف اشياء قابلة للتلف، مثل رؤوس رماح مصنوعة من قرون الحيوانات، وعظامها. وكانت هناك حَتَّى بقايا مصائد، وشباك أسماك في المخيمات التي كانت تغطيها المياه الضحلة.

وقد تجول كلارك، أيضًا، على طول الشواطئ التي تقع فوق مستوى سطح البحار الحديثة، التي تعدّ نسخة قديمة من بحر البلطيق الذي كان أوسع بكثير مما هو عليه اليوم. وقد لفت هذا الامر انتباهه، لأنه جعله يدرك الحجم الكبير للتغييرات التي أثرت في شمال أوروبا بعد العصر الجليدي مباشرة. فلفهم المجتمعات البشرية في ذلك الوقت، يجب، في كثير من الأحيان، ربطها بالتغيرات البيئية المثيرة.

كان كلارك في السنوات التي كان يكتب فيها أطروحته كثير المشاغل، وقد نفد صبره بشكل متزايد مع هواة جمع القطع

الأثرية المهووسين بجمع الاشياء التافهة. لم يتردد غراهام كلارك في انتقاد الوضع السائد آنذاك. وكان، هو، وستيوار بيجوت، وهو واحد من عظماء المستقبل، ويعمل في موقع أفيبري الأثري، من بين مجموعة من الشباب المتمردين الذين شاركوا في مناقشات حامية في غرف الكلية. وأصبحوا أصواتًا مؤثرة بشكل متزايد، على الرغم من صغر سنهم. أشار كلارك في التذييل الختامي لكتابه العصر الميزوليتي في بريطانيا، إلى الإمكانات الهائلة لعلم الآثار البيئي في البحث في منطقة فينس، وهي الأراضي المستنقعية القريبة من كامبريدج. كان يجب أن يشترك في هذا البحث علماء النبات، والجغرافيا، وغيرهم، وليس علماء الآثار فحسب. وكان اكتشاف رمح صيد الحيتان في منطقة ليمان، وأونار عند شواطئ بحر الشمال، هو، أحد الأحداث التي نقلت أبحاث كلارك إلى اتجاه جديد، مثير.

ألهمت اكتشافات بحر الشمال كلارك، وعلماء آخرين البحث في المواقع التي تعود إلى العصر الميزوليتي، التي كانت متعددة الطبقات، وفي المستويات المنخفضة من مستنقعات ايست انج ليا. في أثناء عمله على نيل شهادة الدكتوراه، أصبح كلارك صديقا لعالمي النبات هاري، ومارغريت غودوين. وقد كانا طالبين عند آرثر تانسلي، الشخصية المؤسسة لعلم البيئة في بريطانيا الذي نصحهم بدراسة علم البالينولوجي، وهو علم حفريات حبوب اللقاح. يستخدم هذا العلم حبوب اللقاح الدقيقة، الصغيرة جدا الموجودة في المستنقعات لدراسة التغيرات

الرئيسية التي حدثت في الغطاء النباتي مُنْذُ العصر الجليدي. وقد كان رائد هذا العلم، هو، عالم النبات السويدي لينارت فون بوست خلال الحرب العالمية الأولى. قام العالمان غودين بدراسة المستنقعات التي لها علاقة بظهور رمح صيد الحيتان الذي تم اكتشافه في منطقة ليمان، وأوار على شواطئ بحر الشمال، وأظهرا أنه كان هناك في نفس الفترة أسلحة مماثلة وجدت في الدنمارك. لقد كانا شريكيْن مثاليين في مشاريع كلارك الجديدة.

شكل آل غودوين، مع كلارك، وآخرين مجموعة بحثية متعددة التخصصات، تدعى لجنة أبحاث فنلاند، وذلك في العام 1932. وكان كلارك أكثر الأعضاء نشاطا، فقد بدأ العمل في موقع مدفون تحت المستنقعات في منطقة بلانتيشن فارم التي تقع على بعد 11 كيلومترا شرق – شمال شرق مدينة أيلي. ووجد مواد مصنوعة من حجر الصوان في تلال رملية، ثُمَّ قام بالحفر بحثا عن أدوات حجرية في ما كان يعتقد انها كانت، في الماضي، جزيرة رملية في المستنقع. وكشفت الحفريات عن سلسلة من اثنين من المستنقعات، مفصولين بالرمال الناعمة التي تشكلت فوق مستوى سطح البحر. وقد امتد وجود هذا الموقع من العصر الحجري إلى العصر البرونزي.

في العام 1934، قام كلارك وآل غودوين بالتنقيب في موقع مزرعة بيكوك، وهو موقع قريب آخر. وقاموا بحفر خندق وسط مجموعات نباتات الخث، واكتشفوا، هذه المرة، قطعا أثرية ذهبية. كانت هناك حفنة من المواد المصنوعة من حجر الصوان تعود

إلى العصر الميزوليتي موجودة تحت طبقة تحوي اجزاء متكسرة من إناء من العصر الحجري. وكان يوجد فوق هذه الطبقة من العصر الحجري الحديث مواد خزفية تعود إلى بدايات العصر البرونزي. لقد كشفوا عن تسلسل طبقات اثرية نادر يغطي الكثير من عصور ما قبل التاريخ. ومع عينات حبوب اللقاح والرخويات، قامت تلك المجموعة الصغيرة من الباحثين بتوثيق التغيرات البيئية الرئيسية التي حدثت بمرور الوقت. كان هذا أول جهد في علم الآثار البيئي، متعدد التخصصات في بريطانيا.

في العام 1932، أصبح كلارك زميلا في كلية بيترهاوس في جامعة كامبريدج، وبعد فترة قصيرة، اصبح محاضرا مساعدا في علم الآثار. وسيقضي بقية حياته في كامبريدج. من العام 1932 إلى العام 1935، حررته المنحة التي حصل عليها من الانشغال بالتدريس. واستخدم هذا الوقت للسفر على نطاق واسع في شمال أوروبا، وكان يتنقل في معظم رحلاته، على الدراجة الهوائية. وهناك تعلم أن يقدّر اهمية مجموعة كبيرة من القطع الأثرية التالفة المصنوعة من مواد خشبية، ومواد عضوية أخرى. وأبدى اهتماما كبيرا بالمواقع المغمورة بالمياه، معتقدا أنها كانت مسألة وقت فحسب، قبل ان يصبح مشهورا في بريطانيا.

نتج عن رحلات كلارك في شمال أوروبا، التي استكشف في خلالها الثقافات الشعبية، والإثنوغرافيا، وعلم الآثار، والتغير البيئي، إصدار كتابه الثاني، المستوطنات الميزوليتية في شمال أوروبا، الذي صدر في العام 1936. وقد أشار في هذا

الكتاب الرائع، إلى أن المجتمعات القديمة قد تفاعلت مع بيئاتها. ويمكن اعتبارها جزءًا من أنظمة بيئية أكبر، تتفاعل عناصرها مع بعضها البعض. كانت تلك فكرة جريئة في ذلك الوقت. وكانت المواضيع المهيمنة، في هذا الكتاب الرائع، هي، المسائل التي تختص بالبيئة، وعلم البيئة.

وإذا كان هناك عالم آثار مخلص، صادق، فلا بُدَّ من أن يكون غراهام كلارك، فقد كرس نفسه، بالكامل، لعلم الآثار البيئي، ودراسة الناس، وبيئاتهم المتغيرة. كان مقتنعا، أيضًا، بأن لعلم الآثار دورًا كبيرًا يلعبه في المجتمع. كان كلارك يجادل بأن أهم وظيفة لعلم الآثار، هو، شرح كيفية عيش الشعوب القديمة.

في خلال سنوات الحرب، كتب كلارك (الذي لم يستطع أن يخدم في الجيش لأسباب طبية) سلسلة من المقالات حول علم الآثار الاقتصادي، الذي يدرس كيفية كسب الناس لقمة العيش في الماضي. وفي كتابه الاسس الاقتصادية في أوروبا في عصور ما قبل التاريخ الذي صدر في عام 1952، جمع هذه المقالات معا في سلسلة من الفصول تناولت كل شيء، من طرق تربية النحل القديمة، إلى صيد الحيتان.

وقد قام بمزج الادلة الأثرية مع مظاهر الثقافة الشعبية التقليدية التي كانت ما تزال حية في الدول الاسكندنافية، التي جمعها في خلال رحلاته إلى شمال أوروبا. وأصبحت رؤاه الاقتصادية، والإيكولوجية مؤثرة للغاية، حَتَّى في الولايات المتحدة، حَيْثُ كان، هو، نفسه غير معروف تقريبا. وبمجرد

صدور هذا الكتاب المهم، تم انتخاب كلارك لكرسي الأستاذية لعلم الآثار في عصور ما قبل التاريخ في كامبريدج، في الوقت الذي كان فيه هذ الكرسي (الذي يسمى بكرسي ديزني نسبة إلى المحامي، والآثاري الشهير جون ديزني الذي كان راعيا له)، هو الرائد في علم الآثار لعصور ما قبل التاريخ في العالم.

لم يتخلَّ كلارك ابدا عن أمله في أن تتجه الانظار، يوما ما، صوب مواقع مستنقعات العصر الميزوليتي. في العام 1948، افاد أحد علماء الاثار الهواة باحتمال وجود موقع أثري في منطقة ستار كار، الواقعة بالقرب من بحر الشمال، في شمال شرق يوركشاير. أدرك كلارك، في الحال، أن الفؤوس الحجرية التي وجدت على سطحها تشبه تلك الموجودة في الدول الاسكندنافية، وكان هناك احتمال كبير بأن هذه الفؤوس قد أتت من رواسب مستنقع مغمور بالماء. قام كلارك بعمليات حفر في منطقة ستار كار بميزانية صغيرة على مدار ثلاثة مواسم بين عامي 1949 و1951. وكان الموقع، الذي يقع على ضفاف بحيرة جليدية طويلة جافة، يمتد على رصيف من شجر البتولا، ما بين القصب. وقد قدمت تقنية تحديد التاريخ بالكربون المشع التي قدرت ان تاريخه يعود إلى نحو سنة 7500 قبل الميلاد تسلسلاً زمنيًا مهمًا له.

في تقريره عن عملية التنقيب، رسم كلارك صورة لمخيم صغير يقع في مشهد من غابة البتولا، حَيْثُ كان السكان يصطادون الأيل الاحمر، وانثى الظبي. وهو لم يصف موقع ستار كار من خلال الأدوات الحجرية، وعظام الحيوانات فحسب، ولكن

في سياق البيئة المحيطة به، وقد كان أول من يفعل ذلك في بريطانيا. وبعد مرور خمسين عاما، قامت فرق من الباحثين مجهزة بأحدث وسائل التكنولوجيا العالية بإعادة التنقيب في موقع ستار كار، ووجدت أنه، في الواقع، يشكل مستوطنة أكبر من تلك التي ذكرها كلارك. وتشير الاختبارات التي اجريت مؤخرا، باستخدام مطياف الكتلة المعجل لتحديد تاريخ الموقع بتقنية الكربون المشع، إلى انه يعود للفترة الممتدة ما بين 9000 و8500 قبل الميلاد.

وباعتباره حاصلاً على كرسي الأستاذية (ديزني)، تابع كلارك خطوات دوروثي غارود، الذي كان قد قام بتدريس أول فصل دراسي عن عصور ما قبل التاريخ العالمية في جامعة كامبردج. وقام بتأسيس قسم يتعامل مع عصور ما قبل التاريخ كموضوع عالمي، وقد سافر على نطاق واسع، إِلى أماكن بعيدة مثل أستراليا. قام كلارك وزملاؤه بتدريب جيل من علماء الآثار الشباب الذين شجعهم على العمل في الخارج، وغالبا في مناطق أثرية غير معروفة. (كنت واحدا منهم، إِذ ذهبت إلى إفريقيا).

أنتجت رحلاته، والثورة التي حدثت في علم الآثار باستخدام تقنية تحديد التاريخ بواسطة الكربون المشع، صدورَ واحدٍ من أعماله المعروفة، العالم في عصور ما قبل التاريخ. كان الكتاب فريدًا من نوعه، وقت صدوره في العام 1961. فقد كان مؤلفون آخرون، مثل غوردون تشايلد، قد كتبوا ملخصات عن أوروبا القديمة، وحضارة المايا، وعن عصر ما قبل التاريخ في أمريكا

الشمالية. لكن لم يحاول أحد من قبل ان يؤلف عملاً يستكشف بدايات التاريخ البشري في كل ركن من أركان العالم. صدرت من كتابه العالم في عصور ما قبل التاريخ ثلاث طبعات، وانتشر على نطاق واسع.

كان غراهام كلارك ذا شخصية خجول، ومنطوية على نفسها، ومع ذلك كان قادرًا على توجيه الانتقاد الشديد لزملائه من علماء الآثار. لكن اهمية كتاباته الموثقة، وإصراره على أهمية علم الآثار الاقتصادي، استمرا فترة طويلة بعد وفاته. لم يقتصر الأمر على كونه جزءًا أساسيا من علم الآثار في القرن العشرين، لكنه ساعد أيضًا في تحويل علم الآثار إلى علم ذي قواعد عالمية، كما هو حاله اليوم. وقد هاجم كلارك، مثل العلماء الآخرين الذين ظهروا في وقت لاحق، ذلك الهوس الشديد بامتلاك القطع الأثرية، ومعرفة تواريخها. لقد أثرت كتاباته في جيل كامل، في حين عمل طلابه - وبعضهم ما يزال يعمل - في جميع أنحاء العالم.

الفصل التاسع والعشرون



الصبي العزيز

المكان: وادي أولدوفاي، في تنزانيا، في شرق إفريقيا، والزمان: 17 تموز 1959. كان لويس ليكي يرقد في سريره في المخيم يعاني من حمى خفيفة، عندما غادرت زوجته ماري لإعادة فحص موقع كانوا قد عثروا فيه على أدوات حجرية قبل ثماني سنوات. وعندما وصلت إلى الموقع، قامت ماري بإزاحة التربة الناعمة عن اثنين من الأسنان الكبيرة التي كانت موجودة في ما بدا أنهما فكّا إنسان. توقف قلبها. ثُمَّ قفزت في سيارتها اللاند روفر، وذهبت إلى المخيم. وصاحت (لقد حصلت عليه!). اصبحت الحمى شيئا منسيا وسط كل هذه الإثارة، وبدأ لويس، وماري بفحص الأسنان معا.

لكن ما هو شكل الهومينين، أو اشباه البشر (وهو نوع يرتبط بالبشر، أو انه من اسلاف الإنسان) في التربة؟ عندما تم انتشال كل القطع، جمعت ماري جمجمة إنسان يشبه القرود، قوية المظهر. وقد أطلقا عليها اسم Zinjanthropus boisei التي تعني (إنسان بويز شبيه القرد الجنوبي)، على اسم السيد بويز الذي موّل البحث، وقد كان ذلك الإنسان ذا بنية قوية، اكتُشف، أول مرة، خارج جنوب إفريقيا. أطلق عليه آل ليكيسي اسم (الصبي العزيز).

لقد بدأ البحث الحديث عن أصول الإنسان في سنوات اقدم. في العام 1924، حدد عالم التشريح الأفريقي الجنوبي رايموند دارت (1893 - 1988) جمجمة صغيرة لإنسان شبيه بالقردة عُثر عليها في محجر للكلس في مدينة تانغ في مقاطعة الكاب في جنوب إفريقيا. بدت الأسنان حديثة تماما، والوجه، بدا، بارزًا إلى الأمام، وكان الرأس مستديرا إلى حد ما، وهو مزيج من السمات الحديثة، والقديمة. أطلق عليها دارت اسم Australopithecus africanus، الذي يعني شبيه (القردة الجنوبية من إفريقيا). وأعلن انه يمثل الرابط بين القرود الحية، والبشر. لكن دارت كان مضطرا للقفز إلى مثل هذه الاستنتاجات.

كما رأينا في الفصل الثامن، رفض العلماء، في ذلك الوقت، اكتشاف العالم الهولندي أوجين دوبوا الذي سماه بيتيكانثروبوس إريكتوس، الذي عرف بإنسان جاوة في العام 1889 كرابط مفقود محتمل بين القرود الحية، والبشر. وقد كان العلماء مفتونين بإنسان

نياندرتال، كانوا، أيضًا، مهووسين بجمجمة إنسان بيلتداون المزورة، مع دماغها الكبير، وأسنانها الصغيرة، التي عثر عليها في إنكلترا في العام 1912. وسخر دارت منهم باحتقار. وانضم إلى دوبوا على قائمة صيادي الأحفوريات المشككين باستنتاجاتهم.

حَتَّى منتصف القرن العشرين، لم نكن نعرف الكثير عن بداية التطور البشري المبكر. تم اكتشاف المزيد من عينات إنسان النياندرتال في أوروبا، ومِنْ ثَمَّ في الشرق الأوسط. وقد أثبتت أحافير الإنسان المنتصب في منطقة تشوكوديان التي اكتشفت في الصين، أن دوبوا كان محقا (انظر الفصل 8). واصبح جنس الأوسترالوبيثكس، أو القردة الجنوبية الذي تم اكتشافه في جنوب إفريقيا معترفا به، الآن، ممثلا لأجداد البشر المحتملين. وبغير ذلك، فإن سجل قارة إفريقيا سيصبح فارغا تقريبا. ثُمَّ جاء كل من لويس، وماري ليكي وغيّرا كل شيء.

وقد أصبح لويس سيمور بازيت ليكي (1903 - 1972) الذي كان والداه من مبشري كنيسة إنكلترا في كينيا، أحد أبرز علماء الآثار في القرن العشرين. اتصف ليكي بانه كان طائشا، مندفعا، متعنتا، درس علم الآثار في جامعة كامبريدج، حَيْثُ تسبب في إثارة الجدل بسبب ارتدائه السراويل القصيرة التي يرتديها لاعبو التنس! لطالما أراد ليكي أن يقوم بالتنقيب في إفريقيا، حَيْثُ كان مقتنعا بأن أصول الإنسان توجد هناك. بعد تخرجه في العام 1926، قام بتنظيم رحلة قصيرة إلى كينيا، وقام بالتنقيب في كهف غامبل في الوادي المتصدع الكبير. عثر

على طبقات أرضية متراصة تشير إِلى مناطق سكنها البشر، يعود تاريخها إلى ما لا يقل عن 20 ألف سنة. وربما كان السكان الأوائل معاصرين لثقافات إنسان النياندرتال في أوروبا. وقد كشفت الطبقات الارضية الأخيرة عن ادوات مصنوعة بإتقان مثل رؤوس الرماح، والسكاكين، وغيرها من الأدوات. وكان هؤلاء الأشخاص الأكثر تطورًا، هم، المعادلين الأفريقيين للاقوام التي عاشت في العصر الحجري القديم العلوي الذين عثر على آثارهم في كهوف فرنسا (انظر الفصل 10). وأظهرت الأدوات الحجرية، بشكل قاطع، أن المجتمعات الأفريقية في عصور ما قبل التاريخ كانت مختلفة تماما عن المجتمعات الأوروبية. وكانت هناك، أيضًا، تلميحات عن الاقوام الاكثر قدما من الأفارقة، من القطع الأثرية البدائية التي وجدت في مواقع أخرى. أصبح لويس ليكي مقتنعًا بأن شرق إفريقيا هو المكان الذي ظهر فيه البشر أول مرة.

في العام 1931، رافق ليكي عالم الحفريات الألماني هانز ريك إلى مضيق أولدوفاي. يبلغ طول هذا المضيق 40 كلم، وهو عبارة عن ارض جرداء سبخة، وخشنة يمتد في سهول سيرينجيتي بشمال تنزانيا، حَيْثُ كشفت حركات الأرض العنيفة عن طبقات عميقة، متعددة من قيعان بحيرات قديمة. كان ريك يبحث عن الحيوانات المتحجرة. في غضون ذلك، كان ليكي مقتنعا بأنه سيكون هناك دليل على وجود أولى المستوطنات البشرية في الوادي.

وعقد ليكي رهانا مع لي بمبلغ عشرة جنيهات انه لن يجد أدوات حجرية في أولدوفاي. ربح ليكي الرهان مُنْذُ اليوم الأول.

كان ليكي يتكلم لغة الكيكويو بطلاقة مُنْذُ صباه. لذلك كان مرشحا طبيعيا للقيام بدراسة أنثروبولوجية دامت مدة عام عن القبيلة، وبدأت في العام 1936. وفي نفس هذا العام، تزوج من زوجته الثانية، ماري. كانت ماري ليكي المولودة في لندن (1913 – 1996) ذات شخصية مناقضة لشخصية لويس. كانت هادئة، متواضعة، منظمة، وكانت رسامة تقنية رائعة، ومنقبة دقيقة، وخبيرة في تكنولوجيا الأدوات الحجرية. ابقت العديد من مخططات زوجها الطائشة طي الكتمان، وأكملت العديد من أعمال التنقيب التي قام بها.

ولم يسمح أي منهما للحرب العالمية الثانية ان تقف في طريقه. فقد قاما في العام 1943، بالتنقيب في سلسلة من المواقع في منطقة أولورغيسالي في وادي ريفت، الواقع بالقرب من نيروبي، حَيْثُ قام الصيادون القدماء بذبح طريدة كبيرة. كانت هذه المواقع تعود إلى حوالي 300 ألف سنة مضت.

تعد منطقة أولورغيسالي مكانا رائعا للسياحة. يمكنك أن ترى فيه العشرات من أدوات الجزارة الحجرية الضخمة مرمية حَيْثُ تركها مستخدموها قبل مئات آلاف السنين. كما عثر آل ليكي على كتل ضخمة من الأدوات الحجرية، وعظام الحيوانات المتكسرة، بالإضافة إلى أماكن كان الصيادون يخيمون، ويتناولون الطعام، وينامون فيها. ورغم ان مساحة هذه المواقع لا تتعدى

بضعة أمتار، إلّا أنها تمثل أرشيفا لا يقدر بثمن يروي تفاصيل السلوك البشري القديم. وبعمليات تنقيب دقيقة، يمكن العثور على كل شيء من الأدوات الصغيرة، إلى عظام الفأر، أو حَتَّى أنياب الثعابين.

بعد الحرب، ومن خلال العمل بميزانية غير موجودة فعليا، استخرج الزوجان في أولدوفاي، الآلاف من الأدوات الحجرية من الطبقات الاثرية في قاع البحيرات. وفي العام 1951، نشر الزوجان ليكي تقريرًا عن سلسلة طويلة من الأدوات الحجرية الموجودة في وادي أولدفاي، كانت السلسلة تبدأ بأدوات التقطيع البدائية التي كانت أكبر قليلاً من حجارة الحمم البركانية المنبسطة. وبمجرد أن توفر إطار عام لسلسلة الأدوات الحجرية، حوّل الزوجان تركيزهما من الأدوات الحجرية إلى الطين النقي، والرمال الموجودة في الوادي. عندما ينظر المرء إلى ما كان في السابق قاع بحيرة، يصعب عليه تصور أن الحيوانات الكبيرة، والصغيرة كانت تشرب من مياهها الضحلة. في هذه المرة كان الزوجان (ليكي) يبحثان عن مخيمات على ضفاف البحيرة حَيْثُ يذبح الناس فرائسهم باستخدام مفارم بدائية مصنوعة من الحجر، ورقائق من الحجارة الحادة. وباستثناء بضعة اجزاء أسنان متكسرة، لم تكن هناك أي آثار لمتحجرات بشرية.

بعد ذلك، في تموز العام 1959، عثرت ماري ليكي على بارانثروبوس بويزي، أو إنسان بويزي، أو الصبي العزيز، (Dear Boy)، وقد حقق، الصبي العزيز، للزوجيْن ليكي شهرة عالمية.

قامت الجمعية الجغرافية الوطنية (ناشيونال غرافيك) بتمويل كامل لعملية التنقيب لموقع بارانثروبوس.

قامت ماري بالتنقيب في اجزاء العظام المبعثرة، وكتل الحجارة بعناية فائقة. وسجلت كل واحدة من القطع الأثرية، أو العظام، وهي في مكان تواجدها، ومن قبل ان تلتقطها. ولأول مرة، استطاع علماء الآثار إعادة بناء حياة بشرية موغلة في القدم.

لقد زرت، ذات مرة، ماري وهي تقوم بالتنقيب. كانت تجثو على ركبتيها تحت مظلة، وكلابها الدلماسية مستلقية بالقرب منها. وكانت تزيل برفق رمال البحيرة عن عظام ظبي صغير بواسطة فرشاة، وخيوط اسنان. كان صبرها رائعا. إن أساليب التنقيب البطيئة التي كانت تتبعها ماري هي الآن ممارسة شائعة لحفر المواقع القديمة.

كم كان عمر متحجرة إنسان بارانثروبوس بويزي؟ كان لويس قد خمن تاريخها بحوالي 600 ألف سنة. عندما استخدم اثنان من الجيوفيزيائيين من جامعة كاليفورنيا، في مدينة بيركلي طريقة البوتاسيوم – أرجون الجديدة لتقدير عمرها وجد انها تعود إلى 1.75 مليون سنة (انظر الفصل 27)، وقد صُعق الزوجان ليكي، والمجتمع العلمي العالمي من هذا. ومن يوم إلى آخر، يزداد التاريخ الذي ظهر فيه الإنسان لأول مرة في القدم، إلى ثلاثة أضعاف تقريبا.

وقد توسع البحث عن أسلاف الإنسان مُنْذُ ذلك الحين. فقد أسفرت الاستكشافات واسعة النطاق في مواقع أولدوفاي

الأخرى عن وجود المزيد من جنس الهومينينز. وتم العثور على اجزاء متفرقة من جمجمة، وقدم كاملتيْن تقريبا من موقع أقدم قليلا تنتمي إلى فرد هومينين نحيل، وبنيته ليست قوية، مختلفة تماما عن إنسان بارانثروبوس.

قام عالم الأنثروبولوجيا في جنوب إفريقيا فيليب توبياس بدراسة الرفات وحددها بانها تعود إِلى جنس الهومو هابيليس، (الشخص الماهر). وبالجرأة المميزة، التي يتصف بها لويس ليكي اعلن ان الشخص الماهر هو أقدم صانع ادوات على الإطلاق، ويعود تاريخ ظهوره، إِلى قبل مليوني سنة من يومنا هذا.

اخذت ماري على عاتقها مهمة ضخمة، هي تدوين المواقع السحيقة القدم. كان تقريرها عبارة عن دراسة تفصيلية لشرح التقنيات البسيطة لصنع المفارم، والقشارات. وقد اطلقت على هذه التقنية تسمية أولدوان، على اسم الوادي. وفي الوقت نفسه، قام لويس بجولات على نطاق واسع، وألقى عدة محاضرات، وكان يقترح باستمرار نظريات جديدة للأصول البشرية. كما كان أيضًا يشجع الباحثين الشباب على البحث في سلوك الحيوانات الرئيسة في صنف الثدييات مثل الشمبانزي، وإنسان الغاب، والغوريلا. فمثل هذه الدراسات قد توفر نظرة ثاقبة للسلوك البشري في بدايات ظهور الإنسان. كان لويس أستاذا، ومرشدًا مهمّا للعالم البريطاني جين غودال، الذي أصبح مرجعا عالميا في كل ما يخص حيوان الشمبانزي، والعالم الأمريكي ديان فوسي، المتخصص في حيوان الغوريلا.

توفي لويس في العام 1972. وفي العام 1977، شرعت ماري بالتنقيب في مكان واعد آخر يقع في منطقة ليتولي في تنزانيا. لقد أذهلت زملاءَها عندما عثرت، وسط الرماد البركاني المتصلب، على أثرين لطبعات اقدام لافراد من جنس الهومينين يعود تاريخهما إِلى 3.59 مليون سنة. تم اكتشاف آثار الأقدام، تلك، في قاع نهر موسمي. وقد شكلت الطبقات الرقيقة من الرماد البركاني الدقيق ممرا للحيوانات التي كانت تتجول بحثا عن برك ماء شرب قريبة. كما حافظ الرماد البركاني المتصلب على آثار أقدام للفيلة، ووحيد القرن، والزرافات، والنمور ذوات الأسنان السيفية، والعديد من أنواع الظباء.

وهذان المساران من آثار أقدام افراد من جنس الهومينين الذي كان يبعد بينهما حوالي 24 سنتيمترا، ربما حدثا في أوقات مختلفة. وآثار الكعب، والقدم المميزة كانت تعود لشخصين يقل طولهما عن 1.5 متر. وصفت ماري طريقة مشيتهما بأنها كانت متمايلة، وبطيئة. وقد التصق الوركان في أثناء سيرهما، على عكس مشية الناس الحديثة حين يباعدون ما بين اقدامهم. وعلى الأرجح، فان آثار الأقدام تلك تعود إِلى أفراد مثل االقردة (لوسي)، كان الأوسترالوبيثيكوس أفارينيسيس الصغير، وهو أحد اسلاف الإنسان المنقرضة الذي عثر عليه، في إثيوبيا، العالم دون جوهانسون في العام 1973، واحدا من العديد من هذه الاكتشافات.

كان إنسان الهومينينس الذي عثر عليه في منطقة لاتيولي في تنزانيا يسير منتصبا، ثنائي الحركة (يسير على قدمين). وبما أن النزول من الأشجار كان سمة إنسانية مميزة، فإن ثنائية الحركة كانت عنصرًا أساسيًا في الصيد، والبحث عن الطعام بنجاح في مكان، واسع، مفتوح.

عمل هؤلاء العلماء الذين درسوا الأصول البشرية سنوات، مع متحجرات قليلة العدد، وكانوا يميلون إلى الاعتقاد بان التطور البشري في بداياته المبكرة كان خطيا (يسير في خط مستقيم). ولكن بحلول سبعينيات القرن العشرين، كان من الواضح أن هناك اجناسًا من الهومينيس ذوات تنوع أكبر بكثير، موجودة في شرق إفريقيا، وربما في مكان آخر، وأن معظمها لم يزل غير معروف. أصبح هذا التنوع واضحا مع بدء المزيد من الباحثين العمل في شرق إفريقيا، من بينهم دون جوهانسون، وريتشارد نجل الزوجيْن ليكي. اصبح علم دراسة مستحثات أسلاف البشر (دراسة الأحافير البشرية)، نفسه، يعتمد على فرق ميدانية مؤلفة من اختصاصيين مختلفين مهتمين بالبيئة المحلية، والسلوك البشري مثل اهتمامهم بالمتحجرات. كان الزوجان ليكي يميلان إلى العمل بمفردهما. وقاما بعملهما الجيولوجي الخاص بهما، وبدآ شيئا، فشيئا في استدعاء الخبراء في مجالات أخرى، مثل علم النبات، والتاريخ، والحيوان. لكن هذا الاستخدام المحدود للزملاء المتخصصين غيّر مسارات البحث. أظهر التسلسل الزمني الجديد القائم على البيولوجيا الجزيئية أن الشمبانزي،

وهو أقرب أقاربنا الأحياء، والبشر يفترقان عن بعضهما البعض بحدود 7 إلى 8 ملايين سنة.

وقد بات البحث عن أصل البشر يشمل متحجرات اقدم بكثير من متحجرات هومو هابلي، وزينيانجثروبوس بويسي. قام ريتشارد ليكي بالبحث في اماكن يمكن ان تتواجد فيها متحجرات على الجانب الشرقي من قاع بحيرة توركانا النائية في شمال كينيا. وقد وجد فريقه مجموعة من متحجرات أوسترالوبيثكس المحفوظة جيدا، وبقايا لاسلاف الإنسان التي أظهرت مزيجا من السمات البدائية، الأكثر تقدما. وحينها، وبعد أن أصبح هناك المزيد من الأحافير للدراسة، فان الهومو هابلييوم اصبح يطلق عليه الهومو الأول وهو، أقدم سلف مباشر لنا.

في خلال تسعينيات القرن العشرين، عثر عالم امريكي متخصص في علم مستحثات البشر، يدعى تيم وايت، على سبعة عشر هومينينس صغيرًا في موقع أرميس في منطقة أواش القاحلة في إثيوبيا، وقد انحدروا من جنس الأرديبيتيكوس، وهو أحد اجناس الهومينين، الذين عاشوا على الأرجح، مُنْذُ 4.3 مليون إِلى 4.5 مليون سنة مضت. وكانوا يبدون أقرب إلى الشمبانزي من البشر، وربما عاشوا في بيئات مليئة بالشجر أكثر من نظرائهم. كان هذا المخلوق غير المعروف كثيرا، يقف على قدمين، قريبًا من أوائل الهومينينس Hominins مما جعله يختلف عن القردة الأفريقية. تم العثور على عظامه في طبقات اثرية في موقع ارميس

في وقت لاحق تحت الطبقات التي عثر فيها على بقايا جنس الأسترالوبيثسينات الذي ظهر لاحقا.

ووفقًا لمعايير جنس الرديبيتيكوس، فان القردة لوسي التي اكتشفها دون جوهانسون، التي كان عمرها 3 ملايين سنة، تُعَدّ أصغر بكثير.

نحن نعلم، في الوقت الحاضر، أن مجموعة كبيرة من الهومينينس ترعرعت في شرق إفريقيا بين سبعة ملايين ومليوني سنة. والكثير منها ما يزال غير معروف، لكن يبدو أن الأسترالوبيثينوس كانت من بين الاجناس الأكثر شيوعا، ومن بين هؤلاء هومينينس ذوو رؤوس دائرية اكثر، فضلا عن سمات مميزة أخرى في الوركين، والأطراف تبرر تسميتهم بأوائل الهوموو، أقرب أسلافنا. وما يزال تاريخ ظهورهم لغزا، لكنهم كما هو واضح صنعوا أدوات حجرية وربما، ظهروا مُنْذُ حوالي 3 ملايين سنة.

على غرار علماء الآثار الآخرين في أوائل القرن العشرين، أمضى الزوجان ليكي الكثير من حياتهما المهنية يعملان بمفردهما، بأقل قدر من الأموال. ساعدت اكتشافاتهما على وضع دراسة الأصول البشرية على مسار حديث.

اليوم، مع وجود العديد من المتحجرات التي يتم العمل عليها، بتنا ننظر إِلى التطور البشري كشجرة ذات فروع عديدة، معظمها أدى إلى طريق مسدود. ومع ذلك، فان عددًا قليلا منها، قادنا إلى جنس الهومو الأول، ومِنْ ثَمَّ، الإنسان المنتصب، وفي نهاية المطاف، قادنا إلى البشر المعاصرين.

الفصل الثلاثون



المزارعون الأوائل

في الثلاثينيات من القرن العشرين، كتب غوردون تشايلد عن الثورة الزراعية التي من المفترض أنها بدأت في خلال فترات الجفاف في الشرق الأوسط (انظر الفصل 23)، وخمّن أن التحول من مرحلة الصيد، وجمع ثمار الاشجار إلى الزراعة، ورعي الحيوانات بدأ قبل حوالي 4000 سنة قبل الميلاد، أو ربما في وقت اسبق قليلا. كان تشايلد يخمن، وكان لديه القليل جدا من المعلومات لدعم أفكاره. ما الذي حدث لتتغير حياة الإنسان بشكل أساسي في هذه المنطقة؟ بعد ثلاثة أرباع قرن، فان العديد من أعمال التنقيب، وابتكار تقنية التأريخ بالكربون المشع، وتوافر بيانات مناخية جديدة قدمت بعض المفاتيح لحل تلك الالغاز.

كتب تشايلد عن الثورة التي غيرت التاريخ. لقد غيرت الزراعة بالفعل مسار الحياة البشرية؛ ولكنه كان تغييرا، وليس اختراعا، كما فهم تشايلد ذلك جيدًا. كل من جمع الحشائش الصالحة للأكل، عرف أنها تستنبت، وتنمو، ثُمَّ تلقي بذورها. ولكن لماذا نبذل كل تلك الجهود، إذا كانت هناك أعشاب برية يمكن تناولها؟ بدأ الناس في زراعة أعشاب الحبوب البرية كإستراتيجية للبقاء، عندما تضاءلت المحاصيل الطبيعية. كان التحول من الصيد، وجمع النباتات لغرض الغذاء، إلى الزراعة أحد أهم نقاط التحول في تاريخ البشرية. أين ومتى حدث ذلك لأول مرة، ولماذا؟

هذه الأسئلة اثارت اهتمام علماء الآثار لأكثر من قرن من الزمان. ولكن للأسف، فإن المواقع التي بدأت فيها الزراعة المبكرة قليلة، ومتباعدة. من الصعب على علماء الآثار التمييز بين الحبوب البرية (التي تنمو وحدها دون تدخل الإنسان)، والمنزلية (التي يقوم الإنسان بزراعتها)، وعظام الماعز، والغنم البري التي كانت متطابقة تقريبا مع تلك الموجودة في الحيوانات الداجنة. هذا هو علم الآثار الذي يتطلب ظروفا جيدة لحفظ اللقى الاثرية، وتنقيبات بطيئة الحركة، واستخدام غرابيل دقيقة جدا لاستعادة البذور الصغيرة. كما إنّه يحتاج إلى عمل جماعي، إذ يعمل فريق العمل مثل رجل واحد يفهم اختصاصه.

كان روبرت جون بريدوود (1907 – 2003) ابن صيدلي، التحق بجامعة ميتشيغان لدراسة الهندسة المعمارية، وتخرج في

نهاية المطاف، وقد حصل على شهادة جامعية في الهندسة المعمارية، والأنثروبولوجيا، والتاريخ. بعد ذلك عمل بريدوود لصالح المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو، حَيْثُ أصبح خبيرا في علم التسلسل الزمني، فقد كان يضع جداول زمنية لطبقات الخنادق العميقة. اقترن بزوجته ليندا في عام 1937، وعملا معا مدة ستة وستين عاما في واحدة من أطول الشراكات عمرا في علم الآثار. ماتا في التسعينيات من عمرهما، ولم تفصل بين موتهما سوى ساعات قليلة فقط.

طرح بريدوود سؤالا أساسيا: أين وجد الناس أعشابا برية يمكن زراعتها؟ تحدث إلى علماء الأحياء، وعلماء النبات، الذين وجهوه إلى موطن جبلي في شمال الشرق الأوسط. وبناء على ذلك، توجه بريدوود إلى شمال العراق. وقاده بحثه إلى موقع جرمو، وهو تل قروي في مرتفعات جبال زاغروس الواقعة في العراق، وكان ذلك في أواخر الأربعينيات، وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين.

وكان هذا مشروعا مختلفا، فعلى مدار عدة أجيال، كان علماء الآثار يطلبون من الاختصاصيين تحديد عينة عظام الحيوانات التي تصادفهم في بعض الأحيان، أو البذور المكربنة التي يعثرون عليها في اثناء القيام بحفرياتهم. لكن بريدوود أدرك أنه بحاجة إلى أكثر من متخصصين يعملون بدوام جزئي. أصر على إقامة شراكات وثيقة مع العلماء الخبراء، وعلى إجراء عمل بحثي منظم. واصطحب معه عالما متخصصا في الجيولوجيا لدراسة التفاعلات

بين السكان وبيئتهم. وكان من بين أعضاء الفريق الآخرين عالم حيوان، وعالم نبات، واختصاصي في المواد الفخارية، وخبير في تحديد التأريخ بالكربون المشع.

كان تل جرمو يحتوي على اثنتي عشرة طبقة، كانت مأهولة بالبشر. كان التل يتألف من حوالي خمسة وعشرين منزلاً جدرانها مبنية من الطوب، وسقوفها من الطين، شيدت فوق اساسات حجرية، ويعتقد انه ربما كان هناك 150 شخصا يعيشون في جرمو. نجح فريق عمل بريدوود في مهمته، بينما كان المتخصصون المرافقون له يقومون بتجميع اجزاء الاشياء، وتركيبها معا. كان السكان قد زرعوا نوعين من القمح، والعدس أيضًا، وكانوا يقومون بتربية الماعز والأغنام. اصبح بريدوود خبيرا في علم التسلسل الزمني، لانه كان مفتونا، بطبيعته، بتقنية تحديد التأريخ بالكربون المشع. وما أثار دهشته، ان أقدم التواريخ التي وجدت عن تل جرمو تعود إِلى حوالي سبعة آلاف سنة قبل الميلاد، أي قبل مدة طويلة من الموعد المفترض عموما لظهور الزراعة الذي كان يتحدد بأربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

كان تل جرمو موقعا أثريا قديما بشكل مميز، وكانت الزراعة راسخة هناك بالفعل. من الواضح أن هناك فجوة زمنية كبيرة بين هؤلاء المزارعين ومجتمعات الصيد التي كانت سابقة لها. افترض بريدوود أن المزارعين الأوائل كانوا قد عاشوا في قرى أبسط من جارمو، لذلك شرع في العثور عليها.

انتقل إلى تل شايونو الواقع في جنوب شرق تركيا. ولدهشته، اكتشف أيضًا قرية أخرى مخططة جيدا، ومعروف الآن ان تاريخها يعود إِلى ما بين 9400 و7200 سنة قبل الميلاد. أدرك بريدوود أن التحول إلى الزراعة كان عملية أكثر تعقيدا بكثير مما ظن الناس. غير أنه لم يكن مستعدا للاكتشافات غير العادية التي تمت في نفس الوقت في أريحا.

كانت كاثلين كينيون (1906 – 1978) عالمة آثار بريطانية مشهورة بحبها للتنقيب، وكلاب صيد الثعالب ونصب الشراك لها. كانت قد درست التاريخ في جامعة أكسفورد، ثُمَّ إنّها في العام 1929 كانت قد رافقت جيرترود كاتون طومسون إلى زيمبابوي العظمى، حَيْثُ طورت شغفَها بالتنقيب (انظر الفصل 22). كان تدريب كينيون لا تشوبه شائبة. وقد اكتسبت مهاراتها الرائعة في التنقيب من عملها مدة أربعة فصول على يد العالم مورتيمر وزوجته تيسا ويلر في موقع فيرولاميوم (ثالث أكبر مدينة رومانية في بريطانيا) للفترة من 1930 إلى 1934 (انظر الفصل 25).

بنت كينيون لنفسها سمعة كبيرة كمنقبة آثار إِلى الحد الذي تمت دعوتها للقيام بعملية تنقيب في فلسطين، في مدينة السامرة، عاصمة إسرائيل القديمة. وقد أمضت ما تبقى من حياتها المهنية في الشرق الأوسط. بينما كان (بريدوود) ينقب في تل (جرمو)، حصلت (كينيون) على تمويل للقيام بعمليات تنقيب في تلّة المدينة القديمة في أريحا، التي تقع الآن في الأردن. كانت خبرتها في تحديد

الطبقات الاثرية المعقدة المليئة باجزاء متكسرة من قدور الطبخ فريدة من نوعها. لم يكن من الممكن اختيار شخص أفضل منها لهكذا عمل.

كانت مدينة أريحا، بطبيعة الحال، موقعًا توراتيا، وأيضًا إحدى المدن الرئيسية المحصنة في العصر البرونزي. كانت كينيون مهتمة بكامل تاريخ المكان. قامت بالحفر في قاعدة ما يسمى بتل السلطان، وهو موقع يقع على مقربة من المدينة الحديثة، وجمعت العديد من عينات من الكربون المشع من أقدم الطبقات الارضية. بحلول فصل الربيع، ارسي الاساس في قاع المدينة لمستوطنة صغيرة كان قد سكنها البشر قبل 9500 سنة قبل الميلاد. سرعان ما أصبحت أريحا مستوطنة صغيرة تتألف من المساكن الدائرية الصغيرة المبنية من الطين، والطوب المجفف بالشمس. بعد قرن من الزمان، كانت تضم حوالي سبعين منزلاً. وبين حوالي سنة 8350 و7300 قبل الميلاد، أصبحت بلدة صغيرة، يسكنها حوالي عدة مئات من السكان، محاطة بجدار حجري ضخم يزيد ارتفاعه على 3.6 متر. كان هناك برج حجري مع سلم داخلي مثبت داخل الجدار. من غير المعروف ما إذا كان البرج، والجدار يشكلان حصنا دفاعيًا ضد فيضان نهر الأردن، أو ضد الناس.

كان سكان البلدة بالتأكيد مزارعين، مثلهم مثل خلفائهم، الذين كانوا يعيشون في بيوت مستطيلة مبنية على أساسات حجرية. بحلول عام 6900 قبل الميلاد، كان السكان يدفنون الرؤوس، والهياكل العظمية (التي لا رأس لها في بعض الأحيان) التي

تعود لأسلافهم تحت منازلهم. بعض الجماجم كانت تحتوي على ملامح الوجه التي أعيد بناؤها باستخدام الجبس لإنشاء (صور شخصية) بدائية، مع استخدام الأصداف البحرية كعيون. وتحت أرضية أحد المنازل، عثرت كينيون على حفرة واحدة تحتوي على عشر جماجم مغطاة بالجبس بإحكام.

وقد كانت أعمال التنقيب التي قامت بها كينيون في أريحا مثالا تقليديا لما يُعرف، عادةً، بالحفر العمودي. كانت الخنادق العميقة التي عادة ما تكون ضيقة، توفرتفاصيل عن حياة الذين عاشوا في المدينة، ومتى عاشوا. وتكشف عن التغييرات التي حدثت في المجتمعات القديمة عبر الزمن. في الواقع، كان الحفر العمودي الخيار الوحيد لكينيون، حَيْثُ كانت طبقات مدينة أريحا عميقة للغاية: وكان لا يمكن الكشف عن المزيد من مساحات الطبقات الارضية القديمة جدا بسبب انها عملية باهظة التكاليف. لكن حفرياتها العمودية قدمت التاريخ الأساسي للمدينة عبر قرون عديدة.

أكدت حفريات كينيون في أريحا ما كان قد توقعه بريدوود: كانت بدايات الزراعة عملية طويلة ترسخت في العديد من الأماكن. واليوم، نعرف عن تشتت قرى صغيرة تمتد من جنوب شرق تركيا إلى سوريا، وأبعد جنوبًا التي كانت تمارس الزراعة قبل 11 ألف سنة في الأقل. وقد تم التنقيب بكثافة في عدد قليل منها، باستثناء موقع (أبو هريرة)، وهو قرية صغيرة تقع على مشارف الغابات وفي منطقة أكثر انفتاحًا في وادي الفرات

في سوريا. قام عالم الآثار البريطاني أندرو مور بالتنقيب في تل المستوطنة في عامي 1972 – 1973، وكان يعلم أن سدّا كهرومائيا سيغرقه قريبا. قدم موقع (أبو هريرة) صورة رائعة عن قرية كانت من أوائل القرى الزراعية يعود تاريخها إلى عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، أعيد تشكيلها على يد خبراء التنقيب، ومن خلال أبحاث فرق العمل.

كان مناخ المنطقة باكملها أكثر دفئا، ورطوبة إلى حد ما مما هو عليه اليوم. استقر عدد قليل من العائلات في منازل صغيرة حفرت إلى مستوى قليل في الأرض، وسقفت بالقصب. عاش السكان على تناول مجموعة واسعة من الحيوانات البرية، والأعشاب، والمكسرات الصالحة للأكل. وكانوا يصطادون قطعان الظباء (غزلان الصحراء) التي كانت تهاجر من الجنوب في كل فصل ربيع: وكان أكثر من 80 في المائة من عظام الحيوانات في المستوطنة الصغيرة يعود إلى هذه الحيوانات الصغيرة، وكانوا يتناولون لحومها المجففة في وقت لاحق. كما استهلك القرويون نصف دزينة من النباتات البرية الرئيسية، واستخدموا أكثر من 200 نوع آخر كعقاقير نفسية، وكأصبغة وخضاب (لتلوين الاشياء)، وأدوية. نجح سكان تل (أبو هريرة) في الاعتناء ببيئتهم، وكان يسكن حوالي 300 – 400 شخص في هذه القرية الناجحة. ثُمَّ، فجأة، تركوا المستوطنة بعد تعرضهم لموجات من الجفاف المستمر.

نحن نعرف ذلك من التغيرات العميقة التي حدثت في مختلف الأعشاب، والمكسرات الصالحة للأكل في الطبقات

الارضية المأهولة بالسكان. قام أحد الخبراء الذين عملوا مع العالم اندرو مور، وهو عالم النبات غوردون هيلمان، بجمع بقايا النباتات من الطبقات الارضية المأهولة بالسكان. قام بغمر عينات التربة الغنية بالبذور في المياه، واستخدم غرابيل ناعمة، ما وفر له مجموعة كبيرة من النباتات. وقد أثبت أنه بعدما أصبحت الظروف المناخية أكثر جفافًا بعد سنة عشرة آلاف ق.م، تراجعت غابات الجوز، والمراعي البرية إلى مناطق أبعد عن تل (أبو هريرة). ومع اشتداد الجفاف، أصبحت الأغذية النباتية أكثر ندرة.

يمكن للمرء أن يتخيل حجم الكارثة المتزايدة. يوما بعد يوم، كانت الشمس تشرق وسط سماء شاحبة الزرقة. لم يكن الأفق محملا بالمطر ابدا. كانت سحابات من الغبار تلتف عبر السهول الخضر التي كانت تجاور عادة نهر الفرات. تراجعت الأراضي العشبية المفتوحة، واصبح لزاما على القرويين، مع كل شهر، من الجفاف، وفي كل عام، السير مسافات أطول في الغابات لجمع المكسرات، والأعشاب الصالحة للأكل. اصبح ناتج الحصاد أكثر فقرًا بكثير من ذي قبل، بحَيْثُ كان القرويون يعانون الجوع بحلول فصل الشتاء. وبحلول الربيع، كانوا يتضورون جوعا. يعتقد هيلمان، ومور أن اجتماع الجفاف، وإزالة الغابات (بسبب الطلب المتزايد على الحطب - نتيجة لدرجات الحرارة الباردة، والعدد المتزايد من الناس)، أجبرا السكان على المغادرة.

في حوالي سنة 9000 قبل الميلاد، نشأت مستوطنة أكبر، مختلفة تماما، على تل القرية الأصلي. في البداية، واصل السكان اصطياد الظباء. ثُمَّ، في غضون بضعة أجيال، تحول الناس إلى رعي الماعز، والأغنام. وعلى مدى القرون العشرة التالية، أصبح رعي الماعز، والأغنام أكثر أهمية من أي وقت مضى مع تراجع صيد الظباء. اصبحت القرية تغطي مساحة 12 هكتارا. كان من الممكن أن يجد الزائرون أنفسهم يتجولون في مجتمع من البيوت المستطيلة المبنية من الطوب، وذات الطابق الواحد إلى جانب عدد الممرات الضيقة، والأفنية.

ويقدر الخبراء أنه يجب أن تكون عملية استنبات الأعشاب البرية، والسيطرة عليها منْ أَجل ان يقوم الناس بحصادها قد استغرقت ما بين 1000 و2000 سنة. قد تكون الحاجة إلى حماية الإمدادات الغذائية في مواجهة فترات الجفاف الطويلة هي السبب الذي دفع الناس إلى زراعة المحاصيل. في البداية، قام السكان في تل (أبو هريرة)، (وفي أماكن أخرى) بزرع الحشائش البرية لزيادة محاصيل البذور - كانت البداية مع حبوب الجاودار، ثُمَّ القمح والشعير. بعد فترة، أصبحوا مزارعين دائميين، مربوطين بحقولهم، وأراضي الرعي المخصصة لحيواناتهم. اعتمدت زراعتهم، بالكامل، على مياه الأمطار، وكانت مراحل الزراعة الأولى تتطلب توقيتا دقيقا حَتَّى لا تتلاشى المحاصيل قبل أن تمطر. كانت هذه عملية زراعة عالية المخاطر في بيئة تتساقط أمطارها في أوقات غير متوقعة.

وما زالت قضية ما إذا كان الجفاف الذي استمر ألف سنة في منطقة شرق البحر المتوسط، وحدث حوالي سنة عشرة آلاف ق.م. هو الذي أوجد الزراعة، مفتوحة للنقاش. لكن ربما كان أحد العوامل الرئيسية التي حولت الصيادين، وجامعي الثمار، والطعام إلى مزارعين.

تعدّ قرية (أبو هريرة) واحدة من العديد من القرى الزراعية الأولى التي يرجع تاريخها إلى حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد، التي أصبحت معروفة الآن في منطقة واسعة من الشرق الأوسط. فجميع القرى تشترك في الخصائص العامة للتحول الذي شوهد في ذلك الموقع الأثري السوري. استمرت عملية نشوء الزراعة فترة اطول - ومُنْذُ وقت أقدم بكثير - مما كان يعتقده أي شخص قبل جيل مضى. ولم يكن هذا التحول تطورًا فريدًا يقتصر على الشرق الأوسط، فقد بدأت الزراعة في نفس الوقت، تقريبا، على الجانب الآخر من العالم، في الصين؛ وبعد ذلك بقليل في الأمريكتين.

ونتيجة لهذا التغيير حدث انفجار في النمو السكاني، ونشأت مجتمعات بشرية أكثر تعقيدا بكثير، وفي غضون بضعة آلاف من السنين، تكونت أقدم حضارات العالم في مصر، وبلاد ما بين النهرين.

الفصل الحادي والثلاثون



حرّاس الإمبراطور

أراد الإمبراطور الصيني تشين شي هوانغ أن يتذكره الناس إلى الأبد. فقام، هذا الحاكم الوحشي العنيف، في عام 221 قبل الميلاد، بتحويل الصين من خليط من ولايات متفرقة إلى مملكة واحدة، ليموت بعد ذلك بإحدى عشرة سنة في سن التاسعة والثلاثين فقط. كان هناك اعتقاد صيني قديم بأن تناول مادة الزئبق يجلب الخلود، والحياة الأبدية، لهذا قام هذا الإمبراطور بابتلاع أقراص من الزئبق لا تعد، ولا تحصى. وبدلا من أن تمنحه الخلود كانت، السبب في موته.

توفي الإمبراطور في منطقة تقع على ساحل بحر الصين، لكن كان يجب أن يدفن في وسط البلاد. وبينما كان نعشه ينتقل ببطء محمولا على عربة تجرها الخيول، يرافقه مسؤولون

ملكيون موثوقون، تم استخدام السمك المتعفن لإخفاء رائحة الجسم المتحلل.

بدأ تشين شي هوانغ ببناء تل لمدفنه على بعد 40 كيلومترا شرق مدينة شيان، التي تقع في شمال غرب الصين، قبل أن يصبح إمبراطورا بفترة طويلة. لكن العمل تكثف في خلال فترة حكمه. فقام حوالي 700 ألف رجل بالحفر وبناء مكان دفنه عند سفح جبل لي الشهير. ثُمَّ قام جيش صغير من الحرفيين بصنع مملكة كاملة تحت الأرض.

حفر العمال في الأسفل حَتَّى وصلوا إلى سلسلة من ينابيع المياه العذبة. ثُمَّ ملأوا المدفن بنسخ طبق الأصل من القصور، والمباني الأخرى في كهوف خاصة. تم تصميم تابوت برونزي خارجي خصيصا للإمبراطور. كانت السقوف تحاكي سماء الليل، وتحوي عددا من اللؤلؤ بمثابة نجوم السماء، ووفقا لدليل الحضارة الصينية الذي كتب في سنة 94 قبل الميلاد، تم استخدام الزئبق لنمذجة المحيط والأنهار الرئيسية، إِلى الحد الذي كان تبدو فيه المياه أنها تتدفق. ومرة أخرى، كان يستخدم الزئبق – المادة التي قتلت الإمبراطور على الأرجح – كرمز للخلود، وهذا ما يجعل من تل المدفن مكانا خطيرا: حَيْثُ أظهرت عينات التربة المأخوذة من حول المقبرة وجود مستويات عالية من التلوث.

تخبرنا المصادر المكتوبة أن الحرفيين صنعوا عددا من آلات نشابية ميكانيكية، وهي آلات حربية قديمة تشْبِه الواحدة منها الْقَوْس، كانت معدة لإطلاق النار على أي متسللين. وفور تشييع

جنازة تشين شي هوانغ، تم حجز أولئك الذين كانوا يشتركون في أعمال القبر، لمنعهم من نقل أي معلومات.

كان تل المدفن يرتفع بعلو 43 مترا فوق المناطق الريفية المحيطة به. وقام البناؤون بزرع الأشجار، والنباتات حَتَّى تمتزج مع المناظر الطبيعية المحيطة. كان مكان دفن الإمبراطور يشغل جزءًا من حديقة المدفن الضخمة، محاطًا بجدار خارجي بطول 5 كيلومترات.

وما بقي هناك داخل السور ظل سرا حَتَّى عام 1974، عندما كان بعض العمال يحفرون بئرا على بعد 2.5 كيلومتر شرق تل المدفن الذي لم تُجْرَ عليه عمليات تنقيب. ووجدوا هناك تمثالاً لجندي بحجم كامل مصنوع من التيرا كوتا (الطين النضيج)، ثُمَّ وجدوا آخر، وآخر. ووجد فريق من علماء الآثار، وخبراء الحفاظ على الآثار أنفسهم، وهم يقومون بالكشف عن تماثيل لفصيل ملكي بأكمله. كانت تلك هي تماثيل المحاربين الطينية الشهيرة. كان فريق التنقيب كبيرا لدرجة أنه لا يمكن لأي شخص الحصول وحده على التقدير الكلي للعمل الذي تم القيام به.

ولسوء الحظ، لم أتمكن من زيارة الحفريات عن قرب، ولا رؤية المحاربين إلّا عن بعد، كسائح. ولذا كان لا بُدَّ من أن يكون وصفي عاما. لكنني كنت مذهولا من المشهد. فقد كانت التماثيل واقعية بشكل لا يصدق. كانت تنتصب في أحد عشر ممرا متوازيا، طول كل منها 200 متر تقريبا. وكان يغطي الممرات سقف من الحصيرة المنسوجة، المدعمة بالطين. كان

يمكنني بسهولة تخيل وجود قوة عسكرية حقيقية. كان موكب الرجال يصطف في أربعين صفًا، معظم الصفوف كان يصطف فيها أربعة جنود. كانوا في حالة من اليقظة، والانضباط، وكل فرد منهم يقف بحالة استعداد، متأهبا للمعركة. كان المقاتلون يرتدون نسخا طبق الأصل لمعاطف مدرعة مصنوعة، في الأصل، من ألواح حجرية متصلة بأسلاك نحاسية يتم فتحها، وإغلاقها على الجانب الأيمن. كانوا من دون خوذ، يتطلعون إِلى الامام. وكل رجل له وجه مختلف، كما لو ان أشكالهم جميعها كانت مأخوذة من أناس حقيقيين. لكن وجوههم كانت تبدو خالية من التعابير، والمشاعر. جميع التماثيل اصبح لونها، الآن، بنيّا فاتحا، مع القليل من آثار الطلاء. ولكن عندما تم دفن الفوج، كانوا، جميعهم، يرتدون الزي الموحد الذي كان بألوان زاهية، كان يجب أن يكون تأثير المنظر مبهرا.

كان يقف ما يقرب من 200 من رماة القوس، والنشاب في ثلاثة صفوف في المقدمة. كانوا يرتدون الملابس القطنية (التي تم تمثيلها بالطين، أو ما يسمى بالتيراكوتا)، لكن لم تكن توجد دروع، إِذ أن أولئك الذين يستخدمون الأقواس والنشاب يطلقون النار من مسافة بعيدة بدلاً من القتال في أماكن قريبة. كانت الصفوف تتناوب في الرمي حَتَّى يكون هناك تيار مستمر من السهام، أو القوس والنشاب، وهي تتطاير في الهواء. تُظهر التجارب الحديثة أن نطاق تلك السهام، والأقواس في ذلك الوقت كان حوالي 200 متر.

كانت هناك ست مركبات حربية، وموكب لثلاث فرق من المشاة غير المدرعة خلف الرماة. وأربعة خيول مصنوعة من طين التيراكوتا تجر العربات، وفي كل منها سائق عربة. كان اثنان، أو ثلاثة جنود يرافقون كل عربة في المعركة. كانت اثنتان من المركبات هي مركبات قيادة للضباط، وفيها تقرع الطبول، أو تدق أجراس للإشارة إلى ان يتقدم الجنود أو يتراجعوا. كان بعض الضباط لديهم شوارب منسدلة، وترتسم على شفاههم ابتسامة طفيفة.

لقد غمرني هذا المشهد. هؤلاء كانوا جنودًا مهاجمين، دخلوا المعركة من دون دروع. نعرف من السجلات التاريخية أن جنود أسرة تشين كانوا شرسين. اعتقد قادتهم أن الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع. كان قتالهم الذي يجري على مسافة قريبة دمويا، وضاريا. وقاتل كل فرد منهم مستخدما السيوف البرونزية، والرماح، أو سلاح المطرد الذي يجمع رمح الحرب وفأسها، ويمكن أن يقتل الرجل بضربة واحدة.

لقد قام تشين شي هوانغ بحماية نفسه بفوج مقاتلين اقوياء مدربين تدريبًا جيدًا. لكنهم حرسوه، وهم مصنوعون من الطين، ربما لأن جنود النخبة، هؤلاء، كانوا ذوي قيمة عالية، ويعزّ عليه التضحية بهم.

كان هناك المزيد، إِذ توجد، أيضًا، حفرة ثانية تحتوي على أكثر من 1500 جندي، وحصان، مقسمين على أربع مجموعات. في إحدى الزوايا، تحيط صفوف من رماة الرمح غير المدرعين

بالرماة الراكعين. أما بقية الحفرة فكانت تحوي عربات، تحمل أربعة وستين منهم في العربة الواحدة. كان المقصود من كل ذلك هو أن يبعثوا رسالة تنبيه، لان يحترس الجنود المكلفون بالحراسة من حدوث هجوم مفاجئ.

كانت هناك حفرة ثالثة، تم حفرها في العام 1977 بعد خمس سنوات من أعمال الحفر، والتنقيب الشاقة، وكانت تحوي مركبة قائد الجنود، وحرسه، وكانوا رجالا طويلين للغاية يزيد طولهم على 1.9 متر، أي أطول بنحو 10 سنتيمترات من متوسط أطوال الجنود في الحفرة الأولى.

كان مجرد كشف تلك التماثيل الهشة بمثابة ممارسة ثمينة لاسلوب العمل الجماعي. كان الطين المحلي ثقيلاً بما فيه الكفاية للسماح بنحت الأشخاص بحجمهم الكامل. وقد تم تصميم تمثال كل شخصية على هيئة أجزاء ثُمَّ يجري تجميعها، وجُعِلَ الرأس منفصلاً عن الجسم. وسمح ذلك للفنانين بإنتاج شخصيات بقالب واحد، بينما كانت الرؤوس منحوتة كبورتريهات فردية.

أما أعمال الصيانة فقد كانت تتطلب امورا كثيرة للغاية. وبغض النظر عن إعادة تجميع العديد من التماثيل، حاول المشتركون في أعمال الصيانة، أيضًا، اكتشاف لون الزي الموحد الذي كان يرتديه الجنود من شظايا الطلاء الصغيرة. تم الانتهاء من أعمال الصيانة التي كانت تجري بتمهل مع التركيز على الموارد التي ستجلبها الانشطة السياحية في هذا الموقع. أصبحت التماثيل الطينية للفوج الذي يحرس الإمبراطور تشين شي هوانغ مركز

جذب دولي رئيسي، يزوره عشرات الآلاف من السيّاح كل عام. كان هذا هو علم الآثار، كما هو، في الظاهر، في حين كان علماء الآثار يواجهون مشاكل مثل الازدحام وتلوث الهواء الذي يؤثر في التماثيل.

وتوالت الاكتشافات. وفي العام 1998 تم العثور على حفرة، تقع جنوب غرب تل المدفن، تحتوي على الآلاف من شظايا الدروع، والخوذ، وربما كانت موقعا لمستودع أسلحة. لكنها كانت بالكاد تظهر من التربة.

بعد مرور عام، تم اكتشاف حفرة أخرى، تقع إلى الجنوب، وعُثِر فيها على أحد عشر تمثالا طينيا، ومرجل برونزي. وبالنظر للإيماءات التي كانت تظهرها شخصيات تلك التماثيل المتقنة، فانها كانت تماثيل لشخصيات بهلوانية، ربما قصد منها الترفيه عن الإمبراطور في الحياة الآخرة. وكان يوجد في حفر أخرى خمسة عشر موسيقيًا، كانوا يملكون أدوات موسيقية (كانت متهرئة كثيرا)، ربما كانت لتسلية الإمبراطور في أثناء ما كان يتمشى في حديقته.

وفي حفرة أخرى كان هناك ستة وأربعون طيرا برونزيا تقف على منصة موضوعة بجانب قناة مائية. حَتَّى إنّ أحد الطيور كان يمسك بدودة (برونزية) في منقاره. ومثل هذه القطع التي تم العثور عليها مصادفة هي التي تعود بك فورا إلى الماضي. يذكرك الطير، ودودته بأن القدماء أيضًا يقدرون الجمال، والبرك الهادئة، والحياة البرية.

كان متنزه الإمبراطور تشين شي هوانغ مذهلا في حجمه وتعقيده. على سبيل المثال، كانت إسطبلات الإمبراطور تقع خارج المنطقة المركزية، وهو المكان الذي تم دفن الخيول الحقيقية فيه مع تماثيل طينية لسائسي الخيول وهم راكعون. لماذا كان يجب أن تكون خيولا حية، نحن لا نعرف. ربما كانت بعضا من الخيول المفضلة لدى الإمبراطور، في بلاد تتمتع فيها الخيول بمكانة عالية. هناك تقارير غير مؤكدة عن حفرة مليئة بنماذج طينية لنساء الإمبراطور. وهناك بالقرب أيضًا سلسلة من المقابر الجماعية تذكرنا بالتكلفة البشرية الهائلة لسعي الإمبراطور إلى التمتع بالخلود السعيد.

وقد تم الكشف مؤخرا في العام 2012، عن مجمع قصور ضخم طوله 90 مترا، وعرضه 250 مترا، مع ساحة فناء مركزي، ومبنى رئيسي، يطل عليه. وسوف يكون هناك علماء آثار يعملون على نصب الإمبراطور تشين شي هوانغ التذكاري لعدة أجيال.

وما يزال هناك تل المدفن. توقّف علماء الآثار الصينيون عن العمل فيه، لأنهم يشكّون في أنهم مايزالون لا يملكون الخبرة التقنية - أو الأموال - للتنقيب، وصيانة غرفة المدفن. وهناك بالطبع الخطر الذي يشكله التلوث بالزئبق.

وقد كانوا، حَتَّى الآن، يعتمدون على مقاييس المغناطيسية - وهي أجهزة تقيس المستويات المختلفة للموجات المغناطيسية في أعماق التل - هذه الأدوات تتفاعل مع الحديد، والطوب، والتربة المحترقة، وحَتَّى الخشب المتحلل، والمواد

العضوية الأخرى. وقد كشفت أجهزة القياس المغنطيسية عن وجود قصر تحت الأرض في مركز التل، محاطًا بجدار. كما يعرف الخبراء أن هناك وفرة من المعدن داخل غرفة الدفن، ونظام صرف صحي ممتاز. كما توجد مستويات عالية من الزئبق على نحو غير عادي، وهذه ربما تؤكد وصف المناطق الداخلية التي يعود تاريخها إلى عام 94 قبل الميلاد (انظر أعلاه).

وقد احاط جدل شديد بما يمكن ان تكشفه أعمال التنقيب لقبر الإمبراطور تشين شي هوانغ. فقد جادل علماء الآثار بأن الأساليب المتوفرة لديهم، حاليًا، ليست كافية (بجانب الأضرار التي لحقت ببعض تماثيل الجنود الطينية في أثناء عروض التنقيب). ومع ذلك، فإن بعض الناس كانوا يدفعون باتجاه القيام فورا بأعمال التنقيب، مدعين أنه سوف يردع اللصوص. في حين اشار آخرون إلى الإمكانيات السياحية الضخمة، والفوائد الاقتصادية التي يوفرها القبر الملكي.

وكل هذا يثير سؤالا مهما لعلماء الآثار في كل مكان. هل يجب أن تأخذ احتياجات صناعة السياحة أولوية على علم الآثار بحد ذاته؟ فجحافل الزائرين التي تتوافد على مواقع مثل أهرامات الجيزة في مصر، أو أنغكور وات في كمبوديا، تثير مخاوف حقيقية حول ما يمكن ان تسببه من أضرار لتلك المواقع المهمة.

يعلم علماء الآثار الصينيون أن التنقيب في تل مدفن الإمبراطور تشين شي هوانغ، سيكون أهم أعمال التنقيب في القرن، إن لم يكن في كل العصور. وهم يريدون، بحق، تماما أن ينتظروا

حَتَّى تتوفر لديهم الأدوات، والمعرفة اللازمة لإجراء ما سيكون مشروعا بحثيا فريدا من نوعه.

ومع استمرار الجدل، يكتسب الصينيون الخبرة من خلال حفر المدافن الملكية الأخرى. في سنة 74 قبل الميلاد، أطاحت عشيرة الهان بالإمبراطور ليو هي (92 – 59 قبل الميلاد) بعد سبعة وعشرين يوما فقط من وجوده في السلطة. وقد تم استبعاده، لأنه كان مستهترا ذا (رغبة بالملذات)، وعادات فاجرة. ولم يكن، أيضًا، يمتلك موهبة القيادة. وبدلاً من ذلك، تم تخفيض رتبته، وجَعَلَهُ كبارُ المسؤولين ماركيزا، (وهي رتبة ادنى من رتبة الحاكم) على هايون، وهي مملكة صغيرة تقع في شمال منطقة جيانغشي، بالقرب من مقاطعة نانتشانغ. وعلى الرغم من وصمة العار التي كانت تلاحقه، تم تكريم ليو بمقبرة فخمة ذات أسوار تحتوي على عشرة قبور، كان من بينها واحد لزوجته.

وقد قام فريق للبحث تحت إشراف عالم الآثار شين ليشيانغ بالتنقيب في المقبرة مُنْذُ العام 2011. وقد احتوت مقبرة ليو على ألواح، وسبائك من الذهب، وتكدس فيها 78 كغم من الذهب وحده. وكانت هناك عشرة أطنان من العملات البرونزية، وعشرة مراجل مدفونة مع الماركيز، ومصابيح في شكل الأوز البري، ومركبات حربية ذوات أحصنة حقيقية تم التضحية بها.

تم رفع تابوت ليو في العام 2015 عندما تمت إزالة الجزء الداخلي من المقبرة، بأكمله، باستخدام المصاعد الهيدروليكية وتم نقله إلى مركز أبحاث مجاور لإخضاعه لتحليل مفصل. وكان

هناك ختم داخل التابوت يحمل اسمه، وقد تأكدت هويته من خلال بعض الكتابات الموجودة على بعض الأشياء البرونزية المدفونة معه. كان القبر فريدا من نوعه، ولم يلمسه أحد إطلاقا. تم إخضاع جثة المركيز لاختبار الحمض النووي لتحديد علاقته بنبلاء سلالة هان الآخرين. وكما جرت العادة، كانت الحلي المصنوعة من حجر اليشم تغطي عينيه، والأنف، والأذنين، والفم. كانت مقبرة ليو دليلا على الثروة المدهشة للصين التي كانت تحكمها سلالة الهان مُنْذُ ألفي عام.

يُعتدّ قبر الإمبراطور تشين شي هوانغ مثالا للتحديات الضخمة التي سيواجهها علماء الآثار الصينيون في المستقبل، خصوصا مع تعدد وجود المدافن الغنية بالقطع الاثرية. وستكون مهمتهم أسهل إلى حد ما من خلال الأساليب العلمية المتطورة بشكل متزايد، مثل الاستشعار عن بعد، والحمض النووي، ودراسات المحتوى النظائري (المشع) للعظام البشرية التي يمكن أن تكشف عن التغيرات في النظام الغذائي في خلال الحياة. إنهم يعلمون أن مشاريع فرق العمل الجماعي البحثية طويلة الامد ستكون هي القاعدة، ويجب أن يكون هذا الاكتشاف متوازنا مع أعمال الصيانة، ومع متطلبات صناعة السياحة المحلية الضخمة. يمكننا أن نكون على يقين من أن بعض من أفضل اكتشافات علم الآثار في المستقبل سوف يأتي من الصين. ويمكننا أن نكون على يقين من أن المزيد من الاكتشافات الرائعة تنتظرنا.

الفصل الثاني والثلاثون



علم الآثار تحت الماء

يُعدّ عالم الآثار جورج باس (من مواليد 1932) خبيرا في الحضارة الموكيانية التي ظهرت في اراضي اليونان. وهو، أيضًا، أحد الخبراء الـروّاد في العالم في علم الآثار المختص بالمناطق المغمورة بالمياه. أصبح باس عالم آثار في هذا الاختصاص عن طريق الصدفة، عندما كان طالب دراسات عليا في جامعة بنسلفانيا. كان متحف الجامعة بحاجة إلى شخص ما لإدارة عملية التنقيب في حطام سفينة كان موجودا في قاع البحر قبالة منطقة راس غليدونيا في جنوب غرب تركيا. وتم اختيار باس. لم يكن يعلم شيئا عن الغوص، لذلك أرسله المتحف إلى نادٍ محلي للشباب للتدرّب على التنفس تحت الماء. كان ذلك اختيارا ملهما.

في العام 1954، اكتشف كمال أراس، وهو أحد الغواصين الباحثين عن الإسفنج الاتراك، كومة من الأشياء البرونزية قرب الكاب (ارض داخلة فى البحر). على ما يبدو، فان إحدى السفن ارتطمت بإحدى الصخور ما احدث فتحة في وسطها. وبينما كانت السفينة تغرق، بدات تخرج منها قطع أثرية بشكل غير منتظم، واستقرت على عمق 27 مترا تقريبا. لفت الامر انتباه بيتر ثروكمورتن، وهو صحافي أمريكي، وعالم آثار من الهواة، كان يقوم في العام 1959 بفهرسة حطام السفن القديمة على طول الساحل. وأدرك أن حطام السفينة قديم بشكل لافت للنظر، واقترح أن ينظم المتحف بعثة تنقيب علمية تقوم بفحصه، وكان ذلك أول مشروع للتنقيب عن الاثار تحت المياه، على الإطلاق، ومن هنا ولد علم الاثار تحت المياه.

كان جورج باس، قبل كل شيء، عالم آثار. وبمجرد أن رأى ذلك الحطام، أصر على أنه يجب أن تتم المحافظة على نفس معايير التنقيب، والتسجيل التي تستخدم مع الاثار الموجودة فوق، وتحت سطح الارض عند التعامل مع تلك الموجودة تحت سطح الماء. وأشار إلى أن السفينة التجارية كانت تحمل شحنة من البضائع لتنقلها من مكان إلى آخر. وهذا يمكن أن يوفر معلومات حيوية عن طرق التجارة القديمة. ومُنْذُ ان غرقت السفينة، وأنزلت حمولتها في قاع البحر، إِلى ان تم اكتشافها بعد عدة قرون، لم يقترب أي إنسان من ذلك الحطام، أو يمسسه، وبهذا فهي تختلف عن المواقع الأثرية الموجودة على سطح الأرض، مثل

مخيمات الصيد، أو المدن، التي تنتقل، أو يعاد بناؤها باستمرار، وتتعرض إلى جميع أنواع التأثيرات، والتدخلات البشرية في وقت لاحق. فهي لا تكون محكمة الإغلاق أبدًا بنفس الطريقة التي يكون عليها حطام السفن، وهي تحت الماء، وغالبًا ما تستقر في اعماق المياه، ولا يستطيع الوصول إليها سوى الغواصين.

استقر حطام سفينة رأس غيليدونيا وسط قاع صخري مكشوف. قام باس والغواصون الذين كانوا برفقته بتصويره أولًا، ولم يتمكنوا من استخدام الورق لتسجيل قياسات ومواقع القطع الاثرية لانه يتبلل بالماء، ولذلك اعتمدوا على صفائح من البلاستيك البلوري، وأقلام رصاص مصنوعة من الغرافيت ويمكن الكتابة بها تحت الماء. وكانت الحمولة نفسها تتكون، أساسا، من كتل صلبة من النحاس، والبرونز، والمصنوعات اليدوية التي اندمجت معا في القاع. كل ما كان يمكن أن يفعله باس هو رفع الكتل باستخدام رافعة سيارة ثقيلة. ومِنْ ثَمَّ يقوم اعضاء فريق التنقيب بعزلها عن بعضها البعض على الشاطئ.

أثبتت الحمولة انها ذات قيمة. ويتألف الكثير منها من سبائك النحاس التي يعود مصدرها إلى دولة قبرص. ثُمَّ كانت توجد هناك سبائك من القصدير، الذي يستخدم لصنع أسلحة برونزية. وكان ذلك المعدن ثمينا للغاية، لدرجة أن الطاقم قام بتعبئة خردة البرونز في سلال من الخوص. لقد جاءت العديد من القطع الاثرية الموجودة في الحطام من سوريا وفلسطين. ورجّح باس أن السفينة قد سافرت إلى قبرص لتحميل النحاس،

والخردة المعدنية في طريقها إلى بحر إيجه. لكن متى سقطت؟ أعطت الأواني المرسومة، وعينات الحمولة التي خضعت إِلى تقنية الكربون المشع تاريخا يعود إِلى سنة 1200 قبل الميلاد. وهذا يعني ان السفينة غرقت في خلال العصر البرونزي المتأخر. انتقل باس في العام 1967 من حطام سفينة كيب غليدونيا مباشرة، تقريبا، إلى سفينة بيزنطية بالقرب من جزيرة ياسي أطه، وهي جزيرة تقع قبالة غرب تركيا. كان الحطام، في الأساس، عبارة عن كومة من الأمفورات (أوعية تخزين كبيرة من الطين). وقام ببناء برجين تحت الماء فوق السفينة لالتقاط صور فوتوغرافية. أما علماء الآثار فيقومون بتقسيم سطح الموقع على مربعات، تماما كما يفعلون في اثناء قيامهم بعمليات التنقيب على سطح الأرض. ويقوم الغواصون الذين كانوا يحومون فوق المربعات بتسجيل حالة كل قطعة أثرية قبل نقلها إلى السطح. كانت هناك خراطيم كبيرة تقوم بامتصاص الطين الموجود في قاع البحر، وتقوم بقذفه بعيدا لغرض القيام بفحصه.

وفي هذه الحالة، كانت العملات المعدنية التي عثر عليها تشير إلى ان حطام السفينة يعود إلى النصف الأول من القرن السابع الميلادي، والجزء الذي نجا من الهيكل كان كافيا للمنقبين ليتمكنوا من دراسة المطبخ المسقوف بالبلاط (مطبخ السفينة) الذي يستقر في منتصف الطريق بين القوس (مقدمة السفينة) والكوثل (مؤخرة) السفينة، وفي عمق الهيكل (جسم السفينة).

كان هناك موقد مصنوع من الفخار، وكانت أدوات المائدة، وأواني الطبخ ما تزال في مكانها.

كانت بعض الأشياء الحديدية قد تحللت داخل كتل من الرمل، والاصداف التي تناثرت في الموقع. قام أحد أعضاء فريق البحث، هو، مايكل كاتسيف، بإخراج ما بداخل الكتل، ثُمَّ ملئها بمادة المطاط الصناعي. عندما تم تكسير القالب، خرجت منه مجموعة من الأدوات الأصلية: فؤوس ذوات نصل مزدوج، وأدوات للنجارة، ومبارد، وحَتَّى آلة لسد حزوز هيكل السفينة (جعل وصلات السفينة مانعة للماء).

تستغرق عمليات التنقيب عن الاثار تحت المياه وقتا اكثر قياسا بتلك التي تجري على الشاطئ. استلزم الأمر الاستعانة بـ 3575 غواصا لفحص السفينة الياسادية. وكانت أخشابها خفيفة للغاية بحَيْثُ اضطر الغواصون إلى تنظيفها من الرمال، ثُمَّ ربط كل واحد منها بقاع البحر بواسطة دواليب الدراجات الهوائية، منْ أَجل قياسه وتسجيله، وإلّا فإن الخشب الهش كان يمكن أن يطفوَ بعيدًا قبل حمله إلى السطح. قام أحد أعضاء الفريق، هو، فريدريك فان دورنينك، بدراسة سجلات كل قطعة خشبية، حَتَّى قطع المفاصل وثقوب المسامير، لرسم هيكل السفينة البالغ طولها 21 مترًا. وقد نجح، ولكن كلاً من مقدمة السفينة، ومؤخرتها كانا غير مكتملين.

وأسفرت عمليات التنقيب في سفينة ياسي اطه عن ابتكار الطرق الأساسية المستخدمة لدراسة جميع حطام السفن. أصبحت

التكنولوجيا المستخدمة أكثر دقة بعد عملية التنقيب التي قام بها العالم كاتسيف في عامي 1967 - 1969 لسفينة يونانية بسيطة يعود تاريخها إِلى القرن الرابع قبل الميلاد في مدينة كيرينيا في شمال قبرص. كانت السفينة التجارية التي يبلغ طولها 15 مترًا تقريبًا قد استقرت على جانب الميناء (إِلى اليسار) وانقسمت في وقت لاحق. لحسن الحظ، نجا ثلاثة أرباع خشب هيكل السفينة.

عاشت السفينة أوقاتا عصيبة. كانت مهترئة للغاية، وقد تم إصلاحها عدة مرات. كانت البضاعة ابعد ما تكون عن كونها جذابة: 35 طنا من اللوز، وامفورة (جرة يونانية قديمة ذات مقبضين) ممتلئة بزيت الزيتون والنبيذ، بالإضافة إلى أحجار الرحى. وكانت السفن من هذا القبيل تعود لتجار مجهولين كانوا يعيشون حياتهم وهم يبحرون من ميناء إلى ميناء بين بحر إيجه وقبرص في شرق البحر الأبيض المتوسط. كانت سفينة كيرينيا اكتشافا مهما، لأنها لم توثق لحمولات سفن ملكيّة ثرية، بل وثقت حياة اناس بسطاء، وهم يمارسون أعمالهم اليومية في البحر.

كانت أعمال التنقيب في كيرينيا، هي، لسفينة متواضعة تحمل بضائع أساسية. ولكن كانت هناك سفن أخرى في البحر تحمل شحنات أكثر قيمة بكثير، مثل السفينة ذات الحمولة الثقيلة التي حطمتها الصخور الصلبة لمنحدرات أولوبورن في جنوب تركيا في سنة 1305ق.م التي لا نعرف لماذا غرقت: ربما هبت عاصفة مفاجئة قذفت بها نحو الصخور. وعندما قفز طاقمها إلى البحر هلك وسط الأمواج العاتية، وركدت سفينة

الشحن في مياه البحر على عمق 45 مترا. وبعد حوالي ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة، أبلغ غطاس الإسفنج محمد تشاكير قائده أنه رصد أشياء معدنية (لها آذان) في أسفل البحر، بالقرب من منحدرات أولوبورن. لعدة سنوات، كان علماء الاثار للمناطق المغمورة بالمياه يتحدثون في الموانئ المحلية، ويعرضون صورًا لما يبدو عليه حطام السفن القديمة. وكانوا يأملون في أن يقوم الغواصون المحليون بالإبلاغ عن أي سفن يصادفونها. لحسن الحظ، كان القبطان يحضر إحدى المحاضرات وعرف أن الأجسام ذوات الآذان يمكن أن تكون من سبائك النحاس. وأفاد بأن خبراء القطع الاثرية، والغواصين زاروا الحطام في العام 1982، مؤكدين أنها كانت لسفينة يعود تاريخها إِلى العصر البرونزي.

قام عالما الآثار جمال بولاك، ودون فري من جامعة تكساس إيه أند إم، وهو مركز رائد للبحوث في المواقع التي تقع تحت المياه، بفحص الموقع في العام 1996. ووجدوا صفوفا من سبائك النحاس، لم يمسسها أحد، وجرار تخزين ضخمة من قبرص، تمتد لأكثر من تسعة أمتار أسفل منحدر حاد. اطلق باس على سفينة أولوبورن اسم حلم علماء الآثار، ليس بسبب حمولتها الثرية، لكن لأنها كانت كبسولة زمنية مغلقة من السلع الغريبة جاءت من أماكن عدّة. وكانت حلقات الشجر التي اقتطعت من أخشاب السفينة ترجع حطام السفينة إلى حوالي سنة 1305ق.م. والأمر الأكثر أهمية هو أنها تعود إِلى فترة كانت، فيها، طرق التجارة التي

تربط مصر مع سوريا، وقبرص، وتركيا، وكريت، والاراضي اليونانية غير معروفة.

غاصت السفينة في قاع البحر في وقت من التنافس الشديد على أعمال التجارة المربحة في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. وكانت مصر التي تقع إلى الجنوب تمثل حضارة رائعة في ذروة قوتها. إلى الشمال كان هناك الهيتيتيون، الذين كانوا من التجار المحترفين، والمحاربين. وفي الغرب، كانت قصور جزيرة كريت، وملوك ميسينا في البر الرئيسي الذين كانوا يتاجرون بزيت الزيتون، والنبيذ، والسلع الأخرى في جميع أنحاء جزر بحر إيجة.

وكانت المئات من السفن التجارية تجوب السواحل، والموانئ في شرق البحر المتوسط.

لم تكن سفينة (أولوبورون) التي يبلغ طولها 15 مترًا شيئا استثنائيا، ولم يكن صاريها الصغير، وشراعها المربع يبرزان في الرصيف المزدحم. ومن يراقبها عن قرب، فحسب، من شأنه أن يلاحظ العشرات من السبائك التي يتم تحميلها. حملت السفينة شحنة استثنائية جدا حَتَّى إنّ باس وبولاك تساءلا عما إذا كان من الممكن أن تكون حمولة ملكية.

لقد واجهوا بحثا تحت الماء يتميز بتعقيد استثنائي استغرق سنواتٍ عدّة. كإن عمق المنطقة التي يوجد فيها الحطام سببًا في خلق مشاكل خطيرة: فالغواصون لا يستطيعون سوى قضاء وقت محدود في القاع، ويتعين عليهم تلقي جرعات من الأكسجين النقي في طريق العودة إلى السطح لتجنب الإصابة بالمرض. وبين

عامي 1984 و1992، انجز 686.18 غواصا ستة آلاف ساعة من أعمال البحث والتنقيب، تبعها المزيد في الموسمين التاليين.

كانت أعمال التنقيب في سفينة أولوبورون تتطلب أعمالا جماعية استثنائية، تختلف كثيرا عن أعمال التنقيب التي تجري في البر. وقدر العالم باس أن التحليلات المختبرية التي تنتج عن إجراء عمليات تنقيب تحت الماء مدة شهر كانت مماثلة للتحليلات الناتجة عن عمل عام كامل على سطح الأرض. بدأت أعمال التنقيب مع فرق من الغواصين يصنعون مقاطع متقاطعة من حطام السبائك المعدنية، وصفوفها. وكانت القياسات المأخوذة من كل سبيكة ضرورية لإعادة بناء انحناء هيكل السفينة. وسجّل نظام تحديد المواقع، والمديات اليدوي مواقع الأجسام الكبيرة مثل المراسي الحجرية.

كان في سفينة أولوبورون ما يكفي من النحاس، والقصدير لصنع 300 خوذة، ودرع برونزي. كان يوجد أكثر من 6000 قطعة سلاح في الموقع، وهو ما يكفي لفوج من المشاة. حدد الكيميائيون، وخبراء المعادن من جامعتي هارفارد، وأكسفورد العناصر المميزة في النحاس التي جعلتهم يربطون مصدر السبائك بشمال قبرص، الذي كان مصدرا كبيرا للنحاس قبل 3500 عام. كان الحصول على القصدير، الذي لا غنى عنه لتصنيع البرونز، أصعب بكثير، لكن ربما نشأ في وسط تركيا، أو أفغانستان. أما الرصاص فقد جاء من اليونان، وتركيا.

جاءت المعادن التي صنعت منها سفينة أولوبورون بشكل رئيسي من شرق موقع الحطام. حملت صناديق التخزين الكبيرة التي كانت على متن السفينة الفخار من قبرص. وكانت القوارير تأتي من الساحل السوري، والفلسطيني، من اقصى الشرق. ونقلت بعض الحمولات في جرار كبيرة صنعتها الحضارتان المينوانية، والمايسينية من منطقة بحر إيجه. أما مصر فقد قدمت الجعران (وهي حلية لخنفساء مقدسة)، ولوحة حجرية منقوشًا عليها بالكتابة الهيروغليفية. وقد تكون الأختام الأسطوانية (أسطوانات صغيرة من الطين، أو الحجر تحمل نقوشًا مسمارية) قد أتت من مدينة أوغاريت التجارية في شمال سوريا.

من المرجح اكثر أن السفينة ألوبرون أبحرت غربا من ميناء الكنعانين في سوريا إلى قبرص، بعد أن سارت في مسار دائري عدة مرات من قبل: فهي ستبحر إلى أقصى الغرب إِلى جزيرة سردينيا قبل عبور منطقة البحر الأبيض المتوسط المفتوحة على ساحل شمال إفريقيا، ومِنْ ثَمَّ تعود إلى نهر النيل. كانت مصر قد زودت السفينة ببعض المواد الغريبة على متنها، بما في ذلك قطع قصيرة من خشب الأبنوس – وهو نفس الخشب الأسود النفيس الذي استخدم في السرير، والمقعد، والكرسي التي عثر عليها في قبر توت عنخ آمون.

كانت هناك أغراض من الذهب، بما في ذلك جعران منقوش عليها اسم الملكة المصرية. نفرتيتي، والدة الفرعون توت عنخ آمون. وحبات العنبر من ساحل بحر البلطيق. وحَتَّى لوح

للكتابة، كل هذه الاشياء جاءت من الحطام. ونظرا للقطع الاثرية التي تحملها، كان في هذه السفينة الثقيلة الوزن مجموعة ملاحين من شتى انحاء العالم، وكانت سفينة سيئة الصنع، لكنها كانت تملك شراعا كبيرا سمح لها بالوقوف في وجه الرياح. كانت تحمل أربعًا وعشرين قطعة من المراسي الحجرية، وكانت تقضي أياما بلا نشاط يذكر، في انتظار هبوب رياح مؤاتية. كان هناك سياج من الألياف المنسوجة بكثافة لحماية الحمولة، والطاقم الموجود على سطح السفينة.

مثلت عمليات التنقيب في سفينة أولوبورون مثالا كلاسيكيا على ذلك النوع من العمل الجماعي المنظم بعناية الذي يتطلبه علم الآثار الذي يعمل تحت الماء. كانت السفينة تحمل حمولة جاءت من ثمانية مواقع في الأقل. لقد وفر التحليل عالي التقنية، وأعمال التنقيب، والصيانة الدقيقة لمحة فريدة من نوعها عن طريق التجارة الدولية الذي كان قائمًا مُنْذُ أكثر من ثلاثة آلاف عام. وعندما تم تطبيق الطرق نفسها على المواقع على سطح الأرض، فانها زودتنا بلمحات مثيرة عن أوائل المستوطنين في أمريكا.

الفصل الثالث والثلاثون



اللقاء مع المستوطنين الأوائل

«الماضي مثل بلد غريب، انهم يفعلون الأشياء بشكل مختلف هناك». (عبارة للروائي البريطاني إل بي هارتلي 1895 - 1972). لفهم الناس الذين عاشوا في الماضي، فإن المطلوب، هو، شخص يتحرى عن الزمان. وكان إيفور نويل هيوم (1927 - 2017)، هو، هذا الشخص. كان واحدا من أوائل علماء الآثار الذين مزجوا التاريخ مع علم الآثار في ما يعرف الآن باسم علم الآثار التاريخي. وبصرف النظر عن كونه منقبا رائعا، كان لا يكل في بحثه عن أدلة تاريخية صغيرة لإلقاء الضوء على اكتشافاته. وقد كان كاتبا مسليا، وجعل علم الآثار، (والتاريخ) متاحين للجميع.

عمل نويل هيوم في إنكلترا، أول مرة، في متحف غيلدهول في لندن (الذي أصبح الآن متحف لندن) مُنْذُ العام 1949. وقد

درس علم الآثار بطريقة صعبة، فقد عمل في مواقع البناء في لندن التي دمرتها القنابل. كانت تقنيات الكربون المشع عديمة الجدوى لتحديد تاريخ مستويات مختلفة من الطبقات الاثرية في مدينة تاريخية مزدحمة أعيد بناؤها مرارا وتكرارا. وبدلاً من ذلك، قام نول هيوم بتعليم نفسه كيفية تحديد عمر قناني النبيذ الفخارية، والزجاجية التي يعود تاريخها إِلى القرنين السابع عشر، والثامن عشر. وهكذا أصبح خبيرا إِلى حدّ أنه في العام 1957، دعاه المؤرخون في متحف التاريخ الحيّ في ويليامزبرغ في ولاية فرجينيا إلى البحث في تاريخ القناني الزجاجية، والفخارية التي كانوا يمتلكونها. واصبح، مدة ثلاثين عاما، مديرا لبرنامج علم الآثار في ويليامزبورغ.

لم تخبرنا السجلات التاريخية غير الكاملة إلّا الشيء القليل نسبيا عن المستوطنين الرواد في ولاية فرجينيا الذين وصلوا عن طريق السفن مُنْذُ العام 1607. كانت مستوطناتهم، في كثير من الأحيان، مؤقتة، وكانت منازلهم مبنية من الخشب، والقش، وقد اختفت بسرعة بمجرد ان تركوها. كانت مستوطنة جيمستاون على خليج تشيسابيك، هي، الأولى. وقد كانت بمثابة عاصمة ولاية فرجينيا حَتَّى العام 1698، عندما أصبحت مزرعة قريبة، اطلق عليها، بعد فترة قصيرة، اسم ويليامزبرغ، مركزا للحكومة مدة واحد وثمانين عاما. انتقلت حكومة الولاية إلى ريتشموند في العام 1780، وأصبحت ويليامزبرغ معزولة، ووقعت في دائرة الاضمحلال. كانت مدينة القرن الثامن عشر قد اختفت

عمليا بحلول عام 1926، عندما بدأت عملية استعادة ما تسمى الآن بـ (كولونيال وليامزبرغ). واستمر العمل فيها حَتَّى اليوم، ولكن المهندسين المعماريين يعتمدون بشكل كبير على علم الآثار، بالإضافة إلى السجلات التاريخية في عملهم. وهم يدركون أن البيانات القيمة، وغير المرئية موجودة تحت الأرض.

كانت كولونيال ويليامزبرغ المكان المثالي لنشاط نول هيوم. فالعمل في السابق كان يركز، بالكامل، على الهندسة المعمارية، لكنه كان يمتلك منظورًا مختلفا، وهو حياة الناس العاديين الذين عاشوا هناك، بعيدا عن الأضواء التاريخية. أما موقف نوول هيوم من علم الآثار التاريخي الذي كان صريحا، وقريبا من الكمال، فقد كان يجمع ما بين، مهارات التحري، والبراعة في رواية القصص، مع معرفة موسوعية عن الخزف، والزجاج. وكانت النتيجة قصصا ساحرة من علم الاثار. وكان من أولى عملياته في التنقيب، هي، تلك التي قام بها في موقع (حانة ويثربرنز)، حَيْثُ قام بتحسين أساليبه التي كانت متطورة بالفعل. كان بإمكان المهندسين المعماريين معرفة كيفية تخطيط المبنى، لكن علم الآثار، وحده، هو الذي يستطيع أن يكشف عن اسلوب الحياة في داخل الحانة. تم الكشف عن 200 ألف قطعة أثرية، كان من بينها 47 زجاجة نبيذ مدفونة، مليئة بالكرز. وظهرت العملات، والاكتشافات الأخرى في بئر عمقها 12 مترا، ما اعاد الحياة إِلى الحانة مرة أخرى.

قام نويل هيوم أيضًا بالتنقيب في متجر للاثاث، وفي العديد من المنازل، بنفس النجاح. جرت إحدى أكبر تنقيباته في مستشفى الولاية الشرقي، الذي كان يضم عددا من المرضى العقليين، واحترق في العام 1885. وقام بالتنقيب في أساساته قبل إعادة بنائه في العام 1985. وقد اصبح، الآن، متحفا.

أما مستوطنة وولستنهولم تاون، وهي جزء من مزارع مارتن المائة التي تمتد على طول نهر جيمس، و(المائة) هي أحد تقسيمات المقاطعات الأمريكية التي أسِّست في العام 1619، فقد أبرزت مشكلة مختلفة، فقد كانت، هذه، قرية استيطانية صغيرة، تقع على بعد أكثر من 11 كيلومترا من ويليامزبيرغ. وكان المستوطنون قد بنوا حصنا يحوي برج مراقبة منخفضًا، وجدارًا (سياج) خشبيًا لحماية أنفسهم من الهنود، والقراصنة الإسبان. في 22 آذار 1622، هاجم الهنود المحليون من قبيلة البوهاتان، القرية، وأضرموا النار فيها. هرب الناجون في الوقت الذي كانت فيه منازلهم تحترق. لم يعد أحد منهم إلى المستوطنة، وسرعان ما نُسِي الموضوع.

وعندما بدأت التحقيقات، لم تعرف الحقائق الأساسية سوى من الوثائق التاريخية. كان هناك بعض الإشارات إلى المستوطنات غير المهمة في سجلات المحكمة، وفي سجلات شركة فرجينيا في لندن. وعلم الآثار، وحده، يمكنه التعرف على طريقة تشييد المباني، وكيف كانت حياة السكان.

كانت ولستينهولم مثل حطام سفينة في قاع البحر، لقطة من لحظة في الماضي. بعد أعمال التنقيب التي قام بها في كولونيال ويليامزبرغ، اصبح نويل هيوم أستاذا بارعا في اكتشاف الأدلة التاريخية من الأشياء الصغيرة. وتفوق على الآخرين في ولستينهولم.

امضى نويل هيوم، وزوجته أودري خمس سنوات في التنقيب في ولستينهولم، بدآ العمل في عام 1976، وكشفا عن ألغاز المقابر، والقنوات، وحفر القمامة. كان الموقع مسطحا، لذلك كان من السهل نسبيًا الكشف عن جميع المستوطنات تقريبا. كانت القنوات الموجودة في باطن الأرض تؤدي إِلى الخطوط العريضة للحصن مع بوابتيه. وكان هناك مربع يشير إِلى قاعدة برج المراقبة، بالإضافة إلى منصة للمدفع الذي يحمي الركن الجنوبي الغربي.

قام المستوطنون بحفر بئر في الداخل. وكان هناك متجر، ومسكن. إلى الجنوب كان ينتصب مجمع شركة فيرجينيا، مع بركة ماء، وحظائر، وبيت خشبي طويل، مستلقٍ وراء سياج خشبي آخر. في إحدى البقع، قام نويل هيوم بالتنقيب في حفرة مملوءة بالتراب. بدا الأمر، وكأنه قبو، ولكن لم تكن هناك أي علامات على وجود مسكن فوقه. في البداية، كان هيوم مرتبكا. ثُمَّ عرف حقيقة الامر من خلال اطلاعه على وصف لمنازل المستوطنين الأوائل في نيو انغلاند من مواد مكتوبة في مستعمرة نيو أمستردام (التي تعرف اليوم باسم مدينة بنيويورك). كانت تلك المساكن عبارة عن أوجار، أسقفها تستقر على الأرض. وبمجرد أن تصبح لدى المالكين بعض الاموال، ينتقلون إِلى العيش فوق

سطح الأرض، ويشيدون بيوتا تقليدية للغاية. وقد عثر هيوم على بعضٍ من مثل هذه المساكن.

والسؤال، هو، من كان يسكن في تلك الأوجار؟

عثر المنقبون على قطعة متكورة صغيرة نسبيا من قماش يحوي على خيوط مغموسة بالذهب بالقرب من الأساسات، ذلك القماش شكل من أشكال ملابس الزينة التي كان يرتديها السادة، والضباط العسكريون. في العام 1621، تم إصدار قانون يحظر على أي شخص في ولاية فرجينيا ارتداء ملابس تحوي خيوطا من الذهب باستثناء أعضاء مجلس الحكم، و(رؤساء مائة المقاطعة). كان مارتن هاروود رئيس مقاطعة مارتن، هو، أحد الذين مرروا القانون. هل يمكن أن يكون هذا الذهب قد جاء من ملابسه؟

كان هناك اكتشاف آخر في الموقع - قذيفة مدفع - وهو ما عزز هذه الفكرة. ومرة أخرى، عززت محفوظات الارشيف هذه الفكرة: كان هاروود، هو، الشخص الوحيد الذي سمح له في مقاطعة مارتين بامتلاك مدفع.

كما عثر نويل هيوم أيضًا، على عدد من المقابر، كان بعضها يحوي قبورًا لضحايا اعتداء معين. وقد تمكن الاختصاصي في علم الأمراض الذي قام بالتحقيق في جريمة قتل مروعة، كانت قد حدثت مؤخرا في إنكلترا من إثبات ان العلامات الموجودة في جمجمة أحد سكان مقاطعة مارتين مماثلة لتلك الموجودة على الضحية الحديثة، التي كانت رجلا قتل على يد زوجته بواسطة مجرفة الحديقة.

تعلم عالم الآثار ويليام كيلسو (من مواليد 1941) طرق التنقيب من نويل هيوم. وقد اشتهر بعمله في أحياء العبيد في مزرعة توماس جيفرسون في مونتايسلو في العام 1994، طلبت منه منظمة بريسيرفيشن فرجينيا التنقيب في جزيرة جيمستاون، وهي أول مستوطنة أوروبية في فرجينيا.

كان على كيلسو العثور على حصن جيمس الأصلي، الذي كان مستخدما في الفترة من حوالي العام 1607 إلى العام 1624، وقد أقلت ثلاث سفن تابعة لشركة فرجينيا أوائل المستوطنين الإنكليز في خليج تشيسابيك في نيسان 1607. بنى المستوطنون حصنا في شبه جزيرة سبخة تقع على بعد 80 كيلومترا من منبع النهر. يعتقد كل مؤرخ أن المستوطنين الأصليين قد ماتوا من الحمى، وهجمات الهنود المعادين، والمجاعة. لقد جاءوا بحثًا عن الذهب، وفشلوا في سعيهم. كان الحصن الأصلي عبارة عن هيكل ثلاثي، وافترض الجميع أن النهر قد ابتلعه. وقد أثبت كيلسو أن ذلك الاعتقاد خاطئ في العام 2003، كشفت تنقيباته عن محيط الحصن. وقد اختفى ركن واحد، فقط، منه في النهر. ومُنْذُ ذلك الحين، قام كيلسو بالتنقيب في العديد من المساكن داخل الحصن، واستعاد آلاف القطع الأثرية، والهياكل العظمية لبعض السكان. هاجم الهنود الحصن في العام 1608، وكان هناك ضحيتان - أحدهما بالغ، والآخر طفل عمره خمسة عشر عاما - يرقدان في قبريْن ضئيليْن، لا يبعدان كثيرا عن سور الحصن.

قدم كيلسو معلومات، وتفاصيل كثيرة عمّا كان بداية كارثية لنشوء المستوطنة. لقد افترض المؤرخون، دائما، أن المستوطنين كانوا مجهزين بشكل سيئ. لكن علماء الآثار أظهروا أن الامر لم يكن كذلك. فقد عثروا على أدوات صيد، وأسلحة، وأدوات خشبية، وآثار لصناعة الزجاج، (يبدو أنه تم جلب الحرفيين الألمان إلى جيمستاون لتصنيع الأواني الزجاجية لبيعها في لندن).

وقد امتلأ قبو أحد المباني بالخردة في العام 1610 بناء على أوامر الحاكم الجديد. كان القبو يحتوي على كمية مدهشة من رؤوس الأسهم، والأوعية الفخارية التي كان يملكها الأمريكيين الأصليين. قد يكون، هذا، مؤشرا على العلاقة السلمية بين الهنود المحليين من قبيلة البوهاتان والمستوطنين، ولكن تلك العلاقة السلمية لم تدم طويلا.

بحلول العام 1608، حدثت أزمة في جيمستاون: فقد كان المستوطنون يتضورون جوعا، حَتَّى بعد مرور ثلاثة مواسم حصاد. لكن هل كانوا هم من تسبب بهذه المجاعة؟ يعتقد كيلسو وزملاؤه أن الامر لم يكن كذلك. وعلموا بذلك من خلال قيامهم في العام 1998 من دراسة حلقة شجر مأخوذة من إحدى أشجار السرو المحلية، أظهرت أن نمو الأشجار تباطأ بشكل كبير بين عامي 1606 و1612، بمجرد وصول المستوطنين. كان الجفاف الذي لم يكن يتوقعه أحد سابقًا، هو، الأسوأ مُنْذُ 800 عام. فقد جفّف إمدادات المياه، ودمر المحاصيل التي اعتمد عليها كل من الهنود والمستوطنين. ربما تسبب نقص

الغذاء في نشوب حرب بين الجانبين. ومن المؤكد أن العلاقات تحسنت عندما تلاشى الجفاف.

لقد ادت اكتشافات ويليام كيلسو في جيمس تاون إِلى إعادة كتابة تاريخها. إن من كان يُنظر إليهم في الماضي على أنهم مستوطنون كسالى كانوا، في الواقع، قوماً اشداء واجهوا الجفاف الوحشي الذي أوشك على محو المستوطنة. ربما كان هناك بعض السادة الذين لايعملون في جيمستاون، لكنهم لا بُدَّ من أن يكونوا أقلية. لم تكن الحياة سهلة لأي شخص بالطبع. كان يرقد اثنان وسبعون مستوطنا فقيرا في مقابر متواضعة، عادية غرب الحصن.

في العام 2010، اصبح كيلسو في عداد المشهورين في علم الأثار عندما عثر على سلسلة من الحفر الكبيرة، ما يشير إلى موقع أول كنيسة في المستعمرة. كانت هناك أربعة قبور في الطرف الشرقي من المبنى المستطيل، وهو الجزء المقدس من الكنيسة، بالقرب من المذبح. كانت العظام في حالة سيئة، ما جعل من الصعب تحديد سبب وفاة الأشخاص الأربعة، على الرغم من أنها كانت، على الأرجح، جراء الحمى، أو المجاعة.

كان هناك قبر واحد يحمل وشاحا حريريا فأخرا، مزينا بالفضة. وآخر يحوي عصا عسكرية، وصندوقًا فضيّا صغيرا، كان هشاً، للغاية، عند فتحه. واستخدم المحققون جهاز الأشعة السينية للكشف عن كبسولة رصاص صغيرة، وبعض شظايا العظام داخل الصندوق: كانت عبارة عن وعاء للمذاخر الدينية،

يحوي القطع الأثرية المقدسة، التي استخدمها الكاثوليك، وليس البروتستانت. عاش قليل من الكاثوليك في جيمستاون، وهي المستوطنة التي كان اغلب سكانها من البروتستانت.

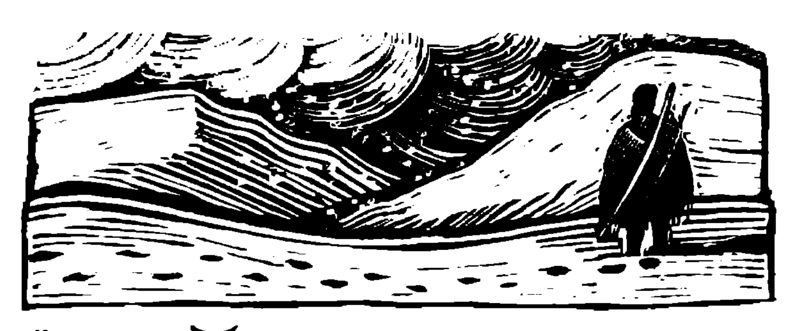
قام دوغلاس أوسلي، عالم الأنثروبولوجيا البيولوجية في مؤسسة سميثسونيان، بفحص تلك العظام، ووجد أنها تحتوي على كمية كبيرة من الرصاص، وعلى الأرجح نتيجة لحقيقة أن الناس في ذلك الوقت كانوا ياكلون، ويشربون في أوعية مصنوعة من الرصاص، أو البيوتر. (في تلك الأيام، كان البيوتر عبارة عن خليط من القصدير، والرصاص، وهو سام للبشر). وكانت العظام تحوي مستويات مرتفعة، أيضًا، من النيتروجين، ما يشير إلى أن المتوفى كان لديه نظام غذائي أفضل من معظم المستوطنين. وقد حددت ذلك سجلات الدفن، وعلم الأثار. كان أحد القبور يعود للقس روبرت هنت، أول قس في المستوطنة. وهناك قبر السير فرديناندو وينمان، فقد كان فارسا، يمتلك عظام فخذ قوية، وكان مشرفا على المدافع، والخيول، بالإضافة إلى قبر الكابتن وليام ويست، وهو، رجل نبيل، توفي عن عمر يناهز الرابعة والعشرين، وهو يقاتل الهنود. كان، هو، صاحب وشاح الحرير الفضي. وأخيرًا، كان هناك قبر الكابتن غابرييل آرتشر الذي كان كاثوليكيًا رومانيا، وهو ما يفسر وجود وعاء المذاخر الدينية في قبره. اتاح لنا البحث الأثري والبيولوجي التعرف على أوائل المستوطنين الإنكليز في أمريكا الشمالية. قادت التحريات التي قام بها كيلسو ونويل هيوم إلى

الكشف عن المستوطنين في ولاية فرجينيا من خلال الجمع بين السجلات التاريخية في كل من أمريكا، وأوروبا مع البيانات التي تم الحصول عليها في الخنادق والمختبرات. والمعرفة اللازمة لمثل هذا البحث، هي، أوسع بكثير مما هو مطلوب عادة في عمليات الحفر. على سبيل المثال، استخدمت بعض البنايات داخل القلعة الأساليب المعمارية الموجودة في شرق إنكلترا. لماذا؟ لأن واحدا من أوائل مستوطني جيمستاون كان وليام لاكستون، وهو نجار من لينكولنشاير. يبدو الأمر كما لو كنا ننظر إلى الاشياء ونحن متربعون على أكتاف المستوطنين، كما لو ان علم الآثار، والتاريخ، والعلوم الأخرى تروي قصتهم. يأخذ متحف الموقع الرائع بيد الزائرين، اليوم، من خلال علم الآثار، والاكتشافات، ويخوض بهم في ثنايا حكاية رائعة.

في كل من جيمستاون، وويلستينهولم تاون، أصبح الماضي الكولونيالي لولاية فيرجينيا زأخرا بالحياة. هنا، يدرس علماء الآثار الناس كلاعبين فرديين في تاريخهم بطرق فريدة. إن الجدول الزمني قصير بمعايير علم الآثار، ما يسمح لنا باستخدام مصادر تاريخية لملء الصورة.

إن تحديات دراسة الأفراد في ازمان قديمة جدا متنوعة بشكل كبير للغاية، خصوصا إذا كانوا أناسا بسطاء. نادرا ما يسمح لنا المزج بين علم الآثار، والعلوم الطبية الحديثة بدراسة حياة شخص عاش قبل ثلاثة آلاف سنة. لكن هذا ما حدث، عندما تم اكتشاف آثار رجل عاش في العصر البرونزي في جبال الألب.

الفصل الرابع والثلاثون



رجل الجليد والآخرون

في شهر أيلول العام 1991، رصد متسلقان ألمانيان، هما، هلموت، وإريكا سيمون، شيئا بنيا، وقد برز وسط الجليد، والمياه الناجمة عن ذوبانه التي كانت تملأ سفح أخدود يرتفع بحوالي 210.3 أمتار في جبال الألب بالقرب من موقع هاوسلابيوخ على الحدود بين إيطاليا، والنمسا. تبين لهما أنه يمثل جمجمة، وظهر، وكتفين لرجل غطس وجهه في الماء.

في البداية، افترضت الشرطة أنه جثة ضحية لحادث تسلق، وأصبح، ببساطة، الجثة رقم 91/619 في جدول تشريح الطبيب الشرعي المحلي، (الطبيب الشرعي هو المسؤول الذي يسجل الوفيات). لكن سرعان ما أدرك المسؤول أن الجثة كانت قديمة جدا، ما جعله يستدعي علماء الآثار. تقرر إجراء تنقيبات في

الموقع، الذي بات، حينها، مدفونا تحت الثلوج التي تساقطت من جديد. استخدم الحفارون منفاخا بخاريّا، ومجففا للشعر لاستعادة غطاء العشب، وأوراق، وخصلات العشب، وشظايا الخشب. وفي نهاية عملية التنقيب السريعة، اطلق فريق الإنقاذ على الضحية تسمية أوتزي، أو رجل الجليد.

كان قد وضع فأسه، وقوسه، وحقيبة ظهره على مصطبة منعزلة، ثُمَّ استلقى على جنبه الأيسر، وأراح رأسه على إحدى الصخور. اشارت أطرافه المسترخية إلى أن ذلك الرجل، وقد نهكه التعب، قد استغرق في النوم، وتجمد حَتَّى الموت في غضون ساعات قليلة. تم الحفاظ على أوتزي في خزانة باردة، تماما، مثل قطعة من لحم البقر أوتزي، حَتَّى لا يمسّه أحد.

تكشفت، الآن، خفايا قصة بوليسية معقدة. حدد خبراء الكربون المشع ان تاريخ الجثة يعود للفترة ما بين عامي 3350 و3150 قبل الميلاد، في أولى بدايات العصر البرونزي الأوروبي. وقد حسبوا أن طوله يبلغ 1.6 متر، وكان يبلغ من العمر سبعة وأربعين عامًا، عندما توفي قبل 5000 عام.

كان أوتزي مكتفيا ذاتيا، وقضى يومه الأخير في التنقل. فقد كان يحمل حقيبة جلدية ذات إطار خشبي، وخنجر صوان، وفأسًا مطلية بالنحاس، مع مقبض خشبي. كما كان لديه قوس طويل مصنوع من خشب الطقسوس، وجعبة مصنوعة من جلد الأيائل تحوي أربعة عشر سهما. كانت لديه نصال احتياطية، جنبا

إلى جنب مع الفطر الجاف، ومعدن البايرايت الذي يستخدم لإشعال النار.

كانت ملابسه مناسبة، بشكل جيد، لتسلق الجبال. فقد ارتدى مئزرا من جلد الغنم، مثبتا بحزام من الجلد. وقد ارتبطت حمالتا البنطرون بزوج من السراويل الضيقة المصنوعة من جلد الماعز. وكان معطفه الخارجي عبارة عن ثوب سميك على شكل قطع متراصة على التوالي ما بين الجلد الأسود، والبني، مصنوعة من جلود عدة حيوانات مختلفة. وكان يرتدي على معطفه عباءة من العشب، تشبه، تماما، تلك التي بدأ يرتديها الناس في جبال الألب في أواخر القرن التاسع عشر، وقبعة مصنوعة من فراء الدب، أسفل ذقنه لكي يحافظ على رأسه دافئا، وكان حذاؤه مصنوعًا من جلد الدب، والغزال، محشوا بالعشب ليحمي قدميه، وتم تثبيته بواسطة خيوط الجواريب.

كان احتساب الطول، والعمر من الأمور الروتينية، لكن أين عاش أوتزي؟

استخدم فريق البحث عظامه، وأمعاءَه، وأسنانه للإجابة عن هذا السؤال. تطلى الأسنان بالمينا عند تشكل الأسنان أول مرة، لذا فإن الأسنان التي فحصها الباحثون كانت تحتوي على آثار عناصر كيميائية لنوع من الأطعمة التي تناولها أوتيزي، عندما كان عمره بين ثلاث إلى خمس سنوات. ويتم إعادة ترميم العظام (تجديدها) كل 10 إلى 20 سنة، لذلك كان لدى الباحثين أيضًا معلومات عن المكان الذي عاش فيه الرجل الجليدي، عندما

اصبح شخصا بالغا. وقد ولد الرجل الجليدي في أحد وديان الأنهار العديدة في جنوب التيرول (المكان المرشح المحتمل، هو، وادي نهر ايزاك، الذي يقع جنوب جبال التيرول). وقد أظهرت كيمياء عظام أوتزي أنه عاش في مرتفعات أعلى عندما اصبح شخصا بالغا. وركز العلماء على الأجزاء الصغيرة من مادة الميكا كانت موجودة في امعاء أوتزي. كانوا يعتقدون أن مصدر هذه المادة المعدنية، هو، أحجار الطحن التي كان يستخدمها لإعداد طعامه. وحددت تقنية البوتاسيوم - الأرجون (انظر الفصل 27) تاريخ ظهور البقع التي نتجت عن تكوّن مادة الميكا في نهر ايزاك في منطقة فينستشغاو السفلى، التي تقع غرب وادي ايساكتال. وبذلك اكتملت سيرة حياة أوتيزي. فقد أمضى سنواته الأولى في الأراضي المنخفضة، ثُمَّ عاش، بعدها، في الجبال القريبة. لم ينتقل، أبدًا، إِلى مسافة أبعد من 60 كيلومترًا عن مسقط رأسه.

وقدمت جثة رجل الجليد، أيضًا، ثروة من المعلومات الطبية. كشفت عظامه عن أنه عانى من سوء التغذية في اعوامه التاسع، والخامس عشر، والسادس عشر. وعانى من الإصابة من طفيلي معوي ناشئ عن الديدان السوطية، فقد كان بيضها موجودا في أمعائه. وكان هناك اثنان من البراغيث في ملابسه. أما الدخان الذي استنشقه من الحرائق الداخلية فقد جعل رئتيه سوداوين مثل رئتي مدخني التبغ بكثرة في ايامنا هذه. كانت يداه، وأظافره متهرئة، كثيرة الندوب، مشوهة بسبب العمل

اليدوي المستمر. كانت معدة أوتزي فارغة، لذلك كان، على الأرجح، منهوكا، جائعا عند وفاته.

ويبدو الأمر كما لو أننا نلتقي مع أوتزي، وجها لوجه، لكن ماذا كان يفعل في الجبال، وكيف مات؟ في الأصل، اعتقد الباحثون أنه مات ميتة طبيعية، ربما يكون قد حاصرته أحوال جوية سيئة. لكنهم غيّروا رأيهم عندما اكتشفوا رأس سهم مدفونا في أعماق كتفه اليسرى. وهناك أيضًا جرح في إحدى يديه تسبب به خنجر، كما لو كان قد دافع عن نفسه ضد هجوم بالايدي، والاسلحة الشخصية. ثُمَّ جاء دور الحمض النووي مرة أخرى، فكشفت عينات منه ان أوتزي اشتبك في قتال مع ما لا يقل عن أربعة أشخاص. في النهاية، كان الجرح الذي تسبب به السهم هو الذي ادى إِلى موته، فقد تسبب في نزيف دمه حَتَّى الموت. ربما كان أوتزي قد هرب إلى الجبال، ومات بسبب جروحه، وهو على علو شاهق.

اصبح لدى رجل الجليد سيرة ذاتية كاملة بشكل مفاجئ، تم تجميعها معًا بتكاليف ضخمة من قبل فرق من العلماء من العديد من البلدان. وقد وصفت المئات من المقالات العلمية جثته، وظروفها الطبية. وكانت ظروف الانجماد الشديدة في جبال الألب العالية، هي التي سمحت لنا بدراسته: فقد حافظ البرد على ملابسه، ومعداته، وأسلحته. نحن نعرف عن أوتزي أكثر بكثير مما نعرفه عن الملايين من الصيادين الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ، وصيادي الأسماك، والمزارعين، ورعاة

الماشية، والجنود الرومان، والحرفيين في العصور الوسطى. وقد اعطانا انطباعا حيا عن الظروف الصعبة التي عاش فيها، هو، وآخرون في ذلك الوقت. نحن محظوظون لمعرفة ما علينا ان نقوم به مع هذا الفرد المتواضع. يذكرنا هذا الاكتشاف أن علم الآثار يهتم بالناس وليس الأشياء.

كان علماء الآثار مفتونين، دائما، بالهياكل العظمية البشرية. لقد اعتمدنا، طويلاً، على علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية للحصول على تفاصيل طريقة عيشهم، وهم يمكنهم أن يحددوا جنس الهيكل العظمي، وعمره، والانحناءات في اسفل ظهورهم التي تسببت بها ظروف العمل الشاق، أو عظام الساق التي انحنت بسبب كثرة ركوب الخيل.

ومؤخرا اصبح بالإمكان، البحث بشكل أوسع في جسم الإنسان بشكل يتخطى مجال العظام، والنظر إلى الكائن البشري الذي كان يعيش من قبل. وبفضل التكنولوجيا الطبية المتطورة، يمكن حَتَّى، للهياكل العظمية، أن تصنع أجساما من اللحم، والدم من أصغر القرائن.

يستخدم علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية الحمض النووي لتتبع الهجرات البشرية، ويستخدمون تكنولوجيا التصوير الطبي لدراسة المومياوات من دون فتحها. يخبرنا تحليل كيمياء العظام أين عاش الناس حياتهم المبكرة، وما هي انواع الطعام المفضلة لديهم. بفضل العلوم الطبية، بتنا نعرف المزيد عن الرجل الجليدي اكثر مما كان يعرف، هو، عن نفسه. وأضحت الجثث

القديمة، سواء أكانت المحفوظة بشكل جيد، أم تلك التي هي مجرد عظام، موضوعًا ساخنًا في علم الآثار اليوم.

لقد تعرفنا على الآلاف من الأفراد، ومعظمهم كانوا هياكل عظمية، لكن تم العثور، أيضًا، على بعض الجثث التي كانت بحالة جيدة وسط المستنقعات. كانت المومياوات المصرية، والبيروفية القديمة بمثابة مناجم للمعلومات عن كل من الناس النبلاء، والعاديين. وقد اخترق التصوير الطبي ضماداتهم، وكشف عن خراجات الأسنان المؤلمة (التورمات) التي عانى منها المصريون مُنْذُ ثلاثة آلاف سنة. ولا بُدَّ من أنهم كانوا في حالة معاناة امتدت أشهرًا، أو حَتَّى سنوات.

أحيانا، وأحيانا كان يتم العثور، مصادفة، على جثة أحد ضحايا القرابين، وبذلك تكونت لدينا فكرة عن اساليب الموت العنيفة. في بيرو، وعلى ارتفاع حوالي 210.6 أمتار في جبال الأنديز الجنوبية، عثر عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي يوهان راينهارد، ومساعده في بيرو ميغيل زاراتي، بالصدفة، على مومياء لفتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عاما تم التضحية بها كقربان للالهة مُنْذُ خمسة قرون. كانت ترتدي فستانا منسوجا بعناية، وإخفافا جلدية. أظهرت فحوصات جمجمتها أنها ماتت بضربة سريعة على الرأس: وقد دفعت الدماء التي نزفت من جرح الرأس دماغها إلى جانب واحد.

كانت الجروح الناجمة عن المعارك بالايدي التي كانت تدور في العصور الوسطى، مروعة. لقد فحصت، ذات مرة، عظام

بعض من ماتوا خلال مواجهة من هذا القبيل. في قاعة توتون في شمال إنكلترا، كانت هناك إحدى المقابر التي تحتوي على جثة ثمانية وثلاثين شخصا، وقد تركت عندي انطباعا مروعا عن وحشية الحرب في العصور الوسطى. كان الضحايا قد ماتوا في قتال دموي حاد جرى في خلال عاصفة ثلجية في التاسع والعشرين من آذار العام 1461، في سلسلة من الصراعات التي عرفت باسم حرب الوردتين (حرب أهلية دارت معاركها على مدار ثلاثة عقود، حول الأحق بكرسي العرش في إنكلترا بين أنصار كل من عائلة لانكاستر وعائلة يورك). كانت جميع الهياكل العظمية لرجال تتراوح أعمارهم بين ستة عشر، وخمسين عاما. كانوا أفرادا نشيطين، يتمتعون بصحة جيدة، وأظهرت أجسادهم علامات الكدح القاسية مُنْذُ سن مبكرة، كما قد يتوقع المرء من المزارعين الفلاحين. كما أظهر بعضها إصابات في المرفق ناتجة عن سحب أقواس طويلة.

وقد مات معظم القتلى جراء الضربات الوحشية على الرأس، ولكن كان هناك فيهم من قُطِع نصف وجهه بالسيف، وعانى رجل آخر من ثمانية جروح، في الاقل، من إصابة بنصل جراء الاشتباك القريب، قبل أن يتم قتله بضربه على رأسه. تسببت مسامير القوس، والنشاب، ورؤوس السهام، والمطارق الحربية في وقوع إصابات رهيبة، وكان الكثير منها مميتا. كانت أذرع العديد من الرجال تحمل جروحا ناجمة عن صد الضربات من المهاجمين. لقد هلك الرجال وسط حمام من الدم. لم تكن الحياة في ذلك الوقت

سهلة على أي شخص: فقد كان داء الإسقربوط، والكساح، وكلاهما من الأمراض الناجمة عن نقص الفيتامينات، منتشرين.

وبعيدا عن أوتزي، فان الأبحاث الأكثر شمولا عن الأفراد شملت شخصيات تاريخية شهيرة. كان الفرعون رمسيس الثاني (1304 – 1212ق.م)، هو، أشهر ملوك مصر. وقد انخرط في الحياة العسكرية، عندما كان شابا، وكان لديه أكثر من مائة ابن، و(ببساطة) عدد لا حصر له من البنات. عاش رمسيس وقتًا طويلاً للغاية: توفي عن عمر ناهز الاثنين والتسعين عاما، في وقت كان المتوقع فيه لمعظم الناس، هو، أن يعيشوا إِلى العشرينيات، أو الثلاثينيات من أعمارهم.

وقد تم تحنيط الفرعون، ودفنه في وادي الملوك. استخدم الخبراء الفرنسيون أحدث التقنيات الطبية في فحص المومياء الخاصة به. وقد أعجبوا بأنف الملك الجميل، وشكله الذي تم الحفاظ عليه، بحشوه بحبات الفلفل من قبل المحنطين (الأشخاص الذين قاموا بحفظ جثته). وقد عانى الفرعون من التهاب المفاصل، وخراجات الأسنان المؤلمة، وضعف الدورة الدموية – وليس ذلك بالمستغرب، نظرا لعمره الطويل.

وكونه فرعونا، عاش رمسيس مترفا. لكن عوام المصريين لم يكونوا كذلك، بكل تأكيد: فقد كانت حياتهم سلسلة من الكدح المتواصل. بحثت دراسة حديثة عن مدافن العمال في مقبرة في العمارنة، عاصمة الفرعون إخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (انظر الفصل 17)، فوجدت ان جميعهم،

تقريبا، ماتوا في العشرينيات، والثلاثينيات من أعمارهم. وتبين عظامهم علامات تدل على وجود حالة من سوء التغذية لديهم، في حين أن سنوات العمل المضنية قد سحقت عمودهم الفقري، وتكسرت أطرافهم، وتسببت بإصابتهم بالتهاب المفاصل المزمن في الذراعين والساقين. هناك حكام أكثر حداثة تم انتشال جثثهم في خلال البحوث التاريخية، والحفريات. مات الملك ريتشارد الثالث ملك إنكلترا (1452 – 1485) في القتال مع، خصمه هنري السابع الذي سيصبح ملكا في المستقبل، في المعركة النهائية لحروب الوردتين في ليسترشير، وسط إنكلترا. لم يكن يُعرَف سوى القليل عن ريتشارد. ذكرت السجلات التاريخية أنه كان مشوهًا، على الرغم من أن ذلك لم يكن معروفًا على وجه اليقين، وربما كان تعبيرًا مجازيًا عن شخصيته السيئة.

اقتيدت جثة ريتشارد، وهي عارية إلى ليستر، حَيْثُ تم عرضها هناك. ثُمَّ دفنت من دون مراسم في دير للرهبان الفرانسيسكان، لم يعرف موقع قبره إلّا بعد فترة طويلة من هدم الدير، لكنه أصبح في طي النسيان في القرن التاسع عشر. اشارت التحريات التاريخية المطولة إلى انه يقع تحت موقف للسيارات وسط المدينة، وعندها بدأت الحفريات في العام 2012. في اليوم الأول، تم الكشف عن اثنين من عظام الساق. كان الهيكل العظمي محشورا في قبر صغير جدا، وكان العمود الفقري منحنيا على شكل حرف S، وكانت اليدان خلف الجسد، كما لو كان قد تم ربطهما. كل شيء كان يشير إلى ان عملية الدفن قد اجريت على عجل.

كان الهيكل العظمي لذكرٍ بالغ عانى من انحناء شديد في العمود الفقري، ما جعل إحدى الكتفين أعلى من الأخرى. وكانت هناك إصابات كبيرة في الجمجمة. هل كان هذا جسد الملك ريتشارد؟ تحول الباحثون إلى الحمض النووي للحصول على الإجابة. وتمت مقارنة عينات تم اخذها من العظام مع الحمض النووي للأحفاد الأحياء من سلالة الملك، وقد تم التأكد من أن الهيكل العظمي كان يعود، بالفعل، إِلى ريتشارد الثالث المشوه. تمت إعادة دفن جثته في كاتدرائية ليستر.

تساعد التكنولوجيا الطبية، اليوم، علماء الآثار على كتابة التاريخ في نوع من التفاصيل التي كان لا يمكن تصورها حَتَّى قبل جيل واحد فقط. قام بعض الأطباء بفحص المومياوات المصرية بالأشعة السينية في أوائل القرن العشرين. لكننا في الوقت الحاضر يمكننا أن نعرف أين قضى شخص ما شبابه، وإِلى أين سافر. أصبحنا مؤلفي سير ذاتية، ونكتب قصص حياة الناس.

الفصل الخامس والثلاثون



الكهنة المحاربون في مملكة الموتشي

كان المشهد المرسوم على الوعاء الدوار يروي القصة كلها. يعود تاريخ هذا الوعاء إِلى حوالي سنة 400 بعد الميلاد. كان ملك الموتشي (اقوام حضارة قديمة ازدهرت في البيرو)، يجلس تحت سقيفة على قمة هرم يقع في الساحل الشمالي لبيرو، ورغم جلوسه في الظل، إلّا أن تاجه الذهبي كان يلمع بسبب تعرضه لاشعة شمس أواخر العصر. كان يحمل في يده اليمنى، وعاء طينيا مليئا بدم بشري. كان الملك يحدق بهدوء، بوجه صارم، وقد غطته الحلي الذهبية والفيروزية، إلى طابور من السجناء العراة، وقد جردوا من دروعهم، وأسلحتهم. كان هناك كاهن يرتدي الزي الخاص بالكهنة، يقوم بسرعة بقطع اعناق السجناء، ويصب دماءهم في وعاء. ثُمَّ يتم سحب الجثث بعيدا، ليتم تقطيعها

أوصالها على أيدي كهنة آخرين كانوا في الانتظار. يشرب الملك المزيد من الدم، ولا تظهر على وجهه أي مشاعر. يتم إعادة ملء كوبه، على الفور. وفي أحد الأيام، سوف يُدفن في نفس المكان الذي يجلس فيه بالضبط، حَيْثُ يحلّ كاهن محارب آخر محلّه.

هذا المشهد هو واحد من العديد من الرسوم الموجودة على جميع أنواع القدور التي اكتشفها الباحثون في حضارة الموتشي، وكانت موجودة في المدافن، أو ربما استخدمت في الحياة اليومية، ليتم عرضها في الأعياد. كان بعضها يمثل رموزا للوضع الاجتماعي. تظهر المشاهد القصصية المحاربين، وهم يركضون في ارتال ليصطادوا الغزلان، والفقمات، ويسيروا في المواكب. كان خزّافو حضارة الموتشي نحاتين، ورسامين كذلك. وقد اشتهروا بصناعة الأواني المزينة بصور الرجال البارزين، لكنهم كانوا، أيضًا، يصورون الطيور، والسمك، وحيوانات اللاما، والغزلان، وحَتَّى العناكب. كما إنّهم لم ينسوا الذرة، والقرع، والنباتات الأخرى، أو كائنات خارقة للطبيعة. جاءنا كثير مما نعرفه عن اقوام الموتشي، وحكامهم عن طريق مصنوعاتهم الفخارية الرائعة، وكذلك من المدافن التي كانت مزينة بثراء.

لقد ظهرت دولة الموتشي إِلى الوجود مُنْذُ حوالي ألفي سنة، وكانت تمتد على طول الساحل الشمالي لبيرو. والسهل الساحلي، هو، واحد من أكثر المناطق جفافا على سطح الأرض، ولذلك اعتمدت اقوام الموتشي في غذائها على تناول اسماك الانشوفة الصغيرة التي كان يتم صيدها في المحيط الهادئ بكميات وفيرة.

سمحت تربة وادي الأنهار الخصبة، التي ترويها المياه القادمة من جبال الأنديز، بزراعة الذرة، والفاصوليا، والمحاصيل الأخرى في النظم الحقلية المروية بعناية، ومع تحسن الإمدادات الغذائية، بفضل زيادة الكفاءة في طرق الزراعة، برزت أعداد صغيرة من الأسر الغنية إلى واجهة المجتمع. كان الحكام، وعائلاتهم، هم، نخبة مجتمع الموتشي، الذي أصبح مقسّمًا، بشكل متزايد، بين النبلاء، والناس العاديين. وقد بنى الحكام أهرامًا، ومعابد من طوب الطين. وقد أتاح ذلك المجال لإقامة الاحتفالات المتقنة التي كان لها غرض واحد: أن تُظهر لعامة الناس أن قادتهم لهم صلات وثيقة مع العالم الخارق.

على مر القرون، كان مئات من الناس العاديين يكدون في العمل في المعابد العظيمة التي ارتفعت فوق نهر موتشي. وكانوا يدفعون الضرائب عن العمل، وهي ممارسة كانت شائعة في الدول البيروفية الأولى.

كانت منصة هواكا ديل سول الرائعة المبنية من طوب الطين، ترتفع إلى أكثر من 40 مترًا فوق النهر، الذي كان ينبع من المحيط الهادئ. كان هذا المعبد الهائل (وهو مكان مقدس)، ايام ما كان قيد الاستخدام، وقبل أن تدمره الفيضانات، وأعمال النهب، مشيدا على شكل صليب، تجاه الشمال. تم تقسيم بنائه على أربعة أقسام، لإعطائه شكلاً متدرجا. وتم طلاء الواجهة باللون الأحمر، والألوان الزاهية الأخرى. والهرم الذي ينتصب هناك، اليوم، هو مجرد ظل للهيكل الشاسع الذي كان يمثل،

على حد سواء، القصر الملكي، ومكان دفن حكام الموتشي الذين عاشوا هناك.

أما الهرم الثاني، وهو هواكا دي لونا، فكان يبعد حوالي 500 متر. كان يمثل نصبا أصغر مع ثلاث منصات مترابطة، محاطة بثلاثة جدران عالية من الطين. ورسمت على الجدران الملونة الزاهية كائنات إلهية، كان بعضها حيوانيًا، وبعضها بشريًا.

يعتقد الخبراء أن هذا، هو، المكان الذي كان فيه الحكام يعبدون الآلهة الرئيسية التي ترأست دولة الموتشي.

اكتشف عالم الآثار ستيف بورجيه، في إحدى الساحات، الهياكل العظمية لحوالي سبعين محاربا تمت التضحية بهم كقرابين. وفي كثير من الحالات، تم فصل جثثهم عن أطرافهم، كما هو موضح في إفريز من الفخار. وكانت توجد تماثيل من الطين، تصور رجالاً عراة يحملون جثثًا ملفوفة بغطاء يحوي رموزا معقدة، إلى جانب بعض الرفات. وقد حدث طقسان، في الأقل، من طقوس تقديم القرابين، هذه، في خلال فترات من هطول الأمطار الغزيرة، وهو أمر كان نادر الحدوث في سهول موتشي القاحلة، وقد تم اجراؤهما في أثناء حدوث ظاهرة النينيو غير المنتظمة، التي تسببها تغيرات مناخية معقدة في غرب المحيط الهادئ. جلبت ظاهرة النينيو مياها أكثر دفئا إلى الساحل، ما أدى إلى نفوق أسماك الأنشوجة. وكان يمكن للأمطار التي سقطت أن تقضي على نظام حقلي، بأكمله، في غضون ساعات.

من هم قادة الموتشي؟ نعرف من رسومات الأواني أن قوتهم السياسية كانت تعتمد على النجاح في الحرب. كما تعتمد، أيضًا، على الاحتفالات، والمواكب العامة التي كان يتم تنظيمها بعناية. وهذا هو السبب الذي وجدت من اجله المعابد، والباحات. يمكنك تخيل المشهد. بينما كانت الشمس تغيب في الغرب، يتجمع حشد كبير من عامة الناس في أفضل ملابسهم القطنية، في الساحة الكبرى الواقعة تحت هواكا ديل سول. الطبول تقرع، ورائحة البخور ترتفع من النار المقدسة، في حين يتردد الهتاف بصوت عالٍ في الهواء. تغسل أشعة الشمس الرائعة مدخل الهرم على قمة الهاوكا. يسود الصمت حينما يظهر شيء ما في المدخل الصغير، يعكس تاجه الذهبي المصقول اشعة الشمس المشرقة، المتألقة بشكل رائع. مع شروق الشمس أخيرًا، يختفي في الفضاء المظلم، كما لو أنه يعود إلى العالم الخارق.

تعرض أواني الموتشي كيف تتم التضحية بالبشر، وكيف يتم قتل السجناء، لكنها لا تكشف إلّا القليل عن الأسياد أنفسهم. فلا نعرف شيئا عن الطقوس التي أحاطت بهم. نحن لا نعرف حَتَّى أسماءهم. فقد كانوا لا يعرفون القراءة، والكتابة. لا يسعنا إلّا أن نخمن ما هي المعتقدات السائدة التي كانت ترشد المجتمع الموتشي. لكن يمكننا التمعن في بعض ميزاتها، بفضل مهارة الخزافين. فربما صورت الأوعية التي نقشت عليها صور الاحتفالات، الحياةَ اليومية للافراد آنذاك، بشكل جيد، ومن المؤكّد أنهم كانوا أشخاصا مهمين، لأن الأوعية، تلك،

ظهرت في قبور مزخرفة بطريقة ثرية. ظهر بعض الملوك، وهم يبتسمون، أو حَتَّى يضحكون؛ لكن معظمهم كانوا جادين، وقساة. ويتكون لديك الانطباع بأن هولاء الحكام كانت لديهم ثقة مطلقة في سلطتهم.

كل هذه القرائن تعطي انطباعا غامضا عن ملوك الموتشي. وقد نجا القليل من المدافن من أيدي اللصوص، والجنود، الإسبان. حَتَّى إنّ الإسبان قاموا بتحويل مياه نهر موتشي لغسل أجزاء من معبد هواكا ديل سول، في خضم حمى بحث لا هوادة فيه عن الذهب. ويقال إنهم عثروا على بعضه، ما شجعهم على غسل المزيد من اجزائه. جعلت هذه الخسارة المقابر الرائعة لما يسمى ملوك سيبان التي تحوي القطع الأثرية ذوات الأهمية الاستثنائية، واحدة من أهم اكتشافات علم الآثار في أواخر القرن العشرين.

في العام 1987، اقتحم لصوص المقابر ضريح أحد ملوك موتشي المثقل بالذهب، الذي لم يكن قد اقترب منه أحد حَتَّى ذلك الحين، وكان يقع في أعماق أهرامات سيبان في وادي لمبايكه، التي كانت تعد المركز الرئيسي لسلطة الموتشي.

لحسن الحظ، زار عالم الآثار البيروفي وولتر ألفا، الخبير في حضارة الموتشي، الموقع على الفور. وقد اسفرت تنقيباته اللاحقة، التي قام بها مع فريق من علماء الآثار، وخبراء الصيانة، عن إماطة اللثام عن صورة الحكام الغامضين لمملكة الموتشي.

بحلول العام 2004، تم تحديد أربعة عشر قبرًا في هذا المعبد الرئيسي، الذي تم بناؤه في وقت ما قبل سنة 300 ب.م،

وكان معروفا باسم هواكا راجادا. تتألف غرف الدفن فيه من اثنين من الأهرامات الطينية الصغيرة، ومنصة صغيرة. ظهرت قبور ثلاثة من ملوك سيبان في خلال أعمال التنقيب التي قام بها العالم ألفا، وكان كل واحد منهم يرتدي حليّا غالية، ومعه المرفقات الجنائية.

وكان طول أول ملك، تم التنقيب عنه يبلغ حوالي 1.5 مترا، وكان عمره بين خمسة وثلاثين، وخمسة وأربعين عاما. كان يرتدي ثوبا مزركشا، في غرفة من الطين، وكانت توجد مقاعد صلبة على طول الجانبين، وفي نهاية الرأس. وضع المشيعون المئات من الأواني الفخارية الجميلة في أماكن صغيرة في المقاعد، ثُمَّ وضعوا الملك في تابوت خشبي في وسط الغرفة، وكان الغطاء الذي عليه يحتوي على أشرطة من النحاس. أما الأوعية التي تسكب منها السوائل، فقد وضعت عند الرأس، والقدم. كان يرقد مرتديا ملابسه الرسمية الكاملة (وكانت ملابس مميزة)، مع تاجه، والقناع الذهبي، وحلية الصدر، والأقراط، وغيرها من المجوهرات ذوات الجودة العالية. وكان يرتدي قلادتين من خرز من الذهب، والفضة، وكانت الخرز على شكل الفول السوداني، وهو محصول غذائي مهم عند الموتشي.

لم يكن الملك وحده. فقد حملت خمسة توابيت مصنوعة من القصب جثث اشخاص بالغين. ثلاثة منها كانت لنساء، ربما كنّ زوجات الملك، أو محظياته (نساء يشاركن الرجل السرير، لكنهن غير متزوجات منه)، وكنّ قد توفين في وقت سابق. كان

هناك اثنان من الذكور، وكان لدى أحدهما هراوة قتال، ربما كان محاربا. وجلس رجل ثالث القرفصاء في كوة يراقب عملية الدفن. وقد تم بتر أقدام المحاربين، ويعتقد أن ذلك الإجراء جاء لمنعهم من الفرار. وكان يكمن أيضًا، في القبر كلب، وحيوان اللامة. وبمجرد أن تم وضع التابوت في مكانه، تم وضع سقف عارضة منخفضة بالقرب منه. ثُمَّ تم وضع جميع الاشياء الأخرى فيه.

تم اكتشاف مقبرة ثانية في العام 1988، بالقرب من مقبرة الملك الأول. كان الرجل في هذا القبر من معاصريه. شملت تجهيزاته وعاءً للقرابين، وادوات خاصة بعبادة القمر. ربما كان كاهنا.

وكانت هناك غرفة ثالثة في المدفن أقدم قليلاً، لكن الحلي، والملابس التي فيها أظهرت أن الشخص المدفون كان يشغل نفس المنصب العالي الذي كان يشغله أول ملك. كشفت اختبارات الحمض النووي أن الاثنين مرتبطان بصلة قرابة من خلال أميْهما. وقد دفنت هناك، أيضًا، امرأة شابة، ومحارب بترت قدماه، يفترض أنه الحارس الشخصي للملك.

انتقل الاباطرة الثلاثة، وهم يرتدون ملابس مزركشة، متقنة الصنع، متشابهة، إلى الأبدية مصحوبين بأشياء خاصة بإقامة الطقوس، والشعائر. من هم هؤلاء الأفراد بالضبط؟ تشير الزينة الاحتفالية الصاخبة، وحلي الأنف، والأذن المتقنة، والصنادل النحاسية، والأساور الجميلة، بوضوح، إلى أنهم من الرجال الأقوياء.

لم يكن يتوافر سوى مصدر واحد ممكن للمعلومات، الرسومات المنقوشة على آنية حضارة الموتشي، وأوعيتها.

قام عالم الآثار كريستوفر دونان بالتقاط صور للأواني المنقوشة عليها الرسوم في أثناء دورانها في أسطوانة دوّارة، فـ (كشف) عن أفاريز كاملة من المشاهد. هناك المئات من المشاهد التي تصور رجلين يتقاتلان فيما بينهما، ويهزم أحدهما الآخر، ويأسره. وفي كلّ مرة، يقوم المنتصر بتجريد عدوه من ملابسه، ويجمع أسلحته، ويضع حبلا حول عنقه. ثُمَّ يُجبر الاسير، الذي رُبِط حبل حول عنقه، على السير أمامه. وتظهر مشاهد أخرى صفوفا من الأسرى، يتم عرضها أمام شخص مهم، يجلس أحيانا على قمة الهرم. ثُمَّ يتم قطع اعناق الأسرى. ويقوم الكهنة، والحاضرون، والشخص الذي يترأس الحفل بشرب الدم الطازج.

يرتدي أبرز المشاركين، في هذه الاحتفالات، خوذة مخروطية، مع غطاء للرأس، واقراط إذن دائرية الشكل، وحلية للأنف هلالية الشكل، وهذا ما كان يفعله ملك سيبان.

اطلق العالم دونان على هولاء السادة تسمية الكهنة المحاربين، وهم الرجال الذين كانوا يشرفون على أهم الاحتفالات في مجتمع الموتشي، وكان يشير إلى أن بدلات الملوك الرسمية لم تكن تتغير إلّا قليلا من جيل إلى جيل. وكانت كل القطع الأثرية، تقريبا، المدفونة معهم لها معنى. على سبيل المثال، كانوا يرتدون الذهب على اليمين، والفضة على اليسار، وهذا يمثّل تعاكس

الشمس، والقمر، الليل والنهار. وبالنظر إلى الحاجيات التي كانوا يأخذونها معهم إلى القبور، كان ملوك سيبان يعتقدون انهم يتمتعون بقدرات خارقة. كان يجب أن يكونوا عدوانيين، ومحاربين منافسين، يشنون الغارات، وحروب الغزو، في سعيهم المستمر للعثور على الضحايا.

كانت قبور ملوك الموتشي غنية جدا بالذهب، لذلك نجا القليل منها من هجمات اللصوص. هذا يعني أننا لا نعرف الكثير عن الكهنة المحاربين عدا أولئك الذين كانوا في مملكة سيبان. وقد وصلتنا ثلاثة مدافن لأسر نبيلة من هرم دوس كابيزاس الذي يبلغ ارتفاعه 32 مترا بالقرب من مصب نهر جيكيتيبكي. ويعود تاريخها إلى ما بين عامي 450 و550. وكان الملوك الثلاثة يتميزون بطولهم: كان طول كل واحد منهم يبلغ حوالي مترين. يشك علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية في أنهم قد يكونون عانوا من اضطراب وراثي يعرف باسم متلازمة مارفان، التي تجعل المصاب بها ذا أطراف رفيعة، طويلة. وقد ارتدى الشخص الأكثر أهمية بينهم غطاء للرأس مزينًا بخفافيش نحاسية مذهبة. وكان يضع حلية في الأنف في شكل مماثل. كانت الخفافيش مشهورة في طقوس مجتمع الموتشي: فهي تظهر في رسومات الأواني المطلية، وفي مشاهد القرابين البشرية، وطقوس شرب الدم. ربما لم يكن الرجل كاهنا محاربا، لكن، ربما، كان عاملا في مجال المعادن، وهي مهنة كانت محترمة في مجتمع الموتشي. لقد كان القادة، امثال الكهنة المحاربين، في موتشي يعلمون أن حكمهم يعتمد على

قدرتهم على إقناع الناس بأن لهم علاقة خاصة مع قوى خارقة للطبيعة ذوات بأس شديد. وكانت ملابسهم، وحليتهم المزيّنة بعناية، تُعرض، بعناية، في اثناء الشعائر، والطقوس، وكانت التراتيل التي لا نهاية لها من الطرق التي قاموا باستخدامها. وعززت القرابين البشرية القليلة التي كانت تقدم بموازاة كل ذلك من قوة الرسالة التي كانوا يريدون إيصالها.

وكان كشف علم الأثار للعلاقة بين الحاكم، والمحكوم قد جاء جراء العمل الميداني المتأني، والشغف بأعمال التحري الدقيقة، والصيانة، والحفاظ، بمثابرة، على الاكتشافات. حَتَّى الحلي الصغيرة مثل الأقراط المزينة كشفت عن التناقض الروحي بين الشمس، والقمر، وبين الليل، والنهار، كان ذلك جزءًا أساسيا من معتقدات مجتمع الموتشي. اعتقد الكهنة المحاربون أن لهم علاقة خاصة مع القوى الخارقة التي منحتهم القدرة على فهم عالمهم المعقد. اضطر علماء الآثار إلى تجميع أحجية من عدة أدلة. وبفضل العالم إلفا، وزملائه، اصبح لدينا الآن صورة رائعة لحكام الموتشي المنسيين مُنْذُ فترة طويلة، وهم الرجال الذين نافست ثروتهم ما كان يمتلكه الفرعون المصري توت عنخ آمون من ثروة.

الفصل السادس والثلاثون



حفر الأنفاق لمعرفة أسرار الكون

على بعد حوالي 48 كيلومترا شمال مدينة مكسيكو سيتي، في حوض وادي المكسيك، يرتفع هرم الشمس في مدينة تيوتيهواكان. يجعلك هذا البناء الهائل الذي يبلغ ارتفاعه 71 مترًا، تشعر كأنك ذرة من الغبار في حضرة الآلهة. وهذا بالضبط ما قصده البناؤون، والذين سكنوا في تيوتيهواكان عاشوا في قلب مكان مقدس واسع. المدينة، نفسها، تغطي مساحة تزيد على 21 كيلومترا مربعا، وكانت تشرف على حوض الوادي، والمرتفعات المحيطة به. بحلول سنة 100، بعد الميلاد كان ما لا يقل عن 80 ألف شخص يعيشون هناك. وبين عامي 200 و750، تزايد عدد سكان تيوتيهواكان إلى أكثر من 150 ألف نسمة. في ذلك الوقت، كانت مدينة كبيرة مثل جميع المدن الكبرى في الصين،

والشرق الأوسط، وقد عمل علماء الآثار هناك مُنْذُ ما يقرب من قرن من الزمان. وقد علموا أن تيوتيهواكان كانت معلما رمزيا ضخما من الجبال، والتلال، والكهوف الاصطناعية، والمساحات المفتوحة التي تردد صدى العالم الروحي. على مدى أكثر من ثمانية قرون، بنى سكان تيوتيهواكان 600 هرما، و500 منطقة لورش العمل، وسوقًا ضخما، و2.000 مجمع سكني، وعدة ساحات، وميادين عامة.

في بعض مراحل تاريخ المدينة، قرر حكامها إعادة بناء جزء كبير منها. قاموا ببناء مجمعات سكنية ذوات نمط واحد، ومسورة، ربما لتحل محل المناطق الحضرية المزدحمة. وخصص بعضها للحرفيين، وورش العمل الخاصة بهم. في حين كان بعضها ثكنات عسكرية. عاش الأجانب القادمون من وادي أواكساكا، ومنخفضات فيراكروز الواقعة على ساحل خليج المكسيك في أحيائهم الخاصة، التي كانت تتميز بمصنوعاتها الفخارية المميزة.

كان كل شيء في المدينة يتبع ما يسمى بتخطيط المدن المصبعي، حَيْثُ تمتد الشوارع بالتوازي، والتعامد على زوايا قائمة، وكانت الجادة الواسعة التي تقسم المدينة تجاه الشمال، والجنوب، معروفة، مُنْذُ ايام الفتح الأسباني، باسم جادة الموتى.

كانت أهرامات الشمس والقمر العظيمة تهيمن على الطرف الشمالي من الجادة. بين عامي 150 و325، أعاد حكام المدينة بناء هرم الشمس في شكله الحالي، وقاموا بتوسيع هرم القمر،

فجعلوا جادة الموتى تمتد على بعد أكثر من ميل جنوبا لتشمل سيوداديلا - المركز السياسي، والديني الجديد للمدينة. حَتَّى وقت قريب، لم يكن يعرف الكثير عن هذا البناء المبهر، لكن في عام 2003، بدأ المعهد الوطني للأنثروبولوجيا، والتاريخ في مكسيكو سيتي، برنامجا طموحا طويل المدى، للبحث في معابد سيوداديلا، والحفاظ عليها. في السنوات الأخيرة حقق المشروع بعض الاكتشافات الرائعة.

ومجمع سواديديلا، هو، مجمع ضخم، ذو جدران عالية، وساحة فناء كبيرة. ويمكن ان يتجمع فيه ما يقرب من 100 ألف شخص داخل الساحة المغلقة التي تقام فيها الاحتفالات العامة الرئيسية. يقع معبد كيتزالكواتل، وهو إله الثعبان ذو الريش القديم لحضارة أمريكا الوسطى، داخل الساحة المغلقة، ويواجه المساحة المفتوحة. وهو هرم متدرج مكون من ستة مستويات، مع درج ضخم يمتد فوقه، وتشكل مدرجاته دكات صغيرة. تزين وجوهها رؤوس الثعبان ذي الريش، ومخلوق يشبه الافعى، ربما كان إله الحرب. وتظهر، أيضًا نقوش الثعبان ذي الريش تحت كل صف من الرؤوس، بجانب رسومات تصور المياه. تم طلاء المعبد بالكامل باللون الأزرق، وتم تزيين الصدف المنحوتة. لكن إِلى ماذا تشير الالوان، والرؤوس، وغيرها من الزخارف؟ ذلك امر غير معروف، لكن يبدو من الممكن أنها تمثل العالم (الكون) في وقت الخلق، لقد تم حل اللغز.

بدأ المنقبون عملهم من نقطة الصفر، وعملوا في معبد كان قد تضرر بشدة، من ناحية بسبب الأمطار، وارتفاع مستويات المياه الجوفية، ومن ناحية أخرى بسبب الأعداد الكبيرة من السياح. في العام 2004، قدم صندوق التراث العالمي المال، والمساعدة الفنية للحفاظ على هذا المبنى الفريد.

كشفت أعمال التنقيب التي قام بها علماء الآثار المكسيكيون في الساحة الكبيرة، بجانب معبد الثعبان ذي الريش، عن بقايا العديد من البنايات التي تم تشييدها حوالي العام 200 بعد الميلاد على اراضٍ كانت، في الأصل، زراعية. وقد شكلت هذه المباني أول مجمع ديني. كان يبلغ طول أحدها أكثر من 120 مترًا، وقد يكون بمثابة ملعب لممارسة ألعاب الكرات الاحتفالية (وهي طقوس قديمة يمكن أن تشمل التضحية بأجساد الخاسرين). قام المهندسون المعماريون في معبد كيتزالكواتل بتدمير هذه المباني عندما شيدوا مجمع سيوداديلا في شكله الحالي.

وقد تم تصميم الساحة المفتوحة أمام المعبد في سيوداديلا بطريقة تجعل الماء يغمرها لتشكل سطحا عاكسا. لقد كان نوعا من مرآة للماء، وهو انعكاس رمزي للبحر الهادئ الذي كان موجودا قبل خلق العالم، والبشر. ووفقا لأساطير قديمة عن الخلق، يقال إن الجبل المقدس قد ارتفع من هذه الكتلة المائية في بداية الخليقة. كل هذا يوحي بأن سيوداديلا كانت مكانا للطقوس التي تم فيها إعادة تمثيل الأساطير حول خلق العالم.

وكشفت الأمطار الغزيرة التي هطلت في العام 2003 عن وجود منطقة منخفضة، وثقب عميق في الأرض أمام إدراج منصة معبد كيتزالكواتل. وحينها، وبعد سنوات من العمل، اكتشف علماء الآثار ما موجود تحت المعبد لأول مرة. تم إنزال شخص واحد إِلى الارض، هو، سيرجيو غوميز شافيز، بمساعدة حبل اعطي له، ونزل من خلال فتحة صغيرة. ووصل إلى أرض صلبة على عمق 14 مترًا تقريبًا، وعثر على نفق تحت الأرض يتجه شرقًا نحو معبد الثعبان ذي الريش، وغربا باتجاه وسط الساحة الكبرى. كان النفق ممتلئا في الغالب بالتراب، وقطع الحجارة المنحوتة، التي وضعها سكان تيوتيهواكان.

تطلب مسح الممرات، واستكشافها تحت الأرض تخطيطا دقيقا. في خلال الأعوام 2004 و2005 و2010 قبل أن ينزل شافيز تحت الارض، استخدم، هو، وزملاؤه رادارا يخترق التربة لرسم مسار الممر على السطح. واشار الجهاز إلى أن طول النفق يتراوح ما بين 100 و120 مترًا، عند النهاية الشرقية لمركز معبد الثعبان ذي الريش. وألمحت إشارات الرادار إلى وجود غرفة كبيرة في وسط النفق، وأخرى أكبر في الطرف الشرقي. كما وفرت طريقة لتخطيط عمليات الاستكشاف تحت الأرض.

واستندت عمليات البحث، والتحقق إلى سلسلة من الافتراضات المدروسة بعناية. افترض الباحثون، أوّلًا، أن تيوتيهواكان كانت نسخة مطابقة لرؤية سكانها للكون، فتكون ذات ثلاثة مستويات تشكلها الآلهة: السماوات، والأرض، والعالم

السفلي. يمثل المستوى الأفقي الشمال، والشرق، والجنوب، والغرب. أما زواياه فتمثل زوايا العالم.

وافترض المنقبون، ثانيًا، أن معبد الثعبان ذي الريش يرمز إلى الجبل المقدس للخلق، الذي يعتقد أنه خرج من البحر الهادئ في بداية الخليقة. انتصب المعبد على بقعة مقدسة، تمثل مركز العالم. هنا يمكنك التواصل مع طبقات الكون المختلفة.

وافترضوا، ثالثًا، أن هناك كهفا مقدسا، يعتقد أنه يقع أسفل الجبل المقدس، كان مكانًا للدخول إلى العالم السفلي. وتسكنه الآلهة، والقوى الخالقة التي حافظت على الكون. كان النفق، الذي تم استكشافه جزئيا من قبل شافيز بالرادار، تمثيلا رمزيّا لهذا العالم السفلي. ووفقا لعلم الكونيات القديم (الذي يختص بالمعتقدات، أو الأساطير حول أصل الكون)، كان للعالم السفلي جغرافيته المقدسة الخاصة. وأخيرا، افترضوا أن الممر الموجود تحت الأرض كان يزار بشكل متكرر، ولكن من قبل الأفراد المشاركين في الطقوس فحسب، الامر الذي يعزز من نفوذهم. كان هذا، هو، المكان الذي يحصل فيه هؤلاء الأشخاص على قوى روحية عن طريق أداء طقوس معينة. قد تكون بعض الأشياء التي تتعلق بالطقوس، وربما حَتَّى بقايا من أولئك الذين قدموا الهدايا وتلقوها، موجودة في النفق.

بدأت عمليات التنقيب تحت الأرض في العام 2006 وهي مستمرة حَتَّى يومنا هذا. بدأ شافيز العمل في منطقة تبلغ مساحتها 100 متر مربع، إذ كان يعتقد أن المدخل الرئيسي للنفق

قد وضع هناك. كانت هناك حفرة مساحتها 5 أمتار مربعة تكمن على مسافة مترين تحت سطح الارض. وقد أتاح ذلك الوصول إلى نفق يقود إلى الهرم.

ملأت القطع الأثرية، والحجارة الممر الضيق، ما جعل من الصعب التخطيط للتنقيب. تحول شافيز، مرة أخرى، إلى تقنية الاستشعار عن بعد، وهذه المرة تحت الأرض. ثُمَّ استخدم جهاز مسح ضوئيًا ليزريا – وهو جهاز قياس ذو دقة عالية – للتخطيط للمرحلة التالية من العمل. سجلت المحاولة الأولى ان طول النفق 37 مترا. وسجل مسح آخر اجري في العام 2011 ان الطول يبلغ 73 مترا. وقد أكدت هذه القياسات أنه كان هناك بالفعل نفق طويل يؤدي إلى الهرم، لكن طوله الإجمالي الدقيق ما يزال غير مؤكد.

بعد ذلك، استخدم تشافيز روبوتًا صغيرًا يتم التحكم فيه عن بعد، مزودا بكاميرات الفيديو. وقد اخترق إِلى عمق 37 مترا داخل النفق لاختبار مدى الاستقرار، وظروف العمل المحتملة، وساعد على التنقيب في ذلك الجزء من الممر الذي سبق، وان تم مسحه ضوئيًا بالليزر من قبل. في العام 2013، تمكن روبوت أكثر تعقيدا مزودا بكاميرا تعمل بالأشعة تحت الحمراء، وجهاز مسح بالليزر مصغر من الوصول إلى آخر 30 مترا من النفق الذي كان يتعذر الوصول إليه من قبل. لم تكن مهمة سهلة. وقد زار قدماء اقوام الأزتيك النفق في العديد من المناسبات، لترك القرابين هناك. للقيام بذلك، كان عليهم أن

يشقوا طريقهم من خلاله، وغالبًا ما كانوا يهدمونه جزئيًا، إلى حد انه كان هناك أكثر من عشرين جدارًا سميكا قد تسبب في إغلاق النفق. في النهاية، امتلأت الساحة، بأكملها، بالقرابين. وكان شافيز، وزملاؤه، أول من دخل النفق مُنْذُ 1800 عاما.

بحلول العام 2013، امتدت الحفريات مسافة 65 مترا داخل النفق. وتم الكشف عن اثنين من الغرف الجانبية. كما تم الانتهاء من ترميم الجدران، والسقوف الخاصة به باستخدام مسحوق مصنوع من مادة معدنية، وباتت تتلألأ مثل ليلة مليئة بالنجوم، أو مثل المياه الجارية المتلألئة. احتوت إحدى الغرف على أكثر من 400 كرة معدنية. هذه الأشياء تبقى لغزا كاملا. بعد الغرفتين الجانبيتين، ازداد عمق النفق تدريجيًا بمقدار مترين آخرين، واستمر كذلك إلى ان وصل عمقه إلى 35 مترًا إلى الشرق. في النهاية كانت هناك ثلاث غرف، باتجاه الشمال، والجنوب، والشرق.

تم الكشف عن أكثر من 75 ألف قطعة أثرية بعد أعمال التنقيب تلك، التي باتت تمتد، الآن، إلى أكثر من 103 أمتار داخل النفق، وإلى عمق 17 مترا تحت سطح الأرض. وظهرت آلاف الحاجيات من تلك الحفريات، من بينها مواد مثل حجر اليشم، وصخور السربنتين، وحجر الفيروز، وحجر السبج (وهو حجر بركاني)، وكذلك الزئبق السائل. وكان هناك المئات من الأواني المصنوعة من الطين، والمرايا المصنوعة من معدن البيريت المصقول (وهو معدن لامع يخلط الكثيرون،

غالبا، بينه، وبين الذهب) بجانب الأصداف البحرية. وقد ظهرت العشرات من الأوعية الفخارية غير العادية، وكذلك كرات المطاط، والقلائد، والأجسام الخشبية، وقطع متناثرة من بشرة افراد عديدين.

ماذا تعني كل هذه الاكتشافات؟

يجادل شافيز، وزملاؤه، بأن سيوداديلا أعادت خلق الجغرافيا المقدسة للكون، وعمل الآلهة. يرمز هرم الثعبان ذي الريش إلى الجبل المقدس، الذي كان بمثابة حلقة وصل بين مختلف طبقات الكون، ومناطقه. وقد حول النفق، والكهف السري الموجود تحت المعبد المساحة على الأرض إلى عالم سفلي رطب، مظلم، بارد. وفي ذلك المكان اكتسب الحكام سلطة خارقة لحكم البلاد. وكان النفق الواقع تحت الهرم يأخذ حكام المدينة إلى العالم السفلي. وكان الاختفاء تحت سطح الأرض يشير إِلى أنهم تمكنوا من زيارة هذا العالم المجهول، وهو الفعل الذي منحهم القدرة على التواصل مع عالم القوى الخارقة للطبيعة. كانت سيوداديلا، هي، المكان حَيْثُ يشارك كل من في المدينة العظيمة في الاحتفالات العامة التي تشكل الأحداث الرئيسية في تقويم الطقوس. وفي ذلك المكان، أيضًا، حاول المهندسون المعماريون إنشاء مدخل للعالم السفلي.

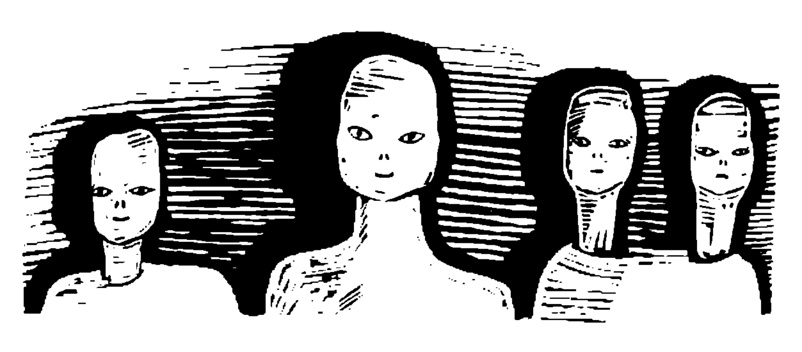
لا يُعدّ مشروع سيوداديلا الحالي بحثًا سريعا عن الأشياء الثمينة، لكنه تحليل منهجي، مثابر لمعاني الأشياء الموجودة في النفق. كان لكل شيء أهمية طقسية، بما في ذلك الطريقة التي

تم بها حفر النفق تحت منسوب المياه الجوفية الطبيعية منْ أَجل إعادة خلق البيئة المائية للعالم السفلي. كانت آخر 30 مترا من النفق أعمق من ذلك، بحَيْثُ كانت مملوءة بالماء دائما، تمثل المياه المقدسة للخليقة.

بدأت الابحاث في تيوتيهواكان مُنْذُ قرن من الزمان، لكن المدينة هائلة لدرجة أن علماء الآثار لم يخدشوا إلاّ سطح المدينة - وينصب تركيزهم حاليا على الأنفاق - ليس في سيوداديلا فحسب، لكن، أيضًا، تحت أهرامات الشمس والقمر. وهكذا، فان المزيد من الأنفاق، والحاجيات الثرية، فضلاً عن ضحايا القرابين، ستساعد على فك الغاز الرموز المعقدة لواحدة من أعظم المدن في التاريخ.



الفصل السابع والثلاثون



موقع كاتال هويوك

كانت التماثيل الطينية النصفية لبعض الشخصيات تراقبني من وراء زجاج العرض في المتحف، كانت تحدق مباشرة إلى الامام. كان بعضها برأسين، ربما كان يمثل زوجًا، وزوجته. وبينما كنت اتنقل في أرجاء القاعة، شعرت بعيونها السود، وهي تلاحقني. اقتربت، بقدر ما استطيع من أحد التماثيل، وحدقت في عيون حلزون البحر، يبدو أن نقاط القار الأسود (القطران) التي خلفها الناس كانت تحترق عميقا في روحي. كنت منوّماً مغناطيسيا على يد إحدى الشخصيات المدفونة، مع ثلاثين شخصية أخرى، في إحدى الحفر في حوالي العام 8000 قبل الميلاد.

كانت هذه واحدة من تلك اللحظات النادرة التي واجهت فيها قوة المعتقدات القديمة. وكانت، هناك، لحظات أخرى: عندما تمعنت في لوحات العصر الجليدي في الكهوف الفرنسية، وفي كهف التميرا، في إسبانيا (انظر الفصل 14)؛ وقضيت بضع دقائق فقط في ظلام دامس في قبر فرعوني في وادي الملوك في مصر؛ وتتبعت الأسطورة القديمة لخلق مايا، كما رُسِمت على وعاء من الطين، لكن القليل منها كان قويًا مثل الوقت الذي قضيناه مع تلك النماذج الموجودة في الموقع الاثري عين غزال في الأردن، وكيف تحول الطين إِلى حُزَم من الأغصان، والثياب المنقوشة، والشعر، والوشم. شعرت، حينها، انني اقف في حضرة الأجداد.

كان سكان (عين غزال) مثل المزارعين الأوائل الآخرين، يدفنون رؤوس اجدادهم المزخرفة تحت أرضية اكواخهم. وكانت عالمة الآثار كاثلين كينيون قد عثرت على جماجم في قوالب من الجص تحت ارضية 7000 منزل في أريحا (انظر الفصل 30). في عين غزال، صنع الناس أيضًا تماثيل لأسلافهم، كانوا يضعونها في الأضرحة المنزلية. حَتَّى إنّه عندما تنظر إليها في المتحف، تشعر كما لو أن الأجيال السابقة من عائلتك تحدق بك، وتراقب أحفادها. كلما عرفنا المزيد عن القرويين الأوائل في الشرق الأوسط، كلما اكتشفنا أدلة على أن احترام أولئك الذين رحلوا في الماضي كان له سطوة كبيرة في المجتمع. لماذا كان هناك مثل هذا الاهتمام بالأجيال السابقة؟

نحن نعرف من المجتمعات التقليدية الحالية أن الأسلاف غالبا ما يُعدَّون حراس الأرض: فهم يضمنون نمو المحاصيل، واستمرار الحياة كما كانت من قبل. نفس الشيء كان صحيحا، بالتأكيد، في الماضي. كان الاحترام العميق للأسلاف جزءًا من المعتقد الإنساني مُنْذُ ظهور الزراعة، وربما قبل ذلك الوقت في عصور ما قبل التاريخ. تُظهر الجماجم التي عثر عليها في أريحا وعين غزال أن طقوس الأجداد كانت جزءًا من تقاليد المجتمعات من موسم حصاد إلى آخر. وكان تلف المحاصيل، والجوع، وسوء التغذية حقائق قاسية عاشتها الأجيال السابقة، واللاحقة على حد سواء. كان الاهتمام باستمرارية الحياة أمرا أساسيا للمجتمعات الزراعية الأولى، وهذا هو سبب أهمية الأسلاف. لقد وصلتنا المعتقدات المتعلقة بالاسلاف التي تعتنقها المجتمعات التقليدية، اليوم، في شكل قصص مروية، أو أغانٍ، تنتقل عبر الأجيال. لكن ماذا عن معتقدات المجتمعات الاقدم، مثل مجتمعات المزارعين الأوائل؟ لا يمكننا الاعتماد إلّا على علم الآثار، والمخلفات المادية من الماضي لنروي القصة. لحسن الحظ، فإن مستوطنة زراعية تركية تسمى كاتال هويوك، وأعمال تنقيب طويلة المدى تم التخطيط لها بعناية، قد ألقت المزيد من الضوء على قوة الأسلاف.

كان جيمس ملارت (1925 – 2012) عالم الآثار البريطاني الذي اكتشف كاتال هويوك قد تعلم التنقيب عندما عمل مع العالمة كاثلين كينيون في مدينة أريحا، لذلك كان يستطيع تحديد

موقع القرية من أول زيارة لها. في خلال أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، قام بإجراء مسح لسهل قونية في وسط تركيا بحثًا عن مواقع تعود إِلى العصر البرونزي. وعوضًا عن ذلك، اكتشف مصادفة تلّين من تلال مستوطنة كاتال هويوك، كان يبلغ ارتفاع أكبرهما 20 مترًا.

قام ميلارت بالحفر في كاتال هيوك في الفترة من العام 1961 إلى العام 1963، وكشف عن ثلاث عشرة طبقة ارضية كانت مأهولة بسكان المستوطنة، يعود تاريخها إلى حوالي 6000 أو 4500 سنة قبل الميلاد.

واعتقد أن ما يصل إلى 8000 شخص كانوا قد عاشوا هناك عندما كانت المستوطنة في أوج قوتها. تم التنقيب في أكثر من 150 غرفة، ومبنى. وكان المكان مزدحما: كانت البيوت مكتظة ببعضها بشدة، بحَيْثُ لم يكن لها أبواب أمامية، وكان يتم الدخول إِليها من خلال السقف.

احتوت الغرف على أضرحة، مع رؤوس ثيران طينية، ونقوش جصية، ورسوم جدارية. كان هناك أيضًا تماثيل صغيرة لشخصيات أنثوية. كان ميلارت يعتقد أن الناس كانوا يعبدون الإلهة الأم، رمز الخصوبة. حَتَّى إنّه اشار إِلى أن بعض الرسوم الجدارية كانت موضوعة على المنسوجات، والنماذج القديمة لتصاميم السجاد التركية الحديثة. لكن لأسباب مختلفة، مثيرة للجدل، اضطر ميلارت إلى ترك أعماله بعد فترة قصيرة، وأُوقف أعمال الحفر.

تسببت أعمال التنقيب التي قام بها ميلارت في إثارة ضجة كبيرة. كانت كاتال هويوك تغطي مساحة قدرها 13 هكتارا، ما جعلها أكبر بعشر مرات من معظم المستوطنات في تلك الفترة. ظلت العديد من الأسئلة دون إجابة، لكن السلطات التركية لم تسمح بإجراء اية أعمال تنقيب جديدة حَتَّى العام 1993، عندما بدأ رجل إنكليزي آخر، هو إيان هودر (من مواليد 1948)، مشروعا بحثيا طموحا طويل الأمد استمر مُنْذُ ذلك الحين. وبفضل فريق العمل الجماعي الذي قام بتشكيله بعناية، اصبح الأسلاف يظهرون، الآن، من وسط الظلام.

وهودر، هو، عالم آثار خبير وبارع، وهو واحد من القلائل الذين يتمتعون بالرؤية، والمهارات المطلوبة للقيام بمثل هذه الوظيفة. ولم يشرك في أعمال التنقيب علماء الآثار فحسب، بل أشرك خبراء في جميع أنواع التخصصات. كان على الجميع تبادل المعلومات بحرية، بما في ذلك، الملاحظات البحثية. ومُنْذُ البداية، عمل الفريق بشكل وثيق، مع السلطات التركية، التي طورت الموقع كونه وجهة سياحية واعدة.

من البداية، فكر هودر في مشروع كاتال هولوك باعتباره عمل تنقيب يهتم بالناس. وكان يؤمن أن الماضي قد خلقه الناس، كأفراد، وكأعضاء في مجموعات كبيرة، وصغيرة. وكما نفعل، اليوم، فقد تفاعل الناس مع بعضهم البعض، ومع مجتمعهم، ومع أسلافهم. وأدرك هودر أن موقع كاتال هوليك لديه القدرة على الكشف عن مثل هذه التفاعلات. إن معتقدات الأسلاف التي

طواها النسيان مُنْذُ أمد طويل سوف تأتي إلينا على شكل أشياء مادية يتم العثور عليها في أثناء أعمال التنقيب: في الأضرحة، والمعابد، وفي أماكن أخرى.

وضع هودر ثلاثة مبادئ أساسية. أولاً، نحن لم نتمكن من النظر إلى الماضي بشكل خالص من خلال علم البيئة، أو الإيكولوجيا (الذي يبحث في العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها)، أو التكنولوجيا، أو الطرق التي يطعم بها الناس أنفسهم. ثانيًا، يجب أن نركز على الجوانب المهملة في المجتمعات القديمة، ومن بينها الأقليات العرقية، والنساء والشخصيات المجهولة، التي تكون أمية لا تعرف القراءة والكتابة، في كثير من الأحيان. ثالثًا، يجب أن نأخذ، في الاعتبار، دائما، الأهمية الأوسع للبحوث بالنسبة للجمهور. وقد تحدث العديد من علماء الآثار عن بعض، أو حَتَّى كل هذه المبادئ الثلاثة من قبل. لكن لم يعتنقها جميعا أحد منهم مُنْذُ البداية. كل شيء اعتمد، بالطبع، على التنقيب. عالج فريق البحث سؤالين أساسيين في وقت مبكر: متى ظهرت كاتال هويك إِلى الوجود؟ وماذا كانت تشبه أول مستوطنة؟

تم حفر الخنادق حَتَّى قاعدة التلة الشرقية التي كشفت عن وجود مستوطنة صغيرة ازدهرت بالقرب من مستنقع في حوالي سنة 7400ق.م. أثبتت عظام الحيوانات، وبذور النباتات أن سكانها كانوا مزارعين. كما إنّهم اعتمدوا على الأسماك، والطيور المائية، والطرائد من المناطق الطبيعية المحيطة بهم.

ازدهرت هذه القرية الصغيرة مدة 1000 عام بفضل التربة الخصبة، ووفرة المياه، وتوفر مزيج من الزراعة والرعي. في البداية، كان يعيش بضع مئات فقط من السكان فيها، لكن عندما أصبح الرعي أكثر أهمية، ازداد عدد السكان إلى ما بين 3500 و8000. نسمة، كان ذلك عندما أصبحت القرية، تلك، البلدة الصغيرة التي تحدث عنها العالم ميلارت، وكانت تتألف من المنازل المزدحمة بالسكان. لقد أصبحت الآن مكانا مهما، معروفا بين امكنة تمتد أميالا من حولها.

كان سكان القرية محظوظين، لأنهم عاشوا في مكان تصله بسهولة تدفقات الحمم البركانية، حَيْثُ يمكن استخراج السبج (وهو حجر بركاني) بأقل جهد. ولأن حجر السبج كان مصقولا، ولامعا، فقد كان مثاليا لصنع الأدوات الحجرية. استغل سكان كاتال هوليك الفرصة لتكوين آلاف الكتل المتماثلة من المواد التي يمكن حملها بسهولة، ثُمَّ تصُنيعها على شكل أدوات صغيرة حادة الحواف. كانت تجارة الزجاج البركاني ضخمة، وامتدت إلى سوريا، وبلدان ابعد منها.

ازدهرت الأوضاع المعيشية في كاتال يوهوك، لدرجة أن الذين عاشوا هناك أعادوا بناء منازلهم في الأقل ثماني عشرة مرة على مدى 1400 سنة حَتَّى انتهى استيطانها في حوالي سنة 6000ق.م. وهكذا اصبح بإمكان هودر، وزملائه التركيز، فعلا، على الناس، وعلى (أرائهم). وتحقيقا لهذه الغاية، قاموا

بالتنقيب في أكثر من 166 منزلا، ولم تكن مساكن فردية فحسب، بل كانت سلسلة من المنازل المتجاورة، بنيت، كلّها، في الموقع نفسه.

كانت المستوطنة تتألف من مجموعات متراصة بإحكام من المساكن ذوات السقوف المسطحة، مفصولة عن بعضها البعض بأزقة ضيقة. سكنتها نفس المجموعات من الناس، وأعيد بناء المنازل على نفس المكان لأجيال، ما يشير إلى روابط قرابة قوية بين الجيران الذين عاشوا هناك في أوقات سابقة. وكانت الروابط التي تجمع ابناء المجتمع، هي، روابط الدم بين الأفراد، وعائلاتهم، ومع أقارب آخرين يعيشون في مكان قريب، أو بعيد. ورسّخت - هذه الروابط - أيضًا، العلاقة بين الأشخاص الأحياء، وأجدادهم، وهو أحد الأسباب التي جعلت علاقات القرابة مهمة للغاية، هكذا، في كاتال هويك.

لم يقم سكان البلدة، أبدا، بتشييد أبنية عامة، أو معابد، أو مراكز احتفالية كبيرة. كان كل شيء يحدث داخل منازلهم: الأكل، والنوم، وصنع الأدوات، والطقوس من جميع الأنواع. ولم يكونوا يدفنون موتاهم في المقابر. كانت الحياة اليومية، والمعتقدات الروحية ممتزجة معا. نحن نعرف ذلك، لأن جدران العديد من المنازل كانت تحوي رسومات للبشر والحيوانات، مثل النمور، والنسور. يبدو الأمر كما لو أن اسلاف الحيوانات، والبشر كانوا يراقبون الأحياء. واحتوت العديد من المنازل على المدافن، وجماجم الثيران البرية كذلك. في بعض الأحيان كان يتم فصل رؤوس الموتى، وتلصق وجوههم فوقها. ثُمَّ يتم عرض الرؤوس،

ونقلها من جيل إلى آخر. كل هذا، كان تعبيرا عن عالم معقد من الأساطير التي أعطت معنى للحياة اليومية. نعرف المزيد عن هذا المعنى من عدد صغير من المنازل التي لم تكن مأهولة بالسكان أبدا، بدلا من ذلك، سكن الموتى هناك. كان البيت المسكون يحتوي، في المتوسط، على ما بين خمس، وثماني مقابر. لكن هذه البيوت الخاصة احتوت على المزيد: تم دفن 62 جثة في واحدة منها على مدى أربعين سنة. كان أثاثهم يتضمن جماجم ثيران برية مقدسة، ونماذج طينية لرؤوس الثيران. وتحمل الجدران رسومات لثيران، وأشخاص بلا رؤوس، وطيور مفترسة، ومن الواضح أنه كان لها دور فاعل في الطقوس التي كانت تؤدى في الأضرحة.

وكان لكل واحد من المنازل غير المأهولة تاريخ يتحدث عن أولئك الذين قاموا ببنائها، وصيانتها. في بعض الأحيان، كان حَتَّى الناس العاديين يحفرون في الأرض لاستخراج جماجم الثيران الثمينة التي خلفتها الأجيال السابقة. وقاموا، أيضًا، بممارسة نقل الأسنان من المدافن السابقة إلى المدافن اللاحقة. وقد اطلق هودر على هذه الهياكل القليلة غير المأهولة تسمية (بيوت التاريخ). كانت تلك، هي، الأماكن التي يمكن للناس التواصل فيها مع أسلافهم، وتاريخهم، وذلك باستخدام طقوس مألوفة كان يمارسها أولئك الذين عاشوا قبلهم. ربما شهدت هذه البيوت، أيضًا، إقامة أعياد احتفالية، وكانت تحتفي بالثيران البرية. كان

لهذه الحيوانات الخطرة قوة روحية ضخمة في المجتمعات الزراعية التي كانت تشغل مناطق واسعة من الشرق الأوسط القديم.

أنشأ الناس هذا التاريخ، وحافظوا عليه بالعيش مع الموتى (وفوقهم)، وإعادة تدوير أجزاء الجسم، مثل جماجم الأجداد. قام الأسلاف - من البشر، والحيوان، على حد سواء - بحماية الموتى، والمنزل، وسكانه. عززت الارتباطات بين الحيوانات الخطرة، والبشر مقطوعي الرؤوس، والطيور الجارحة التي كانت تظهر في رسومات الجدران، استمرارية الحياة قبل الموت، وبعده.

عاش مزارعو كأتال هويك، وهم يستخدمون تقويم المواسم المتغيرة: الربيع، الزرع (الولادة)، الصيف (النمو)، الخريف (الحصاد)، ثُمَّ الشتاء (الموت). كان هذا هو الواقع النهائي للحياة البشرية، والسبب الذي جعل الناس يبجلون، ويحترمون أسلافهم. كانوا يعلمون أنهم سيصبحون مثلهم يوما ما. وهذا، هو، السبب، أيضًا، في احترام الشخصيات النسائية، والإلهة التي كان من المحتمل أن تكون مسؤولة عن الخصوبة: لقد كانوا يجددون حياتهم.

كان مشروع البحث في كاتال هويك أكثر بكثير من مجرد كونه بحثا في علم الآثار. وقد استخدم هودر أعمال التنقيب، وأبحاث العشرات من الخبراء لتدوين تاريخ معقد لمجتمع كان يهتم بشدة بأسلافه. كان، هذا، مكانا مليئا بالعلاقات، والتوترات المعقدة. نحن ننظر إلى الوراء في مجتمع يحوي العديد من الأصوات الصاخبة.

كان هناك صوت آخر، أيضًا: هو صوت السكان المحليين المعاصرين. لم تكن كاتال هويك جزءًا من تاريخهم فحسب. لكنها، أيضًا، أكثر من ذلك بكثير. وقد شارك العديد من المزارعين المحليين في أعمال التنقيب. وتحول الموقع إلى متحف أثري يزوره السياح من العديد من البلدان. تحدث هودر، وزملاؤه، عن اكتشافاتهم للقرويين الذين يعيشون في الجوار. لقد قاموا بتدريب القائمين على المتحف، وحراسه بمساعدة علماء الآثار الأتراك. لقد كتب هودر حَتَّى قصة حياة أحد حراس الموقع.

أصبح علماء الآثار من العديد من البلدان - وعملهم - جزءًا من المشهد المحلي. هذا هو ما نسميه (علم الآثار المشترك)، علم الآثار الذي يجمع الماضي مع العالم المعاصر. واصبح البحث الأثري، وحماية ما هو موجود يسيران جنبا إلى جنب.

يشير علماء الآثار، عادة، إلى الأشخاص الذين لديهم اهتمام في الموقع بتعبير (ذوي الشأن) Stakeholders، وكان هذا التعبير يشير، في حالة كاتال هويك، إِلى الأشخاص من المجتمعات المحيطة بالموقع. ويشمل، أيضًا، علماء الآثار الأجانب، والاتراك الذين يعملون في الموقع، والأشخاص الذين يديرون، ويعتنون بالمتحف. السياح، هم، أيضًا، من ذوي الشأن، لأن موقع كاتال هويك هو جزء من التراث الثقافي المشترك لجميع البشر. وعندما نتحدث عن ذوي الشأن، دعونا لا ننسى الأسلاف.

الفصل الثامن والثلاثون



دراسة المعالم الطبيعية

كان المحامي، والطبيب، وعالم الآثار وليام ستوكلي (1687 – 1765)مهووسا بدوائر الحجر في موقع ستونهنج في جنوب إنكلترا. كان إنسانا متفائلا، مبهجا، ذا فضول شديد لمعرفة ماضي البشر. كان عبثيا، مبدعا، مرحا. في العام 1723، قام بنزهة مع أحد اصدقائه، هو، لورد مقاطعة وينشيلسيا حول ما تعرف بالاحجار الثلاثية في أثار ستونيهينغ المميزة، حَيْثُ ينتصب حجران بشكل مستقيم، ويربط بينهما حجر ثالث. ثُمَّ تناولا العشاء على قمة أحدها. كان ستوكلي قد لاحظ أن أي شخص يمتلك (عقلا راجحا)، و(كعوبا رشيقة) ستكون له الفرصة في ان يرقص المنويت (رقصة كان يؤديها النبلاء) فوق سطح تلك الصخور.

وعلى الرغم من جميع طرائفه، كان ستوكلي عالما جادا مهتما بحياة الناس القدماء. كان يعتقد أن ستونهنج ليس مجرد معجزة، بل مكان مقدس، إذا ما نظرنا إِليها في إطار أوسع. أكمل عملية المسح الأولى لدوائر الحجر، وحفر في عدد قليل من تلال الدفن القريبة؛ لكن الأهم، من ذلك، هو، أنه تجول في المكان، والتقطت عينه الثاقبة أعمال حفر كان قد طواها النسيان مُنْذُ فترة طويلة، بما في ذلك ما أطلق عليه تسمية (الجادة)، تلك التي تشق ضفاف الانهار، والخنادق. وبعد مرور قرنين من الزمان، تتبعت الصور الجوية ذلك المكان على بعد 3 كيلومترات من نهر آفون، بالقرب من مدينة أميسبوري. كما عثر ستوكلي على زوج من الخنادق المتوازية، ما يدل على ما كان يعتقده من أنه كان ميدانا لسباق الخيل (أطلق عليه اسم كورسيس)، ينتهي بمدرج ترابي في النهاية الشرقية.

كان العمل الميداني الذي يقوم به وليام ستوكلي رائعا بسبب ما يتميز به من دقة، وبعد نظر. كان الزائرون السابقون لا يفعلون شيئا سوى وصف ستونهنج في بضع كلمات. ومن خلال نزهاته في الريف، ابتكر ستوكلي أحد الأساليب الأساسية لعلم الآثار اليوم، وهو الدراسة المنهجية للمعالم الطبيعية القديمة.

لطالما كان علماء الآثار مهووسين بالمعالم البارزة الكبيرة. وحَتَّى وقت قريب، في حالة ستونهنج، عكست البحوث، التي أُجريت، هذا الهوس. أثمرت التنقيبات داخل دوائر الحجر، وحوله، عن تسلسل زمني مؤقت (وليس نهائيا)، جنبا إلى

جنب مع الكثير من التأملات في أهمية الموقع. وفي السنوات القليلة الماضية فحسب، وجّه الباحثون اهتمامهم - كما فعل ستوكيلي - فبحثوا، بشكل مناسب، في الاماكن المحيطة بهم. وفي حين خاض ستوكيلي في المناطق الريفية سيرًا على الأقدام، أو على ظهور الخيل، فإن علماء الآثار اليوم يدرسون المعالم الطبيعية بوسائل إلكترونية، ومن الفضاء.

على مدى أجيال عدة، حلمنا بطرق لاستكشاف المواقع الاثرية دون بذل جهود مضنية، ومكلفة لحفرها. يدرس (علم الآثار غير التدخلي) - المعروف باسم (الاستشعار عن بعد) - المواقع الاثرية، ومحيطها من دون المساس بها، أو تدميرها عن طريق حفرها. بدأ الاستشعار عن بعد مع اختراع التصوير الجوي، الذي أصبح وسيلة مهمة من وسائل علم الأثار بعد الحرب العالمية الأولى. أما في الوقت الحاضر، فقد اصبحنا نمتلك ادوات مثل برنامج غوغل ايرث، وصور الاقمار الصناعية، والرادار المحمول جوّا، ووسائل تقنية مثل الرادار الذي يخترق الأرض، والتقنيات الأخرى مثل الاستكشاف أسفل سطح الأرض. وهذه تسمح لنا باستكشاف المواقع الطبيعية بأكملها.

ولم يعد بعض من أفضل علماء الآثار يحبذ، فعلا، استخدام اسلوب الحفر - فهم يدركون أن الحفر يدمر المواقع الأثرية. وبطبيعة الحال، فإن التنقيب الانتقائي ضروري للحصول على أدلة تاريخية، أو للإجابة عن أسئلة محددة. لكن الحفريات، اليوم، اصبحت على نطاق ضيق، وتجري، ببطء، ويخطط لها

بعناية – وتختلف تماما عن أعمال الحفر التي قام بها العالم ليونارد وولي في مدينة أور في سنوات العشرينيات، والثلاثينيات من القرن العشرين.

وبفضل تقنية تحديد التأريخ بالكربون المشع، وأعمال التنقيب المحدودة، بتنا نعرف من ستوكلي معلومات غزيرة عن موقع ستونهنغ. فقد تم تشييد دوائر الحجر الكبيرة في حوالي 2500ق.م، على الرغم من وجود نشاطات متكررة هناك مُنْذُ 1000 سنة في الأقل. لكننا كنا دائما مهتمين أكثر بدوائر الحجر نفسها أكثر من المناطق الطبيعية المحيطة بها. هذه هي قصة ما تعلمناه عن ستونهنغ، عندما بدأت تقنية الاستشعار عن بعد في أداء دورها.

في العام 2010 شرع فنسنت غافني، وهو خبير في الاستشعار عن بعد، وكان في طليعة من عملوا في دوغرلاند، الموقع الجليدي المدفون تحت بحر الشمال (انظر الفصل 40)، شرع، في إجراء دراسة مدة أربع سنوات لموقع ستونهنغ، باستخدام أجهزة قياس المغناطيسية، والرادار الذي يخترق الأرض، لإنتاج صور ثلاثية الأبعاد من المواقع الموجودة تحت السطح. استخدم فريقه أحدث التقنيات، التي تم تركيبها على الدراجات الرباعية، والجرارات الصغيرة، لرسم خريطة لمساحة تبلغ 14 كيلومترا مربعا من المناطق الطبيعية المحيطة بستونهينغ. كشف المشروع عن 15 دائرة حجر، وتلال للدفن، وخنادق، وحفر كانت غير معروفة حَتَّى ذلك الحين. اتضح أن ستونهنغ تقع في قطعة متطورة، ومزدحمة، سَكَنها، ويعيش فيها الكثير من الأحياء والأموات.

قام غافني بفحص الموقع الذي اطلق عليه ستوكلي تسمية كيورسوس، الذي يقع مباشرة إلى الشمال من ستونهنغ، وكان عبارة عن شريط طويل، يتميز بوجود الخنادق، التي تمتد من الشرق إلى الغرب لأكثر من 3 كيلومترات. وكان هذا الموقع أبعد ما يكون عن ميدان لسباق الخيل، كما كان يعتقد ستوكلي، ومن المحتمل ان موقع كيورسوس، هو ممشى مقدس، يعود تاريخه إلى عدة قرون قبل بدء أعمال البناء في ستونهنغ.

عثر غافني وزملاؤه على عدة ثغرات في الخنادق. قد تكون هذه (قنوات) لتوجيه الناس الذين يصلون من الشمال والجنوب إلى المحور الشرقي الغربي.

جميع أنواع الميزات الغامضة التي كانت موجودة في الاستطلاع الذي اجراه غافني، كانت تنتظر بدء عمليات التنقيب. نحن نعلم أن العديد من هذه الميزات تتوافق (تتزامن) مع شروق الشمس في أطول أيام السنة، وأقصرها، أو ما يسمى بالانقلابات الصيفية، والشتوية. كان منظر ستونهنغ ذا معنى روحاني كبير. ما الذي يعنيه لأولئك الذين قاموا ببناء دوائره الحجرية وتحصيناته؟ وما هي المشاعر التي أثارها مشهد ستونهنغ الدرامي فيها؟ لا بُدَّ من أن تكون مسألة تخمينات. لكن هناك بعض الأسئلة التي قد نكون الآن قادرين على الإجابة عنها.

لقد عاش المزارعون الذين بنوا ستونهنغ في بيئة صعبة، وكان تعاقب الفصول هو الذي يحكم نمط حياتهم. كانت الدورات الأبدية للزراعة، والنمو، والحصاد – التي ترمز

للحياة، والموت - تتكرر، ذاتها، إلى ما لا نهاية في خلال سنوات الرخاء، والقحط. كانت هذه هي الحقائق التي حكمت حياة الإنسان في ستونهنج، كما فعلت في العديد من المجتمعات الأخرى، الكبيرة، والصغيرة، بما في ذلك موقع كاتال هيوك في تركيا (انظر الفصل 37). لحسن الحظ، فإن الحفريات في جدران دورينغتون، وهي تحصينات تقع على بعد أكثر من 3 كيلومترات شمال شرق ستونهنغ، قد كشفت عن بعض الطقوس المعقدة للحياة في الماضي البعيد.

جدران دورينغتون هي تحصينات ترابية دائرية كبيرة، معروفة باسم (هينغز)، كان ارتفاعها يبلغ أكثر من 3 أمتار، وتحتوي على تجويف يبلغ 3 أمتار في الجانب الداخلي. وتغطي مساحة 17 هكتارا، ولكن لا يوجد الكثير منها لنراه على السطح، اليوم، وقبالتها، وعلى جانبها الجنوبي، كانت هناك ذات يوم دائرة من الخشب تُعرف باسم وودهنج. وكانت هناك دائرتان خشبيان بحجم ستونهنج، معروفة باسم الدائرة الشمالية، والدائرة الجنوبية، قد انتصبتا على سطح الأرض.

في الفترة ما بين حوالي سنتي 2525 و2470 قبل الميلاد، قبل بناء التحصينات الترابية تلك، ازدهرت واحدة من أكبر المستوطنات البشرية في أوروبا، هنا. كان هناك ما يقرب من 4000 شخص يعيشون في حوالي 1000 منزل بجدران مدهونة، تحوي اعمدة خشبية (عبارة عن شرائط خشبية مليئة بالطين). قد يكون السكان، هم، أولئك الناس الذين بنوا كلاً من جدران

دورينغتون، وستونينهنج. فلم تكن توجد أي إشارات على وجود قرية مبنية بالقرب من هذه المواقع.

حَتَّى وقت قريب، كان الجميع يفترضون أن الموقعين قد تم بناؤهما في أوقات مختلفة، وان جدران دورينغتون قد بنيت في فترة اقدم ببضعة قرون. ومع ذلك، تُظهر تقنية تحديد التاريخ بالكربون المشع الجديدة أن الموقعين دخلا إِلى الاستخدام في الوقت نفسه. ولكن لماذا تم بناء جدران دورينغتون، ووود هينغ من الخشب، في حين تم بناء ستونيهينج بالحجارة؟ كانت اسكفيات (وهي عنصر معماري، شكله، عادة، مستطيل يرتكز على تيجان الأعمدة) الصخور الثلاثية، في ستونهينج، تشبه المفاصل الموجودة في الهياكل الخشبية، وهذه إشارة إلى أن البناة كانوا، أيضًا، من النجارين.

مايكل باركر بيرسون، هو، عالم آثار إنكليزي يتمتع بخبرة واسعة جدا. وقد عمل من بين أماكن أخرى، في مدغشقر، حَيْثُ زار العديد من المقابر، والحجارة مع راميليسونينا، عالمة الاثار من مدغشقر. كان باركر بيرسون قد قام بالتنقيب في مواقع أفيبوري، وستونهنج، وأجرى ترتيبات لراميليسينا لزيارة المواقع. وبعد ان ألقت نظرة واحدة عليها، أعلنت أن ستونهنج، المصنوعة من الحجر، كانت للأسلاف – الموتى في حين ان جدران دورينغتون، مع قوائمها الخشبية، كانت منْ أَجل الأحياء. هل كان هذا هو الحال؟ كان هناك، بعد كل شيء، ممارسة حرق الجثث ودفنها

في ستونهنج، وتلال الدفن القريبة، لكن لم يكن يحدث ذلك في جدران دورينغتون.

كان بيرسون، وفريق عمله يملكون كميات هائلة من البيانات. انهم يحبون أن يمتلكوا وجهة نظر واسعة. فلماذا، على سبيل المثال، تم نقل (النجوم الزرقاء) الشهيرة في ستونهنج على طول الطريق من تلال بريزيلي في ويلز، التي تقع على بعد حوالي 290 كيلومترا من الدوائر الحجرية؟ ولعل الأهم من ذلك، لماذا تم نصب ستونهنج حَيْثُ هي موجودة، على بعد كيلومترين تقريبا من أقرب مصدر للمياه، على قمة سلسلة من التلال المهجورة، نوعا ما؟ ولماذا نواجه كل مشكلة نقل الحجارة، وتركيبها لتكوين دائرة حجرية تحاكي الخشبية؟

كان العمل الجماعي، هو، الطريقة الوحيدة لمعالجة هذه الأسئلة المعقدة. قام باركر بيرسون، وبعض أصدقائه من علماء الآثار بتكوين مجموعة ضمت باحثين موهوبين لمشروع ستونهنج ريفرسايد الذي يمتد سنوات عدّة. تمت مناقشة كل مرحلة من مراحل العمل بعناية. وتم طرح الأسئلة الشائكة في ميدان العمل، وفي الحانة، وفي المختبر. ما أعقب ذلك هو سلسلة من المسوحات، والتنقيبات كانت منظمة بعناية، ومدمجة مع تحليل حَتَّى أصغر القطع الأثرية. في جدران دورينغتون، تتبع المنقبون جادة ظهرت إِلى السطح عرضها حوالي 100 متر، مع ضفات موازية تقود من المدخل الجنوبي للحصن إلى نهر آفون.

كانت الجادة بمحاذاة المدخل إلى الدائرة الجنوبية. كيف كان يتناسب هذا مع مشهد ستونهنج الأوسع؟

كان أحد أعضاء الفريق، وهو، كريستوفر تيلي، قد طور في السابق منهجا جديدا لاستكشاف المناطق الطبيعية التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ أطلق عليه تسمية (علم الظواهر). وهذا المنهج ينطوي على محاولة التجول في المناطق الطبيعية بنفس الطريقة التي كان يتنقل فيها الناس قديما. ورغم ان الرادار الذي يخترق الأرض، والخرائط، وغيرها من أجهزة المسح المتقنة، كلها، كانت جيدة، وبارعة، لكن المعالم الطبيعية تتطلب ما هو أكثر من ذلك. كبداية، يجب على الباحث أن يتجاهل الطرق، والحقول، والاسوار، والمسارات الحديثة، على سبيل المثال، كيف استخدم بناة ستونهنج الاماكن الطبيعية في الاقتراب من دوائر الحجر؟ قام تيلي بالسير عبر الجادة، وغيرها من شواخص الاماكن القديمة، واستكشف مسار نهر آفون، حَيْثُ كانت هذه المجتمعات تستخدم الزورق الذي يخترق مسافات طويلة من النهر، وجداوله.

عندما كان تيلي يذهب إلى العمل، كان باركر بيرسون وفريقه يقومون بالتنقيب في جدران دورينغتون، فأزالوا التربة الفوقية للخنادق بطريقة ميكانيكية، وكشفوا عن التربة الطباشيرية. كانت مساحة أحد المنازل التي كانت ارضيتها من التربة الطباشيرية حوالي 25 مترا مربعا. كشفت أعمال التنقيب اليدوية الدقيقة عن وجود حفر لأوتاد كانت تقف عليها الجدران المصقولة بمزيج

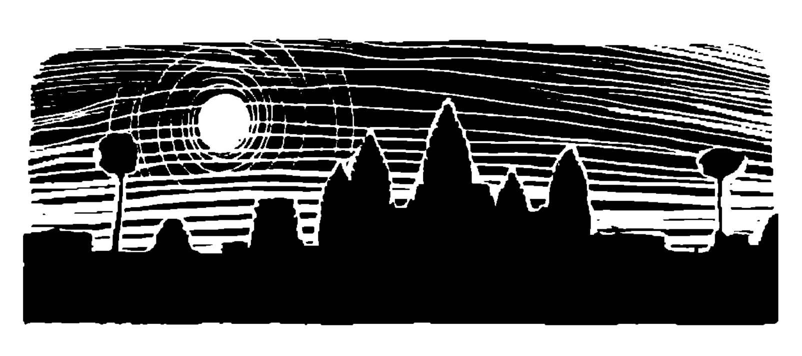
من الرمل، والطين ذات يوم، وقد كشف الفريق عن أخاديد سطحية موجودة بين الجدار، والارضية الطباشيرية، كانت تمثل، في السابق، اساسات لأسرة النوم، وصناديق تخزين حاجات المنزل. كما قام الفريق بغربلة التربة الارضية لخمسة منازل من خلال شرائح دقيقة للغاية في المختبر.

لا يمكننا فهم جدران دورينغتون من دون النظر إلى ستونيهنج، التي نعرف عنها، الآن، الكثير. استخدم موقع ستونهنج إلى فترة طويلة كمكان للدفن. قام بناته بتشييده في نهاية سنة جيولوجية طبيعية امتدت على طول محور الانقلاب الشمسي. تم تشييد النسخة الأولى من ستونيهنج في سنة 3000 قبل الميلاد. دُشِّنت المرحلة الثانية من البناء، عندما تم نحت الصخور الثلاثية، والأحجار الكريمة (المصنوعة من الحجر الرملي)، التي ظهرت في حوالي سنة 2500ق.م. تزامنا مع بناء دوائر خشبية مماثلة في جدران دورينغتون. تم نحت تلك المباني في مستوطنة استضافت أشخاصا جاءوا من اماكن بعيدة مع قطعانهم لحضور الاحتفالات الموسمية في الصيف، والشتاء. والاكثر احتمالا أن يكون موقع ستونهنج مكانا للموتى؛ وجدران دورينغتون، مكانًا، للأحياء. نحن نعرف ذلك من محاذاة الموقعين. كانت المعالم الطبيعية المحيطة بها تشبه تقريبا مرصدا فلكيا ضخما. في منتصف الصيف، كانت ستونهنج تصطف مع الشمس، كما هي تبدو عند الشروق. وتتلاقى جادة جدران دورينغتون، والدائرة

الجنوبية للموقع مع شمس منتصف الصيف، حَيْثُ تنخفض تحت الأفق عند غروب الشمس.

يُعدّ مشروع ستونيهنج ريفرسايد مثالا رائعا لأبحاث فريق متماسك، أجريت على وفق أهداف، وفرضيات محددة بعناية. جاء الخبراء في الفريق من مجموعة واسعة من التخصصات، بعضها بعيد كل البعد عن علم الآثار. كان أعضاء الفريق يجازفون، ويطرحون أسئلة جريئة، ويثبتون أن المعرفة تراكمية، فهي تتراكم تدريجيًا. على هذا النحو، يوفر المشروع خطة لتحقيق فهم عميق لموقع ستونهنج في المستقبل. في كثير من النواحي، يمثل علماء الآثار الذين عملوا في موقع ستونهنج مستقبل علم الآثار. وبدلاً من الاكتفاء بالتنقيب في المواقع الفردية، فإننا نعدّها جزءًا من نطاقات للعمل أوسع بكثير. لقد درنا دائرة كاملة، وعدنا إلى ما كان يفعله ويليام ستوكيلي في موقع ستونهينج في العشرينيات من القرن الثامن عشر.

الفصل التاسع والثلاثون



تسليط الضوء على الأشياء المخفية

كشفت الأبحاث التي أجريت في موقع ستونهنج الاثري، عن قوة فاعلية تقنية الاستشعار عن بعد، عند دراسة الماضي. وفي غضون سنوات قليلة، سيكون لدينا فهم أفضل للمعالم الطبيعية المقدسة المحيطة بدوائر الحجر. هكذا اصبح نطاق علم الآثار أوسع بكثير من أي وقت مضى. لكن موقعي (ستونهنج)، وجدران (درينجتون) يتضاءلان أمام مشروع مختلف للاستشعار عن بعد يجري على الجانب الآخر من العالم.

عندما رأيت معابد أنغكور وات في كمبوديا، أول مرة، وكان ذلك في يوم حار، رطب، فإن حجمها الهائل خطف أنفاسي. أنت تتوقف، فجأة، امام غابة كثيفة، أبراجها تمتد نحو السماء. وفي وقت الغروب، يلقي اللون الوردي للشمس الغاربة

ضوءًا رقيقا على الزخارف الغنية. يكشف الضريح الضخم عن منظر من الجمال يثير الدهشة على نطاق لا يمكن تخيله تقريبا. لا يسعني إلّا أن أتعجب من الرؤية التي كان يحملها المهندس المعماري المجهول الذي قام ببنائه. انه واحد من أعظم العجائب الأثرية في العالم، التي تمتد جذورها التاريخية إلى أكثر من 1000 عام. لكن أطلاله تختبئ وسط غابة كثيفة، ما جعل المعالم المحيطة بها غير مرئية تقريبا، وما يزال الحال، هكذا، حَتَّى اليوم، قبل البحث في موضوع الاستشعار عن بعد هنا، يجب أن نقدم خلفية تاريخية بسيطة. يقع معبد أنغكور وات بالقرب من نهر ميكونغ في كمبوديا، ويطل على بحيرة تونلي ساب العملاقة.

هذه البحيرة غير اعتيادية: فعندما يفيض نهر ميكونغ في الفترة ما بين آب، وتشرين الأول، تكبر البحيرة وتزداد عمقا لتبلغ 160 كيلومترًا طولا، وليبلغ عمقها 16 مترًا. ومع انحسار مياه نهر ميكونغ، وانخفاض مستوى البحيرة، فإن الملايين من أسماك السلور، والأنواع الأخرى، تكون محاصرة في وسط المياه الضحلة.

وهذا المزيج من التربة الخصبة (التي تكون مثالية لزراعة الأرز) مع أغنى المصايد على وجه الأرض، يخلق بيئة منتجة للغاية تعيل آلاف المزارعين. وتقوم الخزانات والقنوات التي تدار بشكل جيد بتوزيع المياه على آلاف الهكتارات من الأراضي الزراعية، ما يشكل دعما لحضارة الخمير الثرية، التي ازدهرت في الفترة ما بين اعوام 802 و1430 بعد الميلاد.

في البداية، دعمت بحيرة تونلي ساب والمناطق المحيطة بها العديد من الممالك المتنافسة التي ما تزال تواريخها مجهولة. ثُمَّ ظهرت سلسلة من ملوك الخمير (وهم الجماعة العرقية الغالبة في كمبوديا) الطموحين لإقامة إمبراطورية قوية، وأكثر استقرارا. لقد عدّوا أنفسهم حكاما إلهين - وبتكاليف كبيرة - قاموا ببناء الأضرحة على شرفهم. وسيطر معبد أنغكور وات، وحفنة من القصور، والأضرحة الرائعة الأخرى على معالم كمبوديا. يمتاز معبد أنغكور وات، ومعبد أنغكور ثوم القريب منه بحجمهما الخرافي: ما جعل المعابد المصرية القديمة، ومراكز حضارة المايا في كوبان في هندوراس، التي زارها علماء آثار امثال كاثروود، والزوجان ستيفنز (الفصل 6)، تبدو مثل الاقزام مقارنة بهما.

أقام حكام إمبراطورية الخمير مملكة إلهية تتمتع بالرفاهية، والثروة. كان كل شيء، بما في ذلك عمل الآلاف من العوام، من ممتلكات الملك. في عام 1113م، بدأ الملك سوريافارمان الثاني ببناء تحفته، معبد أنغكور وات.

كل جزء من تفاصيل هذا البناء الرائع يعكس بعض عناصر أسطورة الخمير. ووفقا لمفاهيم علم الكون لدى اقوام الخمير، يتألف العالم من قارة مركزية، تدعى جامبودفيبا، إلى جانب، جبل ميرو، الذي يرتفع من وسطها. وينتصب البرج المركزي لجزيرة أنغكور وات على ارتفاع 60 مترًا فوق سطح الأرض عن الاماكن المحيطة به في محاكاة لارتفاع القمة الرئيسية لجبل ميرو. وهناك أربعة أبراج أخرى تمثل القمم الادنى. ويمثل جدار مسور

ضخم سلسلة الجبال التي تحيط بالقارة، في حين يمثل الخندق المائي المحيط بالسور منطقة ما بعد المحيط الأسطوري.

لم تدم تحفة سورفارمان الثاني طويلا بعد وفاته. فسرعان ما تم التخلي عنها في خلال فترة الاضطرابات السياسية. تولى العرش ملك آخر هو الملك سورفارمان السابع، وقد كان بوذيا، وليس هندوسيا، حدث ذلك في العام 1151 وهو الذي قام ببناء معبد انغكور ثوم القريب، الذي كان بمثابة عاصمة للمملكة، بقدر ما كان ضريحا.

يمكننا بسهولة أن نصبح مهووسين بمعبد أنغكور وات. إنه، فوق كل شيء، واحد من أكثر المواقع الأثرية إثارة على وجه الأرض. وهو يشكل أيضًا كابوسا لعالم الآثار: فأطلاله واسعة جدا، ومتقنة بحَيْثُ لم يتم توثيقها بالكامل. وقد تحدت بمقاييسها وتعقيدها، طرق التنقيب التقليدية.

تبلغ مساحة ضريح سورافارمان 1500 متر طولا، و1200 متر عرضا، ويحميه خندق مائي عريض. تبلغ مساحة المبنى المركزي وحده 215 مترا طولا و186 مترا عرضا. والوصول إِليه يتطلب عبور جسر طوله 1500 متر فوق الخندق المائي. وهو محمي بجدران منخفضة مزينة برسوم ثعابين أسطورية متعددة الرؤوس. تحيط بالبرج المركزي ثلاث طبقات من الساحات، والمعارض، والغرف. وتُظهر النقوش المرسومة على الجدار، الملكَ، وهو يستقبل المسؤولين في أحد المواكب.

وهناك رسوم لمناظر معركة تخلد الفتوحات التي قام بها، ومشاهد رقص لحوريات جميلات تَعِدُ بحياة أبدية في الجنة.

كان يوجد فيه مرصد فلكي، ومكان دفن ملكي، ومعبد: كل شيء يتعلق بمعبد أنغكور وات كان له رمزية كونية ودينية عميقة. كل شيء موجود كان ذا مساحات، وحجوم هائلة. لذا، فإن الطابع الغالب على الموقع، هو، تعقيده، وروعته، الذي يجعل من السهل نسيان المناظر الطبيعية المحيطة به. في الماضي، كان علماء الآثار يفعلون ذلك.

كان البحث قد وصل إلى طريق مسدود عندما بدأ استخدام تقنية الاستشعار عن بعد. ولكون تدريبات الباحثين في وقتنا الحاضر التي تتعلق بتقنيات الاستشعار عن بُعد، تتم باستخدام الاقمار الصناعية، فإنهم باتوا يطرحون أسئلة عن الاماكن الطبيعية المحيطة. كان من المعروف أن معبد أنغكور وات يقع في قلب بيئة ضخمة مكتظة بالسكان تجاوز عددهم ثلاثة أرباع مليون شخص. لكن المعالم الطبيعية المحيطة به كانت عبارة عن غطاء نباتي كثيف، ومن الصعب تخطيط الغابات المطيرة، والنباتات الكثيفة، لأن المساحين يحتاجون إلى خطوط رؤية مستقيمة. وإذا لم تكن تستخدم جيشا صغيرا من العمال الذين لديهم فؤوس، وسواطير لقطع عشرات الأشجار، فلا يوجد الكثير مما ينبغي عمله. ولحسن الحظ، تمكن الباحثون من التحول إلى تقنية اللادار LIDAR، وهذه التقنية التي تعني الكشف عن الضوء، وتحديد مسافته، هي شكل من أشكال المسح الضوئي

بالليزر، تم تطويرها في الأصل في الستينيات لاستخدامها في علم الأرصاد الجوية (دراسة الغلاف الجوي). وهي تعمل عن طريق إرسال شعاع ضوئي ثُمَّ يرتد من الجسم المستهدف، ويعود إلى المصدر؛ يتم قياس الوقت الذي يستغرقه الضوء للانتقال من، وإلى المصدر، ويمكن حساب المسافة الدقيقة إلى الهدف. وهكذا تقوم هذه التقنية بتجميع بيانات صحيحة للغاية، وبصور تفاصيلها دقيقة جدا، وثلاثية الأبعاد.

ينتج هذا الاستقصاء ملايين النقاط التي يمكن للحاسوب فيما بعد تحويلها إلى شبكة ثلاثية الأبعاد.

من وجهة نظر عالم الآثار، تُعدّ هذه التقنية منخفضة التكلفة للغاية، مقارنة بالمسوحات الميدانية التقليدية. يمكن حَتَّى استخدامها على سطح الأرض لتسجيل البنايات الفردية بتفاصيل دقيقة للغاية. تُعدّ هذه التكنولوجيا الحديثة مثالية للاستكشاف الجوي للمواقع الكبيرة التي تقع في مواقع الغابات، مثل معبد أنغكور وات. يرسل الجهاز الذي يعمل بهذه التقنية إِلى ما يصل إلى 600 ألف نبضة من الضوء في كل ثانية، ما يسمح له باختراق أوراق الاشجار، والنباتات الأخرى، والوصول إلى المواقع الأرضية الموجودة تحته. ويمكنه أن يسجل البيانات عن المنازل، والمعابد، وغيرها من الهياكل الموجودة تحت مظلة الغابات الكثيفة. لم تعد هناك أي اسرار لدى الغابات المطيرة.

قبل العام 2012، قام علماء الآثار كريستوف بوتييه، ورولاند فليتشر، وداميان إيفانز بإجراء سلسلة من مشاريع الرادار الذي

يخترق الارض، وكانت صغيرة النطاق إلى جانب البحوث الميدانية. ولدهشتهم، اتضح أنه في وقت ما لم يكن معبد أنغكور وات محاطًا بغابة كثيفة، لكنه كان بالقرب من وسط مجمع حضري ضخم يغطي مساحة لا تقل عن 1000 كيلومتر مربع، وكان يقدر عدد سكانه بنحو 750 ألف نسمة. وكشف علماء الآثار عن آثار للقنوات، والبرك، والآلاف من حقول الأرز المحاطة بضفاف منخفضة، وتلال منازل، ومئات من المزارات الصغيرة. لكن مع كل المعارف الجديدة المكتسبة، فإن الغطاء الحرجي الكثيف الموجود اليوم، وخاصة حول موقع أنغكور وات نفسه، جعل من إجراء عمليات المسح الراجلة مستحيلة تقريبا.

في العام 2012، ونظرا للإحباط الذي اصابهم بسبب عدم إحراز أي تقدم في ابحاثهم، لجأ هولاء العلماء إلى تقنية اللادار، نظرا لكونها تستطيع (مشاهدة المواقع) من خلال الغابات الكثيفة. عمل العالم إيفانز عن كثب مع المنظمة الكمبودية المسؤولة عن معبد أنغكور. وفي غضون ذلك، قام فريق من الباحثين المتخصصين من أستراليا، وأوروبا، وكمبوديا، والولايات المتحدة بتوحيد جهودهم في العمل باستخدام اجهزة الرادار التي تخترق الأرض سيرا، على الأقدام. وجمعوا النتائج مع عمليات التنقيب التي نفذت بعناية داخل أراضي أنغكور وات نفسها. ظهر إلى الوجود معلم حضري بالكامل من جراء ذلك البحث.

على مدى أكثر من قرن من الزمان، كانت النظرة التقليدية لموقع أنغكور وات تراها مدينة تضم معبدا، وتمثل عاصمة

إمبراطورية الخمير في خلال القرن الثاني عشر. وبدا أن هذا المعلم العظيم كان يسكن فيه عدد كبير من السكان الحضر، وخاصة النخبة من العاملين في بلاط الحاكم. كان يُعتقد أن القرى المعزولة هي جزء من مناطق زراعية نائية كثيفة الغابات. وقد أتاحت (إزالة) الغطاء الحرجي الافتراضية للباحثين، رسْمَ خريطة منطقة أنغكور وات، ومحيطها بالإضافة إلى مساحات كبيرة من المنطقة الحضرية الموجودة حول المعبد.

وكانت النتائج الجديدة استثنائية. كان مجمع المعبد أكبر بكثير ويحوي تفاصيلا اكثر مما تخيله أي عالم آثار. كان قد انشئت شبكة طرق متطورة في موقع أنغكور وات قبل نصف قرن من بناء موقع أنغكور ثوم المجاور، وقد امتدت إلى أبعد من المزارات العظيمة لتشمل جميع معابد أنكور النائية. كانت شبكة من الطرق والقنوات تمر عبر المناطق المترامية الأطراف (الضواحي) لمنطقة أنغكور الكبرى. حَيْثُ المكان الذي كان يعيش فيه معظم السكان.

على مدى عدة أجيال، افترض علماء الآثار أن المدن القديمة كانت كيانات مدمجة ذوات كثافة سكانية عالية مثل مدينة أور السومرية، أو أثينا. لكن دراسات العالم غوردن ويلي الأولية عن المعالم الطبيعية لحضارة المايا، وما تم العثور عليه حاليا في موقع أنغكور، كشفت عن وجود مدن متفرقة، غير محمية بأسوار في المناطق الاستوائية. إن كلمة (مدينة)، التي ترتبط تقليديا بالأماكن المسورة القديمة، لها معانٍ أكثر بكثير من معناها الذي نعرفه.

اعتاد أولئك الذين عملوا في أنغكور وات على الاعتقاد بأن النخبة كانت تعيش هناك، في ظل المكان المقدس. لكن المسوحات التي أجريت بتقنية اللادار كانت تناقض هذا الافتراض. كان المعبد العظيم جزءًا من مشهد معقد، متشابك، غير مرئي إلى أن ظهرت أجهزة المسح الضوئي بالليزر. وفي حين كان العالمان إيفانز، وفليتشر يقومان بتفحص البيانات، استخدم فريق البحث العامل على الأرض رادارهم، وعمليات التنقيب الدقيقة لمحاولة تحديد عدد الأشخاص الذين عاشوا بالقرب من المعبد، ومن كانوا. وانصب اهتمامهم على معرفة أن هؤلاء الناس عاشوا في مساكن متواضعة، بنيت في معظمها من المواد التي تهرأت بسرعة. يشير الباحثون، الآن، إلى أنه ربما لم تكن النخبة الثرية هي من سكنت بالقرب من المعبد، لكن كان يسكنها موظفو المعبد من الكهنة، والراقصين، والمسؤولين.

مرة أخرى، قدمت تقنية الاستشعار عن بعد نظرة شاملة. وحدد الرادار الأرضي، إلى جانب تقنية اللادار، وجمع عينات التربة، والمسح الأرضي، وعمليات التنقيب الانتقائية، شبكة تضم حوالي 300 بركة مياه منزلية صغيرة تخترق الجدران المحيطة. كان هذا العدد أكبر بكثير من العدد القليل المعروف سابقا. وباستخدام البرك المكتشفة حديثًا، والوصف الذي كتبه شخص صيني زار المنطقة عامي 1295 – 1296، قدر العلماء أن حوالي أربعة آلاف شخص قد عاشوا في المنطقة الرئيسية في أنغكور وات.

كم من الناس قاموا بتشغيل المعبد؟ استخدم الفريق كتابات نقشها الخمير لحساب أن عدد الموظفين بلغ حوالي 25 ألف فرد. لكن معظمهم عاش خارج المنطقة الرئيسية، وربما في مكان قريب جدًا من المعبد. وسجلت نفس الكتابات أن هناك خمسة أضعاف هذا العدد يمثل الأشخاص الذين كانوا يعملون في توصيل الغذاء، والمنتجات الأخرى. يجب أن يكون جميعهم، تقريبًا، قد عاشوا في الضواحي.

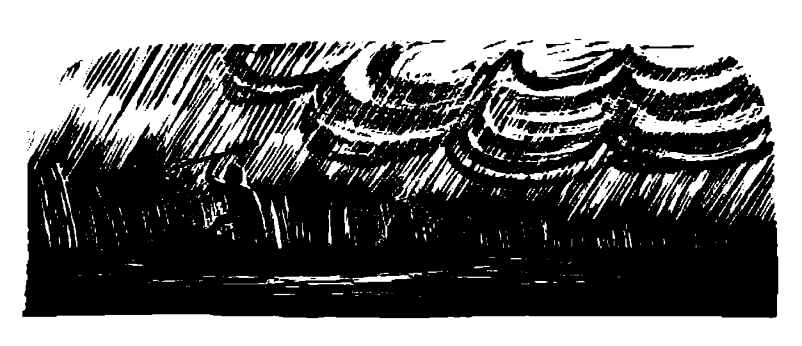
وتوفر لنا تقنية الاستشعار عن بعد فكرة غير متوقعة تمامًا عن حجم الخدمات اللوجستية في أنغكور وات. ومرة أخرى وبفضل تقنية اللادار، والجهود المبكرة لتقنية الاستشعار عن بعد، بتنا نعلم أن المعابد الرئيسية توجد وسط شبكة ضخمة من القنوات، والبرك، والخزانات. ونعرف عن هذه المياه المدارة، المخزنة، المشتتة من ثلاثة أنهار صغيرة تمر عبر المدينة إلى بحيرة تونلي ساب. يبلغ طول أحد الخزانات وحده، المعروف باسم (غرب باراي) 8 كيلومترات، ويبلغ عرضه 2 كيلومترْين.

وأصبحت تقنية اللادار أرخص، إِذ يقوم العاملون الميدانيون بتجربة الطائرات المسيرة التي تمكننا، الآن، من أن ننظر إلى المناظر الطبيعية التي تحيط بالمدن القديمة بطرق لم يكن من الممكن تصورها، مُنْذُ جيل مضى. وسواء أكانت هذه المدن مندمجة، أم متفرقة، فإنها تعتمد على المجتمعات المحيطة، والمناطق الزراعية. قام العلماء داميان إيفانز، ورولاند فليتشر، وزملاؤهم بتغيير كامل تصوراتنا عن حضارة الخمير.

يتم استخدام تقنية اللادار في أماكن أخرى أيضًا، وقد كشفت عن أنماط الاستيطان المتفرقة لمراكز حضارة المايا القديمة، مثل الميرادور في غواتيمالا. وقد استُخدمت لتحديد موقع مزرعة تعود إلى الحقبة الاستعمارية بالقرب من منطقة أنابوليس في ولاية ماريلاند في الولايات المتحدة. وفي غضون جيل آخر، سيمكن ربط الرمز التقليدي للعلماء الآثاريين، وهو المجرفة، بأجهزة استشعار عن بعد مختلفة، تعمل من المناطيد، والطائرات المسيّرة، والأقمار الصناعية.



الفصل الأربعون



علم الآثار بين اليوم والغد

تخيّلْ منظرا طبيعيا يحوي مستنقعات، وبعض التلال المنخفضة ذوات التنوءات، التي تعبرها الجداول، والأنهار. تخيّل، الآن، أنك تعيش قبل 9000 سنة، وهناك زورق خشبي كبير يشق طريقه عبر قناة ضيقة وسط عيدان نبات البردي الطويلة، وتهب رياح قوية تحمل رذاذا خفيفا، لكن الماء الاسود يظل راكدا. كانت المرأة تجدف بهدوء، بينما يقف زوجها أمامها، ورمحه ذو الاشواك على أهبة الانطلاق. بعد طعنة واحدة سريعة اصابت سمكة كانت تنازع، واحدثت حفرة في سطح الزورق. هاجت الطيور المندهشة. وفي غضون ثوانٍ، انحنى الصياد على طريدته في الزورق، حَيْثُ قتلتها زوجته بسرعة بواسطة هراوة خشبية. تهدأ المياه، مرة أخرى، ويستمر الصيد.

قد تكون القصة خيالية، لكن المكان الذي حدثت فيه ليس خياليّا: فهو مبني على الأدلة الأثرية، والمناخية التي تم جمعها من قاع بحر الشمال. واليوم، يفصل شريط من المياه الباردة ذات الامواج العاصفة، غالبًا، بريطانيا عن أوروبا القارية. لكن مُنْذُ 9000 عام، عندما كانت مستويات البحار العالمية أقل بكثير من مستوياتها اليوم، كانت المناطق، هذه، أرضا جافة.

والمنطقة التي يعرفها الجيولوجيين اليوم باسم دوغرلاند، كانت ترتفع بضعة أمتار فقط عن مستوى سطح البحر، وكان العالم، في اغلب، أجزائه مغمورا بالمياه، وقضى سكانه الكثير من وقتهم في الطواف في المياه. نحن نعرف تفاصيل هذا المشهد الطبيعي من خلال تقنية الاستشعار عن بعد. لكننا نعرف القليل عن ساكنيها من البشر، باستثناء ما يمكننا أن نكتشفه عن طريق المصادفة، مثل رماح صيد الحيتان المصنوعة من العظام المنتشلة من قاع البحر الضحل. نحن نعرف أن هؤلاء الناس كانوا يصطادون الحيوانات، والاسماك، لأن الزراعة كانت ما زالت مجهولة. نعرف أيضًا، أنهم عاشوا في بيئة دائمة التغير، لذا من المستحيل أن يؤدي ارتفاع مستوى سطح البحر بضعة سنتيمترات فقط إلى أن تغمر المياه مراسي زوارقهم، أو مواقع مخيماتهم في خلال فترة زمنية تستمر جيلا واحدا، أو حَتَّى أقل من ذلك.

اختفت دوغرلاند، في النهاية، حوالي سنة 5500ق.م. في خلال فترة الاحترار العالمي الرئيسي التي حدثت بعد العصر الجليدي. بفضل علم الآثار، بتنا نعرف أكثر، وأكثر عن كيفية

تكيّف الناس للتغيرات في المناخ (كبيرها وصغيرها)، سواء أكانت مجموعات الصيد الصغيرة في دوغرلاند، ام الحضارات الرائعة التي واجهت خطر الانهيار في أثناء الجفاف الكبير. نحن نعيش في زمن الاحترار العالمي، والتغير المناخي الناجم عن النشاط البشري، (وقد حدث الكثير منه مُنْذُ الستينيات من القرن التاسع عشر). نحن، علماء الآثار، نوفر رؤية تاريخية طويلة الأمد لتغير المناخ، وهذا يوفر خلفية فريدة للقلق الذي ينتاب العالم اليوم.

سواء أحببنا ذلك، أم لا، علينا أن نتكيف مع (أحداث الطقس المتطرفة) الأكثر تكرارا، مثل الأعاصير، أو موجات الجفاف. نحن نحب سكان دوغرلاند الذين اختفوا مُنْذُ زمن طويل، لكن على نطاق عالمي. لقد انتقلت مجموعات صغيرة من سكان دوغرلاند إِلى المناطق التي من حولها في مواجهة ارتفاع منسوب مياه البحر. لكن سكان المدن الكبرى، اليوم، لا يمكنهم أن يفعلوا الشيء نفسه.

قبل ظهور الحضارة التي يبلغ عدد سكان مدنها مليون شخص، كانت الحضارات الأولى عرضة لتغير المناخ. انهارت الحضارة المصرية القديمة، تقريبا، بسبب فشلها في الاستفادة من فيضانات النيل، ما ادى إِلى حدوث موجة من الجفاف في سنة 2100 قبل الميلاد. لحسن الحظ، كان الفراعنة فطنين، بما فيه الكفاية، للاستثمار في قنوات الري الزراعية الواسعة، ومرافق تخزين الحبوب. واستمرت حضارتهم ألفي سنة أخرى.

وفي الوقت نفسه، انحدرت مدن المايا العظيمة إلى الفوضى الاجتماعية، ويرجع ذلك جزئيا إلى موجات الجفاف الشديد التي ضربتها. نحن نعرف من علم الآثار أن التعرض للتغيرات المناخية ليس بالامر الجديد. في هذا المجال والعديد من المجالات الأخرى، يخبرنا علم الآثار القدر الكبير عن أنفسنا، وكيف نواجه تحديات اليوم، والعديد منها ليس جديدا أيضًا.

كان موضوع علم الآثار، دائما، هو الناس. لكن ما تغير ليس الافراد، بل مستويات الأدلة التي نستخدمها لدراستهم. لقد بدأنا فقط كحفّارين، منْ أَجل الحصول على اكتشافات مذهلة، و(في بعض الأحيان) منْ أَجل الحصول على المعرفة. وفضلنا، في معظم الأحيان، البحث في الحضارات. اليوم، نحن مهتمون بكل شيء، من الأصول البشرية، مرورا بالثورة الصناعية، وصولا إلى خنادق الحرب العالمية الأولى. بالطبع، ما زلنا ننقب في التماثيل، والمباني، أو افواج جنود الإمبراطور المصنوعة من الفخار. لكننا نجلس مرتاحين في المختبر لدراسة اجزاء أواني الفخار الصغيرة، أو عظام الحيوانات، أو مناقشة المعتقدات الدينية لحكام حضارة المايا. ويشهد علم الآثار تحولات عديدة بفضل الوسائل التكنولوجية الجديدة، مثل تقنية اللادار، التي يمكن أن تكشف عن أراضٍ، ومواقع كاملة في أعماق الغابات الاستوائية (انظر الفصل 39). لقد أصبحنا متخصصين، إلى درجة أن هناك نزعة في بعض الأحيان إلى نسيان الناس.

ومن النادر، الآن، أن نجري اكتشافا (مذهلًا) حقا، مثل قبر مزخرف بشكل كبير. وبشكل مأساوي، تتلاشى أرشيفات علم الآثار الثمينة أمام أعيننا. وتتعرض المواقع الأثرية في كل مكان، للتهديد بسبب أعمال الحراثة في اعماق التربة، ومشاريع التنمية الصناعية، واللصوص.

ومن دون إدراك هذا كله، فإن آلاف السياح المفتونين بالمواقع الأثرية، وبقايا المجتمعات القديمة، سيتسببون بتآكل أحجار الأهرام القديمة في معابد أنغكور وات في كمبوديا. وفي الوقت نفسه، دأبت منظمة داعش الإرهابية (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق وسوريا)، ومجرمون آخرون، على تدمير مقصود لأثار مدينتي تدمر، ونينوى الضاربة في القدم بواسطة المتفجرات، وقاموا ببيع القطع الأثرية المنهوبة من المتاحف المدمرة.

ولحسن الحظ، هناك أبطال أيضًا، ومجتمعات يدرك أفرادُها قيمة تاريخها، وانهم ذوو الشأن في ماضي بلادهم. وقد وحّد علماء الآثار في عدة بلدان جهودهم مع غير المتخصصين الذين يستخدمون أجهزة الكشف المعدنية. وقد أدى هذا إلى اكتشافات مثيرة للإعجاب، بما في ذلك مجموعات من اللقى الاثرية المصنوعة من الذهب، التي تعود إِلى الاقوام الأنغلوسكسونية، والفاكينغ.

وساعدت العديد من الشركات التجارية، أيضًا، في إنقاذ المواقع التي تهددها خططها الإنمائية. فقد تبنى مشروع كروس ريل، الذي يبني خط سكة حديد تحت الأرض في أنحاء لندن، فكرة ان يرافق علماءُ الآثار المقاولين العاملين في شق الأنفاق مُنْذُ

البداية. وقد استعادوا أكثر من عشرة آلاف من القطع الأثرية من أكثر من أربعين موقعًا تمتد على خط يبلغ طوله 100 كيلومتر. تضمنت تلك الاكتشافات الرائعة 3000 هيكل عظمي، أو نحو ذلك، من الهياكل البشرية تم انتشالها من أسفل محطة شارع ليفربول، وهي محطة رئيسية في لندن. ومن بينها، جاء اثنان وأربعون من مكان دفن واحد استخدم في خلال وباء الطاعون العظيم لعام 1665، الذي عرف (بالموت الأسود). فقد هلك مائة ألف من سكان لندن في الطاعون الذي اجتاح أوروبا من الشرق. مات الضحايا في غضون أيام، وأحيانا في غضون ساعات. واصيبوا بالطفح الجلدي الأسود، وغالبا ما كانوا يهلكون في الشوارع. في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعرف ما هو المرض القاتل، أو من أين أتى.

وكانت الطبيعة الدقيقة للمرض غير مؤكدة إلى حد ما حَتَّى أخذ باحثو عينات مشروع كريس رول عينات من الحمض النووي من مينا الأسنان لضحايا شارع ليفربول. وقد اسفرت هذه العينات عن الحصول على نوع من البكتيريا المرتبطة بالطاعون الدبلي، التي تنتشر عن طريق الفئران. كشفت عينات الحمض النووي، مرة واحدة، وإلى الأبد، ماهية المرض الذي كان قد قتل الكثير من سكان لندن.

كشف مشروع كريس رول عن قرون من تاريخ لندن المتلاشي. وفي أماكن أخرى، تم الكشف عن المواقع الاثرية الأخرى من خلال الانشطة الصناعية، ثُمَّ تم التنقيب عنها بدعم

من الشركة التي اكتشفتها، وهو ما كشف لنا عن لحظات مثيرة في الماضي. على سبيل المثال، قبل 3000 عام، اندلع حريق في قرية صغيرة كانت تقع في مستنقع يقع في مستوطنة فارم موست التي تقع بالقرب من مدينة بيتربرة، في منطقة فينلاند المنخفضة في إنكلترا الشرقية. امتدت النيران من خلال المستوطنة الصغيرة التي تحيطها الاسوار، وبنيت على ركائز فوق المستنقع. هرب القرويون من الحريق، تاركين وراءهم كل شيء. في غضون دقائق، انزلقت خمسة أكواخ في الماء.

هذا هو الوقت الذي تكون فيه الآثار في أفضل حالاتها: كارثة طواها النسيان مُنْذُ فترة طويلة، تجمدت، في لحظة من الزمن؛ لكن هناك ظروف حفظ شبه مثالية في الأرض المغمورة بالماء، والمساكن المنهارة، حَيْثُ يقع كل شيء دون أن يصاب بأذى. وبفضل التعاون مع مالك مقلع للطوب، امكن تجميع خيوط القصة المأساوية، المذهلة.

كان الموقع مشبعا بالمياه للغاية لدرجة أن علماء الآثار تمكنوا من تفحص الطين الرطب، والطمي الناعم في الأكواخ التي تم الحفاظ عليها تماما، بحَيْثُ بدا الامر، كما لو كان الباحثون ببساطة يسيرون فيها. كانت أجزاء من جدران الاسوار ما تزال موجودة تحت آثار الأسطح المنهارة. وكانت ممتلكات الناس مرمية على الأرض، وبجانب المواقد، حَتَّى إنّ بقايا الطعام كانت لا تزال موجودة في الأواني الفخارية. كانت هناك آثار من ذبائح لحم الضأن التي كانت معلقة في وقت ما، على العوارض الخشبية.

كان أصحاب الكوخ يملكون مجموعة رائعة من الفؤوس، والسيوف البرونزية، بالإضافة إلى الرماح ذوات الرؤوس البرونزية (تم العثور على اثنين منها سلميْن بوجود أعمدتهما الخشبية - وهو اكتشاف نادر). حافظ الطين بشكل مثالي على المنسوجات التي صنعت من لحاء أشجار الليمون، بعض الألياف كانت أنعم من شعر الإنسان. كان افراد هذا المجتمع يقضون معظم وقتهم في الطواف في المياه: حَيْثُ تم العثور على ما لا يقل عن ثمانية زوارق خشبية في مكان قريب. كانت مستوطنة موست فارم بمثابة بومبي البريطانية، وقد أظهرت بعض الاكتشافات المثيرة في السنوات الأخيرة كوارث طبيعية طواها النسيان. فقد تم دفن سيرين، وهي قرية من قرى حضارة المايا في السلفادور، في أمريكا الوسطى، بسبب ثوران بركاني حدث في حوالي العام 580. وكان الناس قد تناولوا وجبة العشاء، لكنهم لم يكونوا قد ذهبوا إلى فراش النوم بعد. تخلوا عن منازلهم، وممتلكاتهم للنجاة بحياتهم. يعمل عالم الآثار الأمريكي بايسون شيتس وفريقه هناك مُنْذُ العام 1976. وقد اكتشفوا منزلين، وبعض المباني العامة وثلاثة مخازن. وكانت الاشياء المكتشفة بحالة جيدة جدا، بحَيْثُ إنّه تم استعادة الأواني المملوءة بالفاصوليا، وحصران النوم، وأدوات الحدائق، أما عن طريق التكربن، أو الحفاظ عليها كما وجدت في الرماد. دفن البركان الحقول الزراعية التي كانت تحوي نباتات الذرة النامية، الناضجة، والعديد من أشجار الفاكهة، ومنها الجوافة.

وكما هو حال مدينتي هركولانيوم، وبومبي الرومانيتين القديمتين فان قرية سيرين، ومستوطنة موست فارم هي الأماكن التي نقترب فيها، بشكل شخصي، مع الناس الذين عاشوا في الماضي. وعندما يقال، ويتم فعل كل شيء، يكون، هذا، هو جوهر علم الآثار.

موضوع علم الآثار هو الاكتشافات، لكن الاكتشافات في وقتنا الحاضر، تعني شيئا مختلفا تماما عما كانت عليه حَتَّى قبل نصف قرن. لقد تتبعنا تاريخ علم الآثار مُنْذُ أيامه الأولى، مع علماء الآثار، امثال جون أوبري، ووليام ستوكيلي، وجون فرير. ثُمَّ جاء المنقبون الأوائل، الذين استخرجوا مجموعة من القطع الأثرية من تلال الدفن الأوروبية. وقدمت لنا مدينتا بومبي، وهركولانيوم مكتشفات مثيرة. جعل علماء الجنرال نابليون بونابرت من مصر القديمة مكانا عصريا في العام 1800. واستطاع جان فرانسوا شامبليون من فك رموز الكتابة الهيروغليفية في العام 1822، وأسس علم المصريات.

ثُمَّ جاء المغامرون، مثل بول إميل بوتا، وأوستن هنري لايارد، وفريدريك كاثروود، وجون لويد ستيفنس، وهاينريش شليمان. كانت تلك أياماً بطولية لعلم الآثار، عندما كشف علماء الآثار عن الحضارات القديمة غير المعروفة. في الوقت ذاته ادخل العالمان جين جاكوب وورساي، وكريستيان يورجنسن تومسن بعض النظام إلى عصور ما قبل التاريخ بابتكارهما نظام العصور الثلاثة في خلال أوائل القرن التاسع عشر.

بدأ عصر المغامرة، وتجميع القطع الاثرية يتلاشى في سبعينيات القرن التاسع عشر مع بدء أعمال التنقيب التي قام بها العلماء الألمان في موقعي أولمبيا، وبابل.

توقف علم الآثار، بشكل تدريجي، عن أن يكون عملا من أعمال الهواة. في العام 1900، كان معظم علماء الآثار من الرجال. لكن هناك عددًا صغيرًا من النساء يعملن في هذا المجال، كانت من بينهن غيرترود بيل، وهارييت هاوز. كان أوائل أعوام القرن العشرين أوقات تزايد الاحتراف في علم الاثار، والاكتشافات المذهلة حقا. وكان من بين تلك الاكتشافات العثور على مقبرة توت عنخ آمون التي لم يكن قد وصل إليها أحد حَتَّى ذلك الحين، وتم افتتاحها في العام 1922. كانت أعمال التنقيب التي قام بها ليونارد وولي في مدينة أور في العراق واحدة من آخر أعمال الحفر الكلاسيكية الهائلة؛ وكانت عملية عثوره على المقابر الملكية في المدينة قد ضاهت، في اهميتها، أعمال الحفر في مقبرة توت عنخ آمون. وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين، كان علماء الآثار المحترفون يدرسون في الكليات والجامعات. وتدريجيا، لكن بخطى ثابتة، أصبح علم الآثار عالميًا، وليس محصورًا في أوروبا والشرق الأوسط فحسب. وقد فتحت أعمال التنقيب التي قامت بها غيرترود كاتون ثومبسون في زيمبابوي العظمى أعين العالم على البحث في تاريخ أولى الدول الأفريقية. أما أعمال التنقيب في موقع بيكوس بوبيلو فقد جعلت علم الآثار الخاص

بجنوب غرب الولايات المتحدة (الخاص بأمريكا الشمالية بشكل عام) يقف على أساس علمي.

لقد تتبعنا التطور البطيء لعصور ما قبل التاريخ في العالم، والمناقشات حول ظهور الزراعة للمرة الأولى، ورافقنا عالمي الاثار الزوجيْن ليكي، وهما يبحثان عن ظهور أول إنسان في شرق إفريقيا. أصبح علم الآثار مهمة دولية، تتعامل المشاريع طويلة الأجل، والمتأنية، مع قضايا مثل الاستدامة (التي تعني حفظ العالم الطبيعي، والاستخدام المسؤول للموارد الطبيعية) بدلاً من مجرد العثور على المواقع الاثرية، وتحديد عمرها.

لم تعد أعمال الحفر، والتنقيب، بحد ذاتها، أمرا شائعا، مع ظهور تقنية الاستشعار عن بُعد، وقيامها، تدريجيا، بتحقيق حلم عالم الآثار بالقدرة على النظر تحت الأرض من دون القيام بعمليات حفر. ما يزال علم الآثار مثيرا، لقد اصبح، الآن، علما تقنيا للغاية، وهذا ما سمح لنا بفك شفرة التاريخ الطبي للفراعنة، ومكننا، من خلال تفحص مادة المينا في الأسنان الموجودة في الهياكل العظمية، من معرفة أين ولد الناس، وعاشوا. يساعد علم الآثار على توضيح لماذا نحن متشابهون، ولماذا، نحن، مختلفون. يشرح الطرق التي نتكيف بها. ومن خلال النظر إلى الوراء نحو الماضي، يساعدنا علم الآثار على المضي قدما نحو المستقبل. وفي كل عام، تسهّل الاكتشافات الجديدة، والتطورات التقنية، علينا نوعا ما، النظرَ إلى طريقة حياة الناس القدماء، وما كانوا يعاونونه، وفي بعض الأحيان، تمكننا من التحدث معهم.

أتذكر وقوفي على أسوار تلة يبلغ عمرها ألفي عام في إنكلترا في يوم غائم. أغلقت عيني، وتصورت المعركة التي جرت تحت تلك التلة في العام 43 بعد الميلاد بين الفيلق الروماني، والسكان المحليين، كنت اسمع صيحات المهاجمين، واصوات ارتطام السيوف بالدروع، وصراخ الجرحى، للحظة، كنت متفرجًا. ثُمَّ تلاشت الرؤية، وبدأتُ ارتجف وسط البرد الكئيب.

آثار الماضي حاضرة من حولنا، ويمكن ان يراها الجميع، ويستمتعوا بها، وليس علماء الآثار فحسب. لذلك عندما تزور موقعا أثريا في المرة القادمة، اسمحْ لخيالك بالانطلاق.







برَايَن فَيغِن

الأستاذ الفخري لعلم الإنسان في جامعة كاليفورنيا في سانتا باربارا. وهو معروف عالميًّا كمتخصص في علوم ما قبل التاريخ، ومؤلف لعشرات الكتب المتخصصة بالآثاريات، ومنها صيد الأسماك وأثر البحر في تغذية الحضارة الإنسانية.

يعيش حاليًّا في مدينة سانتا باربارا في ولاية كاليفورنيا.















بسهولة ويسر وجاذبية، يمكنك الآن الدخول إلى علم الآثار ومعرفته، إذ إن برَايَن فَيغِن يعتبر من بين أفضل الكتّاب الذين يستطيعون التواصل بوضوح وفاعلية مع عامة الناس. إنه كتاب متقن بلا جدال.

جيرمي أي. سابلوف. مؤلف كتاب: مسائل في علم الآثار

مقدمة ممتازة لعلم الآثار وتاريخه الغني بالإثارة. يعتبر فَيغِن من المنقبين الآثاريين المشهورين وصاحب العديد من المؤلفات الأكثر مبيعًا في هذا المجال. أما هذا الكتاب فلا يمكن أن يقرأ ككتاب أكاديمي منهجي، وإنما كقصة مشوقة لا يمكن أن تترك حتى تنتهي كاملة.

فرانسيس برايور. مؤلف كتاب: بريطانيا قبل الميلاد: الحياة في بريطانيا وإيرلندا قبل الرومان

رحلة تاريخية جذابة وموثوقة في علم الآثار، يذكرنا فيها فَيغِن أن الماضي موجود بيننا لتجربته والاستمتاع به. ولا يمكن أن يكون ثمة تشجيع على ذلك أكثر مما موجود في صفحات هذا الكتاب.

كرِس سكار. سكاربورو. مؤلف كتاب: تاريخ البشرية

برَايَن فَيغِن، من رواة القصص البارعين، فهو يصور لنا بإتقان ملامح علم الآثار برغم قدم شخوصه الذين حددوا مساره من قرنين من الزمان مضت. يا له من عمل مدهش.

ڤيرنون إل. سكاربورو. جامعة سِنسِنّاتي

قراءة رائعة وجذابة من أستاذ متمكن. إذ يتحدث بحماس كبير مستلهماً مسيرته في رحلات الاستكشاف والتنقيب والبحث حول حقيقة ما يجعلنا أن نكون بشراً.

ميشيل وود. مؤلف كتاب: بحثاً عن حروب طروادة







